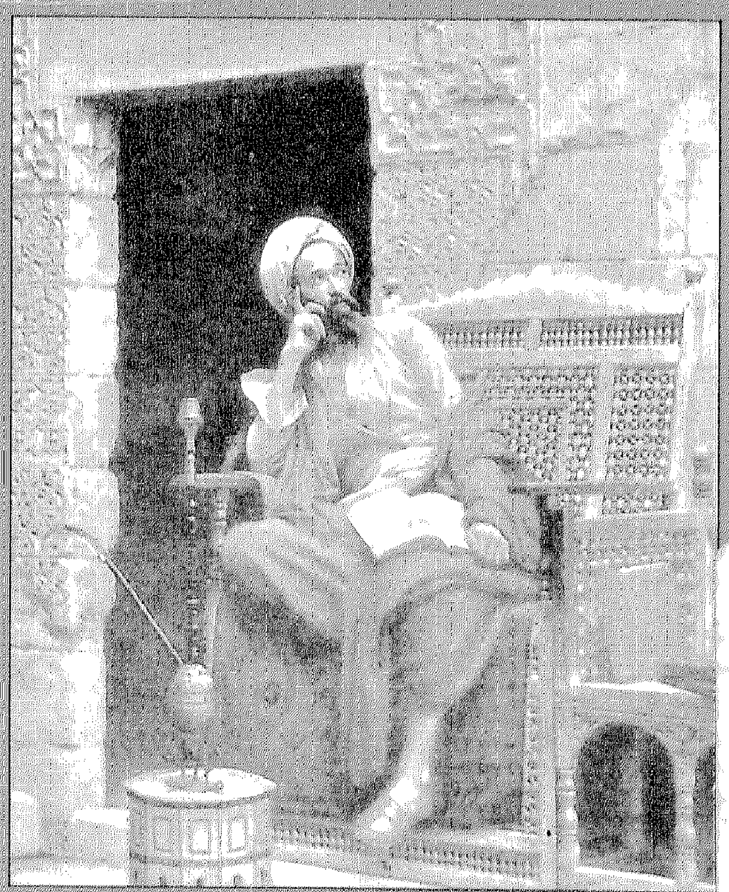
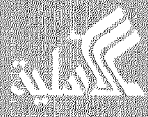
سيّار الجميل

بقايا وجذور

التكوين العربي الحديث









بقايا وجذور

التكوين العربي الحديث



سيّار الجميل

بقايا وجذور

التكوين العربي الحديث





الأهليـــة للنشــــر والتــوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمـان / وسط البلد
خلف مطعم القدس ؛ ص . ب ٧٧٧٢
هـاتف ٦٣٨٦٨٨ - فاكـس ٦٥٧٤٤٥

منشورات الأهلية لعـام ١٩٩٧
سـيّار الجميل / بقايـا وجـذور
الطبعة العربية الأولى

تصميم الغـلاف [illegible] ®
التنضيـد : مؤسسة ياقوت للخدمات المطبعية

الإهــــــداء

الى ابنتي العزيـزة : داليـا

اهدي هذا العمل

سـيار



« البنى التاريخية مرئية ويمكن قياسها »

فرناند بروديل

المحتـــويات

الاهــــــداء

المحتـــويات ٩

قائمة بالمختصرات والرموز والمصطلحات ١٦

المقــــــدمة ١٧

مدخل في فلسفة تكوين العرب الحديث ٢١

الفصل الأول : العرب المعاصرون والدولة العثمانية

التهويم / الايديولوجيا / المعرفة

(رؤية نقـدية ـ ابسـتـمـولوجـيـة في الاشكاليات الفكرية والتـاريخـيـة والسياسية العربية المعاصرة) ٢٩

ـ تقديم ٣١

١ ـ البنية التاريخية للاجيال العربية المعاصرة ٣٢

٢ ـ تنوع الانطلاقات والمرجعيات ٣٤

١) التهويمات الدينية : ٣٥

١/ الخطابات .. التيارات ٣٥

٢/ تحليل للنماذج التاريخية وتفكيك لاشكاليات التفكير ٣٦

٢) الايديولوجيات السياسية : ٤١

١/ المواقف .. السياقات. ٤١

٢/ زحمة التناقضات وتفجر الصراعات : ٤٢

٣/ التجزئة والانقسامات : ٤٤

٤/ تحليل للتناقضات : ٤٥

٥/ المحدّدات والتوصيفات : ٤٧

٣) المعرفة التاريخية : ٤٨

١/ نقد للتفكير .. المنهج .. والممارسات ٤٨

٢/ دعوة للاهتمام بالعثمانيات : ٤٩

٣/ العناصر والتكوينات : ٥٠

٤/ التطورات في بعض المؤسسات : ٥١

٥/ اليوم : نحن بحاجة الى اساليب عمل ومناهج وفلسفات : ٥٣

٣ ـ المستقبل : التاريخ + الواقع + الذات : ٥٥

الفصل الثاني : العثمانيون : التكوينات الداخلية

مقدمة :	٥٧
١/ الأنتماء والسلالة :	٥٩
٢/ العثمانيون: الولادة وعصر النشوء : القرن الرابع عشر	٥٩
٣/ عصر الارتقاء وسقوط القسطنطينية في القرن الخامس عشر.	٦٠
٤/ الانقسامات والنكسة التاريخية :	٦٣
٥/ نظام الحكم العثماني :	٦٦
أ ـ نمو المؤسسات والتشكيلات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر:	٦٧
ب ـ المؤسسة العسكرية : الجيش العثماني	٦٧
جـ ـ تطور نظام الحكم : القوانين وتشكيلات الهيكل العام للدولة العثمانية	٦٩
٦/ العثمانيون : تنوع الملّة والتاثيرات العربية	٧١
٧/ البيروقراطية العثمانية من خلال طبقة العلماء والأدباء (دور الكتّاب: النيشانجية)	٧٢
أ . الأسس التاريخية	٧٤
ب . النيشانجية العثمانيون	٧٤
جـ . التمفصل والجــذور	٧٥
د . البيكلربيكيات العثمانية	٧٦
هـ . التباينات العثمانية للولايات (= الاقاليم العربية)	٧٨
٨/ القوى المحلية – الفاعلة في مجتمعات المدن العربية ابان العهد العثماني.	٨٠
٨/١ مفهوم القوى الاجتماعية الفاعلة	٨١
٨/٢ القوى المحلية الفاعلة في المدن العربية ابان العهد العثماني	٨١
٨/٣ التراكيب الاجتماعية	٨٢
٨/٤ التعايش الاجتماعي: الديني والطائفي	٨٢
٨/٥ التشكيلات الصوفية وطرائقها	٨٣
٨/٦ النظام الاجتماعي للقوى الفاعلة: (الوظائف والواجبات والحقوق)	٨٤
٨/٧ الاخلاقيات الاجتماعية في تعامل القوى الفاعلة	٨٥
٨/٨ نظام الاحتساب والتعامل	٨٦
٨/٩ مكانة القوى الفاعلة	٨٧
٨/١٠ خصوصيات المنتجين والحرفيين	٨٨
٨/١١ جغرافيات القوى الفاعلة	٨٩
٨/١٢ انهيار القوى الفاعلة: عوامله ونتائجه	٩٠
الاحالات والملاحظات	٩١
	٩٣

الفصل الثالث : العثمانيون: التوسعات في الاراضي العربية

مقدمـــة :	١٠١
١/ نشوء الصفويين وقيام دولتهم	١٠٣
٢/ الامتدادات الصفوية وموقف العثمانيين :	١٠٣
٣/ عوامل الصراع العثماني - الصفوي :	١٠٤
١ - العامل السلطوي.	١٠٥
٢ - العامل الطائفي.	١٠٥
٣ - العامل السياسي.	١٠٦
٤ - العامل الاقتصادي.	١٠٦
٤/ معركة جالديران عام ١٥١٤م ونتائجها	١٠٧
٥/ دخول بلاد الجزيرة الفراتية وشمالي العراق في المجال العثماني سنة ١٥١٦	١٠٨
٦/ معركة قره غين دده الحاسمة في ٤ مايس ١٥١٦م ونتائجها	١٠٩
٧/ تحليل نتائج التحركات العثمانية	١١٠
٨/ خطط سليم الاول وعملياته البرية في بلاد الشام ومصر	١١٣
٩/ الحرب العثمانية – المملوكية وامتداد سليم الاول في سوريا ومصر	١١٥
١٠/ معركة مرج دابق نتائجها	١١٧
١١/ الامتداد العثماني في مصر	١١٨
١٢/ ترسيخ الحكم العثماني نحو مصر	١٢١
١٣/ نتائج الحملة : مسألة الخلافة ومصير المماليك	١٢٣
١٤/ السيطرة العثمانية على العراق والخليج العربي	١٢٤
١٥/ الامتداد العثماني نحو اليمن	١٢٥
١٦/ العثمانيون ومجهودات باربروسا في البحر المتوسط	١٣٠
استنتاجات تاريخية	١٣٣
الاحالات والملاحظات	١٣٥
الفصل الرابع : تحولات النظام التاريخي بين العرب والعثمانيين	١٣٨
١/ مقاربة منهجية :	١٤٣
٢/ طبيعة نظام الحكم العثماني : جذور ومفاهيم	١٤٥
٣/ الاسس التنظيمية : المركزية واللامركزية	١٤٧
٤/ التشكيل العثماني للوطن العربي في القرن السادس عشر	١٤٨
٥/ العثمانيون بين التركيز الاوروبي والميراث العربي - الاسلامي	١٥٠
	١٥١

(تفكيك تنظيمات «قانونامه لر» العثماني: تحليل ركائز نظام الشرق) ١٥١
٦/ العثمانيون والنظرية الجغرافية / الانسانية العربية ١٥٧
٧/ اختلالات النظام العثماني: انحسار المركزية وأسباب التحوّلات
(= جذور الاقلمة العثمانية) ١٦٠
٨/ العثمانيون وبقايا النظام التاريخي/ العربي الوسيط ١٦٢
٩/ التغيرات الجيوتاريخية للبنى الاقليمية: ١٦٧
الاحالات والملاحظات ١٦٩
الفصل الخامس: تفكيك بنية نظام اللامركزية العثمانية للولايات العربية
(تبلور الانماط الاقليمية العربية) ١٧٧
مقـــدمة : ١٧٩
١ ـ النمطية الاسروية: ١٧٩
دمشق والموصل : اقتصاد البازار ١٨٠
نمط الاسروية المغاربية / العثمانية : تونس وطرابلس الغرب ١٨٣
٢ ـ النمطية المملوكية : ١٨٧
بكوات مصر ١٨٧
باشوات العراق ١٩٠
٣ ـ النمطية الاوليغارية : ١٩٢
الاساليب الاوليغارية ١٩٢
دايات الجزائر وزعامات بلاد الشام ١٩٤
٤ ـ النمطية الاثنية (= التحزّبات العرقية) ١٩٨
أ ـ النظام / ١٩٨
ب ـ الانقسام والتنوع / ١٩٩
استنتاجات معرفية : ٢٠٣
١ ـ التمايز التاريخي للتكوين العربي الحديث ٢٠٣
٢ ـ تبلور الاقليمية العربية ٢٠٥
٣ ـ الزعامات العثمانية ورواسب المركّبات السكولاستيكية ٢٠٦
٤ ـ التأخر عن تحوّلات اوروبا الحديثة ٢٠٨
٥ ـ البنية التاريخية العربية وتحولات التاريخ ٢٠٩
٦ ـ نحو تشكيل تاريخ جديد ٢١١
الاحالات والملاحظات ٢١٣

الفصل السادس : اشراف مكة في العهد العثماني ٢٢٥
البيئة الجغرافية ٢٢٧
عراقة «الاشراف» ومكانتهم التاريخية ٢٢٧
اشراف مكة:الطبقات الاسرية (= العتر الشريفة) ٢٢٨
اشراف مكة وتطور العلاقات التاريخية ٢٣٠
العثمانيون واشراف مكة ٢٣٠
السلاطين العثمانيون وارسالهم لـ (الصرة) الى مكة والمدينة ٢٣٢
اشراف مكة في القرن السادس عشر ٢٣٣
الامتدادات العثمانية وترسيخ حكم «الشرافة» اللامركزية: ٢٣٣
اشراف مكة في القرن السابع عشر ٢٣٥
١ / بدايات الانقسام ٢٣٥
٢ / الانقسام التاريخي للبنية الشرافية ٢٣٧
الشريف زيد بن محسن : معاناة من اجل الاستقرار ٢٣٨
اشراف مكة : البنية الاسرية الثلاثية المتنافرة ٢٣٩
عهود المشاكل والتبدلات ٢٤٠
اشراف مكة في القرن الثامن عشر ٢٤٣
قدرة الامراء الجدد في ترصين الحياة السياسية وازدهار الاقتصاديات ٢٤٣
١/ الشريف يحيى بن بركات بن محمد ٢٤٣
٢/ الشريف مساعد بن سعيد ودور ولديه : سرور وغالب : القوة والازدهار ٢٤٥
٣/ الشريفان : سرور وغالب وتطور حكم الشرافة ٢٤٦
نظام الحكم والتقاليد الشريفية العامة ٢٤٨
اشراف مكة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ٢٥١
التحديات الخارجية والتحولات الجديدة ٢٥١
١/ العلاقات مع الوهابيين ٢٥١
٢/ اشراف مكة ومحمد علي باشا ٢٥٢
٣/ الشريف محمد عون : عودة العبادلة ٢٥٣
٤/ الشريف الحسين بن علي : الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ ٢٥٥
استنتاجات تاريخية ٢٥٩
الاحالات والملاحظات ٢٦١

الفصل السابع: العراق والتكوين الاقليمي للخليج العربي خلال العهد العثماني (التوازن .. السيادة .. الشرعية) ٢٦٩
١ ـ مقاربات موضوعية: الشرعية التاريخية والتمايز بين «الدواخل» و «الاطراف» ٢٧١
٢ ـ العراق وامتداد السيطرة العثمانية : التحولات التاريخية في القرن السادس عشر ٢٧٣
٣ ـ اقليما البصرة والاحساء ٢٧٦
١/٣ التحديد الجغرافي : الامتداد بين البر والنهر والبحر ٢٧٦
٢/٣ تنظيمات البصرة من خلال تطبيقات «قانونامه لر» ٢٧٧
٣/٣ العلاقات الاقتصادية والانثربولوجية والادارية بين الاقليمين خلال القرن السابع عشر ٢٧٨
٤ ـ تبلور البنية الخليجية / العربية خلال القرن الثامن عشر ٢٨١
١/٤ النزعة القبلية والنزعة الحضرية: ٢٨١
ارتباطات الاطراف بالدواخل العربية ٢٨١
٢/٤ العتوب : ماهيتهم التاريخية ٢٨٢
٣/٤ البصرة : رواسب السيادة الاقليمية وتركيز الاقتصاديات ٢٨٣
٤/٤ ماذا نستنتج ؟ ٢٨٦
٥ ـ التكوين التاريخي الخليجي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ٢٨٧
١/٥ الشياخات القبلية الخليجية والنمطيّات الاقليمية (= العربية + العثمانية). ٢٨٧
٢/٥ داود باشا ومدحت باشا : ظاهرتان مؤثرتان في الاستراتيجية الاقليمية. ٢٨٩
٣/٥ استنتاجات معرفية : نظرية توازن الاجنحة العربية ٢٩٢
الاحالات والملاحظات ٢٩٥
الفصل الثامن: الولايات العربية والامبراطورية العثمانية : الحياة الادارية .. الملل والاقليات .. التنظيمات وبروز القوميات ٣٠٣
تقـديم ٣٠٥
١ ـ الحياة الادارية في الولايات العربية ٣٠٧
١/١ نظام الالتزام ٣٠٧
١/٢ من حكم المركزية نحو الادارة اللامركزية ٣٠٧
١/٣ العراق : دراسة مقارنة بين الموصل والبصرة ٣٠٨
١/٤ لبنان : التقسيمات والمشاكل الادارية ٣٠٩
١/٥ مصر : النظام الاداري وجهاز الامن ٣١٠
١/٦ طرابلس الغرب وتونس والجزائر : تنوّع الادارات الاقليمية ٣١٠
١/٧ العلاقات الخارجية والاقليمية ٣١١

٢ ـ الاقليات الملل : الادوار السياسية والاقتصادية و الاجتماعية ٣١٢
٢/١ حقوق الاقليات ٣١٢
٢/٢ التاثير التصاعدي لليهود ٣١٣
٢/٣ الملل (نموذج في التطبيق) ٣١٣
٢/٤ الاقلية الاوروبية. ٣١٤
٢/٥ وسطاء وشركاء ٣١٥
٢/٦ لبنان : جذور الطائفية ٣١٥
٢/٧ لبنان : تطور المؤسسات الطائفية ٣١٦
٣ ـ التنظيمات العثمانية ٣١٨
٣/١ تطور الاسلام ٣١٨
٣/٢ النظامان القديم والجديد : اشكالية التقاطع ٣١٩
٣/٣ ادارة الوقفيات ٣٢٠
٣/٤ اراضي الميري ٣٢١
٣/٥ ولادة المؤسسات العربية ٣٢٢
٣/٦ تحديث العلاقات الاقليمية ٣٢٢
٣/٧ الاصلاحية العسكرية العثمانية ٣٢٣
٤ ـ بروز القوميات ٣٢٤
٤/١ بونابرت في مصر ٣٢٤
٤/٢ مصر والانفصال عن العثمانيين ٣٢٤
٤/٣ بروز القومية التركية ٣٢٦
٤/٤ اقتصاديات عهد تركية الفتاة ٣٢٧
٤/٥ سكة حديد الحجاز ٣٢٧
٦/ ٤ جذور القضية الفلسطينية ٣٢٨
٤/٧ القومية العربية ٣٣٠
احالات وملاحظات ٣٣٢
المصادر والمراجع ٣٣٥
١) الوثائق والاوراق الخاصة ٣٣٧
٢) الكتب التاريخية (بالعربية والعثمانية) ٣٣٨
٣) المراجع العربية والمعرّبة ٣٥٠
٤) البحوث والدراسات (بالعربية) ٣٦٠
٥) المراجع التاريخية التركية الحديثة ٣٦٤

٦) المراجع الأجنبية (بالانكليزية والفرنسية والالمانية) ٣٦٥
٧) البحوث والدراسات الاجنبية (بالانكليزية والفرنسية) ٣٧٦
٨) الموسوعات والانسكلوبيديات ٣٧٩
الملاحق ٣٨١
شكل رقم (١) : نظرية توازن الاجنحة في المشرق العربي ٣٨٣
شكل رقم (٢) : البوابات الماركنتالية العربية في عالم القرن السابع عشر ٣٨٤
شكل رقم (٣) : نظرية الدواخل والاطراف ٣٨٥
شكل رقم (٤) : ولادة الكيانات السياسية العربية في القرن ١٩ ٣٨٦
شكل رقم (٥) : امتدادات مصر محمد علي باشا في النصف الاول من القرن ١٩ ٣٨٧
شكل رقم (٦) : البقايا والجذور في تكوين العرب الحديث ٣٨٨
شكل رقم (٧) : شجرة السلالة العثمانية ٣٨٩-٣٩٠
شكل رقم (٨) : شجرة سلالة امراء مكة في العهد العثماني (آل بركات) ٣٩١
شكل رقم (٩) : شجرة سلالة امراء مكة في العهد العثماني (ذوي زيد) ٣٩٢
شكل رقم (١٠) : شجرة سلالة امراء مكة في العهد العثماني (العبادله) ٣٩٣
الفهارس ٣٩٥
اولاً : فهرس الامكنة ٣٩٧
ثانياً : فهرس الاعلام ٤٠٧
ثالثاً : فهرس القبائل والدول والشعوب والملل والارساليات والحركات ٤١٩
رابعاً : فهرس المصطلحات والالقاب ٤٢٤

قائمة بالمختصرات والرموز والمصطلحات

١ - المستخدمة في المصادر والمراجع

BOA	:	Basbakanlik Osmanli Arsivi
EI 1	:	The Encyclapedia of Islam (1st ed.).
EI 2	:	The Encyclopedia of Islam (2nd ed.).
F.O.	:	Foreign Office.
H.H.	:	Hatti Hamayun.
NHD	:	Name - i Humayun, Degteri.
Yee	:	Yildiz Esas Evraki.

٢ - المستخدمة في الاحالات والملاحظات :

App.	ملحق
Cf.	قارن
Cilt	مجلد (بالتركية)
ed.	تحرير
eds.	محررون
f.n.	ملاحظة هامشية
fol.	ورقة
Ibid.	المصدر / المرجع نفسه
Loc.cit.	المصدر والمرجع نفسه والصفحة نفسها
n.	ملاحظة
op. cit.	المصدر / المرجع السابق
p. , pp.	صفحة / صفحات
s. , ss.	صفحة / صفحات (بالتركية)
Tran.	ترجمة
Univ.	جامعة
Vol. , Vols.	جزء / اجزاء



المقدمـــة

لقد كانت « فصول » من هذا الكتاب قد أنجزت منذ سنوات خلت ضمن مشروع معرفي في تاريخ (تكوين العرب الحديث) ، على أمل أن ينشر « بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث » مباشرة بعد نشر كتابي الأول : العثمانيون وتكوين العربي الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر ، الذي نشر سنة ١٩٨٩ . ولكن الظروف الصعبة التي ألّمت بنا منذ ١٩٩٠ وحتى اليوم حالت دون نشره . . وقد كانت بعض فصوله قد اشتركت بها في مؤتمرات دولية وندوات علمية بالعربية والانجليزية . . أو دراسات في بعض الموسوعات التاريخية .

وانني سعيد جداً أن أقدم مضمون « بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث » المؤلف من مقدمة وثمانية فصول رفقة مدخل منهجي حول مشروع تكوين العرب الحديث : ضمنته بعض آرائي وملاحظاتي الخاصة بالدراسة والمنهج والعمل .

يجد القارىء الكريم ، أنني بحثت في طبيعة الرؤية العربية لتاريخ الامبراطورية العثمانية في ثنايا الفصل الأول ، فوجدت هناك ثلاث زوايا للنظر : تهويمية عاطفية ، وأيديولوجية سياسية ، ومعرفية تخصصية . . وقد كان هذا « البحث » مثار اهتمام المؤتمر الدولي السادس للدراسات العثمانية الذي انعقد في مركز سيرمدي بتونس ١٩٩٤ ، ونشر ضمن أعمال المؤتمر . . وأزعم أن فيه : حصيلة ثرّة من الآراء المهمة .

أما الفصل الثاني : فيبحث في طبيعة التكوين العثماني وتطوره التاريخي بشكل مختزل والبحث في البنيويات الداخلية مركّزاً على : القوانين وتشكيلات الهيكل العام للدولة العثمانية ، ثم على البيروقراطية العثمانية ، ثم على القوى المحلية الاجتماعية الفاعلةفي المدن العربية . . وسيفصّل المؤلف كثيراً في هذا الموضوع الاخير في الكتاب القادم من المشروع « تكوين العرب المعاصر ١٩١٧ - ١٩٦٧» بعونِ الله . ويبحث الفصل الثالث في طبيعة التوسعات العثمانية في الأراضي العربية . وكل من الفصلين يكملان ما كنت قد بدأته في كتابي الأول : «العثمانيون وتكوين العرب الحديث» (١٩٨٩) من المشروع . . وخصوصاً بعد الاطلاع على معلومات جديدة وكتابات أخيرة .

أما الفصل الرابع ، فهو يبحث في تحولات النظام التاريخي بين العرب والعثمانيين منذ نشأة التوسعات العثمانية ، وثنائية التاريخ/المجتمع/السلطات/ الادارة/السلالات الحاكمة/ الاوليغاريات العسكرية . . . . الخ ، ثم انتقلتُ بعد ذلك لمعالجة البقايا والجذور التاريخية في تكوين العرب الحديث في :

الفصل الخامس الذي حاولت أن أتعمق كثيراً في صفحاته لدراسة طبيعة نظام اللامركزية العثمانية للولايات العربية ومؤثراته التاريخية . اذ يجد القارىء أن ثمة تطبيقات بنماذج وأمثلة واستشهادات عن «النظرية» التي تضمنها كتابي الأول (العثمانيون . .) فضلا عن أن هذا الفصل سيتوصل الى نتائج واستنتاجات كل الشروحات والتفصيلات والمقارنات التي احتواها كتابي الثاني « تكوين العرب الحديث ١٥١٦ - ١٩١٦» (جامعة الموصل ١٩٩١) ، الذي طبع مؤخراً طبعة منقحة وجديدة عن (دار الشروق في عمّان / الأردن ، ١٩٩٧) .

أما الفصل السادس ، فهو يرسخ في دراستهِ العقدة التاريخية للتقاطع العربي / العثماني ، أي بين المجتمع والدولة من خلال فحص المضامين الفعلية لبقايا وجذور التكوين العربي الحديث . . والتي تمثلها أعرق بنية سلالية في التاريخ بقيت حية فاعلة منذ أكثر من (١٥٠٠) سنة ، متمثلة بأشراف مكة القريشيين الذين يعجب المرء كيف حافظوا على أنساقها وتقاليدها وأعرافها من خلال السلطة الروحية والاجتماعية لهم دون السياسية او الادارية . . علماً بأن تاريخهم الصعب كان منشطراً على نفسه بين ثلاثة أوجه : السلطة . . الطبقة . . والانقسام . وفي الفصل السابع عالجت موضوع العراق والتكوين التاريخي للخليج العربي الحديث والتوصل الى استنتاجات مهمة حول نظرية توازن الاجنحة العربية .

وأحلل في الفصل الثامن من «بقايا التاريخ وجذورهِ . » : طبيعة الروابط بين العرب والعثمانيين في تكوينهم التاريخ الحديث من خلال بحوث ومواضيع جد مهمة تتصل بالأقاليم والادارات . . الملل والأقليات . . التنظيمات وبروز القوميات . وكان هذا «الفصل» قد نشر في مجلة المستقبل العربي التي يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ، العدد (١٣٨) ، السنة (١٣) ، آب / اغسطس ١٩٩٠ .

ولا بد لي أن أنوّه عن المصادر والمراجع الثرية والمهمة التي اعتمدت عليها ، وبلغات

مختلفة . راجياً أن يسدّ هذا الكتاب الثالث من مشروع (تكوين العرب الحديث) حاجة تتطلبها ثقافتنا التاريخية العربية المعاصرة . وسيكون الكتاب التالي الرابع ضمن المشروع والذي أعمل على تأليفه الآن «تكوين العرب المعاصر ١٩١٧ - ١٩٦٧ » .

وفي نهاية المطاف ، أزجي خالص شكري وتقديري الى الأساتذة الفضلاء والزملاء الأعزاء والطلبة النجباء الذين كان مشروع (التكوين العربي الحديث) مثيراً لاهتمامهم جميعا على الساحة العربية خصوصاً . ولا بد لي أن أشيد بمواقف أصيلة لأساتذة فضلاء وأصدقاء كرماء ، هم الدكاترة : عبد العزيز الدوري استاذ التاريخ في الجامعة الأردنية ، وعبد الجليل التميمي مدير عام مؤسسة فترسي للبحث العلمي والمعلومات بتونس ، وخير الدين حسيب مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ، ومحمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت في الأردن ، وعلي محافظة رئيس جامعة اليرموك بالأردن سابقاً ، ومسعود ضاهر أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية ببيروت ، وفكرت ادانير رئيس هيئة العثمانيات في جامعة بوخم الألمانية (Ruhr - Universitat Bochum) .

كما لا بد لي أن أسجل تقديري للملاحظات العلمية التي كان أبداها لي منذ أكثر من عشرين سنة عدد من المؤرخين ، أذكر منهم : البرت حوراني ، وخليل اينالجيك ، وخليل ساحلي اوغلو ، وديفيد جاكسون ، وجون بيرتون وجون ماتوك وغيرهم .

وشكري الخاص الى زوجتي العزيزة لكل أتعابها ومواقفها من أجلي .

والله من وراء القصد .

د. سيّار الجميل
استاذ التاريخ الحديث في
جامعة آل البيت / الأردن
١٩٩٦/١٠/١



مدخل في فلسفة

تكوين العرب الحديث



مدخل في فلسفة

مشروع «تكوين العرب الحديث»:

آراء وملاحظات على ضوء تجربة

الاساس النظري :

يعمل مشروع «تكوين العرب الحديث» أولا ضمن منهجة الدراسة والبحث التاريخي لمختلف البنى السياسية والاجتماعية ، وإثارة المزيد من القضايا والإشكاليات المعرفية للفترة التي أعقبت فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م وحتى يومنا هذا .. أو على وجه التخصيص : منذ بداية السيطرة العثمانية على الأراضي العربية في مطلع القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين . بمعنى : البحث عن جذورها ، ونقد أنماطها ، وكشف رواسبها ، وتفكيك أحداثها ، وتفسير ظواهرها .. وتشخيص مختلف التناقضات التي حفلت بها البيئة العربية على امتداد التاريخ الحديث والمعاصر . ويهدف المشروع أيضا : الكشف أصلاً عمّا خلّفته الأزمان العثمانية بأحداثها وظواهرها وعوارضها في كل من البيئة والثقافة والواقع السياسي والدواخل الاجتماعية عند العرب من رواسب وآثار كان لها آثام ومخاطر لا حدود لها .. فالمشروع اذن هو جزء من عملية رصد الحاضر ومعالجته من أجل بناء المستقبل .

تنفيذ العمل :

بدأ المشروع عام ١٩٨٤ بصورة فعلية ، ثم أخضعته على مدى ثلاث سنوات للعديد من الآراء والملاحظات والنقدات والقراءات المنهجية لخبراء عرب وأجانب ، أذكر منهم : البروفيسور البرت حوراني والبروفيسور ديفيد جاكسون والبروفيسور خليل اينالجيك والدكتورعبد الرحيم ابو حسين .. وأخيراً ، جاءت عملية تنفيذه على مراحل مترافقة جنبا الى جنب مع كتابة دراسات متأثرة بالمنهج الرؤيوي نفسه الذي يسعى لتوظيف التاريخ من أجل المستقبل .. دراسات هي أكثر اقترابا الى الابستمولوجيا المعرفية منها الى علم الميثودولوجيا التقليدية . لقد انتهى الكتاب الأول عام ١٩٨٦ وطبع في بيروت عام ١٩٨٩ تحت عنوان « العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر » أما تفصيلات النظرية والمنهج ونتائج فلسفة البحث في الرؤية والتطبيق فقد

حفل بها الكتاب الثاني الموسوم « تكوين العرب الحديث ١٥١٦ ـ ١٩١٦ » الذي طبع لأول مرة عام ١٩٩١ (وقد نُشِرَ مؤخراً منقحاً ومزيداً عن دار الشروق ، عمّان ، ١٩٩٧) أما الكتاب الثالث المكمّل للمشروع فهو : « بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث » .

ان الكتاب الثاني من المشروع ، فقد عدّته بعض الجامعات العربية وكل الجامعات العراقية كتاباً منهجياً في تاريخ الوطن العربي الحديث لطلبة الدراسات التاريخية الاولية والعليا تحت عنوان : « تكوين العرب الحديث ١٥١٦ - ١٩١٦ » والذي حوى تفصيلات تاريخية واضحة وبعشرة فصول غطت حياة العرب على امتداد أربعة قرون كاملة بالضبط .

لقد عالج الكتاب « مفهوم الوطن العربي الحديث » وتطوره في الجغرافية التاريخية : بلاد العرب . . . . . الأمصار الاسلامية . . . . . الأقاليم العثمانية . . . . الأوطان . وقد استخلصنا كم كان هناك من ثقل تاريخي في الدواخل العربية مقارنة بالأطراف واللواحق . وعليه ، فان دواخل البيئة العربية (العراق / بلاد الشام / مصر والحجاز / المغرب العربي . .) قد حددت مصير التواريخ العربية الوسيطة والحديثة والمعاصرة ، في حين بقيت أطراف البيئة العربية (شبه الجزيرة العربية / السودان الشرقي والسودان الغربي) لواحق واطرافا غير ذي تأثير تاريخي او مصيري .

ان ابرز ما بحث في هذا الكتاب ايضا هو التجذير العلمي لكل من النظامين التاريخيين اللذين حكما تكوين العرب الحديث :

١ - بقايا النظام التاريخي العثماني (في الدواخل العربية) .

٢ - جذور النظام العربي الوسيط (في الأطراف العربية) .

هناك ايضا فصلان مهمان يعالجان الأوضاع العربية وبصورة شمولية لاول مرة :

١ - الزعامات والاوجاقات ومآسي المجتمع العربي في القرن السابع عشر .

٢ - الحكومات والادارات اللامركزية في الولايات العربية خلال القرن الثامن عشر .

لقد تدارس الباحث ايضا مجموعة من الظواهر التاريخية المؤثرة في الحياة العربية الحديثة ، مثل : محمد علي باشا بمصر / الاصلاحية العربية / التحديث / التنظيمات العثمانية / الاستعمار / عهد عبد الحميد الثاني / القومية / النهضة . . . . .

أما الكتاب الثالث في سلسلة المشروع ، فهو الذي بين يدي القارىء : «بقايا وجذور : التكوين العربي الحديث» . وهو جملة من التطبيقات التاريخية لما كنت قد طرحتُه من

فرضيات في الكتاب الأول ، ولعل سائل يسألني : لماذا وقع اختياري على هكذا عنوان؟ وماذا أقصد ـ فعلاً ـ بمصطلحي : البقايا والجذور في التكوين العربي الحديث؟ أقول : بأن الكتاب يعالج أساساً موضوع هذا «التكوين» من خلال ركيزتين أساسيتين كانتا وستبقيان على امتداد هذا العصر التاريخي الذي تعايشه أجيالنا ، والمقدّر بـ (٣٠٠) سنة بدءاً بـ ١٧٩٩ وانتهاءً بـ ٢٠٩٩ ، هما :

الركيزة الأولى : دراسة النظام التاريخي العربي بنماذجه المتعددة ، وألوانه المتنوعة ، سواء عاشت في الدواخل أم الأطراف الجغرافية العربية . . في الحجاز ، أم اليمن ، أم المغرب الأقصى ، أم عُمان ، أم منطقة الخليج العربي وغيرها من مناطق الدواخل والأطراف العربية . . وكلها تشكّل (الجذور التاريخية) للتكوين العربي الحديث . . وهي «جذور» تتباين أعماقها في التاريخ ، فتتباين أدوارها . . وعليه ، فهي بحاجة الى حفريات معرفية ، ودراسات معمّقة وكشوفات وتحليلات ومقارنات . . لما كانت عليه مؤثراتها من خلال فاعلية قواها المحلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في حياة تكويننا العربي الحديث . . وقياس ذلك على حدود المستقبل .

الركيزة الثانية : دراسة النظام التاريخي العثماني وممارساته وتطوراته وتقسيماته ، وأدواره ومؤثراته . . وخصوصاً في نماذجه القوية التي عاشت في أبرز الدواخل الجغرافية العربية في العراق ، أم بلاد الشام ، أم مصر ، أم طرابلس الغرب وتونس والجزائر وغيرها من الأقاليم المركزية العربية . . وهي تشكّل (البقايا التاريخية) التي أثرت تأثيراً بالغاً في حياة التكوين العربي الحديث . . وكلها بحاجة ـ أيضاً ـ الى كشوفات جديدة من المعلومات ، وتحليلات للمزيد من البنى والأحداث والظواهر التي ولّدها النظام التاريخي العثماني سواء ما يخص الوحدات والهياكل والتشكيلات الكبيرة والصغيرة في حياتنا المعاصرة ابان القرن العشرين ، وقياس ذلك ـ أيضاً ـ على حدود المستقبل .

مشروع منهج ورؤية

يقوم هذا المنهج على نقد الأنساق وأشكلة الماضي وفحص بنيواته لمعالجة الحاضر وبناء المستقبل حسب أطروحة بريغمان نظريا ، ومحاولتي إغناء مفاهيمها في الفرضيات والتطبيقات بربط معطيات التاريخ والسوسيولوجيا معا بين الأصول وبقاياها ، وبين البنى القديمة ورواسبها الحالية وإخضاعها من وجهة نظر عربية شمولية للتجربة العلمية (الادلة والبراهين) . إنها تثير جملة من الأسئلة والشكوك كي تبحث لها من خلال منهج

القطيعة مع التاريخ العثماني أو تواريخ النظام العربي الوسيط ، اذ كان كل من هذين النظامين التاريخيين قد أفرزا واقعنا العربي المعاصر على أنقاضهما ، أو آثار رواسبهما . معنى هذا : اننا يجب أن نعمل على فهم ذلك كله من خلال القطيعة المعرفية والانقطاع التاريخي معتمدين على القياس والاستبطان وما توصل اليه العلم الحديث في ربط معطيات التاريخ الحديث واحداثه وظواهره ومقارنة ذلك بما يكمن من افرازات وبقايا ومحاولة البرهنة عليها .

ان المنهج الرؤيوي / المستقبلي في هذا المشروع لا يعمل في مجال الانتقاء والسرد والتركيب ، بل يعمل على إثارة الاشكاليات ، وتحليل النواقص ، ومعالجة الشكوك ، وتشخيص التناقضات ، وسد الثغرات والتفكير بما لم يفكر فيه حتى اليوم . . وان ذلك كله انما يتم بالتعمق في الظواهر التاريخية أكثر من التأكيد على الحوادث التاريخية . في خضم كهذا ، فان ثمة مناهج واساليب تاريخية / فلسفية نظرية وتطبيقية ، جادة وأصيلة ستفيدنا حتما في تشكيل هذا المنهج المعرفي ورسم خطوات وابعاد غاية في الأهمية كبدايات على الطريق الصعب والطويل . . ونحن عند أعتاب قرن جديد وتاريخ جديد بعد مضيّ أكثر من مائة سنة مزدحمة بالتناقضات الفكرية والايديولوجية . ويمكنني أن أذكر أبرز أصحاب تلك المناهج والأساليب : وليم ماركيز ومكسيم رودنسون وشتراوس عبدالله العروي وميشيل فوكو وسمير امين وجورج قرم وقسطنطين زريق ومحمد اركون وروبرت منتران وعبد العزيز الدوري والبرت حوراني وروستو وشارل عيساوي وغيرهم .

طبيعة المنهج : ميكانزم العمل

لكي أفصح بشكل واضح عن المفارقات التي تميز المنهج الرؤيوي (لتحديد الرؤية العلمية) عن المنهج التركيبي (لتتابع الاستعارة والتقليدية) أود أن تكون هذه المنهجية مبعث أنشطة فكرية فاعلة حرة من خلال الاستنتاجات التاريخية التي ينتهج المؤرخ هذا المنهج للوصول اليها . ويمكنني أن أبرز أدناه بعض الخصائص التي تحدد أساليب العمل في المنهجية الرؤيوية لمشروع تكوين العرب الحديث :

١ - الاستناد على الفرضية الموضوعية التي تقول بأن الحوادث التاريخية المتنوعة ذات بنية ثابتة ومتماسكة ، وانها ذات دلالات ومعان لا تموت بانتهاء الحدث التاريخي او الواقعة اليومية ، اذ تتخلف عنها « رواسب تاريخية » علينا بالكشف عنها وتحليلها . . .

٢ - تشخيص كافة التناقضات بعقلانية مجردة وأمانة وحياد تام . . . دون العمل على إخفاء التناقضات ضمن حجج متباينة . . وتكون القراءة واعية تمام الوعي لكشف

المزيد من الحقائق ، وتستبعد - هنا - القراءة الخالية من الوعي .

٣ - الاستناد على « المرجعية » المنهجية بالتأصيل والتوثيق ، والتي تقوم أساساً على روح المعرفة ، وتزاحمها العديد من الأفكار والتفاسير والتيارات والاتجاهات التي تريد سحب جملة التاريخ ، كل واحدة اليها لتغلفه بأرديتها . ان البعد عن المشاكل الثيولوجية والايديولوجية لا يمكنه أن يؤسس عمله الا على الروح الانتولوجية السامية .

٤ - ان التفكيك المعرفي / الابيستمولوجي لصفحات معينة من التاريخيات المتنوعة لا يتعزز الا بالاستبطان وقراءة ما يكمن وراء الأحداث والمواقف والنصوص والخطابات والوقائع . . وانعكاسات ذلك على البنى المستقبلية لتلك التاريخيات ، أي الربط الجدلي بين السوابق واللواحق . ولكن ؟ لا يمكن ممارسة عمليات هذا «المنهج» الا بعد السيطرة على المنهج التركيبي الذي يسعى لتوفير مناخ بنيوي في دراسة التواريخ ومعرفة المصادر . . الخ .

٥ - الاستخدام الأمثل للجغرافية الاقليمية التاريخية العربية في التطبيقات والمقارنات بين ما كان عليه تاريخ العرب الوسيط وما آل اليه تاريخهم الحديث والمعاصر . . اي بين الذي كانت عليه حالة «الأمصار » العربية / الاسلامية وما آلت اليه اوضاع « الاقاليم » او الولايات العثمانية . (وقد أفادتني بهذا الصدد نظرية الدواخل والاطراف -مثلاً-) .

٦ - الاستفادة كثيراً من منهج « التاريخانية » (Historicisme) في دراسة الظواهر التاريخية دون الاقتصار على بحث الحوادث التاريخية . وكم هو صعب هذا الأمر في جزئياته وتفصيلاته المعقدة لا في شكله ومضمونه العام . خصوصا ونحن نعلم بأن تكوين العرب الحديث قد ازدحم كثيراً بالظواهر التاريخية التي يمكننا أن نجد مؤثراتها في التغييرات التي أصابت المجتمع العربي في القرن العشرين .

ماذا نستخلص من وراء ذلك كله ؟

ان هذا المنهج هو حالة نقدية معرفية / ايبستمولوجية ، تستعد لاستقبال توجهات وتطلعات لبناء المستقبليات وترفض نماذج ومفاهيم تقليدية أو نمطية التفكير والممارسة . هذا المنهج جديد في العمل التاريخي العربي المعاصر ، ويستفيد كثيراً من مناهج معاصرة تسهم اليوم في إغناء العلوم الاجتماعية ، ومنها : البنيويات والمورفولوجيات واركيولوجيات المعرفة وسوسيولوجيا التاريخ اضافة الى التاريخ الاقتصادي والعلوم اللغوية والألسنية والسياسية . .الخ . وما طرحته الأفكار المعاصرة لكل من فرناند بروديل

وجومسكي ومولدر وفوكو وكاليسو واندريه ميكال ودونالد بيتجر وغيرهم .

ان الكتاب الرابع من هذا المشروع سيكون تحت عنوان : « تكوين العرب المعاصر ١٩١٧ – ١٩٦٧ » وسيغطي نصف قرن بالضبط هو النصف الاول من القرن العشرين . وهي فترة معقدة جدا وخطيرة جداً . . ولا يمكنني ان أفصّل أي شيء عنه كونه لم يزل في طور التأليف .

نتائج العمل : حصيلة المشروع

يمكنني القول بأنني عندما بدأت العمل لم أكن أدري بأنني سأخرج بمثل هذه النتائج سواء على مستوى الاستنتاج المعرفي او الاستنباط المنهجي ، وهي عموماً حصيلة جهود منظمة في النقد التاريخي المقارن وابراز اللامفكر فيه . كما ويمكنني اختزال اهم النتائج التي توصل اليها الكتاب الاول والكتاب الثاني وحصيلتهما في الكتاب الثالث .

١ – لقد كانت جملة الموروثات الخطيرة التي تركتها أحقاب السيطرة العثمانية مؤثرة تأثيراً بالغاً في التكوين العربي الحديث والمعاصر .

٢ – لقد فعلت البقايا العثمانية الحديثة والعربية الوسيطة فعلها الى جانب المؤثرات الاستعمارية الاوروبية في التجزئة وغيبة الانشداد السياسي على مستوى التكوين المعاصر ، اكثر بكثير من تأثيرها في دواخل المجتمع العربي ومفاصله المتشابهة والمتناسقة .

٣ – لقد غرست مشاكل وخطايا لم يزل العرب يعيشون تناقضاتها في مرافق حياتهم ، بل على مستوى تفكيرهم وذهنيتهم المتصلة في اللاوعي الفاعل على مستوى اللغة والخطاب والممارسات السياسية والتقاليد الاجتماعية والأساليب الثقافية . . وحتى في التعامل مع الأشياء والأفكار والأيديولوجيات . .

٤ – ان العرب يعيشون ماضيهم قبل حَاضِرهم ، ويعيشون مع ذاكرة الماضي أكثر من غرسهم لتطلعات بناء مستقبلهم وتقدم أجيالهم .

٥ – لقد فتح هذا « المشروع » الباب على مصراعيه أمام المؤرخ لكي يقوم بدراسة القوى الاجتماعية والاقتصادية الفاعلة في البنية العربية الحديثة والنزول شيئاً فشيئاً مع تفكيك التاريخ بحوادثه وظواهره من الابراج السياسية العالية الى حيث يعيش الانسان العربي ويتحرك ويتفاعل داخل منظومته الاجتماعية ، وبيئته المحلية . . مع ما يجسّده من علاقات اقتصادية والتوغل في تقاليده واعماله ومنتجاته وتنظيماته المدنيّة – وهذا سنعالجه في كتاب قادم بإذن الله – .

الفصل الأول

العرب المعاصرون والدولة العثمانية
التهويم / الايديولوجيا / المعرفة
(رؤية نقدية ابستمولوجية في الاشكاليات الفكرية والتاريخية والسياسية العربية المعاصرة)



مقدمة

لم تخضع افكارنا وكتاباتنا وادبياتنا العربية الحديثة (التقليدية والايديولوجية والاكاديمية) لمفاهيم العقل ، او لأدوات النقد والتحليل والمنهج المقارن وتشخيص الأخيلة والاوهام وعلامات اللاعقل . . . ونحن عند نهاية «قرن» يعد من اهم احقاب تاريخ البشرية على الاطلاق ، نظرا لما استطاع الانسان ان يحققه فيه [1] . وقد كان للعرب اساليبهم وادواتهم ومستوياتهم في التفكير والذهن والتركيب والمواقف وبلورة التيارات والاتجاهات . وعلى الاخص بعد الحرب العالمية الاولى التي كان لنتائجها التاريخية تأثيرات بالغة على صناعة الواقع والاوضاع للعرب وغيرهم من الشعوب في العالم .

وكان العرب قد انفصلوا عن العثمانيين مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، كي يبدأوا تكوينهم التاريخي المعاصر ؛ فكانت لهم على امتداد هذا القرن مواقفهم وآراءهم وكتاباتهم وانطباعاتهم عن العثمانيين وامبراطوريتهم . وعليه فإن هذا «الموضوع» الحيوي يشكل اهمية بارزة في حياتنا الفكرية العربية المعاصرة والتي لا بد ان يقلب النقاد العرب صفحاتها بمهارة ، ويعالجوا مرجعياتها التاريخية بثراء من يتعب نفسه ، ولا بد وان يؤشروا حالات اخفاقاتها المريرة في ظل «واقع» تاريخي مضطرب الموازنات ، ومنكفىء الخطوات . . . «واقع» عربي كان لا بد له ان يكون افضل معرفة وتطلعاً بما هو عليه : نتاجا مستلبا لمؤثرات نهضوية وثقافية وحضارية عاشها العرب في قسمات جغرافية اساسية في محيطهم المتنوع ، وعلى مدى زمني يقترب عمره من قرنين كاملين ، ولكن ثمة اخفاقات موجعة لازمت حياة التفكير العربي الحديث الذي اضطلعت به نخب ستة أجيال عربية كاملة (كالتي سنحلل بنيوياتها التاريخية في ادناه) .

ونحن على أبواب قرن جديد ، سيقفل عما قريب : قرن ازدحمت فيه التأويلات والمضامين والافكار والايديولوجيات والاوهام والمواقف ومجموعة واسعة من التغيرات . . . فلا بد من وقفة نقدية رؤيوية ذات منهجية ابيستمولوجية ، تتأمل في حشد من الخطابات والنتاجات والعطاءات التي كانت لها مواقفها المضطربة من قضية جوهرية ـ كما اعتقد ـ في الحياة التاريخية الحديثة التي شكلت الامبراطورية العثمانية احدى ابرز ركائزها

(١) سيار الجميل ، «نقد تاريخانية التفكير العربي المعاصر : تفكيك مفاهيم» ، المستقبل العربي ، العدد (١٦٠) ، السنة (١٥) ، حزيران / يونيو ١٩٩٢ ، ص ٣٧ .

الموروثة ، وتأثير بقاياها ورواسبها في التفكير والممارسات سواء في الوعي او اللاوعي العربي ... وهذا الذي كنت قد حللت جوانب اساسية منه في الفصل الاول من كتابي الموسوم : **«العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر»** [٢] ، او في دراسات وبحوث اخرى لي ، قمت بنشرها تباعا في السنوات الاخيرة[٣] .

ان «الموضوع» بحاجة ماسة الى ان يحلل خطابه ، ويفكك مضمونه ، وتعلل اسبابه ويجري توصيف نقدي للاتجاهات والتيارات والمواقف الرسمية والشعبية ، الدينية والتاريخية والايديولوجية والسياسية والسلطوية .. فضلا عن الكتابات والنتاجات الاكاديمية والبحثية العربية . وعلى الرغم من المحاولات الجادة التي بذلها ويبذلها مفكرون ونقاد عرب ، سواء كانوا في مشرق الامة او في مغربها ، او في ارض الشتات والاغتراب ، اذكر منهم : عبد العزيز الدوري والبرت حوراني ومجيد خدوري وعبد الله العروي وعبد الجليل التميمي وشارل عيساوي وهشام شرابي ووجيه كوثراني ومسعود ضاهر وخلدون النقيب وسمير امين ومحمد عدنان البخيت ومحمد عابد الجابري ومحمد اركون وانور عبد الملك ورضوان السيد ... وغيرهم . وعلى الرغم من تنوع موضوعاتهم ، وتباين تخصصاتهم ، وتوسع مضامينهم ، وتعدد مناهجهم .. الا ان «الموضوع» لم يزل - وسيبقى - بحاجة ماسة الى المزيد من التنظيرات والمقاربات الى جانب النقدات والتحليلات لتحديد الوظائف والمنطلقات المتباينة ، وان ذلك «التباين» دليل صحة وعافية على ان التفكير العربي المعاصر يتقبل في دواخله وثنايا انساقه : المزيد من التنوعات التي تساعده في بناء حياة المجتمع العربي في القرن القادم ، ولكن ليس من خلال «المرجعيات» الاصلاحية والايديولوجية والسياسية .. التي حكمت اجيال العرب في القرن العشرين .

١ - البنية التاريخية للاجيال العربية المعاصرة :

لقد تنوعت المواقف الفكرية والسياسية العربية في القرن العشرين ازاء العثمانيين ودولتهم سياسيا وتاريخيا ، ومن بيئة عربية الى اخرى في تقييم التجربة التاريخية

---

(٢) سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر ، ط 1 (بيروت : مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨٩) ، ص ٣٧ - ١١٤ .

(٣) منها على سبيل المثال لا الحصر : سيار الجميل ، «الخطاب التاريخي العربي في فترة ما بين الحربين العظميين : محاولة ايبستمولوجية في اثارة بعض الاشكاليات» ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (١٢٣) ، السنة ١٢ ، ايار / مايو ١٩٨٩ ، ص ٨١ - ٨٢ .

العثمانية التي تعد من اغنى التجارب التاريخية لدى العرب في حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على امتداد اربعة قرون كاملة قبل القرن العشرين ، ومقارنة بتجارب تاريخية ونماذج سياسية في تاريخ العرب المتنوّع والطويل ، فلقد كانت المرجعية التاريخية ، العثمانية هي القاعدة الارتكازية التي انطلقت منها معظم التكوينات السياسية العربية المعاصرة ، فضلاً عما ورثه المجتمع العربي المعاصر من موروثات متأصلة للعثمانيين في كل مفاصلة واجزائه او دواخله واطرافه ، سواء كان ذلك في المشرق ام المغرب العربيين (٤) .

وقبل ان ابدأ بتحليل ذلك كله ، لا بد من القول ان المجتمع العربي الحديث الذي عاش حياته (النهضوية) على مدى مائتي سنة بدءا بحملة بونابرت على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ م وحتى يومنا هذا في نهاية القرن العشرين . هكذا ، فان القرنين الاخيرين قد تمفصلت اجيالهما العربية في ست حلقات تاريخية اساسية دام عمر كل حلقة تاريخية ٣٠ سنة (اي : عمر حياة الجيل الواحد) .

فهل من تركيب بنيوي ـ ايبستمولوجي لتواصل هذه الاجيال العربية؟

دعنا اولا نتأمل في «الدايكرام التاريخي :

1799 ———— 1829 ———— 1859 ———— 1889

(30 سنة) — جيل اليقظة المؤسس)

(30 سنة) — جيل التنظيمات العثمانية

(30 سنة) — جيل الدستورية العربية

جيل الاستنارة الفكرية

(30 سنة)

1919 ———— 1949 ———— 1979 ———— 2009

(30 سنة) — جيل الليبرالية الوطنية

(30 سنة) — جيل القومية العربية

(30 سنة) — جيل اليوم

(٤) التفاصيل والمزيد من التحليلات في : سيار الجميل ، «الادارة العثمانية اللامركزية ونظامها في الولايات العربية : دراسة مقارنة للانماط الاقليمية في تاريخ الوطن العربي الحديث . .» ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد ٥ ـ ٦ ، (تونس/زغوان : مؤسسة فترسي ، فيفري ١٩٩٢) ، ص ١٧٠ .

يمكننا اعتبار سنة ١٧٩٩ هي المنطلق الاول للحياة النهضوية العربية في المجتمع العربي ، وتسلسل الاجيال في القرنين التاسع عشر والعشرين ، فاذا ما افترضنا ان عمر اي جيل منها يقدر بـ (٣٠) سنة ، فقد طبع ذلك «الجيل» بسمات المرحلة التاريخية التي تزامن معها ، كما ان بدايات كل جيل تشكل «قفلات» للجيل الذي سبقه .. وان «السنوات» المذكورة في اعلاه تقترن كل واحدة منها باحداث او وقائع تاريخية مهمة جدا في الحياة العربية الحديثة والمعاصرة ! ولعل أبرز ما يمكن تسجيله في هذا «الاطار» موقف كل جيل من الاجيال المذكورة ازاء العثمانيين ، وقد تباينت تلك «المواقف» تباينا كبيرا بين الايجاب والسلب (٥)

٢ - تنوع الانطلاقات والمرجعيات :

ولعل مواقف المفكرين العرب ازاء العثمانيين في القرن التاسع عشر ، قد تنوعت ضمن اطار المكونات العثمانية - المركزية (في العراق وبلاد الشام خصوصا) ، والمستحدثات العربية في اطار العثمانية اللامركزية سواء كانت خديوية مصرية ، ام دايوية جزائرية ، أم زعاماتية سورية ، ام باشوية عراقية ، ام بايوية حسينية تونسية ، ام سنوسية مغاربية ، ام مشيخية خليجية ... بعيدا عن التوجهات السياسية والممارسات التاريخية ، والمواقف العربية المستقلة التي وجدنا نماذجها متمثلة في السلطنة العلوية بالمغرب الاقصى ام سلطنة عمان الالبوسعيدية ام الدولة السعودية الاولى في نجد ...

ولقد برزت الافكار الجديدة في قسمات معينة من المجتمع العربي والتي لم تتصادم مع العثمانيين الا في تاريخ متأخر من حياة دولتهم العلية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩ . ومن ابرز تلك «الافكار» التي غدت مرجعيات سالبة لمبادئ ايديولوجية للنضال والممارسات السياسية العربية لاحقا امثال : الفكرة الوطنية لدى الطهطاوي ، والفكرة الاصلاحية لدى خير الدين التونسي ، والفكرة الدستورية لدى جرجي زيدان ، والفكرة القومية لدى نجيب عازوري ، والفكرة العروبية لدى عبد الرحمن

---

(٥) راجع : سيار الجميل ، «المشروع النهضوي العربي في اطار الحداثة : رؤية نقدية ايبستمولوجية» ، أفاق عربية ، العدد ٩ ، السنة ١٨ ، ايلول / سبتمبر ١٩٩٣ ، ص ١٢ . وهو الفصل الثاني من كتابي : التحولات العربية : اشكاليات الوعي وتحليل التناقضات وخطاب المستقبل ، (عمان/بيروت : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧) ، ص ٥٩ -٨٥ .

الكواكبي ، والفكرة الاسلامية لدى جمال الدين الافغاني . . . الخ [٦] .

لقد تصارعت «الافكار» العربية في مرحلة تاريخية صعبة ، فتبلورت في خضمها تناقضات صارخة خلقتها احداث تاريخية مهمة ومصيرية ساهم في صنعها ليس العرب انفسهم ، بل كان لكل من الاتراك الاحرار في دواخل الامبراطورية (وخصوصا : العاصمة) والمستعمر الاوروبي في اطراف الامبراطورية (وخصوصا : الانكليز والفرنسيين) ، تلك الادوار الحقيقيةفي خلق التأثيرات الفكرية والسياسية المحتدمة لدى العرب منذ مطلع القرن العشرين !

السؤال الآن :- ماذا سيفرز لنا ذلك كله في التفكير العربي؟

دعونا نتوقف عند ثلاثة اتجاهات رئيسية اساسية ازاء العثمانيين في تفكير العرب في القرن العشرين ، والتي يعلنها صراحة او ضمنها خطابهم المعاصر ، او ما يكمن في اعماق وعيهم التاريخي اللاواعين به ، او حتى في تفاعلات لا وعيهم المغيب والواعين به تماما ومن خلال مراجعة شاملة ومستفيضة ومتعبة بكل ما حفلت به هذه «الاتجاهات» من تيارات واحزاب ومواقف ، او اساليب وكتابات ونشريات ، ويمكننا ان نصنّف ذلك الى :

١ ـ التهويمات الدينية :

١/ الخطابات . . التيارات :

كانت فئات واسعة من المجتمع العربي ولم تزل تهيم تيها وعجبا عند ذكر اسم «الامبراطورية العثمانية» ، لا عن معرفة وادراك بدواخل تاريخها ومكنوناتها وعناصرها والوانها . . ولكن بحجة . . «اسلاميتها» انه اتجاه خطير تنوّعت سياقاته الدينية وتعدّدت الكتابات الانشائية والعاطفية فيه مع ازدياد تيارات هذا «الاتجاه» على الساحة العربية اليوم . وتتمفصل «المرجعية» التي يستند اليها اصحاب هذا «الاتجاه» ضمن تيارات ثلاثة معروفة يتلمس الباحث مواقفها التي تعبر عنها خطاباتها المفعمة بالحنين والعواطف . وهي «خطابات» لا واعية بحجم الاشكاليات الفكرية والتاريخية والبنيوية للعثمانيين . . ولأنها «خطابات» الذات لا الموضوع ، فهي تعكس بدورها الواقع المضطرب الذي تتشكل

(٦) راجع تحليلات المؤرخ البرت حوراني حول هذه «الأفكار» في :
Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*, (London: Cambridge University Press, 1983),pp. 103 -129.

فصائله من تجمعات واحزاب وفئات وجماعات وطرائق ومشايخ وعلماء دين ومرتدين ... الخ

السؤال الآن : ما هي هـــذه « الخطابات » الثـلاثة التي تعكــس وتعبر عما يكمــن في «تيارات» ثلاثة؟

* خطاب تقليدي/ صوفي منغلق عن حيــاة الدنيا (دولة ومجتمعا) كالذي تنتجه فئات قديمة كانت ولم تزل مستسلمة للطرائقية ومواريثها الاجتماعية التي تغيب «العقل» في الاوهام ، وتبعد «الموضوع» في الخيالات !

* خطاب اصلاحي/ سلفي يتجسد ، ولكن عقله في الماضي كالذي ابرزته الحركات الاصلاحية ـ الدينية في القرن التاسع عشر ... وتواصل على ايدي الجماعات والاحزاب والكتاب العرب الذي انتظموا في اطار فكرة «الجامعة الاسلامية» او الاحزاب الدينية في النصف الاول من القرن العشرين والتي وقفت جميعا في الضد من مشروع الدول العربية (وغير العربية) المعاصرة في العالم الاسلامي ... ولم تزل قطاعات واسعة من ابناء المجتمع تنساق وراء هذا «التيار» الوسط .

* خطاب ماضوي / اصولي يجسد الماضي كله بطريقة عنيفة ومقفلة .. كالذي تنتجه - اليوم - الجماعات والتنظيمات الدينية ـ الاصولية (Fundamentals) التي قطعت كل صلاتها بالعصر ، وراحت تتجمد يوما بعد آخر اصوليا في الماضي لبعيد بعناد ويبوسة اثر هزيمة ٥ حزيران / يونيو (جوان) ١٩٦٧ .

٢/ تحليل للنماذج التاريخية وتفكيك لاشكاليات التفكير :

تتصف هذه «الخطابات» الثلاثة بانشائية التهويم والتغريم عاطفيا ، وكيل المديح للعثمانيين دون معرفة وتمحيص : ويتركز هذا «الاتجاه» كثيرا في مصر والاردن وسوريا والباكستان والجزائر والسودان ، مع ما يجد له من قراء ومتعاطفين ومناصرين في اصقاع عربية واسلامية اخرى [٧] .

(٧) من ابرز الكتاب والمؤلفين والادباء ورجال الدين (والمؤرخين) الذين يمكنني ذكر اسمائهم ، والذي يمثلون هذا الاتجاه : سيد قطب / محمد قطب / عباس محمود العقاد / احمد حسن الباقوري / محمد الغزالي / محمد البهي / محمد جلال كشك / بنت الشاطىء / عبد العزيز الشناوي / يوسف القرضاوي / عبد القديم زلوم / محمد عماره / ابو الحسن علي الحسني الندوي / تقي الدين النبهاني / وغيرهم .

والسؤال الآتي : هل من تحليل لبعض نماذج او امثلة من منتجات هذا التفكير ؟ نعم ، اذ يصر معظم كتاب هذا «الاتجاه» على الخطأ ـ مثلا ـ باطلاق صفة «الخلافة الاسلامية» على السلاطين العثمانيين اجمعين [(٨)] ، ويمعنون في اخطائهم اكثر عندما يعتبرونهم امتدادا تاريخيا اسلاميا (مشروعا) لدولة الخلافة العربية ـ الاسلامية منذ نشوء الخلفاء الراشدين ، مرورا بالامويين والعباسيين ! علما بأن «اسلامية» الدولة العثمانية توضحها مواقفها التاريخية الدافعة (الجهادية) في سبيل الحفاظ على دار الاسلام (الذي غدا عثمانيا) باسم الاسلام (الذي غدا عثمانيا هو الآخر) والذي تتباين انساقه لا في النظرة فحسب ، بل في التطبيق عن «الاسلام العربي» ! وذلك من خلال الانظمة والقوانين التي اوجدها واتبعها العثمانيون في امبراطوريتهم شاسعة الاطراف ، والذين كانا اكثر حنكة وجرأة وشجاعة في الابقاء على الموازنة التاريخية بين «الدولة» و «الاسلام» وفي الحفاظ على كل واحد منها باسم الاخر ! [(٩)] وهذا ما افتقده ابناء القرن العشرين ! ولكن ؟

ان الذين يهيمون بالعثمانيين حبا وعاطفة تراهم يعتكفون في معبد ماضيها (الاسلامي) الذي يمثل بالفعل امجادها ومفاخرها في سبيل نصرة «الاسلام» الذي حملته قرونا طويلة ، ونافحت من اجله لخدمة القضايا المصيرية على امتداد القسمات الحيوية من عالمي العرب والترك في الحياة السياسية والعسكرية المتنوعة . ولقد اصطبغ «الاسلام العثماني» بالصبغة التركية سياسيا وسلطويا مستلهما ممارساته وتطبيقاته عن المؤسسة الدينية الذي كان يمثلها «شيخ الاسلام» (مفتي الدولة الاكبر) والذي يجسد بدوره السلطة التشريعية في الامبراطورية العثمانية . وهي «مؤسسة» لم يكن لها وجود

---

(٨) وقد ذهب هذا «المذهب» ايضا بعض المؤرخين العرب المعروفين ، اذكر منهم الاستاذ عبد الكريم غرايبة في كتابه : تاريخ العرب الحديث ، ط ١ (بيروت : الاهلية للطباعة والنشر ، ١٩٨٤) علما بأن اول من تصدى لهذا الخطأ المتواتر من المؤرخين العرب ، هو الاستاذ اسد رستم في مقالته : «السلطان سليم والخلافة» ، مجلة الكلية ، العدد (١٢) ، الجامعة الامريكية في بيروت ، ١٩٢٥ .

(٩) عن بحث سيار الجميل ، «العلمنة بين العرب والاتراك : دراسة مقارنة في التفكير والممارسات» ، القي في ندوة (الاسلام والعلمانية في تركيا المعاصرة) ، التي نظمها مركز الدراسات التركية بجامعة الموصل يوم 23نيسان / ابريل ١٩٩٥ . وراجع التفاصيل في الفصل السابع (العلمنة بين العرب والاتراك) في كتابي : الانبعاث والتحديث : العرب والاتراك من العثمنة الى العلمنة (قيد النشر في مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت) .

ابدا في تاريخ الراشدين والامويين والعباسيين الذين زاوجوا بين الديني والدنيوي ايضا ، ولكن ضمن سياقات متباينة تماما عن العثمانيين !

أما المجتمع العثماني متمثلا بالفئات السكانية المتعددة المتنوعة : (الرعايا) وعلى امتداد الارض العثمانية ، فقد تباين بين قرن وآخر في طبيعته ورؤيته للحياة ، ولكنه ضعف كثيراً منذ القرن السابع عشر [١٠] ، وانسحبت عناصره الاساسية المتنوعة من المسلمين وبمذاهبهم الكبرى الاربعة ، لكي يعتكفوا ويتقوقعوا في فضاء مغلق وجامد وسكوني في الحياة ، التي مثلتها الطرائق الصوفية والتقاليد التواكلية التي لم تزل رواسبها كامنة في الاعماق وموروثة سايكلوجيا عبر الاجيال حتى يومنا هذا! دون ان تثار اية مشكلات فكرية ، او تساؤلات نظرية ، او كتابات قلقة لدى الغرب والاتراك او غيرهم في اطار كل من الدولة والمجتمع سواء في المواقع المتقدمة او الخلفية من تلك الحياة «المسكونية» ـ على حد تعبير المؤرخ مجيد خدوري ـ [١١] .

ان هذا كله قد سبب اساسا ، جفاف في العقل العربي بفعل هيمنة اساليب «الاسلام العثماني» باسم (السلطنة) لا باسم (الخلافة) عصر ذلك ، ومن سخرية التاريخ ان يمارس الخطاب العربي الحديث والمعاصر على امتداد اكثر من مائة سنة منذ نشوئه وحتى يومنا هذا . . اعادة مكررات خاطئة تمثل نقائض صارخة للحقائق التي عاشها المجتمع العربي ابان العهود العثمانية .

ويمكننا ان نحدد بعض النقاط النقدية المهمة في توصيف معرفي لـ «الاسلام العثماني» :

(١٠) المزيد من التحليلات في : سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، ط 1 ، (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩١) ، ص ٣٦ وما بعدها . وانظر الطبعة الجديدة المنقحة منه (عمان : دار الشروق للطباعة والنشر ، ١٩٩٧) .

(١١) انظر حول هذا «المصطلح» عند :

Majid Khaduri, *Political Trends in the Arab World: Role of Ideas and Ideals in Politics* (Baltimore , Mad : John Hopkins University Press, 1970), p. 26.

(١٢) تفيد ـ هنا ـ جدا مراجعات دقيقة لكتب التراجم العربية والعثمانية على امتداد القرون : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . . . وفي معظم البيئات العربية ، ويمكنني الاشارة الى بعض كتب التراجم ، ومنها : للمرادي والبديري الحلاق واليافعي والمحبي والغزي وياسين الخطيب العمري والحيدري . . الخ .

أ ـ ثمة فصل بين الدولة والمجتمع العثمانيين . . او بين السياسة والادارة من طرف وبين التقاليد والاعراف الاجتماعية من طرف آخر ، اذ يتبين للمؤرخ بان تمفصلا قد حدث بين سلطات الدولة وبيروقراطيتها (الاتراك / الروم) . وبين المجتمع العربي الذي ابقي على تقاليده واعرافه واختصاصاته التي انحصرت بالقضايا الشرعية /الدينية . وعليه ، لم نلحظ وصول ايا من رجالات العرب حتى القرن التاسع عشر الى قيادات سلطوية / ادارية في الدولة العثمانية ، واكتفت «الدولة العثمانية» الاستعانة بخبرات العرب في القضاء والافتاء المحلي فحسب (١٢) .

ب ـ لقد كرس «الاسلام العثماني» نفسه باسم (السلطنة) لا باسم (الخلافة) من اجل احداث تجديدات داخل بنية الدولة باصدار «قوانين» اساسية ومهمة في حياة الدولة على عهدي السلطان محمد الفاتح ١٤٥١ ـ ١٤٨١ (في القرن الخامس عشر) والسلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ (القرن السادس عشر) . وبقيت «الدولة» لا تجدد نفسها على امتداد ثلاثة قرون ، اي حتى القرن التاسع عشر ، باصدارها للقوانين الاصلاحية والتنظيمات على عهدي السلطان محمود الثاني ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ والسلطان عبد المجيد الاول ١٨٣٩ ـ ١٨٦١ . . وصولا الى عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ الذي اعلن نفسه «خليفة» على المسلمين باسم «الاسلام العثماني» متبنيا فكرة «الجامعة الاسلامية» عند نهاية القرن التاسع عشر ! (١٣) .

ج ـ لقد ثبت لدينا بالدليل القاطع ـ كما اوضحت ذلك في دراسات سابقة منشورة ـ ان ثمة اشكالية معرفية يجب ان تثار حولها المزيد من المساهمات البحثية الجادة والمعرفية لترسيخ الفهم الحقيقي لطبيعة الحياة العثمانية ـ التي يضطرب التهويميون العرب كثيرا في تقييمها . . سواء في تاريخيتها كدولة «سلطنة» ، او في ايديولوجيتها كاسلام «حنفي» ، او في بنيتها كنظام «عسكري» مماليكي / انكشاري . ان حصيلة جمع هذه «الدعائم» الثلاث سيؤلف لا محالة بنية متماسكة في التاريخ اصطبغت (شرعيا) بالاسلام الذي يمكننا تسميته بـ «الاسلام العثماني» (١٤) .

د ـ لقد استلهم العثمانيون على امتداد عصر نشوئهم وارتقائهم وعصر ازدهارهم وتطورهم ،

(١٣) راجع تحليلاتي النقدية في : سيار الجميل ، العثمانيون . . نفس المصدر ، ص ١٤٣ ـ ١٥٥ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ ـ ١٥٨ .

ثم عصر ضعفهم وانحطاطهم وسقوطهم : جملة من المواريث التاريخية والشرعية والقانونية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية سواء مملوكية او اوربية متنوعة بدءا بشرقي اوروبا ام وسطها ام عن الالمان او الفرنسيين او الانكليز في غربها . ولعل اهم ما استلهمته من المواريث العربية ـ الاسلامية يتمثل بالشرع والقيم والاصول والمبادئ الاسلامية في الافتاء والقضاء والخراج والجزية .. الخ ، ناهيكم عن الاستفادة من العرب وتجاربهم التاريخية في التمتع بالمركزية السياسية مستغلة موقعها الجغرافي (Geographical Location) لبناء استراتيجية دولية واقليمية كبرى في الثغور العازلة بين «دار الاسلام» و «دار الحرب» ... الخ [(١٥)] .

ان كل هذا وذاك مغيب ـ مع الأسف ـ غيابا كاملا عن الفهم العربي الحديث ، والذهنية العربية المعاصرة ... وعن الوعي الجماعي العربي في القرن العشرين ! والانكى من ذلك كله بقاء واستشراء الافكار التهويمية على امتداد عقود طويلة منه دون اية معالجات نقدية لتصويب الاخطاء وبناء افكار جديدة ، ولعل ابرز من ساهم في ان تلد الافكار الخاطئة والخيالية هي : مجموعة واسعة من الخطايا المريعة : التقاليد التربوية القديمة عند العرب والتي خلقت بعد انهيار العثمانيين وكانت ولم تزل ذات فعالية واسعة النطاق على مستوى القيادات والنخب والفئات والجماهير «وكان الاسلام لا يدوم الا بدوام آل عثمان» . ثم الكتابات والادبيات ، والمقالات (وحتى الدراسات) التي اصدرها (اكاديميون عرب) ليس لهم من (العلم والبحث والفلسفة) الا استعراض عضلاتهم الهشة باسمها ... وقد تطفلوا على التواريخ العثمانية وهم بعيدون عنها كل البعد ! [(١٦)] .

ان الماضوية العربية قد اضرت التفكير التاريخي والفلسفي العربي كثيراً بتغييبها للوعي بحقائق الماضي ، واقفال التفكير المعاصر ، والوقوف سدا منيعا امام المستقبل ، ان الماضوية التي تعشش في الادمغة العربية ، قد زادت من رهبتها وعزلتها عن الحياة ، مجترّة التقولات والنصوص ضمن آليات قديمة لم تعد تجدي نفعا امام غلبة التحديث والتحولات المعاصرة في العالم اجمع ، ولم يزل الماضويون يعيشون على حلم الماضي واستعادة امجاد الاجداد المسلمين دون مبرر !

---

(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ ـ ١٩٩ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٨٠ ـ ٨٩ .

٢ ـ الايديولوجيات السياسية :

١/ المواقف . . . السياقات :

انه «اتجاه» ضخم عند العرب في القرن العشرين ، ولكنه مليء بالتناقضات وصراع الاضداد ، وقد برزت عنه ولازمته عدة تيارات ومواقف وآراء وأفكار وكتابات وعناصر : فكرية وسياسية وسلطوية وقومية ووطنية وكتلوية وشعبوية ومذهبية وطائفية وحزبية . . . الخ . والتي شكلت بانساقها المتعددة والمتنوعة على الساحة العربية : مجموعة ركامات من «الخطابات» المستندة في تواريخها وظروفها بياناتها واعلاناتها . . . على عدة «مرجعيات» معقدة في مشاكلها واشكالياتها معا ، بدءا بعهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٦٧ ـ ١٩٠٩ ، ومرورا بعهد الاتحاديين والحرب العالمية الاولى وانهيار الامبراطورية العثمانية وسقوطها ، وبدء حياة التكوينات السياسية الجديدة في المنطقة (الدول المعاصرة) ، وحتى يومنا هذا [١٧] .

ويحتوي هذا «الاتجاه» على سياقات ايديولوجية / سياسية بالدرجة الاولى تتجاذبها طبيعة «العلاقات» بين العرب والاتراك في القرن العشرين بشكل خاص . ولقد وقفت «الخطابات» العربية ايديولوجيا موقف الضد من العثمانيين سواء كانت اصلاحية ام ليبرالية ام معتدلة ام راديكالية ، وهي تقترب كثيرا من الخطاب السياسي «الكمالي» التركي في ادانة المواريث العثمانية دولة ومجتمعا ، دون فهم تاريخي ـ معرفي حقيقي لطبيعة الحياة التاريخية ـ العثمانية [١٨] . ولعل ابرز المواقف الايديولوجية العربية في الضد من العثمانيين ، هي تلك التي عبر عنها «الخطاب القومي» (وخصوصا في المشرق العربي) ، ثم «الخطاب الوطني» (وخصوصا في الولايات العربية : الاقاليم) التي غدت دولا معاصرة . . وكان قد سبقهما الخطاب الاصلاحي الذي شكل في بعض الاقاليم (الدول) العربية ايديولوجيات خاصة بها !!

هكذا ، يجب ان نعلم بان الوهابية والسنوسية والمهدية على الرغم من كون جذورها حركات اصلاحية دينية ، الا انها غدت تيارات مؤدلجة سياسيا في القرن العشرين ،

---

(١٧) راجع دراستي النقدية لأفكار محمد عابد الجابري في : «نقد ابستمولوجية الخطاب العربي المعاصر» مجلة المستقبل العربي ، العدد (١٠٥) ، السنة (١٠) ، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ١٥٣ .

(١٨) سيار الجميل ، العثمانيون . . نفس المصدر ، ص ٥٨ ـ ٧٠ .

بالنسبة للمملكة العربية السعودية او المملكة الليبية المتحدة او بعض الاحزاب والفئات السودانية المعاصرة [١٩].

وهناك النزوعات العربية القديمة المنتمية في مرجعياتها التاريخية الى النظام التاريخي العربي الحديث والمستمد اصوله من الجذور العروبية ذات المواريث الكلاسيكية والمتمثلة نماذجها بالهاشميين في مملكتي العراق والاردن المعاصرتين، وفي سلطنتي العلويين في المغرب الاقصى، والالبو سعيديين في عمان[٢٠]، فانها جميعا كانت ولم تزل تعبر عن روح حيادية ازاء التواريخ التي انتجتها الامبراطورية العثمانية .. على الرغم من تحول نزوعاتها العروبية المتوارثة الى تيارات مؤدلجة وطنية ام قومية منذ الحرب العالمية الاولى حتى اليوم. ولكن ؟

تبقى التيارات الوطنية والقومية العربية المستمدة مرجعياتها عن تأثيرات عثمانية ـ تركية دستورية حرة، او تأثيرات اوربية (مثالية = المانية، او مبادئ فرنسية، او دستورية انكليزية ..) هي التي جسدت ما عبر عنه الخطاب العربي الحديث والمعاصر، وطنيا وقوميا في اتجاه ايديولوجي بدأ ينمو شيئا فشيئا بعد التكوين السياسي الحديث لمصر التي وصل فيها النزوع الوطني المؤدلج الى اقصى مداه في عشرينيات القرن العشرين، وبعد التكوين السياسي الحديث للعراق الذي وصل فيه النزوع القومي المؤدلج الى اقصى مداه في ثلاثينيات القرن العشرين، ولما وصلت الادلجة القومية ـ العربية اقصى مداها في الخمسينيات والستينيات، في كل من سوريا والعراق ومصر، فقد غدت المواقف العربية من التواريخ والمواريث العثمانية اقصى درجات السلبية والتضاد التاريخي .. وهي «حالة» لم يشهدها المغرب العربي (واقصد به: تونس والجزائر)، بفعل رسوخ الاندماج الثقافي والحضاري الذي اداّه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا كل من البايات الحسينيين الاقليميين في تونس والدايات الاتراك الاوليغاريين في الجزائر كنيابتين عثمانيتين شهدتا تطورا عثمانيا لا مركزيا اقترب كثيرا من الاندماج (Assimilation) بين العرب والاتراك.

٢/ زحمة التناقضات وتفجر الصراعات:

لقد عاشت الاجيال الثلاثة في القرن العشرين: جيل الاستنارة المؤسس لما قبل

---

(١٩) للمزيد من وجهات النظر، راجع الكتاب القيم لـ:
Sir H.A.R. Gibb, **Modern Trends in Islam**, Chicago, 1947, pp. 51-97.

(٢٠) سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ص ٩٩ ـ ١٣١.

الحرب العالمية الاولى ، وجيل ما بين الحربين العظيمين (الوسيط) ، وجيل ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٦٧ ، متمخضة عن عدة «انقطاعات» تاريخية متباينة على الرقعة العربية الواسعة بفعل مؤثرات ايديولوجية متنوعة ومتعددة ، شغل بها التفكير العربي ، وعالج تموجاتها وتبايناتها .. ونتجت عنها اختلافات واسعة وصلت الى حدّ الصراعات السياسية العنيفة ، دون ان يحصل الفكر العربي المعاصر منها : منتجات معرفية صادقة ازاء قضايا حاسمة او مواقف علمية دقيقة ، وخصوصا ازاء تكوين التواريخ العربية الحديثة ، بل اشبعت المواقف الايديولوجية بالثقافة وترديد المؤثرات القسرية والشعارات القومية البراقة !!

وعلى الرغم من الصدمات العديدة التي تعرض لها المجتمع العربي في قسماته الجغرافية المتعددة (الدول الوطنية) خلال القرن العشرين ، وبالذات منذ الحرب العالمية الاولى ، الا ان جملة كبرى من الكتابات الفكرية والتاريخية والسياسية[٢١] ، انطلقت كي تفسر التكوينات العربية ابان العهود العثمانية من خلال ثو ابت ايديولوجية ، بعيدا عن المرجعيات المعرفية ، ودون ادراك لطبيعة السيرورة العربية التي انتجتها تاريخيا المؤثرات العثمانية ، او ادراك آخر يقول : بأن المعرفة تسبق الايديولوجية من اجل الحاضر وبناء المستقبل .

ان المعرفة التاريخية الحقيقية المبتعدة في انظمتها وانساقها ومناهجها عن التوجهات والتحزبات والانقسامات والتناقضات والصراعات الايديولوجية تعد انماطا لتطوير الحياة العربية من خلال وعي تاريخي رصين ، فلقد ادت الايديولوجيات السياسية المتنوعة سواء كانت وطنية ـ قطرية ، او قومية ـ عرقية ، او امية ـ عقائدية ، او ثورية ـ راديكالية ، او سلطوية ـ ديماغوجية ... الخ ، الى افلاس انماط التفكير المعرفي العربي»[٢٢] ، بـدءاً بمؤسسات التربية والتعليم ، ومرورا بالمدارس والكليات والجامعات ، ثم الصحافة ودور النشر واجهزة الاعلام .. وانتهاء بكتابات المفكرين العرب الكبار الذين يجهل بعضهم التكوينات التاريخية الحقيقية التي انبثقت عنها كيانات العرب في القرن العشرين بفعل

(٢١) برز عدد كبير من الكتاب والمفكرين العرب في القرن العشرين ، ممن تأثروا بالايديولوجيات المتنوعة سواء كانت وطنية ام اصلاحية ام ليبرالية ام قومية ام ماركسية .. الخ وخصوصا في مصر ولبنان بما انتجته مطابعها ودور النشر فيها .

(٢٢) من ابرز من عالج هذه «الجوانب نقديا (مع اختلاف منهجيتها) : عبد الله العروي ، الايديولوجية العربية المعاصرة ، ترجمة : محمد عيتاني ، تقديم : مكسيم رودنسون . ط ٣ (بيروت : دار الحقيقة . ١٩٧٩) .

محمد عابد الجابري ، الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية . ط ٢ بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٥) .

رواسب تلك «التكوينات» وبقايا الفاعلة الواضحة او المستترة . . كما وجدت ان بعض الزعماء والقادة العرب لا دراية له بابسط المعلومات التاريخية عن «واقع» مطلع هذا القرن!! فكيف بإمكانه أن يبني احكامه وتجاربه ومواقفه ؟

٣/ التجزئة والانقسامات :

لقد كان في مقدمة السلبيات التي انتجتها الايديولوجيات السياسية ـ العربية المعاصرة هو ترسيخ التجزئة العربية فعلا التي ادانها المؤدلجون القوميون مثلا ، والذين اتهموا كلا من الاتراك العثمانيين والمستعمرين الاوروبيين كونهم وراء التفكك (القومي) العربي . . . وقد اكدت ذلك ـ مثلا ـ كتب التواريخ المدرسية والتعليمية التخصصية . وغدت الايديولوجيات العربية توزع الادوار التاريخية في حصص معينة بما يخدم اغراضها واهدافها (الوطنية) (٢٣) . وعليه ، فلقد استخدم (التاريخ) اذا من اجل ترسيخ واقع التجزئة ـ دون التاريخ العثماني الذي توحدت فيه أبرز قسمات المجتمع العربي وعلى امتداد اربعة قرون ـ ، فكان ان اهتم السوريون بالامويين ، واهتم العراقيون بالعباسيين ، واهتم اللبنانيون بالفينيقيين ، واهتم المصريون بالفاطميين ، واهتم التونسيون بقرطاج . . . الخ ، وماذا ايضا ؟

لقد ازدادت الشحنات الايديولوجية العربية كثيرا مع انتهاء جيل ما بين الحربين العظميين ، الذي كونته نخبات مثقفة واعية بمدركات الامور وفي بيئات ومواطن عربية معينة وخصوصا في مصر ولبنان وسورية والعراق وتونس . . وهي نخبات انتليجنسانية رصينة ، اضطلعت بمهام تاريخية خطيرة من اجل تحقيق الاستقلالات الوطنية العربية ، وهي ممتلكة بشكل او بآخر للوعي التاريخي بمصادر التكوينات التاريخية العربية المعاصرة . وهي مصادر عثمانية سياسية ، وهو جيل كان معجبا كثيرا بالكمالية التركية وتركيا الحديثة . ولكن ، بدأ يتوالد جيل جديد ، برز فجأة بعيد الحرب العالمية الثانية وهو يشتمل على انصاف مثقفين ومثقفين ومفكرين عرب جدد . . راحوا يوما بعد آخر ينغمرون في تعقيدات ايديولوجية سواء كانت ليبرالية ام شوفينية ام راديكالية ، فاحتوى بناؤهم الفكري على المزيد من التناقضات والتلفيقات والتوفيقات والايمان بالمزيد من الشعارات

---

(٢٣) للمزيد من الآراء والافكار ، انظر : Anwar G. Chejne, "The Use of History by modern Writers" **Middle East Journal**, vol, (Autumn 1960), pp. 387-392.

دون التطبيقات ! . . . واحداث المزيد من الرتوقات سواء باسم «الوطنية» او «القو مية» او «التراثية» او «الماركسية» او «النازية» . . . الخ ، ورغم اصطباغ تلك البنية الفكرية العربية بالصبغة القومية المثالية (كالتي ارادها ساطع الحصري - مثلا -) ، او الشوفينية (التي ارادها سامي شوكت - مثلا - في صناعة الموت) ، او الاشتراكية (كالتي ارادها القوميون العرب) او القومية - الاسلامية (كالتي دعا اليها الدكتور عبد الرحمن البزاز) . . . الخ

لقد وقع الايديولوجيون العرب بعد ابتعادهم عن الوعي التاريخي للتكوينات التاريخية الحديثة بين قوة السلطة واستحواذاتها الاقليمية باسم «القومية» وبين حلم «الوحدة» ورومانسيتها الجديدة دون اي اكتراث بما هو عليه الواقع العربي الذي توالد في القرن العشرين من انتاجات الامبراطورية العثمانية ورواسبها التاريخية . فلقد بقيت كل من النزعتين العربية - العثمانية (والتي اسميتها بـ العربثمانية) [٢٤] مندمجة و مستقرة وكامنة في انساق البنية الفكرية سايكلوجيا وسوسيولوجيا في اعمال اللاوعي العربي . . وبقيت دون اي ادراك لما يمكن ان تؤديه لمعالجة الواقع ، وترشيد تكويناته المعاصرة ايديولوجيا ومعرفيا معا في اعمال الوعي العربي [٢٥] وهي «معادلة صعبة» لم يستطع العرب استكشافها مبكرا او مؤخرا . . فكيف باستطاعتهم استخدامها ؟

٤/ تحليل للتناقضات :

ان «معرفة» كهذه ستعمل لا محالة برصانة وامانة على تكوين انظمة معرفية تعتمد العقل قبل العاطفة ، والواقع قبل الخيال . . انظمة فكرية (لا ايديولوجية) ، تفكك اجزاء الواقع لنقده ومعالجته قبل الانغمار في تيارات غريبة عنه ، يلتزمها المؤدلجون العرب ليركضوا تباعا وراء حلول جاهزة رفدتها منظومات سياسية واجتماعية وفكرية بعيدة عن الواقع العربي وعن تكويناته التاريخية والاجتماعية كل البعد ! وعليه يمكننا ان نتساءل : هل نفعت شيئا وعلى امتداد عقود هذا القرن : الكمالية والنازية والفاشية واللينينية والماوية والعنف الثوري وحرق المراحل والقفزة النوعية . . الخ ، كبدائل ايديولوجية تحكمت في المنظومات الاجتماعية والثقافية على مدى خمسين سنة . . . واثرت كثيرا في المصائر التاريخية للامة العربية ؟؟

(٢٤) سيار الجميل : العثمانيون . . نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٢٥) للمزيد من التحليلات النقدية ، انظر سيار الجميل ، «المشروع الحضاري العربي : اشكاليات الوعي وتحليل التناقضات» مجلة آفاق عربية ، العدد (٥) ، السنة (١٩) ، مارس - ايار ١٩٩٤ ، ص ٣٢ - ٤١ . وانظر : الفصل الثالث من كتابي : التحولات العربية . . ، سبق ذكره ، ص ٨٦ -١١٣ .

فما معنى ذلك كله

أ – لقد تفاقمت ادلجة التناقضات العربية كثيرا في خضم واقع مجزأ ومهترئ ، وقعت جميع الايديولوجيات العربية (الوطنية والقومية والراديكالية) في خطأ جسيم ، عندما اعتبرت «التجزئة العربية» من فعل الاستعمار الاوروبي او الغربي (انكليزيا أو فرنسيا او ايطاليا) لوحده فقط ! . . بسبب من تغييبها العوامل التاريخية والسوسيولوجية لما كان عليه واقع العرب في الظل العثماني [٢٦] وما جرى فيه من تحولات لا مركزية واسعة النطاق ابان القرن الثامن عشر ، فضلا عن جملة من التغيرات الاصلاحية والادارية المركزية والتنظيماتية ابان القرن التاسع عشر :

ب – ان جميع الايديولوجيات (الليبرالية الوطنية والاصلاحية الدينية والقومية العربية والراديكالية الثورية . .) بدأت واستمرت تتواصل من خلال جماعاتها واحزابها ومنظماتها داخل السلطة او خارجها . . وهي منقطعة عن تكوينات تاريخنا وحركته وتفاعلاته ، فلم تستطع ان تقدم من واقع الحياة والاحوال العربية (السياسية والاجتماعية خصوصا) شيئا من المعالجات ، بل ساهمت كثيرا في تعقيدات مشاكله اكثر بكثير مما يجب ان يكون عليه . . فضلا عن القطيعة التي فرضتها بين عناصر الحداثة المعاصرة التي عاشتها في القرن العشرين [٢٧] ، وعناصر الاصلاحية العثمانية التي عاشها الاباء في القرن التاسع عشر ، وكلا الحالتين ـ في نظري ـ لم تنجحا ابدا في ان تترافقا لكي تتطوران لغرابتهما عن احتياجات الواقع والمجتمع . . ناهيكم عن ان كلا منهما لم تصلحا ابدا في خلق « البدائل» الحقيقية لعملية النهوض بالامة . . في حين لم تفعلا دوما الا في تكريس النقائض !

ج – يمكننا القول أيضاً ، ان ليس هناك البتة ، عمليات تحديثية صرفة لكل من الدولة والمجتمع لدى العرب المعاصرين كالتي عاشتها شعوب ومجتمعات اخرى كروسيا واليابان وتركيا – مثلا ـ بسبب ولادة الايديولوجيات المتنوعة والثقيلة بزحمتها وما خلقته

(٢٦) من اجل التوسع في العوامل التاريخية لذلك ، انظر الافكار الرصينة التي تقدّمها : محمد شفيق غربال في محاضراته الموسومة : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الامة العربية على ما هي عليه اليوم ، القاهرة ، ١٩٦١ .

(٢٧) ان ابرز من عالج عناصر الحداثة المعاصرة عربيا : هشام شرابي/ حليم بركات/ فؤاد زكريا/ برهان غليون/ ادونيس / محمد عابد الجابري / جورج طرابيشي / مطاع صفدي وغيرهم .

من تناقضات صارخة (دينية/ وطنية/ قومية/ ليبرالية/ ماركسية/ ماوية . . .) ، قادت جميعها الى صراعات دموية ، وانقلابات عسكرية ، وحروب اهلية ، وانتفاضات مسلحة على امتداد عقود القرن العشرين ، وسيظهر للمؤرخ الرؤيوي في قابل اثر رؤيته الشمولية للعرب واحداثهم المعاصرة وتحولاتهم البطيئة وارتداداتهم الصعبة في هذا القرن !! سيظهر له كيف قفز العرب دون دراية مطلقا من طور الاصلاحية العثمانية الى طور استنارة النخبة (لا الجماهير) الى طور الاحزاب الليبرالية المستفيدة (لا الوطنية الحقيقية) ، الى طور الراديكالية الشورية [٢٨] . . والتكلم باسم النظام المؤسسي والشرعي (والمعرفي) دون ان يكون لذلك «النظام» اي اساس من الحقيقة !!

٥/ المحددات والتوصيفات :

ويفترض طرح التساؤل القائل : هل ثمة تنسيق تاريخي مع سيرورة التواصل بين جيل عربي وآخر من اجل البناء والتكوين والتقدم المعاصر؟ والجواب : في الحقيقة ، كلا ، فكل جيل يأتي يسفه ما فعله وقدمه الجيل الذي سبقه عربيا على امتداد القرن العشرين ، ويمكننا ان نحدد «التوصيفات» الابيستمولوجية لذلك كله :

١ - ان الذي لم تستطع خلقه وتكوينه الحالة الاولى ، تعجز الثانية عن خلقه وتكوينه ، بل تساهم «الاخيرة» في دفع المجتمع ومؤسساته الى الوراء فكرا وايديولوجية وسلوكا (تاريخ النظام الجماعي) .

٢ - خابت مساعي كل من الحالتين في بناء «معرفة تاريخية وفلسفية عربية» للعرب المعاصرين يتجاوز حدود التخصصات الخارجية ، وخطوط الجغرافية السياسية . . وهو يعمل على بناء جماعي للتاريخ الحديث وتكويناته العثمانية المشتركة ، مدركا لقيمة الزمن تاريخيا ، وقيمة المعرفة اجتماعيا ، وقيمة الحياة الدنيا فلسفيا . . ويهتك الحجب للواقع المزري بكل تناقضاته ورواسبه التاريخية وبقاياه الضارة . . من خلال ممارسة حرية النقد والتربية الجديدة .

---

(٢٨) من اهم الكتابات في هذا الصدد :

Hisham B. Sharabi, *Arab Intelectuals and the West: The Formative Years, 1875-1914*, (The John Hopkins Univ.Press,Baltimore,1970), 1970. See also, Sylvia Haim, *Arab Nationalism*, (California: University of California Press, 1962).

٣ - الايمان الراسخ والطاغي بأن المجتمع العربي سيطفر خلال شهور وسنين قليلة من اوضاعه المزرية المتخلفة الى اطوار الحضارة العالمية المعاصرة ، بل ويتجاوزها تكنولوجيا .. وقيادته لمركزية العصر ! وهذا ما اكدت عليه ادبيات عربية تهويمية وايديولوجية (وحتى اكاديمية مع الاسف) كثيرة ، هولت خيالاتها وتعجباتها لتعمل على قياس «الحلم» كـ «حقيقة ثابتة» دون معرفة تاريخية بما عاشته مجتمعاتنا العربية في ظل الانماط الاسيوية للحياة ، او في ظل الانعزال والسكونية والجمود ، او في ظل المهترءات القديمة لـ «قوانين نامة لر» في القرنين السابع عشر والثامن عشر .. وفي ظل المعادلة غير المتكافئة بين الاصلاحية الدينية الاجتماعية والتنظيمات الدنيوية الرسمية في القرن التاسع عشر !

٤ - وعلى اساس ذلك «الحلم» استغلت الايديولوجيات الثورية زمنها وعناصرها وواقعها لتحقيق «قفزة نوعية في كافة المجالات» عاشت على «حلم» تحقيق اهدافها وشعاراتها ، وجعلت الذين يؤمنون بمبادئها في حالة احباط وقهر دائمين دون ادراك ما يمكن ادراكه بأن المسافة بين «الحلم» و «الواقع» كبيرة جدا يصعب تصديقها ، فكيف يمكن اجتيازها ؟؟

٣ - المعرفة التاريخية :

١/ نقد للتفكير .. المنهج ... والممارسات :

على الرغم من اهتمام العرب بالمعرفة التاريخية (الاكاديمية) منذ بعيد الحرب العالمية الاولى ، ولكن يجدها الناقد الدارس ، انها التزمت ـ هي الاخرى ـ بجوانب غير معرفية او غير منهجية .. فقد تأتي مرة مكتسبة لبعض «التهويمات» ، او تأتي مرة مبررة لبعض «الايديولوجيات» ، او بعض «الاسر والسلالات» ، او بعض «النماذج والموديلات» ... الخ ، ربما كان تماسها كبيرا مع استفحال بالايديولوجيات السياسية (الوطنية والقومية) وفي اغلب القسمات العربية ، فجعلت نفسها في خدمة بعض المبررات التكوينية والسياسية المعاصرة ... دون ان تبحث في الجذور التاريخية ـ العثمانية التي انبثقت عنها التكوينات السياسية المعاصرة ، ودون اية عملية معرفية لفهم فلسفة تلك «التكوينات» ، او تحليل انتماءاتها ، او تفكيك انساقها ، او نقد انظمتها المتنوعة .

ويمكنني القول ، ان المعرفة التاريخية ـ العربية لم تتفوق كثيرا في كتابة تواريخ متنوعة سواء في الكلاسيكيات القديمة ، او الاحقاب الوسيطة ـ الاسلامية ، ستنجح في تأطير

التواريخ الحديثة وعلى رأسها تواريخ الامبراطورية العثمانية؟ وكانت علّة العرب ، انهم فهموا خطأ بأن المعرفة التاريخية هي «جمعا وسردا» فحسب ، دون اية عملية للتوغل في استبطان الوقائع لا النصوص فقط ، ودون اي ادراك منهم انها عملية «فهم ووعي» . كما وان المؤرخين العرب لم يقدموا اية علاجات فكرية ، لما يمكن ان تصاغ عليه حالة الحياة المعاصرة[٢٩] ، لأنهم كما نعلم ادرى الناس بمشاكل الامة التاريخية ، وترسبات القرون السالفة ، وخصائص الزعماء ، واحوال المجتمعات ، وطبيعة الثقافات .. وتحولات الاقتصادات ... الخ . لقد انشغل المؤرخ (والمفكر) العربي بنصوصه وأوراقه الصفراء ، ومادته القديمة وراح ينعزل عن واقعه الاجتماعي اولا ، ويقفل نفسه عن الاخرين ثانيا ، ولا يجد في مادته التاريخية اية صورة ممكنة من «الانقطاعات» او «التقاطعات» .. او انه يذهب ليمجد ويتفاخر بالماضي تهويميا ، او انه يذهب ليسفه احوال الماضي وعناصره وشخوصه ايديولوجيا .. ولم يدرك ان مهامه الاساسية تكمن في رفد ما يحتاجه المجتمع والواقع والتفكير والمستقبل من اثراء للتجارب التاريخية ، وتحليل للظواهر التاريخية معرفيا !

٢/ دعوة للاهتمام بالعثمانيات :

لعل اقرب التواريخ الاساسية للعرب المعاصرين هي تواريخ الامبراطورية العثمانية التي كانت على امتداد هذا القرن : مثار اهتمامات المعرفيات التاريخية الغربية (وبشكل خاص : الالمانية والانكليزية والامريكية و الفرنسية ..) وقد اشتغل عليها علماء ومؤرخون وجغرافيون واثاريون وساسة وقناصل وعلماء اجتماع .. الخ . وكان لا بد للعرب ان يهتموا بـ «العثمانيات» كلها بعد الاتراك ، نظرا لاشتراك غالبيه المجتمع العربي وقسماته وبيئاته مع الاتراك العثمانيين في الظل العثماني على مدى اربعة قرون [٣٠] ، ولكن هذا لم يحدث نظرا للتوجهات التهويمية والانظمة الايديولوجية التي دفعت التفكير العربي الى منزلقات بعيدة عن المعرفة التاريخية والفلسفية معا .. ناهيكم عن فعل السياسات المرتبطة بالعاملين المذكورين حتى عام١٩٦٧ ، اي عام الهزيمة التي شكلت صدمة تاريخية مريرة وقاسية في الوجدان والتفكير العربيين .

(٢٩) سيار الجميل . «الخطاب التاريخي العربي» ، نفس المصدر ، صفحات متعددة .

(٣٠) لعل ابرز مؤرخ عربي صرف حياته واهتماماته لبناء هذا التوجه وترسيخه اشاعة مفاهيمه هو الاستاذ عبد الجليل التميمي في نشاطاته العلمية الدؤوبة انظر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ كتابة الرصين : دراسات في التاريخ العثماني ١٤٥٣ ـ ١٩١٨ ، (تونس ـ زغوان : أفترسي ، ١٩٩٤) .

وعلى الرغم من كل التصادمات والتناقضات لا التلاقحات والتفاعلات ، تلك التي حدثت بعد الهزيمة ، الا ان الذي هزم في هذا «الجيل الاخير» واقعا وخطابا تلك «الايديولوجيات» العربية سواء كانت في قلب السلطة ام في خارجها وعلى هوامشها .. في حين تفاقمت على حسابها الماضويات والتهويمات) . ولما كانت حاجة المجتمع العربي كبيرة للمعرفة والبناء من اجل سيرورة الحياة نحو الافضل .. بدأت عملية الانقضاض الماضوي والاستسلام للاوهام والخيالات والتفكير الطوباوي والخرافي ! ورغم ذلك كله ، فان ثمة «دراسات» و «بحوث» عربية انتجت هنا ، ونشرت هناك وهي تتطلع لتقديم وظيفة تاريخية للمجتمع العربي الغارق في امراضه الفكرية [٣١] ، والذي كان ولم يزل يعيش على ذكريات امجاده وهو اليوم في فقر مدقع ... ناهيكم عن كونه لم يزل يزايد على فتات رواسبه التاريخية بايجابيات بقاياها الحضارية وسلبيات افرازاتها وخطاياها العقيمة!

٣/ العناصر والتكوينات :

ان معرفة التكوينات العثمانية وعناصرها ، هي القادرة على ايجاد حلول حاسمة لركام كبير فيما حصل من تناقضات ومشاكل لا تحصى في عملية التحولات . وان التمكن فيها سيخلق الوعي بطبيعة الاختلاف بين افرازات التاريخ الاسلامي وافرازات التاريخ الاوروبي ، فضلا عن فهم واسع وحقيقي لحالة «التقاطعات» الاساسية في تاريخنا العربي والاسلامي على امتداد اكثر من الف سنة ... إذ ان «الوعي» المعرفي بتلك «التقاطعات» سيخلق مفاهيم جديدة للحياة العربية ، وهذا ما لم يحدث في القرن العشرين .. فيا حبذا لو حصل وتكامل لدى الاجيال القادمة في القرن الحادي والعشرين . كيف؟

ان التكوينات العثمانية وعناصرها التاريخية هي التي تحدد طبيعة الديالكتيك المعرفي عند العرب والاتراك معا ، واذا كان الاتراك قد خبروا «ذلك» بعض الشيء ، وانهم قد تجاوزوه ، فان العرب بكل ثقل مواريثهم الصعبة ، وعلى الاخص السوسيولوجية منها :

(٣١) يمكننا ان نسجل باعتزاز اسماء بعض المؤرخين العرب الجادين المؤسسين في هذا المضمار : عبد الجليل التميمي (تونس) / عبد الكريم رافق (سوريا) / محمد عدنان البخيت (الاردن) / مسعود ضاهر ووجيه كوثراني وخالد زيادة وعصام خليفة (لبنان) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم واحمد عبد الرحيم مصطفى (مصر) / وابو القاسم سعد الله وناصر الدين سعيدوني (الجزائر) وفاروق أباظه ومحمد عيسى صالحية (اليمن) وأبو حاكمة وأبو عليّه (الجزيرة العربية) ، وغيرهم .

كالبداوة والقبائلية والعشائرية و التواكلية والطرقية والمذهبية والتراجعية والطوباوية والتزمتية والازدواجية والماضوية والانقسامية .. الخ ، لا يزاولون تحت وطأتها المريرة ، وسيشعر العرب باخفاقات ذلك من خلال المعرفة بالتحديات من اجل تحقيق الذات والشروع بالتحديثات ، وردم التناقضات كمشروع اعظم لم يزل حلما في التفكير العربي خصوصا وان العرب انفسهم يحملون في اصولهم وحياتهم قيما مجيدة ذات مزايا وسجايا قلما ظفرت بها شعوب اخرى على امتداد تاريخ طويل !

٤/ التطورات في بعض المؤسسات :

ان المعرفة التاريخية العربية اتجاه علمي محض تبلورت في خضمه منذ عقد السبعينات وعلى مدى يقترب من ربع قرن : عدة دراسات وبحوث وكتب واطروحات جادة في دراسة تاريخ العرب الحديث [٣٢] الذي لم يزل بحاجة الى المزيد من الاهتمامات الى جانب تواريخ الدولة العثمانية التي كانت لها شراكتها التاريخية ، بل وكان لها دور المؤسس في صياغة تواريخنا الحديثة منذ القرن السادس عشر . وعليه ، فان اتجاه المعرفة العربية بحاجة الى ان يرفد نفسه بالمناهج الجديدة ، وان يكشف لنا عن ثراء المعلومات التاريخية الجديدة .. والبحث في جزئيات (محليّات) الواقع الاجتماعي والاقتصادي والفكري والثقافي والتراثي المرتبط بالازمنة الحديثة .

لقد اخذ اصحاب هذا «الاتجاه» على الرغم من قلّتهم في المحيط التخصصي العربي يفرضون كتاباتهم المتميزة والرصينة ، و يحاولون ردم الافكار ، وتسفيه الشعارات ، ونقد التقولات التي اشاعها الايديولوجيون والساسة والزعماء والمفكرون غير الاكاديميين ، حول التواريخ العثمانية التي صبغوها في الذهن وزرعوها في الوعي ، وبثوها في عقول التلاميذ والطلبة في المدارس والجامعات ، واشاعوها في الصحف والمجلات .. وغدا التفكير التاريخي العربي قاصرا في رؤيته بالنسبة لنفسه ، او بالنسبة للآخرين ، وهذا ما نتلمسه ايضا في التفكير المضاد لدى الاتراك بالنسبة للعرب وتواريخهم واحوالهم سواء في

---

(٣٢) راجع ما كتبه رفعت ابو الحاج في مقالته : Rifat Abu El-Haj, "The Social Uses of The Past: Recent Arab Historiograpgy Ottoman Rule" , in *International Journal of Middle East Studies*, vol. 14, May 1992.

الكتب الدراسية ، او في المناهج التعليمية ، او في اجهزة الثقافة الاعلام والصحف والمجلات . . . الخ [٣٣] .

المهم ان هذا «الاتجاه» سيبقى على ايدي نخبة متميزة من المؤرخين والعلماء العرب المحدثين الى تحقيق معلومات جديدة ، ونشر مخطوطات نادرة ، والكشف عن وثائق خطيرة ومهمة جميعها لتقويم وتصويب الاراء والافكار المسبقة والخاطئة عن العثمانيين في المنطقة العربية . و بما تجدر الاشارة اليه : ان اغلب تخصصات هذه «النخبة» العربية من المؤرخين والعلماء العرب ، هي تخصصات جزئية وغير كلية ، وغير كلية ، وقطرية غير شمولية سواء كانت : مصرية ام سورية ام لبنانية ام عراقية ام تونسية ام طرابلسية ام جزائرية ام سعودية . . الخ ، اذ يندر ان نجد تخصصات عثمانية وجماعية وشمولية لمحيط العثمانيات الهائل !

ان تطوير هذا «الاتجاه» وانمائه بالدراسات والبحوث والمعلومات هو حاجة عربية ملحة وضمن تنوع في المناهج الاساسية والمساعدة من اجل رفد الحياة الفكرية العربية بما ينفعها في بناء المستقبل ، ولقد غدت تونس موئلا لذلك كله بعد تأسيس الهيئة العربية للدراسات العثمانية (A.C.O.S) ومن قبل بعض العلماء العرب المختصين ، وانبثاق مركز سيرمدي (CEROMDI) للدراسات العثمانية على يد المؤرخ الاستاذ عبد الجليل التميمي وقد تطور المركز الى مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات (افْتَرْسِي) ، وانعقاد عدة مؤتمرات دولية كبرى ومتخصصة عن الحياة العربية في الولايات العربية ابان العهد العثماني . . . ناهيكم عن اصدار عدد واسع من الكتب والملفات والتقارير والمجلات العلمية المتخصصة عن المؤسسة المذكورة [٣٤] التي تقع في مدينة زغوان التونسية والتي

---

(٣٣) من الاهمية ، مراجعة اعمال وبحوث ندوة مركز دراسات الوحدة العربية بيروت للفترة ١٥ ـ ١٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٣ والمنشورة في كتاب : **العلاقات العربية ـ التركية : حوار مستقبلي** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٥) مؤكدا على دراسات : عبد الجليل التميمي ووجيه كوثراني وخالد زيادة وابراهيم الداقوقي وسيار الجميل .

(٣٤) لقد نجح مركز سيرمدي (CERMODI) بعقد المؤتمر التأسيسي للدراسات العثمانية عام ١٩٨٢ بالاشتراك مع اللجنة العربية للدراسات العثمانية اكوس (A.C.O.S) ، وتوالت مؤتمراته الدولية المتخصصة : الاول عام ١٩٨٤ ، والثاني عام ١٩٨٦ ، والثالث عام ١٩٨٨ ، والرابع عام ١٩٩٠ ، والخامس عام ١٩٩٢ ، والسادس عام ١٩٩٤ ، والسابع ١٩٩٦ . وقام بنشر كافة اعمال هذه المؤتمرات بعدة مجلدات وبلغات ثلاثة : العربية والفرنسية والانكليزية ، فضلا عن اصداره العديد من الكتب . . كما ونجح في اصدار اكثر من مجلة حولية رصينة ، ومنها «**المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**» التي تعد واحدة من ابرز الدوريات في تاريخ المعرفة العربية المعاصرة .

تعد من اجمل المدن العربية .. ولقد غدت هذه المؤسسة الحيوية بؤرة اشعاع معرفية في الحياة العلمية العربية تطورها ، اذ كان في مسيرتها وخطواتها ، علامات مضيئة سواء على مستوى ائتلاف نخبة رائعة من المؤرخين العرب ورفد اتجاه المعرفة التاريخية العربية بالمزيد من الافكار والاراء والنقدات والمعلومات التوثيقية الجديدة التي كانت لها اكبر الاثر في تصحيح عدة مفاهيم خاطئة كانت تسود في الثقافة العربية والمجتمع العربي حول العثمانيين ووجودهم الطويل في البلاد العربية ، وتأثيرهم البالغ في تكويننا العربي الحديث والمعاصر .

٥/ اليوم : نحن بحاجة الى اساليب عمل ومناهج وفلسفات :

ان المعرفة العربية ـ اليوم ـ بحاجة ماسة الى مناهج جديدة في التربية التاريخية للاجيال القادمة من اجل تأسيس وعي تاريخي / معرفي جديد يطمع لاستيعاب المتغيرات وفهما عربيا (اقليميا وقوميا ودوليا) ... ومن اجل تأسيس تفكير عربي جديد له القدرة على مواجهة ما سيحدث في القرن القادم بعد تصفية الحساب مع خطايا القرن العشرين .. ناهيكم عن مناهج مستحدثة في الكتابة التاريخية لتشكيل موروث اصيل ومبتكر ، يمكن له ان يقدم للاجيال القادمة العربية ما تحتاجه من التجارب والمفاهيم والافكار والاستنتاجات القادرة جميعها على حل ما سيصادف العرب في المستقبل من تحديات ومتغيرات خطيرة المحتوى والمضامين .

ولعل اقرب التواريخ ذات العلاقة بتشكيلات التراكيب السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية .. هي التي تشغلها القرون المتأخرة ، او ذيولها التي تشغلها احداث هذا القرن .. وان ابرز ما يخدم المناهج المذكورة والتفاسير والتنظيرات جملة من الاساسيات المعرفية التي يجب تمكينها عند العرب :

١ - اعتماد «المعرفة» و «الموضوعية» و منتهى «العلمية» في قياس الظواهر ، واستبطان الاحداث ، وتحليل النصوص وتقييم الشخوص ... والابتعاد عن العواطف والتهويمات والايديولوجيات في اطلاق الاحكام ، والكفّ عن مصادرة الافكار من خلال الاعتماد على كتب انشائية ، ومقالات سياسية ، او مخاطبات دينية !!

٢ - تأسيس دقيق وبالسرعة الممكنة لتحرير الاعمال الموسوعية والانسكلوبيدية والمعجمية والفهارس والبايوغرافيات والببلوغرافيات .. الخ

٣ - نقد الكتابات والاعمال التاريخية والفكرية والبيانات والآراء والمواقف والمقالات

والخطابات التي ازدحم بها الميراث السياسي والفكري لعرب القرن العشرين .

٤ – الشمولية والموضوعية في فهم التواريخ العربية الحديثة ، والوعي بعثمانيات الشرقين الادنى والاوسط .. دون الانطلاق لمعالجة ذلك من زوايا محددة ، من خلال الاعتماد على «مراجع» لا يمكن الاطمئنان الى سلامتها ، او الوثوق بمعلوماتها ، بل لا بد من الاعتماد على «المصادر» الاصلية كالوثائق والتواريخ المخطوطة والتقارير الرسمية ... الخ .

٥ – الاستفادة من العلوم المساعدة في فهم الظواهر و المضامين والبنى والأفكار والعناصر والارقام ... الخ كالعلوم الجغرافية والاقتصادية واللغوية والسوسيولوجية والدينية والعمارة الاسلامية ... الخ للاستفادة منها في تحليل الوجود العثماني في الاراضي العربية .

٦ – العمل على ارشفة الادبيات التاريخية العربية في العهد العثماني ، ضمن مشاريع معرفية للفهرسة والنشر من اجل حفظ مأثرات البيئات العربية التي كان لها ثقلها الاساسي في العهد العثماني .. وكان للجامعة الاردنية دورها البارز في هذا «المجال» بنشرها لـ «فهرس الارشيف العثماني» الذي يحتوي على مادة وثائقية مهمة جدا بجهود المؤرخ الاستاذ عدنان البخيت الذي غدا له منهجه في التاريخ المحلي وتخرّج على يديه عدد كبير من الباحثين الذين تخصصوا في محليات المدن الاردنية والفلسطينية وجوارها (٣٥) .. مؤكدين على سجلات المحاكم الشرعية ودفاتر الطابو ..

٧ – لم تزل هناك العشرات بل المئات من المخطوطات المهمة التي كتبها اصحابها ابان الفترات العثمانية منتشرة في البيئات العربية وفي عدد بارز من مكتبات العالم .. وهي تحتوي على مادة غزيرة بمعلوماتها ونصوصها ووقائعها بحاجة الى تحقيق نقدي مقارن ونشر .. ثمة ملاحظة مهمة لا بد لي ان اذكرها في هذا «المجال» ذلك ان كلا من العراق واليمن وعمان والمغرب .. هي بيئات تزدحم كثيرا بالمخطوطات التي كتبت ونسخت في العهود العثمانية وتكاد تكون كل مدينة عربية كبيرة ، قد اشتهرت بواحد او اكثر من التواريخ او العناوين ، امثال : فاس ودمشق والموصل

(٣٥) ومن أبرزهم :نوفان رجا الحمود (عن عمان وجوارها) ، وهند ابو الشعر (عن اربدوجوارها) ، وجورج طريف (عن السلط وجوارها) .

وقسنطينة وبغداد وطرابلس الغرب ومكة المكرمة وحلب والبصرة ومسقط . . ان الحاجة تدعونا كثيرا الى تحقيق ادبيات المدن العربية ومأثوراتها الخالدة :

٨ - وهذا ينقلنا ـ ايضا ـ الى التمكن من منهج او اكثر في المعرفة التاريخية التجزيئية لمدننا العربية كافه وبيئتها الخصبة من خلال مصادرها المحلية كالوثائق والسجلات والاوراق الخاصة والمأثورات الثقافية والاجتماعية وما تركته لنا محاكمها الشرعية وادارتها وبلدياتها واديرتها ومؤسساتها الوقفية . . . الخ من الاوراق المهمة التي تعرفنا على الحياة التاريخية التي عاشها مجتمعنا العربي في اطار وحدته وتنوعه .

المستقبل : التاريخ + الواقع + الذات :

السؤال الاخير : كيف يمكن تطوير «المناهج» في الكتابة التاريخية العربية [٣٦] ؟

نعم هذا امر ممكن حصوله ، وذلك بامتلاك ذهنية منفتحة اساسا على تجارب المدارس العلمية والمعرفية والفلسفية في العالم المعاصر ، ذهنية تسمح بالتفكير في عالم نفكر فيه تاريخيا وسوسيولوجيا حتى يومنا هذا ، وضمن ادوات نقدية ورؤى فلسفية ومناهج معرفية ومفاهيم عقلانية تشخص كل التناقضات المتوالدة من خلال تواريخنا الحديثة بنظاميها العربي والعثماني . . فضلا عن تفكيك ما افرزه الواقع السياسي المعاصر وليد تلك «التاريخية العثمانية والعربية القديمة» من الدوغمائيات المنظورة وغير المنظورة في حياة المجتمع : دوغمائيات مفروضة سياسيا ، ودوغمائيات تتصل باللاوعي من خلال الذهنية المركبة لمختلف الفئات والنخب الاجتماعية والفكرية المشاركة في صنع الواقع السياسي والاجتماعي العربي .

ان تحليل عوامل كل هذا وذاك من خلال تشخيصه ، لا يتم الا عبر مسار طويل من عملية البحث عن مضامين تاريخية اساسية ، واثارة اشكاليات مهمة ، والتحرر دراسيا من طوق ما فرضته التقاليد التهويمية وسلبياتها سواء كانت مذهبية او طائفية ، وبعيدا عن

(٣٦) لقد تبلور في ذهني هذا «التساؤل» منذ سنوات اكاديمية طويلة وفي تجربتي في دراسة التاريخ العثماني . . ويمكن طرحه اليوم محاولة للبحث عن اجابات منهجية بعد قراءتي للافكار الرصينة التي طرحها المؤرخ التركي الشهير خليل اينالجيك في احدى دراساته ، انظر :

Halil Inalcik, "Biases in Studing Ottoman History" in *Studies on Turkish Arab Relations*, (S.O.T..A.R) O, Istanbul, vol. 2, pp. 9-11.

الشعارات الايديولوجية ، سياسية ام اجتماعية ام ثقافية . . ثم التحرر من سلبيات ما فرضته التربويات الخاطئة والسلطويات السياسية ، والدعايات الصحافية المضللة ، والخطابات العاطفية الرنانة ، اي بمعنى : الخروج من طوق المؤسسة المغلقة الواهية للقرن العشرين ، والانحسار عن اطواقها التيولوجية والايديولوجية العنيفة . . وما معنى كلامنا ايضاً؟

معناه : تحطيم تلك «الاطواق» للدخول في قرن جديد وتاريخ جديد . . من اجل تشكيل تفكير عربي جديد له سِماتهُ وركائزه ومكانته في الفكر العالمي . وهذا لا يتم الا بتحديث ثلاثة عناصر اساسية يشكّل جمعها : معادلة جديدة حية لبناء مشروع نهضوي عربي جديد ، لا يمكن ان تقم له قائمة في القرن القادم ، دون ان يغير العرب تفكيرهم للتاريخ والحياة ، وان في مقدمة ما يحتاجوه : رؤيتهم ومعالجتهم لتكوينهم الحديث . فكيف تقوم «المعادلة»؟

الذات + الواقع + التاريخ = تفكير جديد (مشروع النهضة)

ان استخدام آليات سوسيولوجية واساليب معرفية في نقد «المرجعيات» المتوارثة والمهارة في اسلوب تفكيك الانساق العتيقة المختفية في اللامرئي . وهي «انساق» كانت ولم تزل تساهم في عملية «فهم خاطئ» و «وعي خاطئ» لكل من الذات / الواقع/ التاريخ . . وبالتالي للفكر والنهضة :

ان اساليب العمل في اطار «المنهج الرؤيوي» الذي يقترحه الباحث ويستصوبه ، ستكون اساسية في تجربتها من اجل تشخيص العناصر ، ونقد المضامين ، وتحليل البنى ، وتفكيك الانساق . . مستفيدة من نظريات ومعارف سوسيولوجية وايبستمولوجية والسنية . اضافة الى منتجات الفلسفات المعاصرة في دراسة تكوينات العرب الحديثة والمعاصرة القائمة ليس على تركيب الاحداث او سردها ، بل تعمل على تفكيك بنيوياتها التاريخية ، وانساقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، واعادة انتاجها من خلال القطيعة الايبستمولوجية ، والتي باستطاعتها انتاج مجموعة قطائع تاريخية بين الماضي والحاضر من اجل بناء المستقبل وتكويناته القادمة [٣٧] .

(٣٧) راجع تفصيلات ذلك في دراسة المؤلف سيار الجميل :

Sayyar K. al-Jamil, "Arab Historiography On Ottoman Empire" in Fikret Adanir and Suraiya Faroghi (eds.), *The Ottoman Empire in Historiographic Discussion*, 1st ed., (E. J. Brill & Leiden, 1997).

الفصل الثاني

العثمانيـون : التكوينـات الداخليـة

النظام / البيروقراطية / القوى

المحليـة الفاعـلة



مقدمـــــة :

لقد عاشت الدولة العثمانية قرابة ستة قرون ونصف القرن ، بدءاً بظروف النشأة والتكوين ، ثم أطوار الارتقاء والازدهار ، ثم مراحل الضعف والاضمحلال ، وأخيراً عهد السقوط . إن حياتها اذن قد ترافقت مع نهايات العصور الوسطى وشغلت مساحة التاريخ الحديث بأكمله ، وشهدت بدايات تاريخنا المعاصر في القرن العشرين ، فكان مجالها الزمني ينحصر بين : ٦٨٠ - ١٣٤٢هـ / ١٢٨١-١٩٢٤م . ناهيكم عن الرقعة الجغرافية الشاسعة التي شغلتها في قلب العالم القديم ، أي في كلٍّ من آسيا الغربية وأوروبا الشرقية وافريقيا الشمالية وكلها مناطق احتوت على مراكز حضارات عريقة ومدن كلاسيكية قديمة . . وبلغ عدد سلاطين الدولة العثمانية (٣٩) سلطانا عثمانيا ، ينتمون الى أسرة سلالية واحدة تسمّت باسم «عثمان» مؤسسها الأعلى وجدها الأكبر الذي ولد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، أي في نفس السنة التي سقطت فيها بغداد حاضرة الخلافة العباسية . . وقد وصلت الدولة العثمانية الى أوج عظمتها في النصف الأول من القرن السادس عشر في البرّ والبحر ، واستطاعت خلال تلك المرحلة التاريخية ، أن تمتد بسيطرتها على أجزاء كبرى واستراتيجية من المنطقة العربية في كل من المشرق والمغرب العربيين . لقد تميّزت هذه «الدولة» بخصوصياتها في نظام الحكم السياسي الذي ميّزها عن بقية الدول الشرقية ، كما واختصت بنظامها الاقطاعي العسكري وتشكيلاتها الاقتصادية ومؤسساته وأجهزتها المتنوعة سواء كان ذلك في عواصمها او في اقاليمها الادارية المتعددة كما وانها امتازت بطابعها المملوكي ضمن تراكيبها الداخلية ، واحتوى مجتمعها على شعوب وقوميات واقليات ووحدات اجتماعية متباينة . . فضلا عن العلاقات السياسية الواسعة التي حكمتها بعشرات الدول والكيانات السياسية .

١ / الانتماء والسلالة :

يعود منشأ العثمانيين الى ما قبل ١٣٠٠م ، فهم جماعة من قبائل «الاوغوز» المنساحة نحو آسيا الصغرى من أعماق آسيا الوسطى بحكم هجمات الغزوات المنغولية ، فاندفع هؤلاء باتجاه الغرب كقوى ضاغطة على البيزنطيين ، وبدأوا يستقرون في البيئات الجديدة ، ويشكلون البنى التركية الاولى شمال جبال طوروس وانتي طوروس . ولقد حملتهم الظروف الطبيعية الصعبة كي يندفعوا من أعماق الشرق ، وهم يمتازون برعي الأغنام والفروسية والصيد والقوة الجسدية ، فانتشرت تلك القبائل في الأناضول [١] .

ينحدر ارطغرل (=ابو عثمان) من عشيرة «قابي» إحدى فصائل «الاوغوز» القبلية ، والتي اندفعت نحو الغرب اثر التحديات المنغولية التي واجهتها في بداية القرن الثالث عشر الميلادي . . ولا نمتلك اية معلومات تفصيلية عن الأصول والعناصر الاولى التي ساهمت في التكوين الجنيني للعثمانيين سوى بعض القصص الخيالية والاساطير التي تداولها العثمانيون انفسهم . ان فجر التكوين العثماني قد انبثق على أيدي سلاجقة الروم الذين تؤكد المعلومات ، انهم منحوا إقطاعاً لعثمان بن ارطغرل كي يستوطن فيه مع جماعته القبلية نظراً لما كان قد قدّمه لهم من خدمات حربية ضد البيزنطيين(٢) . وكان ذلك «الإقطاع» يقع في التخوم بين دولة السلاجقة وامبراطورية البيزنطيين . . ثم بدأ يتوسع شيئا فشيئا الى «اقليم» حربي ثم الى «امارة» ذات كيان سياسي على يد مؤسّسها عثمان بحكم عوامل تاريخية معقدة منها : الطبيعة الديناميكية للعثمانيين والمبادىء التي حكمتهم والتقاليد الرعوية والانشداد وقوة الانتماء والرسوخ الاسلامي . . والجهاد ضد البيزنطيين .

ويعبّر المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي عن حوافز النشوء العثماني من خلال استجابة العثمانيين للتحديات القوية التي واجهتهم والدوافع التي انطلقوا من خلالها ، ومن أبرزها : دافع الأراضي الصعبة المتمثلة بـ «جبهة قتال السلطان» ، ودافع النكبات ودافع الضغط ودافع العقوبات والحرمان . . وتمثلت النكبات بما صادفه العثمانيون من تحديات لاحقتهم من الشرق ، أما الضغط فتمثل بالصراع الذي خاضه الغرب (= اوروبا) إزاء الامتداد العثماني ، أما العقوبات والحرمان فتمثلت بين الجماعة المسيطرة والأقليات الدينية في المجتمع العثماني(٣) .

العثمانيون

٢ / الولادة : عصر النشوء : القرن الرابع عشر

كان المغول قد اندفعوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ليؤسسوا لهم في ايران قاعدة للانطلاق نحو بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام والأناضول . . وبعد انهزام السلاجقة على يد المغول عام ١٢٩٣ م ، كان عثمان الأول أميراً على حدود بيثينيا (= بيزنطة) في شمال شرق الأناضول ، كأمير للغزاة الذين كانوا يقاتلون البيزنطيين في تلك الثغور الصعبة . وكانت قلعة يكي شهر عاصمة لعثمان وإمارته ، وابتداء من سنة ١٢٩١م ، ذكر اسمه في الخطبة بمدينة قراجة حصار . وخاض العثمانيون الحرب الجهادية

المقدّسة ضد البيزنطيين ، حيث استولوا على مدينة آق حصار وازنيق ، وأثناء مباشرتهم دخول بروسة ، توفي عثمان تاركا مسؤولية الدولة الناشئة الى ابنه اورخان الذي افتتحها ، وجعلها عاصمة عثمانية له(٤) . وعليه ، فان عهد الامير عثمان ١٢٨١-١٣٢٤ . يعتبر من أبرز فترات التأسيس العثماني له ولخلفائه من بعده مثل : اورخان ١٣٢٤-١٣٦٠ . ومراد الاول ١٣٦٠-١٣٨٩م ، اذ سيطر العثمانيون على الأناضول الغربية وطهّروها من البيزنطيين ، ثم تقدّموا نحو جنوب شرقي اوروبا لينشروا المبادىء الاسلامية والهيمنة العثمانية في تلك الأصقاع التي ستغدو إبان حكم بايزيد الاول ١٣٨٩-١٤٠٢ . مراكز قوة وثروة مادية وبشرية . . وقد فشل العثمانيون في تلك المرحلة في السيطرة على المدن الكبرى للبيزنطيين نظراً لافتقارهم الى الاسلحة في حصاراتها(٥) .

كان اورخان قد بدأ بتشكيل جيشه الجديد وسيعمد مراد الأول الى تنظيمه ، وسيطلق عليه «الجيش الانكشاري» (= يكي شري) باستخدام نظام متماسك يشابه الى حدّ كبير ما قامت به أنظمة الاسبارطيين في التاريخ القديم . وكان النظام العسكري العثماني ناجحا باستخدام «الدفشرمة» من فلول المرتزقة المسيحيين ، ومن ثم استخدام الجنود الذي يربون تربية عثمانية بعد استئصالهم كأطفال من المناطق الأوروبية المفتوحة في شرقي أوروبا . . مع انبثاق نظام اداري ومالي وسياسي مكوّنا دولة حقيقية(٦) .

وتولى مراد الأول حكم الدولة العثمانية بعد اورخان ، فوجدها قوية منظمة ، فتوسعت كثيراً في عهده حوالي خمس مرات عما كانت عليه . كما توسعت أيضاً في حجم سكانها . وامتاز الرجل أيضاً بأعماله التنظيمية والعسكرية ، وواصل الصراع ضد البيزنطيين . واستولى في سنة ١٣٦١م على مدينة أدرنه التي كانت تعد من أمهات المدن البيزنطية ، فاتخذها عاصمة له ، ثم وجد نفسه يواجه تحالفاً صليبيا اوروبيا ، فزحف بقواته والتقى بجيوش قوى التحالف بقيادة لازار في أشرس معركة اسمها «كوزوفو» (أي : ميدان الطيور السوداء) سنة ١٣٨٩ . ، فانتصر العثمانيون على قوى تحالف الأوروبيين وكان الثمن سقوط مراد الأول صريعا في ساحة الوغى(٧) .

تولى الزعامة العثمانية بعده بايزيد الاول ١٣٨٩-١٤٠٢م ، فحقق انتصارات كبرى على أمراء الصرب والبلغار والبوشناق . وامتدت جيوشه القوية في البوسنة والهرسك ، وفتح عاصمة بلغاريا صوفيا سنة ١٣٩١م . وكان الخطر الجديد قد انبثق هناك من الشرق البعيد ليهدد العثمانيين في الأناضول ، فوجد بايزيد الأول نفسه أمام زحف تيمورلنك

وجيوشه الآسيوية التي التقت بالجيش العثماني عند أنقرة (=حصن ذات السلاسل) سنة ١٤٠٢م حيث هزم العثمانيين، وأسر بايزيد الأول واقتيد مأسوراً نحو سمرقند في قفص حديدي، مات على أثر ذلك كمدا(٨). وكانت أنقرة قد غدت حصناً عثمانيا بعد استيلاء اورخان عليها سنة ١٣٥٤م حفاظا على الممتلكات السلجوقية القديمة إثر تعاظم نفوذ قوى الشرق.. وما إن حلّ القرن الخامس عشر حتى كان الأناضول أجمعه تقريبا في قبضة الدولة العثمانية وخصوصا بعد السيطرة على القرمانيين وعاصمتهم قونيا(٩).

ومنذ ذلك الحين، بدأت عهود الدولة الحقيقية للعثمانيين بالارتقاء، ويمكننا تعليل ذلك النجاح الواسع في عمليات النشوء العثماني ومراحله التكوينية الأولى الى:

١ - التوسعات الاقليمية الجديدة على حساب الامارات القديمة.
٢ - استخدام مبدأ «الجهاد» في الفتوحات الاسلامية عنصرا اساسيا في الامتدادات العثمانية غرباً وشرقا.
٣ - استخدام عامل المصاهرة السياسية وشراء الأراضي في عملية إضافة ممتلكات جديدة وخصوصا في عهدي مراد الاول وبايزيد الاول.
٤ - أباح العثمانيون لأنفسهم في توسيع رقعة دولتهم، مقاتلة كل من السلاجقة والقرمانيين من المسلمين الأتراك الذين كانوا ضعافا إزاء التطور العثماني وتنظيماته.
٥ - السياسة القوية النافذة ذات الطابع الاستيطاني للعثمانيين في المناطق المفتوحة، مع تأسيس كبير فيها للممارسات العثمانية.
٦ - تطور الجهاز الحربي العالي التنظيم، رفيع المستوى من مشاة الانكشارية وفرسان السباهية وكان فعالا جدا في عمليات التوسع والامتداد، ولانه اعتمد في تكوين عناصره كافة على الاوروبيين الذين تستأصلهم الدولة أطفالا من بيئاتهم الاوروبية وتربيهم على الاسلام العثماني.

هكذا، امتلأ القرن الرابع عشر بالأحداث الجسيمة وتوسعت الدولة كي تضم ممتلكات كبرى بمجتمعاتها الكلاسيكية ومدنا بيزنطية وأقاليم اوروبية.. كما تطورت خلال عصر النشوء: أجهزة الدولة الإقطاعية والعسكرية وبخاصة التشكيلات الانكشارية، والأنظمة الضرائبية، وأملاك الدولة والأبنية والمساجد ورصدت الوقفيات ووزعت التيمارات (= الاقطاعات الحربية).. الخ وكان بايزيد الأول قد نجح في تحويل الدولة من شبه اقطاعية الى سلطنة قوية باتخاذه لقب «سلطان الروم»(١٠)، ولغرض إقرار

ذلك ، ناشد الخليفة العباسي الذي كان يقيم في ظل مماليك القاهرة بهدف إسباغ الشرعية الرسمية على سلطنته ، وعلى من سبقه من آبائه وأجداده . وكان بايزيد الاول قد حاصر القسطنطينية ست مرات ، وكادت تسقط بيديه ، ولكن الشبح المخيف كان قد ظهر من الشرق باسم « تيمورلنك» (أي : تيمور الأعرج) ، فتحولت الدولة العثمانية عن مسارها بعد انهيارها أمامه اثر معركة انقرة سنة ١٤٠٢م . وبذلك تنتهي المرحلة التاريخية الاولى من حياة الدولة العثمانية ، وهي مرحلة تكوين الدولة كي تلد عنها المرحلة التاريخية الثانية للفترة ١٤٢١-١٥٩٦ م بعد الفجوة الزمنية التي انهارت فيها مقومات الدولة نتيجة للاجتياح التيموري سنة ١٤٠٢م . وستضم المرحلة الثانية : عصر الارتقاء إبان القرن الخامس عشر وعصر الازدهار إبان القرن السادس عشر(١١) . لقد استطاعت الدولة العثمانية منذ القرن الرابع عشر ان تبسط سيطرتها على طرق التجارة الدولية وان هذا الاعتبار هو الذي حدّد الى درجة كبيرة نمط التوسع الاقليمي العثماني اذ كانت الحروب ضد القرمانيين تستهدف فتح التجارة مع مصر ، أما الحملات على البلقان في القرن الخامس عشر ، فقد استهدفت الاستيلاء على طريق بلغراد (الطريق الملكي للامبراطورية البيزنطية) لتطويق البندقية وأعقبتها الحروب الفارسية في القرن السادس عشر للسيطرة على تجارة الحرير .

٣ / عصر الارتقاء وسقوط القسطنطينية في القرن الخامس عشر :

مرت الدولة العثمانية بمرحلة زمنية صعبة كادت تتصدع فيها إثر معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م ، وذلك من خلال صراع الأخوة على العرش ، ودامت الأزمة لأكثر من عقد زمني كامل بين ١٤٠٢-١٤١٣م ، ولكنها انتهت باعتلاء السلطان محمد الاول العرش ليحكم الدولة للفترة ١٤١٣-١٤٢١م ، ولم تكن للرجل فتوحات جديدة او انجازات داخلية كبرى ، ولكنه نجح في تطبيع العلاقات الأسرية لآل عثمان ، وعمل على تنظيم الدولة إثر الحرب الأهلية (١٢) . ثم جاء بعده السلطان مراد الثاني ١٤٢١-١٤٥١م ، وقد استرجعت الدولة قوتها ، وبدأت بالارتقاء متخذة من روميليا (أي : القسم الغربي منها الواقع في شرقي اوروبا) قاعدة انطلاق وفتوحات ، فتوسعت الدولة في عهد مراد الثاني الذي قضى على حركة عصيان داخلية ، وجابه الممالك الأوروبية بوسيلتين أساسيتين : أولهما : مواصلة الصراع الحربي المزمن ، وثانيهما : العلاقات الدبلوماسية الجديدة . وقد حاصر

القسطنطينية حصارا شديدا في شهر حزيران/ يونيو سنة ١٤٢٢م ، ولكنه لم يفلح في إسقاطها . ودخل في صراع ضد الدويلات التركمانية في شرقي الاناضول ، كما وطّد أقدامه في أقاليم عدة من جنوبي هنغاريا ، ووصل الى ولاجيا شمالا والى سالونيكا جنوبا بعد تطهيرها من البيزنطيين ، ثم عقد معاهدة سلام في سنة ١٤٤٤ م مع القرمانيين ، ومعاهدة سلام أخرى في العام نفسه والتي قضت باستعادة صربيا لحكمها الذاتي ، واحتفاظ هنغاريا بولاجيا وبلغراد(١٣) . ثم تفرغ مراد الثاني لحياة التصوف متنازلاً عن العرش لابنه محمد الثاني الذي ستفتح القسطنطينية على يديه(١٤) .

كان السلطان محمد الثاني (= الفاتح) شاباً يافعاً ، وتوسّم الجميع فيه صفات القيادة والتي تجلت في حكمه الطويل . وحاول البيزنطيون الارثودكس والبابويون الكاثوليك استغلال حالة انعزال السلطان مراد الثاني عن ممارسة الحكم وذلك ضمن إجراء عمليات عسكرية ضاغطة او طاردة للعثمانيين خارج اوروبا . . منظمين حملة جديدة بالاتفاق مع هنغاريا وفينيسيا (= البندقية) وخارقين بذلك بنود المعاهدة وتقدموا نحو مدينة فارنا . . ثم نشبت الخلافات بينهم ، فاستغل مراد الثاني الفرصة بالعودة من الاناضول الى الحكم مع تنظيمه لجيش جديد انتصر به على تحالف الصليبيين الاوروبيين في ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٤٤٤(١٥) . ثم أعقبها بسلسلة حروب في اوروبا الشرقية ، فأخضع مقدونيا وبلغاريا واليونان ، ثم أخضع البانيا . وعند وفاته في شباط/ فبراير ١٤٥١م ، كانت حدود الدانوب آمنة مستقرة ، وكان يسوس الأمور العثمانية الوزير الأعظم قندرلي خليل باشا الذي ضمن للدولة قوة استمرارها سياسيا وعسكريا واقتصاديا إبان عصر الارتقاء(١٦) .

رجع السلطان محمد الثاني ليتبوأ العرش ١٤٥١-١٤٨١م ، وكانت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، تلك القلعة الحصينة التي استعصت على العرب والأتراك المسلمين دهراً طويلاً . . من جملة أهدافه الاستراتيجية . فكان ان خطط لإسقاطها ، فحاصرها العثمانيون للفترة (٦ نيسان / ابريل - ٢٩ أيار/ مايس ١٤٥٣م) حصاراً شديداً في البرّ والبحر ، مستخدماً خططاً وتدابير عسكرية جديدة ، كما نفّذ استراتيجية حربية بارعة بالاعتماد على المدفعية والسفن فنجح في اقتحامها وإسقاطها ثم الاستيلاء عليها وضمها الى العاصمة العثمانية ادرنه بول مسميّا اياها بـ « اسلامبول » . وقد جعل هذا الحدث التاريخي الكبير السلطان محمد الثاني أشهر زعيم في العالم الاسلامي قاطبة . . مع

وجود السلاطين المماليك والخلفاء العباسيين تحت ظلهم في القاهرة ، وبقاء التيموريين في إيران وغيرهم من الحكام في العالم الاسلامي(١٧) .

بدأ السلطان محمد الفاتح يفكر في بسط نفوذه على العالمين الاسلامي والأوروبي بعد إسقاطه الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في القسطنطينية . . خصوصاً أنه كان حدثاً تاريخياً غير طبيعي هزّ مشاعر العالمين الاسلامي والاوروبي انتصارا للأول وانكساراً للثاني . . ففي القاهرة المملوكية قامت احتفالات كبرى بمناسبة الحدث ووصلت اليها بعثة عثمانية في شهر تشرين الاول / اكتوبر ١٤٥٣م « ولكن وقع الحدث كان يعني بالاضافة الى ذلك تنبيها للمماليك بقوة جيرانهم الذين تجاوزوهم من حيث الامكانات ومدى التمثيل للاسلام والمسلمين . وكان لا بد للمنافسة التي سبقت هذا الحدث والتي انحصرت في عهد قايتباي ١٤٦٨-١٤٩٥م وبايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢م في أمور التدخل المتبادل في شؤون إماراتهما وولاياتهما في شمالي سورية ، ان تتحول الى صراع مصيري ، خاصة بعد أن برزت قوة ثالثة في إيران تطمح في التوسع شرقا ، هي قوة الشاه اسماعيل الصفوي » (١٨) ، فماذا فعل السلطان محمد الفاتح ؟

لقد قام بتطوير مركزه السياسي والاقتصادي الداخلي في المنطقة والعمل على إدماج السكان في كامل ربوع دولته التي نجح بجعلها وحدة قوية باستحداثه لقانون الضرائب الجديد وقوانين مدنية أخرى ، كما حافظ على المظاهر البنيوية لعاصمته الجديدة وهياكلها ، وتحديثه للخدمات وشبكات المياه والصناعة والتجارة وقضى على معارضيه من السلاجقة والبيزنطيين لكي يصبح الوريث الشرعي للأسرتين الحاكمتين : البيزنطية والسلجوقية . وقام بتوسيع رقعة ممتلكاته التي ورثها عن مراد الثاني للفترة ١٤٥٤-١٤٦٣م ، مركّزاً على ضمّ صربيا للفترة ١٤٥٤-١٤٥٥م وغزا جزيرة الموره ١٤٥٨-١٤٦٠م ، وأزاح آخر المطالبين بالعرش البيزنطي ، وأشعل الحرب العثمانية الفينيسية الثانية ١٤٦٣-١٤٧٩م ، وبنفس الوقت ضمّ طرابزون والمستعمرات الجنوبية التجارية على طول البحرالأسود في شمالي الأناضول . وفي عام ١٤٦٣م ، ضمّ البوسنة وهزم الألبانيين(١٩) .

وفي الشرق ، أشغله اوزون حسن الحاكم التركماني الشهير عن أوروبا ، فهزمه وجعله يعترف بالحكم العثماني في الأناضول . وبدأ الصراع ضد المماليك الذين أبقاهم الفاتح على الحياد دون أن يهزمهم لانشغاله بملاحقة أعدائه الأوروبيين وخصوصاً تفرّغه

للفينيسيين على طول الساحل الادرياتيكي . وقد أرسل قواته البحرية الى جنوبي ايطاليا في آب/ اغسطس ١٤٨٠ م مهاجماً رودس ، ولاحت بشائر النصر قبيل وفاته التي جاءت قبل الأوان سنة ١٤٨١م ، مكللاً جهوده العظمى بإرساء قاعدة عثمانية من الارتقاء(٢٠) . لقد عدّ السلطان محمد الفاتح بحق واضع أسس الحكم العثماني في الأناضول وأوروبا الجنوبية والتي ستستمر للقرون الأربعة التالية ، وذلك بتقوية دولته وتوحيدها وتنسيقها للبدء بمشروع عثماني ضخم قادم على يدي حفيديه سليم الاول وسليمان القانوني ، فضلا عن مجموعة النظم السياسية والادارية والدينية والقانونية بسلسلة دعيت بـ « قانوننامه لر »(٢١) . لقد كانت سياسة محمد الفاتح وإجراءاته وانجازاته الداخلية والخارجية في كل من الأناضول وأوروبا الشرقية كافية لخلق قاعدة تاريخية رصينة في القرن الخامس عشر لكي ينفتح الوطن العربي أمام العثمانيين قاطبة في القرن السادس عشر . .

٤ / الانقسامات والنكسة التاريخية :

شهدت الدولة العثمانية بعد وفاة محمد الفاتح سنة ١٤٨١م انقسامات في العائلة المالكة كادت تودي بحياتها مرة أخرى من خلال الصراع الذي نشب بين ولدي السلطان الفاتح : بايزيد وجم Chim . وكان بايزيد أسرع من أخيه في الوصول الى السلطة في استانبول والاعتراف به سلطانا ، في حين ذهب جم الى العاصمة القديمة بروسه ليعلن سلطته فيها بتأييد من أهاليها . واقترح جم أن يقسم الدولة الى قسمين : قسم أوروبي يحكمه بايزيد وقسم آسيوي يحكمه جم ، فرفض بايزيد ذلك وأوقع الهزيمة بأخيه في الأناضول ، فهرب جم الى القاهرة عن طريق بلاد الشام سنة ١٤٨٢م طالبا اللجوء السياسي لدى الأشرف قايتباي سلطان المماليك ١٤٦٨-١٤٩٦م . وفي سنة ١٤٨٣م ، رحل جم من القاهرة الى قونيه ، واصطدم بجيش بايزيد ، فهرب جم الى جزيرة رودس التي لم تكن قد وقعت بعد في القبضة العثمانية ، وانما كان يحكمها فرسان القديس يوحنا ، فاتخذ أولئك الفرسان الأعداء من جم أداة ضغط على الدولة العثمانية ، فخشي بايزيد الثاني ان تتحالف الممالك الاوروبية ضدّه وتأتي بـ جم على أسنّة حرابها كي تنصّبه على العرش . . ولكن جم توفي سنة ١٤٩٥م بعد تنقلاته في عدة بلدان أوروبية . وكان ذلك الصراع الأخوي العثماني قد أضرّ بحركة التوسعات العثمانية الى أجل غير محدود ببقاء الحرب باردة بين العثمانيين والأوروبيين(٢٢) .

لقد احتاط بايزيد الثاني للبنية الداخلية تحوطا من الانقسامات المذهبية التي قد تحدث لا سيما وان قوة «دولة» نابضة بالحياة الطائفية بدأت تتحرك من ايران باتجاه الاناضول . . تلكم هي قوة ايران الصفوية التي شهدت تطورات واسعة خلال عهد بايزيد الثاني المتخضرم بين قرنين . . وقد قابلها هذا الأخير بسياسة تؤكد على اللغة التركية والتقاليد الاسلامية وتطوير المؤسسات الدينية لتأمين الدولة والمجتمع العثمانيين من تهديدات التطرف الصفوي (الشيعي الرافض) المتزايد بين قبائل الأناضول التركمانية الشرقية ، وعمل على تأمين السيطرة على إمارة ذو القدر في جنوبي الأناضول[٢٣] . . ولاقى كثيراً من عنت البدو التركمان الذين استخدمهم الصفويون وسيلة عسكرية طائفية في التبشير والسيطرة من قبل الشاه اسماعيل الصفوي في أردبيل ١٥٠٢-١٥٢٤م نحو أنحاء الأناضول ناشرين رسالة طائفية وشاعلين ثورة سياسية ليس فقط بين القبائل التركمانية ، بل في أوساط الفلاحين والعناصر المدنية التي وجدت في تلك «الحركة» أجوبة كافية لمشاكلها . . فنتجت عن ذلك ، سلسلة من الثورات ضد حكم بايزيد الثاني الذي كان متورطاً بمشاكله مع الأوروبيين لا سيما وأنه حقق السيطرة على قبرص سنة ١٤٨٩م وبنى قاعدة حربية بحرية لكنها رفضت أن يستغلها بايزيد الثاني ضد المماليك في مصر وسورية . . ومع مطلع القرن السادس عشر ، أجبرته الانتفاضات الأناضولية العامة الى قيامه بحملة كبيرة ١٥٠٢ - ١٥٠٣م ضد الصفويين مدمرا أتباعهم التركمان القزلباش (= ذوي العمائم الحمراء) ، وبقي الشاه الصفوي يثير السكان ضد الحكومة المركزية بثورة عاتية لم يستطع القضاء عليها إلا ابن بايزيد الأصغر سليم الذي ستبدأ الدولة العثمانية في عهده حياة جديدة ستأخذها حيث عصر الذروة والازدهار[٢٤] .

٥ / نظام الحكم العثماني :

أ . نمو المؤسسات والتشكيلات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر :

تحولت الأسرة العثمانية الحاكمة من مجرد زعامة قيادية للقبائل الرعوية الى أمراء تخوم وقد اتخذ لقب «الغازي» للحكام العثمانيين الأوائل تحت إمرة السلاجقة وبعدهم الايلخانيين في نهاية القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر . وبالاستيلاء على بورسه ، تمكن أورخان من الاستقلال وبناء السيادة والاحتفاظ بجزء صغير من التخوم وأعلن لقب «الباي» . . ثم تطورت الألقاب حتى بايزيد الأول الذي يعد ـ رسمياً ـ أول من تسمى بـ «السلطان» في ظل وجود الخليفة العباسي بالقاهرة والذي كان يمثل رمزاً

روحياً في العالم الاسلامي . وعلى الرغم من هذا كله ، فقد بقيت التقاليد والاعراف سائدة عثمانيا في الزعامة القبلية ، وكان تأثير القانون والقضاء (= الشرع) الاسلامي قليلا ، اذ كان السائد هو قوانين وعادات القبائل التركية . وبذلك ، فان مفهوم الحكم كان محدودا جدا ، وكانت الادارة منحصرة في الأمور المالية . وكان القادة العثمانيون يجمعون الغنائم في المناطق المهزومة وتقرير جمع الضرائب منها وخصوصا عن الأراضي التي تبقى بحوزة أصحابها . وتعاظم شأن السلاطين مع مرور الوقت ، اذ توفرت بأيديهم القوة والسلطة أكثر مما كانوا يملكونه قبل نصف قرن مضى حينما كانت دولتهم صغيرة تجمع القيادات القبلية للجماعات الصغيرة(٢٥) .

ومع توسّع الدولة بإبعاد الأعداء عن التخوم الاسلامية ، دعت الحاجة الى عزل المهام المالية والادارية عن الاجراءات العسكرية ودعم الضباط والجنود في بعدهم عن الديار العثمانية . . . . كما وفصلت الثروة السلطانية عن ثروة الدولة باستقلالية كل منهما في الايرادات والتنظيم(٢٦) ، فتطورت المؤسسات الحكومية والجيش خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر لسدّ حاجة دولة كبرى اختلفت في طبيعتها التاريخية عن بقية الدول التي عاشت في التاريخ العربي والاسلامي وهذه سمة مهمة جداً في دراسة تواريخنا العربية والاسلامية المقارنة . ولكن ؟

كان من الطبيعي أن تتأثر الدولة العثمانية بالدول التي سبقتها وليس بتلك التي حكمتها فقط . . بل بتلك التي ورثتها أيضا . وعليه ، فان العثمانيين ورثوا البدو الأتراك في عاداتهم الآسيوية(٢٧) . . كما أنهم تأثروا بقوة بميراث أجل غرسته فيهم الحضارة (= النظم) العربية الاسلامية وخصوصاً تلك التي تمثلتها الدولة العباسية في بغداد من خلال السلاجقة(٢٨) .

هكذا اذن ، ساهم العثمانيون في تطور الاسلام السياسي والاجتماعي والاقتصادي المعتدل متمثلا بالأسس والأنظمة السياسية والادارية والقانونية والتعليمية ، وفي البناء المركزي الداخلي والنظم المالية والضرائبية ، فضلا عما ورثوه من العرب في العقائد الفقهية والمبادىء الدينية والتشريعية والنظم الخاصة بادارة الأقاليم (= الأمصار عند العرب / الولايات عند العثمانيين) ، ناهيكم عن الأساليب المعيشية وبعض العادات الاجتماعية والمعاملات التجارية ومئات المفردات اللغوية/ العربية(٢٩) .

وتأثر العثمانيون بالبيزنطيين وبشكل أقل بالصربيين والبلغار . . وقد تحول العديد من

المسيحيين واليهود عن دينهم طواعية ، وذلك لتأمين مركزهم في الدولة الجديدة ، واستمر معظم الناس في ممارسة طقوسهم الدينية القديمة دون قيود . . وقد جاء مصدر التأثير المسيحي خاصة خلال القرن الرابع عشر من خلال علاقات الزيجات الحميمة بين البلاطين العثماني والمسيحي ، اذ قام السلاطين العثمانيين بالزواج من أميرات بيزنطيات وبلغاريات وصربيات وروسيات . . ففتحت هذه الزيجات السبيل أمام الأتباع المسيحيين للقدوم الى البلاط العثماني والتأثير فيه ، فضلا عن تأثر العثمانيين بتقاليد أولئك الذين هربوا نحوهم قسرا نتيجة اجتياحات المغول وتيمورلنك جالبين معهم الأساليب الاستبدادية الشرقية . ويغالي عدد من المؤرخين الغربيين برأيهم في تأثر العثمانيين بالبيزنطيين(٣٠) . ويمكننا القول أن العثمانيين قد جمعوا في نظامهم الحاكم بين الاستبدادية الشرقية والحضارة العربية / الاسلامية والبيروقراطية الأوروبية .

لقد أخذ وضع الدولة يزداد تعقيدا بإضفاء مراسيم جديدة وأجهزة إدارية ومالية وعسكرية ، ولم يستطع السلاطين لوحدهم تسيير شؤون الدولة التفصيلية ، فعمدوا الى تخويل مهامهم المدنية والعسكرية الى «وزراء» لقبوا باللقب العربي المستخدم عند السلاجقة (= فيزير / وزير) ومعتمدين على أبنائهم من ولاة العهد في أن يكونوا وزراء ومساعدين لهم ، ثم تطور الأمر فيما بعد لأن ينصب أحدهم رئيسا للوزراء (= وزير أعظم / صدر أعظم) ولقبه « الاودين باشا» فضلا عن منح درجة الوزارة للقادة والزعماء والاداريين الكبار الذين يحكمون أقاليم الدولة عسكريا إقطاعيا وإداريا ماليا(٣١) . ويجتمع الوزراء لتحديد سياسة الدولة في اجتماعات « الديوان» ، وهو بمثابة المجلس الامبراطوري كأعلى سلطة تشريعية وتنفيذية في الدولة العثمانية ، وكان « السلطان» يترأس ذلك المجلس الهمايوني متخذا فيه جل القرارات في البداية ، وعندما تعقدت أمور الدولة ، وبدأت الحياة السياسية تفرض عزل السلاطين ، بدأ الوزير الأعظم يمثل السلطان بوصفه رئيسا للمجلس الهمايوني (= الديوان) . وقد ارتبطت بالديوان عدة من الدوائر العثمانية المهتمة بالاجراءات العسكرية والادارية والاقتصادية .

ب . المؤسسة العسكرية : الجيش العثماني

أما النظام العسكري ، فكان جنود العثمانيين يمثلهم في البداية جنود من التركمانيين مقسمين حسب قبائلهم ويتزعمهم رؤساؤهم ومعظمهم من «الخيالة» يقومون بحماية التخوم والقيام بالغزو والهجمات على الأقاليم المسيحية . وكانت الغنائم هي المكافأة المجزية

على أعمالهم(٣٢) . أدرك أورخان بأن تلك الفصائل لم تكن لها القدرة ولا الكفاءة ولا الولاء للدولة . . فقام بتنظيم جيش مدرب له كفاءته وقدرته على إنجاز العمليات بمهارة مخصصا له رواتب نظامية ، وأغلبه من المشاة الذين أطلق عليهم « اليايا» في حين كان الخيالة يسمون بـ «المسلمين» (أو : الاسلام) ، فقدم كل من الفريقين للدولة خدمات جلّى . ولكن ؟

بقي هذا الجيش مضطرباً ، فاستاء منه مراد الأول ، فعمد الى تكوين قوة عسكرية جدية والتي ستؤثر على مستقبل الدولة وحياتها حتى القرن التاسع عشر ، وهي قوة تتألف من الرقيق الشباب الذين بدأوا يتعلمون اللغتين التركية والعربية ، كما وأخذوا بممارسة التقاليد والأعراف العثمانية ، فضلا عن تأديتهم الشعائر الاسلامية ويدينون بولاء راسخ للسلطان الذي غدا رمزاً مقدسا لهم . وكانوا يتلقون تدريبات مكثفة وأطلق عليهم اسم «يني شري» (= يكي جري) (أي : الجند الجديد(٣٣)) ثم عرفوا مع تداول المصطلح بـ «الانكشارية» أو Janissaries والى جانبهم «السباهية» (أي : الخيالة او الفرسان) ومنح الانكشاريون رواتب مالية ، وقسمت الاقطاعات على زعمائهم . وتدعى مجاميعهم بـ «الآي» (آي : السرية) يرأسها البكوات (جمع : بيك) ، ثم الى مجاميع أكبر دعيت بـ «السنجق» أو « اللواء »ويترأسه بيك اللواء أو السنجق بيك . . ويتربع في القمة زعماء باشوات يدعون بـ « البيكلربيكات» (أي : بيك البيكات) الذين يحكمون الأقاليم المهمة والكبيرة(٣٤) .

تطورت منظومات المجتمع العثماني وآلياته وتراكيبه خلال القرن الرابع عشر بحلول النفوذ العثماني في الأقاليم المسيحية ، وبدأ العثمانيون في النصف الأول من القرن الخامس عشر بتطبيق قانون جديد في التجنيد دعوه باسم « الدوشرمة» Devshirme وخصوصا في عهد السلطان مراد الثاني ١٤٢١-١٤٥١م ، وكانت تطبيقات هذا القانون تقوم أساسا على فصل الأطفال المسيحيين عن آبائهم وأمهاتهم ، واستئصالهم من أصولهم وجذورهم ليجلبوا ويربوا تربية عثمانية اسلامية ، ثم تصنيفهم ، إما للانخراط في فرق الانكشارية أم للعمل في الخدمات الادراية للدولة وأجهزتها(٣٥) .

وكانت فرق الانكشارية في الولايات العثمانية تمثل حاميات عسكرية لغرض الأمن وجمع الضرائب وتأمين الحدود ، وكان آغا الانكشارية بمثابة القائد العام للحماية

العسكرية في الولاية ، ويكون عضوا في ديوان ادارته . ويعد « اوجاق » (= مجلس) الانكشارية من أقوى الأجهزة العسكرية في الولاية كي ينفذ مهام الوالي وأوامر السلطان .. ويعاضدهم الفرسان السباهية الأقوياء ، وهناك جهاز للشرطة . وللانكشاريين الأوائل نظامهم الصارم اذ يبقون منعزلين عن المجتمع بمكوثهم في ثكناتهم للتدريب واستخدام الأسلحة ، ولم يكن يسمح لهم بالزواج(٣٦) ، ولكنهم غدوا مع توالي الأيام : قوة سياسية واجتماعية كبيرة في الدولة والمجتمع يحسب حسابها ، وقد توافق ذلك مع انجازاتهم الحربية الكبرى التي حققوها للدولة العثمانية .

جـ . تطور نظام الحكم : القوانين وتشكيلات الهيكل العام للدولة العثمانية :

لقد تطور نظام الحكم العثماني بحكم تنسيق القوانين (السلطانية لا الشرعية) ، وكان السلطان محمد الفاتح أول زعيم عثماني يحاول تشريع القوانين وتنسيقها من مختلف الأنظمة القانونية والاجتماعية في الأراضي المفتوحة لكل جهات الدولة مع إدخاله ممارسات معينة في المركزية الادارية العثمانية ، ووضع سلسلة من ثلاثة قوانين (= قانوننامه Kanun-name) . الأول : لمنزلة والتزامات رعاياه ، والثاني : لتنظيم الدولة والطبقة الحاكمة ، والثالث : لتنظيم اقتصاديات الدولة والأراضي والضرائب . وهي القوانين التي ستشهد تطويرات كبرى على يد حفيده السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م ، اذ بلغت المؤسسات العثمانية أسمى درجات تطورها ووصلت السلطات أعلى ذروتها خلال القرن السادس عشر ، ووقعت أغلب الأقاليم العربية والشرقية / الأناضولية في القبضة العثمانية ، فكان لا بدّ من ايجاد السبل والادوات والتشريعات والأنظمة لاستثمار الموارد والأموال والإقطاعات .. فضلا عن تطوير مجالات الصناعة والزراعة والتجارة . كما تأسست عدة من المكاتب والمدارس الخاصة لتخريج الموظفين الرسميين المدنيين والعلماء والأطباء والمديرين والموظفين والماليين والكتّاب والخزنجية والأفندية والدفاترة والمحاسبين والمتصرفين والأدباء ورجال الدين ... الخ (٣٧)

وبعد أن عاشت الدولة العثمانية على مدى القرون الثلاثة الأولى : دولة يحكمها العسكريون ، غدت في القرون التالية : دولة تستخدم المدنيين في معظم أجهزتها الادارية واضمحلت القوى العسكرية يوما بعد آخر ، فظهرت طبقة متوسطة في درجاتها المتباينة بين الحكام من الأمراء والزعماء الإقطاعيين والولاة والملتزمين والأغوات والبيكات ..

كطبقة متنفذة عليا في المجتمع العثماني . . وبين فئات سكانية متدنية في حياتها الاجتماعية ، بل ومسحوقة في أوضاعها المعيشية الصعبة . . وسيؤثر هذا التقسيم الواضح كثيراً في بنية المجتمع العربي الذي شكلت قسماته ووحداته الاجتماعية في المدن والحواضر والأقضية والنواحي والقصبات والقرى في الوطن العربي . . شكلت ركناً أساسياً من حياة المجتمع العثماني وعلى مدى اربعة قرون كاملة بدءاً بالقرن السادس عشر وانتهاء ببدايات القرن العشرين .

أما الهيكل العام للدولة العثمانية فقد قام أساساً على عشرة أركان أساسية ، يمثل كل ركن : مجموعة واسعة من السلطات والصلاحيات المرتهنة بالركن الأول (= السلطان) ان كان قويا نافذا ، او بالركن الثاني (= المفتي العام للدولة/ شيخ الاسلام) ان كان السلطان ضعيفا او عاجزا ، وتتدرج بقية الأركان كما يأتي :

١ - الوزير الأعظم / الصدر الأعظم .
٢ - الوزراء .
٣ - قضاة العسكر (قاضيا كبيران : قاضي عسكر روميللي وقاضي عسكر اناتوليا) .
٤ - الدفتردارات (= المفتشون العامون) .
٥ - النيشانجية (= السكرتيرون والموظفون الخاصون) .
٦ - الزعماء العسكريون والاداريون (= باشوات/ بيكلربيكات/ بيكات/ أغوات . . الخ) .
٧ - أغوات الداخل من الموظفين في البلاط العثماني والقصور ومؤسسة الحريم . .) .
٨ - العلماء والأدباء ورجال الدين والقانون[٣٨] .

هكذا ، يمكننا القول بأن نظام الدولة العثمانية كان عسكري التكوين في جوهره ، امبراطوري النزعة في تطوره يشابه الى حد كبير نظام اسبارطة في تربية العبيد (= المماليك) ، كما يشابه الى حد ما نظام الامبراطورية الرومانية في توسعاته الجغرافية العسكرية الممتد في قلب العالم والبحر المتوسط ، ناهيكم عن أوجه التشابه بينه وبين النظام العباسي العربي المرتكز على اطار عام من الشرعية الدينية الاسلامية .

٦ / العثمانيون : تنوع الملّة والتأثيرات العربية

كانت مصلحة الدولة عند العثمانيين هي الأساس دون مصالح الرعايا ، ولكنها سمحت بحرية العبادات والأديان مطوعة الشريعة للأغراض السياسية / والامبرطورية

العليا . وكان المجتمع العثماني (= الملة العثمانية) متنوعا في تراكيبه وقومياته وأقلياته الإثنية نظراً للحجم الجغرافي الواسع الذي استقطبته المجالات الجغرافية للدولة وتخومها وتوابعها ، فانضوى فيه : الترك والتركمان والعرب والأكراد والبربر والأرمن والبلغار والسلاف واليونان والكرج والأحباش والهنغار والجراكسة والبوشناق والقبجاق والتتار الكرميان والألبان الأرنؤوط . . وغيرهم بأديانهم المختلفة ولغاتهم المتعددة ، وأساليب حياتهم الاجتماعية المتباينة ، وبقي الأتراك أنفسهم بشكل عام أقلية مسيطرة في مجتمع متعدد الأكثرية ، واستقطبت العاصمة أصحاب الكفاءات النادرة والمواهب النشيطة . . فوصل عدد من الجراكسة والألبانيين والسلاف والطليان وحتى اليهود الى مراكز محترمة في الدولة(٣٩) . . كما واستفادت الدولة أيضا من المواريث البيزنطية والبلقانية الأوروبية .

وكانت الثقافة العثمانية مزيجا عجيبا من عناصر متنوعة ومتباينة ، فهناك اللغة الفارسية التي اعتمد العثمانيون عليها ردحا طويلا من الزمن فضلا عن الأساليب والموضوعات المعتمدة حربيا وسياسيا والمنتقلة عن التركمان وسلاجقة الروم . أما العرب ، فكانوا بالنسبة للعثمانيين مصدراً اساسياً في التشريعات والتقاليد الأيديولوجية وبناء المرتكزات الداخلية ، فهم قبل الجميع معلمين للعثمانيين ، كما كان اليونان معلمي الرومان على حد تشبيه المؤرخ فيليب حتي(٤٠) . فماذا أخذ العثمانيون من العرب ؟

لقد أخذوا عنهم عقيدتهم الاسلامية السمحة وعلومهم الشرعية والفقهية ، فضلا عن المبادىء المثالية التي بشر بها الدين الاسلامي والتي اتخذها الزعماء العثمانيون في القرون الثلاثة الاولى أساس عمل لهم في التقدم والجهاد . . فضلا عما أخذوه عن العرب من السنن الاقتصادية في الزراعة والري والاستقرار والجزية والخراج . . كما واحترموا جدا المواريث والتواريخ العربية والخلفاء العرب فضلا عن تقديسهم للبيت الحرام وأشراف مكة . وأخذوا عن العرب أيضا الحروف العربية في الكتابة العثمانية اضافة الى المئات من المفردات والتعابير والمصطلحات العربية . وتطور الشعر والادب في الثقافة العثمانية كثيراً خلال القرن السادس عشر ، اذ لم يكن للأتراك سابقا سوى اليسير من الأدب القديم المدوّن يكتبونه بالسريانية التي أدخلها النصارى السوريون الى الأصقاع التركية البعيدة . . أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فقد برز العديد من الشعراء والأدباء العثمانيين كان جلّهم من العراق ، أمثال : رضائي وشمسي وفضولي البغدادي وابنهُ فضلي وعهدي وروحي وغيرهم(٤١) .

٧ / البيروقراطية العثمانية من خلال طبقة العلماء والادباء (دور الكتّاب : النيشانجية) :

أ . الأسس التاريخيـة :

تنبؤنا تواريخنا الاسلامية ان تطورات واسعة قد حظيت بها المؤسسات الادارية العربية الاسلامية ، نظرا لما تجذّر فيها من التقاليد البيروقراطية التي امتلكت لها خصوصياتها والتي انسجمت مع النظرية الاسلامية في الإدارة والاحكام سواء كانت مركزية ام لا مركزية ، تلك « النظرية » التي عُرفت من خلال تطبيقاتها اصناف من الرجال في القيادة والادارة والحرب ، أي بروز ما عرف بـ « رجال الدولة » (القياديون السياسيون) ، و« رجال الدين » (الفقهاء / اصحاب الحل والعقد) و « رجال السيف» (القادة الميدانيون في الحرب) ، و « رجال القلم » (الكتّاب والمحرّرون الاداريون والماليون)[٤٢] .. وكلهم شكّلوا قواعد لا غنى عنها في قواعد الحكم لأية دولة في دول الاسلام . وعليه ، فقد حصلت تطوّرات كبرى وواضحة في طبيعة النظم الاسلامية ومؤسساتها واجهزتها التي تقف على رأسها مؤسسة الخلافة ثم تأتي مؤسسة الوزارة بتفرعاتها التفويضية والتنفيذية الي جانب المؤسسة التشريعية (كبار الفقهاء) .. ثم الدواوين وتطوراتها في الكتابة والتحرير والمالية والمراسلات .. الخ وكلها تطلبت مهارات وتجارب متخصّصة برع فيها رجالات كانت لهم دربتهم وممارساتهم حتى غدت الكتابة الادارية تقوم على مبدأ « الصنعة » كأي صنف من الاصناف الحرفية .. حتى وصلت مهنة الكتابة الى درجة من الخصوصية في العهدين الاموي والعباسي الى ان يشغلها عدد كبير من الكتاب النصارى والفرس الذين امتلكوا خبرات في التقنيات المالية والادارية .. ممّا جعلهم يحتكرون زمناً طويلاً شؤون الدولة ايام الخلافة الاسلامية[٤٣] .

ان البيروقراطية الاسلامية قد ورثت جذورها وتطوراتها مجموعة من التقنيات في التجربة العثمانية ، اذ كان هناك الكتّاب في الدواوين ، الذين اهتموا بصنعتهم التي تدرّبوا عليها تحت اشراف المعلمين مكتسبين جملة من المعارف والمهارات الضرورية في تخصّصات معينة .. اما رؤسائهم فكانوا يسمّون بـ « النيشانجية» الذين عادة ما ينتسبوا الى فئة العلماء الذين يتميزون بمعارفهم الدينية والعلوم الشرعية .

وفي اطار الادارة المركزية ، توزعت عدة هيئات في سك العملة والكمارك ومسائل التموين ، وتوزعت الادارات العسكرية التي كان لها دواوينها الخاصة التي تقف الانكشارية عى رأسها ، وفي الولايات المرتبطة بمركزية العاصمة ،كانت هناك القلاع ، أي ان هُناكَ قلعة في مركز أية ولاية ، تضم افراد الحامية وكاتب ينظم حساباتهم وقضاياهم الشخصية . ولما كانت ثمة تطورات في الانشاءات والمالية ومسائل الصرف والايرادات ، فكان لابد من استحداث التفتيش المالي والاداري (الدفتردارية) ويعيّن له كاتباً لمساعدته . وعليه ، فقد ازداد عدد الكتّاب في الولايات ومراكزها اكثر مما كان عليه عددهم المحدود في العاصمة المركزية للدولة[٤٤] . . وينقل المؤرخ خليل ايناجيك عن تسجيلات عالي افندي في نهاية القرن السادس عشر قوله بأن الكتّاب يعيشون في ضنك ، وهم يعملون في كتابة الدعاوى ونسخ المؤلفات ، ويعلق ايناجيك قائلاً « . . وعلى كل حال ان الآف الدفاتر وملايين الوثائق المحفوظة في مراكز الوثائق بتركيا انما تشهد على ان السلطنة العثمانية كانت دولة بيروقراطية »[٤٥] .

ب . النيشانجية العثمانيون :

نظر العثمانيون الى بيروقراطيتهم نظرة لها اهميتها من خلال عنايتهم بـ « الكتّاب » و « الادارات » . . كان الكتّاب هم الذين يصيغون مراسيم السلاطين (= الفرمانات) ويقترحون الاجراءات ، ويعدّون القوانين والتعليمات ، ويشرفون على تنفيذها . ويترأسّهم ادارياً « النيشانجي » الذي له عضويته الدائمة في الديوان السلطاني ، وكان يرتقى في بعض المرات الى منصب الصدر الاعظم . . وخصوصاً بعد ان اخذت السلطة العثمانية تنتهج سياسة اصلاحية ومسالمة منذ نهايات القرن السابع عشر ، وذلك من خلال اهتمامها بالدبلوماسية ، تزايد عدد الصدور العظام الذين كانوا في الاصل كتّاباً بعد ان كان اختيارهم يتمّ عادة من رجال الجيش . ولعل من اشهر النيشانجية العثمانيين هو جلال زاده الذي يُعدُّ من ابرز رجالات الدولة العثمانية ، والذي تربّى كاتباً ، وارتقى في مناصبه لكي يغدو مستشاراً ، ثم نيشانجياً مشهوراً متمتعاً بمنصبه خلال عهد السلطان سليمان القانوني وللفترة ١٥٢٥ ـ ١٥٥٧م مع جملة من انشطته الادارية وصياغاته القانونية[٤٦] . وقد زامن رجلاً عثمانياً مشهوراً آخر كان يعتمد عليه القانوني ايضاً هو شيخ الاسلام ابو السعود افندي مفتي الدولة[٤٧] . . فكان الاول مختصاً بالقوانين الدنيوية ، وكان الثاني مختصاً بالتشريعات الدينية . هكذا ، فاذا كان الكتّاب العثمانيون يمثلون المصالح السياسية

والمدنية للدولة ، فان العلماء العثمانيين يمثلون الشريعة والقضاء والافتاء الديني في الدولة ، وثمة تعارضات بين الطرفين ، فاذا كانت الاهتمامات الرئيسية للكتّاب تنصبُّ في الحفاظ على استقلالية السلطة السياسية ، ومركزية الادارة ، وزيادة العائدات وحماية الرعية . . فإن العلماء بدأت معارضاتهم لذلك كله ابان عهد الاصلاحات ، وتبنّى الافكار الاوروبية في الادارة والمجالات الاخرى(٤٨) . وعليه ، فان كبار المصلحين العثمانيين كانوا من الصدور العظام الذين ينتمون الى طبقة الكتّاب ، امثال : راغب باشا وخليل حامد باشا ، ومصطفى رشيد باشا ومدحت باشا وغيرهم .

جـ . التمفصل والجـذور :

السؤال الآن : هل من تمفصل أساسي آخر بين الكتّاب المدنيين والعلماء الروحيين؟ نعم ،كان هناك اكثر من تمفصل اساسي بين الجانبين على مستوى الدولة اولا وعلى مستوى المجتمع ثانياً ، إذ كان العثمانيون يؤكدون على كتّابهم ان يتمتعوا بمعرفة موسوعية وعلمية والتمكن من الادب ، واللغة ، والخط ، والقانون ، والتاريخ ، والفلسفة ، والجغرافية . . ومبادئ علوم الهندسة والزراعة . اما العلماء فإن مجالاتهم الفكرية مختلفة عن ذلك تمام الاختلاف ، بانغمارهم في الفقه والتفسير والتشريع وعلوم القرآن والحديث والمذاهب مع احاطة باللغة(٤٩) . وعليه ، فإن مؤلفاً موسوعياً عثمانياً نال شهرته الواسعة من خلال كتاباته وقد لقّب بـ «كاتب چلبي» (١٦٠٨-١٦٥٧) احد ابرز كتاب الديوان السلطاني(٥٠) . ومن خلال مقارنتنا اليوم لما انتجه الطرفان ، نجد بأن الكتّاب قدموا من خلال خدماتهم ويومياتهم البيروقراطية ، اروع الانجازات الكتابية : التاريخية والسياسية والجغرافية التي عبّرت مضامينها الحية عن ارث تقاليد الدولة والمجتمع معاً في العالم الاسلامي . . ولعل ابرز اولئك الكتاب : كاتب چلبي ، وفريدون بيك ، واحمد رسمي وقوجي بيك .

ولم تكن البيروقراطية العثمانية في مستوياتها العليا والدنيا نظيفة او نزيهة على امتداد تاريخ الدولة العثمانية ، إذْ كانت الرشوة في الادارة قد بدأت تسود النظام البيروقراطي منذ نهاية القرن السادس عشر ، مما الحقَ بها ضرراً كبيرا ، وتعرض بعض الكتّاب للعقوبات الصارمة ، وجاء ذلك نتيجة واضحة للانخفاض المتواصل في قيمة الاقچة العثمانية وتدنّي الرواتب الوظيفية ، دون أية تشجيعات معنوية او مادية تحدّ من تفاقم الفساد الاداري(٥١) . ويبدو لنا ان نقصاً قد حصل في القرون الثلاثة السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر في اعداد الكتّاب الممتازين على حساب تفاقم اعداد من عدّ

في عداد العلماء، فكثرت مجاميع القضاة والشيوخ ورجال الدين في المجتمع العثماني، إذ يخبرنا المؤرخ ياسين الخطيب العمري في «حولياته» أن عدداً كبيرا من علماء الشرع كانوا يرحلون الى العاصمة استانبول لطلب وظيفة القضاء، على ابواب قاضيي عسكر اناتوليا وقاضي عسكر روميليا دوئما تلبية لمطالباتهم من الوظائف القضائية(٥٢).

وأخيراً، لا بد لنا ان ندرك بأن فئة الكتّاب والفنيين الاداريين والادباء تختلف في حياة نظام الدولة العثمانية عن فئة العلماء والشيوخ ورجال الدين .. في بنية طبقية اجتماعية واحدة حكمت مكانتهم في المجتمع العثماني .. ، ناهيكم عن ان الفئة الاولى كانت اكثر انفتاحاً على تجارب بيروقراطية متجذّرة في تاريخ انظمة الادارات الاسلامية والاوروبية، في حين غدت الفئة الثانية اكثر انغلاقاً على تجارب البقايا الروحية والمأثورات الدينية فقط .. لقد كان البيروقراطيون العثمانيون قد تواصلوا عن تجارب تاريخية متجذّرة في تواريخ الامويين والعباسيين وصولاً الى الايوبيين والمماليك والعثمانيين .. فاذا كانت الكتابة قد بدأت بـ عبد الحميد (الكاتب) (ت ٧٥٠ م)، فهي لم تختم بابن العميد (ت حوالي ٩٦٩ م) - كما قيل في المأثور التاريخي العربي - ، بل استمرت متوهجة وحية بالكاتب الوزير ابن عباد (٩٣٨ - ٩٩٥م)، والصابي الحرانيّ (٩٢٥ - ٩٩٤م)، وابن الصيرفي (١٠٧٠ - ١١٤٧م)، وصولاً الى القاضي الفاضل (١١٣٥ - ١٢٠٠) وزير صلاح الدين الايوبي والوزير الكاتب القفطي (١١٥٣ - ١٢٢٧م) .. وصولا الى كاتب چلبي (١٦٠٨ - ١٦٥٧م) عند العثمانيين.

كما لا بدّ لنا ان نستنتج - ايضاً - بأن مثل هكذا بقايا تاريخية عن جذور متأصلة في الادب البيروقراطي - الاسلامي .. لم نجد ما يماثلها او يجانسها من التطورات لدى فئة العلماء، فالمأثور العملي والتاريخي العربي الاسلامي الذي خلّفهُ الفقيه ابو يوسف (٧٣١ - ٧٩٨م) الفقيه المشهور في كتابه «الخراج» والفقهاء أبن عبدالحكم (٧٦٧ - ٨٢٩م) والماوردي (٩٧٤ - ١٠٥٨م) وابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤م)، ونصير الدين الطوسي (٩٩٥ - ١٠٦٧م)، وابن الجوزي (١١٢٠- ١٢٠٠م)، وفخر الدين الرازي (١١٤٩ - ١٢٠٩م) .. الخ يتواصل بقوته وفاعلياته ومعالجاته الفقهية والاجتهادية العميقة لشؤون الانسان ودنياه، ومنذ الفترة التاريخية التي سبقت سقوط بغداد عام ١٢٥٨م/٦٥٦هـ مروراً بالمماليك والعثمانيين والصفويين(٥٣) .. وصولا الى شيخ الاسلام مفتي الدولة العثمانية ابو السعود افندي الذي اشتهر في عهد السلطان سليمان القانوني، وهو مفتي الدولة الذي

بدأ يوفّق بين الدين والدنيا ، ويجانس متطلبات الدنيا ومشاكلها ازاء الثوابت الشرعية ، فغدا العصر بعيداً جدا عن إيجاد اية بدائل مستحدثة تتوافق مع الحياة التاريخية الجديدة !

د . البيكلربيكيات العثمانية

لقد كان اختراق العثمانيين للاراضي الاوربية قد سبق اختراقاتهم في آسيا وافريقيا بزمن طويل ، وكانت الاراضي الاوربية الداخلية في اطار السيطرة العثمانية قد قسّمت الى منطقتين اساسيتين ، اولاهما قد نظّمت مع شكل سناجق في ظل الحكم العثماني المباشر ، وثانيتهما بقيت معرضة لاختراق الفتوحات العثمانية وفي اطار ما يسمّى بـ (دار الحرب) . وعادة ما جعل العثمانيون بين هاتين المنطقتين الاساسيتين جغرافيا منطقة ثالثة عازلة تتواجد على ترابها دولة او نيابة تابعة ـ كالتي يطلق عليها اليوم بـ Buffer state ـ ، ففي هذه المناطق العازلة والحدودية ، كان البكوات اكثر استقلالية من الادارة المركزية من اولئك الذين لهم اداراتهم القريبة من العاصمة . . وهذا نوع من نظام موروث عن الجذر العثماني الاول عندما كان المؤسس والغازي عثمان بن ارطغرل يتمتّع بهِ في اقطاعهِ الذي وقع في جبهة القتال عند منطقة الحدود ضد البيزنطيين من قبل السلاجقة . وعليه ، فلقد ضمن العثمانيون على امتداد تاريخهم عدة اسر حاكمة في ممارسة الحكم الذاتي ، وخصوصا في البكويات الحدودية او الإمارات والنيابات التابعة لهم(٥٤) .

لقد مضى زمن طويل بين مطلع القرن الرابع عشر وبين مطلع القرن السابع عشر ، أي ما يقارب الثلاثمائة سنة على اكتمال البكلر بكويات ضمن عدة أنظمة وتجديدات وقوانين عثمانية ، ووصول الامبراطورية في استحواذاتها الجغرافية على اوسع مساحة كبرى استطاعت ان تفرض هيمنتها القوية عليها ، اي بعد أن تكاملت ثلاثة عناصر أساسية في تاريخها :

١ ـ ثلاثة قرون من الزمن الحافل بالتفاعلات والتحديات
٢ ـ جملة من التجديدات والتطورات بفعل القانون نامات في القرنين الخامس عشر على يد محمد الفاتح والسادس عشر على يد سليمان القانوني
٣ ـ المساحة الجغرافية الهائلة التي استطاعت الدولة ان تضمّها من خلال وسيلتين اساسيتين : الاكتساب والتتابع .

وهكذا ، ما أن حلّت سنة ١٦١٠م ، حتى اصبحت في السلطنة العثمانية اثنتان وثلاثون اياله وولاية حسبما يتوضح في الجدول(٥٥) الآتي :

البيكلربيكية	المركز	سنة الفتح	سنة التاسيس
١ ـ الروملي	ادرنة ثم صوفيا ومناستير	١٣٦١ ـ ١٣٨٥	حوالي ١٣٦٢
٢ ـ الأناضول	انقرة ثم كوتاهية	١٣٥٤ ـ ١٣٩١	١٣٩٣
٣ ـ الروم	اماسيه ثم سيواس	١٣٩٢ ـ ١٣٩٧	١٤١٣
٤ ـ طرابزون	طرابزون	١٤٦١	حوالي ١٥٧٨
٥ ـ البوسنة	سراي بوسنة (سراييفوا)	١٤٦٣	١٥٨٠
٦ ـ قرمان	قنيه	١٤٦٨ ـ ١٤٧٨	١٤٦٨ ـ ١٥١٢
٧ ـ كفة	كافا	١٤٧٥	١٥٦٨
٨ ـ ذو القادر (ذو القدرية)	مرعش	١٥١٥	١٥٢٢
٩ ـ ارضروم	ارضروم	١٥١٤	١٥٣٥
١٠ ـ ديار بكر	ديار بكر	١٥١٥	١٥١٥
١١ ـ الموصل	الموصل	حوالي ١٥١٦	١٥٣٥
١٢ ـ حلب	حلب	١٥١٦	١٥١٦
١٣ ـ دمشق	دمشق	١٥١٦	١٥١٧ ـ ١٥٢٠
١٤ ـ طرابلس الشام	طرابلس	١٥١٦	حوالي ١٥٧٠
١٥ ـ مصر	القاهرة	١٥١٧	١٥١٧ ـ ١٥٢٢
١٦ ـ اليمن (مع عدن)	زبيد ثم صنعاء	١٥١٧ ـ ١٥٣٨	١٥٤٠
١٧ ـ جزائر بحر سفيد	غاليبولي	١٣٥٤ ـ ١٥٢٢	١٥٢٣
١٨ ـ الجزائر	الجزائر	١٥١٦	١٥٢٣
١٩ ـ قارص	قارص	١٥٣٤	١٥٨٠
٢٠ ـ بغداد	بغداد	١٥٣٤	١٥٣٥
٢١ ـ وان	وان	١٥٣٣	١٥٤٨
٢٢ ـ تونس	تونس	١٥٣٤	حوالي ١٥٧٣
٢٣ ـ البصرة	البصرة	١٥٣٨ ـ ١٥٤٦	١٥٤٦
٢٤ ـ الاحساء	القطيف	حوالي ١٥٥٠	١٥٥٥
٢٥ ـ بودا	بودا	١٥٢٦ ـ ١٥٤١	١٥٤١
٢٦ ـ طرابلس الغرب	طرابلس	١٥٥١	١٥٥٦
٢٧ ـ تيمشوار	تيمشوار	١٥٥٢	١٥٥٢
٢٨ ـ شهرزور	تابعة للموصل / ثم بغداد	١٥٥٤	؟
٢٩ ـ الحبشة	سواكن ثم جدة	١٥٥٥ ـ ١٥٥٧	١٥٥٧
٣٠ ـ قبرص	نيقوسيا	١٥٧٠	١٥٧٠
٣١ ـ جيلدير	جيلدير	١٥٧٨	١٥٨٧

هـ . التباينات العثمانية للولايات (= الاقاليم) العربية :

١/ التيمار والساليانه : لقد كان نظام التيمار احد ابرز ركائز الدولة العثمانية في اقاليمها المتنوعة والمتعدّدة ، وان تطبيقه بحاجة الى مستلزمات اساسية تتصل بحياة الاقاليم وسكّانها ومساحاتها من الاراضي الصالحة للزراعة . . وان نظام التيمار قد طبّق عثمانياً في تلك المناطق التي ساد فيها نظام السنجق والقانون العثماني والادارة العثمانية[٥٦] ، وأن نظام التيمار لم يطبّق في ولايات مصر وبغداد والبصرة والاحساء والحبشة . . التي حاولت ان تجد لها ظلاً سياسياً من الحكم الذاتي . واكتفى السلطان بإرسال وحدات من الانكشارية ووالٍ وقاضٍ ودفتردار الى كل اقليم من العالم العربي . . ولما لم تكن هناك عائدات الولاية توزّع على الجيش ، وخصوصا على السباهية (= الفرسان) على شكل تيمارات ، بل كان الولاة يصرفون منها على الميادين العسكرية والادارية لولاياتهم ، ثم يرسل الى العاصمة مبلغاً سنوياً محدوداً عرف باسم « ساليانه » فعرفت هذه الولايات باسم « ولايات الساليانه »[٥٧] .

٢/ هناك ادارة السناجق (= الالوية) المتوارثة التي تختلف عن غيرها ، إذ يتوارث تلك الادارة زعماء العشائر في بعض مناطق شرق الاناضول ، وعرفت باسم « سناجق الحكومة » ، وكل عائداتها يتسلمها البيكات مقابل مساهماتهم بارسال عدد محدد من الفرسان حين يأمر السلطان بذلك ، ولم يرسل السلطان الى المدن المهمة في مناطق مثل هذه إلا قاضياً ، ووحدة صغيرة من الانكشارية[٥٨] .

٣/ هكذا ، فان هناك ولايات تتمتع بحكم ذاتي تختلف عن ولايات الادارة العثمانية المباشرة ، الا وهي : « ولايات الساليانة » و « ولايات الحكومة » والامارات الاوروبية المسيحية ، مثل : مولدافيا ، وولاجيا ، وترانسلفانيا ، ودوبروفنيك ، والامارات المسلمّة ، مثل : جورجيا ، وبلاد جركسيا ، والقوزاق (منذ القرن السابع عشر) ، وخانية القرم ، وشرافة مكة ، وامارة كيلان[٥٩] . .

اما طرابلس الغرب وتونس والجزائر ، فلقد حافظت على مكانتها وطابعها القديم كولايات حدودية تطل على المتوسط الذي ساعدها في ان تغدو جزءا من الامبراطورية العثمانية[٦٠] .

٨ / القوى المحلية - الفاعلة في مجتمعات المدن العربية إبان العهد العثماني

٨ / ١ مفهوم القوى الاجتماعية الفاعلة

يمكننا تعريف هذه القوى المحلية ـ Power Groups ـ كونها مجموعات مركبة في المجتمع تتميز بخصوصياتها المتوارثة وعلاقاتها المتجانسة ومناطقها المعينة ، وخصوصاً في المدن والعواصم الاقتصادية العربية ، وغدت لها مكانتها في التركيب الاجتماعي الاسلامي منذ تطور المجتمع في العهود العباسية . تطورت اساليب تلك التجمعات بتطور الاصناف الانتاجية والخدميةوالتجارية ـ Artisanat ـ . ولعل من ابرز العوامل التي خدمت ذلك التطور نقابات الأشراف ، ونخب الادباء والعلماء . وتنظيمات المتصوفة . وأيضاً حركة التجارة الواسعة بين الشرق والغرب ، مكتسباً ذلك التوحد والتنوع من خلال التوزيع الجغرافي ، سواء كان ذلك في العراق ، في بلاد الجزيرة الفراتية في بلاد الشام ، انتقالاً الى مصر وبلدان المغرب العربي ، فضلاً عن الاطراف الجغرافية البعيدة سواء كان ذلك في الاندلس ام ايران وصولاً الى الهند ، وأسيا الوسطى ، هذه التجمعات قدمت من المنتجات ما جعل يرافقها المزيد من التوسع والتطور في الاسواق صغرى ام كبرى[٦١] .

لعل من أبرز ما خدم تلك القوى الرعاية التي لاقتها من قبل قادة الدول ، ورجال البيروقراطية الادارية ، ثم الفئات العسكرية ، وصولاً الى المتصوفة ، اي انها باختصار ، كانت بين رعاية الدولة وعطف المجتمع ، وعلى الرغم مما قدمتهُ لها التنظيمات الصوفية من قواعد إلا أن الصوفية كتجمعات لم تتطور لما فيه خدمة المجتمع في حين تطورت تجمعات الأصناف لكونها تجمعات خدمية لها علاقات إنتاجية إستمرت تتعمق عمودياً وتنتشر افقياً حتى ابان العهود العثمانية ، اذ كانت الأصناف الانتاجية[٦٢] من حرفيين وتجار وباعة ومنتجين وصناع قد اكتسبت المزيد من العناصر المنتجة عندما تحولت الحاميات العسكرية من بلوكات ، او أورطات ، او فصائل الانكشارية ، إلى قوى اجتماعية فاعلة . وخصوصاً في القرن الثامن عشر الذي وصلت ابان عقوده في النصف الثاني منه : عمليات الاندماج الاجتماعي الى اقصى مدى لها في التحولات من خدمية الى انتاجية ، من عسكرية رسمية الى اجتماعية حرفية ، من فئات منعزلة الى شرائح مندمجة ،يمكننا ان نذكر مثلاً الكشايرية والكراغلة في الجزائر . عسكر الحنفية في تونس ، الأغوات والچلبية

في الموصل ، قوى الزعامات المحلية في دمشق ، المقاطعجية في لبنان ، المسابلة في الخليج العربي ، القازدغلية والجلفية في مصر . الكوله مند في بغداد الخ . . .

٨ / ٢ القوى المحلية الفاعلة في المدن العربية ابان العهد العثماني :

لقد عرف المجتمع العربي هذه القوى الفاعلة منذ القدم ، بحكم النظام الاجتماعي المتنوع الذي عرفته اعرق المدن العربية التي تجذّرت فيها مجموعة من النظم والتقاليد والاعراف من خلال عوامل اقتصادية وجغرافية غدت بمثابة مرتكزات أساسية في عمليات الانجذاب والاندفاع السكاني ، سواء كان ذلك في تجمعات المدن النهرية كالموصل ودمشق والقاهرة وبغداد وديار بكر ام المدن الساحلية كالبصرة وبيروت والاسكندرية وعكا ومسقط وتونس ، والتي تعد جميعها بمثابة بيئات منتجة او مورّدة او مصدّرة(٦٣) . . ناهيكم عن فضاءاتها الداخلية وجواراتها المحاذية . . وارتباطاتها من خلال الخطوط والمسالك مع بعضها البعض ، مما جعلها كتلة تاريخية فاعلة في اقتصادياتها المتنوعة . ولقد وجدت هذه « الكتلة » فرصتها الثمينة في التطورات الاجتماعية التي اثراها الاسلام في عهد الامويين وعصور العباسيين ، إذ لم تقتصر تلك «التطورات» على المدن حسب ، بل امتدت الى جواراتها من القرى واللواحق والقصبات والدساكر وحتى التخوم(٦٤) . . فشكّلت بذلك ميراثاً فاعلاً امتدت بقاياه من الاساليب والتقاليد والاعراف والتجارب عن العصور المتأخرة . . فكيف غدت المفاهيم والآليات للقوى المحلية الفاعلة في المجتمع العربي ابان العهود العثمانية ؟ وما هو ابرز ما لحقها من تطورات منيعة او انتكاسات مريعة من خلال التجارب العثمانية ؟

٨ / ٣ التراكيب الاجتماعية :

كانت المفاهيم التقليدية السائدة في المجتمع العربي كاحد ابرز مجتمعات (= ملل) الدولة العثمانية تعترف بتلك القوى المحلية من تجار متنوعين ، واصناف وحرفيين متعدّدين ، وحتى المزارعين والفلاحين المنتشرين في القرى واللواحق والكفور كطبقة (او : طبقات) منتجة متميزة بفئاتها الوسيطة او الدنيا في المجتمع ، وهو المجتمع المركّب من خمس طبقات (لها مستوياتها وفئاتها وشرائحها) :

١ ـ الطبقة العليا من القادة والاعيان والنقباء والملاكين والتجار الكبار والاقطاب الروحانيين .

٢ ـ العلماء والادباء من الفقهاء والكتّاب والموظفين الكبار والقضاة والمفتين . .
٣ ـ تجار الاسواق الاقليمية والمحلية والوسطاء والحرفيين والشيوخ والاصناف والجماعات المنتجة والفلاحين والمتصوفة .
٤ – العسكر بمختلف فئاتهم الدنيا والمقاتلين والمسابلة والباعة والمرتزقة .
٥ ـ الطبقة الدنيا من محرومين وفقراء الحال ومعدمين وهامشيين وغجر ولصوص ورعاع واشقياء وزعران وحشّاشين ومهاجرين وداعرين وداعرات . .

هذا التقسيم الاجتماعي الذي كان يستقيم فهمه مع روح ذلك العصر بما يمنحه لهذا ويسحبه من ذاك . . وكانت المدن بكل تشكيلاتها الاجتماعية تضم اغلب هذه التنوعات من القوى المحلية ، ولعل ابرز ما يهمنا في هذا الباب هو دور القوى الفاعلة منها !

كان الحرفيون بمختلف اصنافهم في المدن يمثلون المرتبة الادنى من التجار الكبار الذين يتعاملون مع التجارات الدولية الماركنتالية او حتى التجار الوسطاء في التجارة بين الاقاليم ، وذلك في نسق الهرم الاجتماعي . وحسب اوامر السلطان العثماني ، كان افراد كل طبقة اجتماعية معينة يرتدون لباساً مميّزاً يعبّر تعبيرًا واضحاً عن وضعهم وهيأتهم في المجتمع ، وكان الامر يصل الى حد ان يحظر على اصحاب الحرف واصحاب الدكاكين من الباعة ان يرتدوا الملابس الغالية والثمينة التي ترتديها الطبقات العليا في المجتمع(٦٥) !

٨ / ٤ التعايش الاجتماعي الديني والطائفي :

لم يكن التقسيم الديني او الطائفي او المذهبي في المجتمع وحسب مقتضيات الشرعية يعبر عن نفسه من خلال التنوعات الاقتصادية والتقسيمات الاجتماعية الواقعية في المجتمع العربي على اقل تقدير في اطار العثمانيين نتيجة واضحة للمواريث الاسلامية وبقاياها الثاوية في مركزية المجتمع سواء كان ذلك في المدن ام الارياف ، اذ تحققت اعلى درجات التعايش السلمي بين القوى المحلية الاجتماعية وبمختلف طبقاتها وفئاتها العليا والوسيطة والدنيا . . فلقد كان التجار والحرفيون – مثلا – من مسلمين وغير مسلمين ينتمون الى طبقة واحدة ومستويات واحدة ، يتمتعون بحقوق واحدة ومشتركة مع التباين الجزئي في الواجبات الدينية فقط ، كان التجار الاثرياء من يهود وارمن ونصارى يلبسون ويتكلمون ويتصرفون كالمسلمين ، بل ويعيشون حياتهم المشتركة معاً دون أية تقاطعات او تمايزات دينية ومذهبية . . وعلى الرغم من اصدار بعض المراسيم والتعليمات السلطانية

التي تمنع غير المسلمين من مجاراة المسلمين في البستهم وامتلاكهم للعبيد وركوب الخيل ، الا انها ـ كما يبدو ـ اوامر غير فاعلة ولم تطبّق فعلاً ! كما ان الاصناف من الحرفيين المتميّزين ببعض المنتجات الصناعية المهمة الممتلكة لخصوصيات تفرّدت بها . . انما كانت تعلن عن تمايزها وخصوصياتها لدى بعض المسيحيين العرب ، بدافع التنافس الاقتصادي لا الديني(٦٦) .

لقد اشتركت القوى الاجتماعية المحلية الفاعلة في مراكز اعمالها الانتاجية والحرفية وانشطتها التجارية واسواقها المتنوعة ، أي أن شراكة العمل والانتاجات في ساعات العمل هي غيرها في خارج العمل ، فكثيراً ما يشترك ابناء الجماعات الدينية المتباينة في محلات منفصلة في المدينة ، ولكنها ليست متباعدة ، وعلى الرغم من المعلومات السوسيوتاريخية التي تعلمنا عن محلات منفصلة للمسلمين والمسيحيين واليهود في دواخل المدن ، والطارئين والمهاجرين والغجر في اطراف المدن خارج الاسوار . . الا ان ثمة ملاحظتين اساسيتين يمكننا رصدها :

١ ـ ان انفصال المحلات والسكن بين السكان لم يكن على اساس ديني سوسيولوجي واقعي ، بل كان متوارثاً على اساس الخطط الاولى لتلك المدن والتركز السكاني حول المساجد عند المسلمين ، وحول الكنائس عند المسيحيين وعند الكنيس اليهودي في محلات اليهود(٦٧) .

٢ ـ ان ثمة تداخلات في بعض المدن العربية بين المسلمين والمسيحيين حتى في السكن والمعيشة ، إذ انني توقّفت عند نماذج معينة من سندات العقارات المشتركة بين المسلمين والمسيحيين في بيوت مشتركة فبيت مقسم الى قسمين اولهما لمسلم وثانيهما لمسيحي وفي سند مشترك واحد(٦٨) (ولعل الدراسات المعمّقة في التاريخ الاجتماعي العربي مستقبلاً تنبؤنا عن حالات عدة لمثل هذه الظاهرة الرائعة في تاريخ التعايش الديني عند العرب والذي لم تألفه المجتمعات الاوربية ابداً) !

٨ / ٥ التشكيلات الصوفية وطرائقها :

لقد كانت الطريقة الصوفية تمثل قاعدة للحياة الاجتماعية ، في حين كانت الاصناف الحرفية تمثّل قاعدة الحياة الاقتصادية في المدن العربية ، وكثيراً ما كانت تترابط الاصناف بطرائق صوفية . وتعلمنا المعلومات التاريخية عن ابرز المدن المنتجة العربية ، ان ابناء تلك الاصناف يؤلفون قسماً كبيراً من السكان الذين انتظمت قواهم الفاعلة في

تجمعات تخصصية ونقابية ، كل واحدة تمثل صنفاً وهي تدافع عن المنتسبين لها ، ولم تكن مثل هذه التنظيمات النقابية - الحرفية غريبة عن حياة المجتمع العربي الاسلامي في تضاعيف التواريخ الوسيطة والتي كان من ابرز انشطتها : آداب الفتوة وربط الصوفية والاخويات القرمطية . . وصولاً إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لكي تتطور حركة نقابية كاملة باسم «الآخية» وانتشارها في مجتمع الاناضول ، وتأثرها بالجذور الاقتصادية في المجتمع العربي . . وفي حقيقة الامر ، فلقد كانت الاصناف الاسلامية وتنظيماتها الاجتماعية ومنذ بداياتها ، تمثل المعارضة الشعبية الفعالة او المستقرة للطبقة الادارية - العسكرية الحاكمة . . ومع نمو نزعة الحكم المطلق والمركزية ، اخذت الدولة تسيطر على تلك التنظيمات تدريجياً . هكذا ، غدت تنظيمات « الآخية » وغيرها في المدن مجرد اصناف حرفية ، ولكنها بقيت بقاياها تحتفظ بجذور آداب الفتوة قوية في الاصناف(٦٩) .

٨ / ٦ النظام الاجتماعي للقوى الفاعلة : الوظائف والواجبات والحقوق

من جانب آخر ، علينا ان نعلم دون أي مبالغة : بأن لا الدولة ولا النظام السياسي هما وراء تأسيس الاصناف الحرفية العثمانية سواء في المدن العربية او غيرها من مدن الدولة ! لقد عرف المجتمع العربي تلك القوى المحلية الفاعلة منذ القدم ، وهي التي نظمت نفسها بنفسها كجماعات عريقة تشكلت على غرار «نقابات الاشراف» في المدن الاساسية بالمشرق العربي ، وابرزها : المدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد ودمشق والموصل وحلب والقدس والقاهرة والبصرة وغيرها . تلك «النقابات» التي مثلتها جماعات الاشراف في المجتمع العربي ، وهم الذين تمتد جذورهم الى الهواشم القريشيين ، وكان له نفوذهم وسلطتهم الاجتماعية في المجتمع العربي من خلال قداستهم ومكانتهم الروحية . كما كانت لهم مصالحهم وامتيازاتهم كونهم على رأس السلم الاجتماعي(٧٠) .

هكذا ، كان نموذج نقابات الاشراف خير ما استندت عليه جماعات القوى المحلية سواء على مستوى التنظيم الداخلي ام على مستوى المثل العليا . . ليس بالنسبة للاصناف والحرفيين حسب ، بل الطرق الدينية والمدارس . .

لقد كانت أي جماعة منظمة (= صنف / طريقة) يقف على رأسها ابرز واهم عضو فيها لكي يمثلها امام الآخرين ، ويدير امورها الداخلية ، ويحافظ على اسرارها ، ويحترز على تسجيلاتها . هذا الشخص اسماه العثمانيون بـ « الكتخدا» في حين كان العرب يطلقون عليه « الشيخ » ، وبشخصيته القوية يعدّ الصنف قائماً بذاته وله استقلاليته . وعليه ، فإن

الحرفيين كانوا يرغبون في ان يستقلّوا بأنفسهم كلّ في اطار حرفتهِ ، ويسمّون بـ «المعلمين» الذين بامكانهم ان يعزلوا «شيخهم» حينما يريدون ، ويقاومون اي تدخل رسمي او حكومي في انتخاب من يخلفهُ . . وكانت الحكومة المركزية او الادارة الاقليمية تحترم اعراف الاصناف الحرفيين وتقاليدهم[٧١] .

ان من ابرز واجبات «شيخ الصنف» هو دوره الرئاسي الموجّه لشؤون الصنف . ويمثلهُ في الاحتفالات والكرنفالات (الشنلك ـ في اعراف التسميات المحلية ـ) التي يكرّس فيها الصناع والمعلمون الجدد انفسهم سواء كان ذلك في المناسبات الدينية ام السلطانية[٧٢] . . فضلا عن تحديده وتنفيذه للعقوبات بحق اعضاء الصنف . اما انتخابه ، فكان يأتي من قبل المعلمين القدامى في الصنف ، والذين يشهد لهم بالمعرفة والاخلاق والعادات المهنية . . وكان الى جانب «الشيخ» ، هناك «مساعداً» له يدير الاحتفالات الصغرى الخاصة بالصنف . . وكانت الحكومة المركزية والحكومات الادارية تتصل بالاصناف عن طريق « شيوخها » و «كتخداتها» والذين يقومون بجمع الضرائب المفروضة على الاصناف ويسلمونها الى الحكومة .

وهناك منصب ، «شيخ الاصناف» (او : شيخ المشايخ) الذي يسمى في الاناضول بـ « الكتخدا الكبير » في المدينة ، الذي يجتمع شيوخ الاصناف والحرف عنده ويستشار في الامور المشتركة لكل الاصناف ، وعادة ما يكون احد اعيان المدينة . وهناك المعلم الكبير (او : يگيت باشي) الذي يتولى الامور الداخلية لكل صنف ويكون مسؤولا عن سجلات الصنف ، ويختاره المعلمون الكبار في الصنف ، وينوب عن « الشيخ » في حال غيابهِ ، ويتولى ـ ايضاً ـ مسؤولية شراء المواد الاولية في السوق ، ويقوم بتوزيعها على المعلمين ، كما عليه ان يتأكد من مطابقة السلع المصنّفة لمواصفات الصنف ثم توزيعها على الاصناف الاخرى ، او اجراء العطاءات مع التجار ، او التعامل مباشرة مع دكاكين البقالين ، والسماسرة والوسطاء والبائعين . . فضلا عن دوره باخبار «الشيخ» بأية مخالفات لقواعد الصنف ، ويخبره بقدرة ورغبة أي «صانع» في ترقيته الى درجة «المعلم»[٧٣] .

٨ / ٧ الاخلاقيات الاجتماعية في تعامل القوى الفاعلة :

ويتم ايضا انتخاب شخص او شخصين من الشخصيات القيادية ممن يسمّون بـ « اهل الخبرة » وهم من المعلمين المعروفين بخبراتهم في الحرفة وتاريخ المعلمين والصناع

فيها وسيرتهم جميعاً ، من اجل استشارتهم لابداء الرأي في ما يحدث من مشاكل داخلية ، وفحص نوعية البضاعة ، وحلّ الخلافات حول الاسعار ، وتحديد الاسعار في السوق ، وفي الاستماع اليهما بشأن اختيار الصناع . . وكان اختيارهما في بعض الحرف الحساسة كحياكة الحرير والموسلين مثلا يأتي على قدر كبير من الأهمية اما في الاصناف والحرف العادية ، فكان منصبي «اهل الخبرة» يتولاهما «الشيخ» ومساعدهُ .

لقد كانت الاصناف الحرفية كاقوى وابرز القوى المحلية الفاعلة في المجتمع العربي خصوصا والعثماني عموما ، تلتزم بكل دقة واناة وانتظام بالاسس والقواعد المحددة ، ولم يكن اغلبها مكتوباً ، بل معروفاً شفاهاً وقد غُرِسَ في الذاكرة اليومية الشعبية كاعراف لا يمكن التغافل عنها او تناسيها ، وكان مبدأ «الثقة» يسود هذه الاوساط الفاعلة(٧٤) . . وهذا ما يميزها عن غيرها من القوى الاجتماعية الفاعلة لدى شعوب اخرى وخصوصا في اوروبا . . ولعل اهم ما يمكن ملاحظته لدى القوى الفاعلة الاسلامية في مجتمعاتنا : جملة في الاسس والمبادىء والمفاهيم والاعراف التي تطوّرت مع توالي القرون ، إذ ترجع جذورها الى المهادات الاسلامية الاولى في كل من العراق وبلاد الشام ومصر وايران والاندلس والمغرب العربي . . ويتلمس المؤرخ بعضاً من تلك القيم والاعراف في بعض شهادات ومراسيم الاصناف ، او في بعض اخلاقيات معاملاتهم . . فضلا عما كانوا يستخدمونه من المصطلحات والتعابير والاغاني الشعبية . . ناهيكم عما كان الحرفيون يضيفونه من قواعد جديدة يمكنهم تسجيلهاكي تعتبر نافذة . وهنا تأتي ابرز مهمة قياسية في مراقبة رسمية باسم قواعد «الاحتساب» وممثليها من المحتسبين في السوق وعلى الاصناف . وتشتمل تلك القواعد : تحديد الاسعار ونوعية البضاعة ، التي تمرّ تلك المهمة عبر مناقشات بين طرفين : معلمو الحرف والاصناف وبين ممثلي الحكومة الادارية او المركزية . هكذا ، كانت الدولة بقوتها المركزية ام قواها المحلية تتدخل في منتجات الاصناف كي تضمن جمع الضرائب المفروضة عليها ، مؤكدة علي تطبيقات قواعد «الاحتساب» وانظمته الاقتصادية(٧٥) .

٨ / ٨ نظام الاحتساب والتعامل :

ان «الاحتساب» و «الحسبة» نظام اسلامي قديم كان قد تبلور وتطور كثيراً على ايدي العرب المسلمين ايام العباسيين بشكل خاص ، وانتشر كثيراً في الاصقاع الاسلامية لكي يعمل به في اغلب المدن الاسلامية وخصوصا في المدن العربية المنتجة ، ومن ابرز مهامه :

حمايته الرعية مما يقع عليها من ظلومات، ومعالجة شكاوى الناس . . وقد وفّر القرآن الكريم جوهر العلاقة التي يجب ان تحكم السلطة والمنتجين والتجار، وهذا ما عرف واصطلح عليه بـ «الاحتساب» الذي تمنع ركائزه النظرية وقواعده التطبيقية : الغش والاحتكار، والكسب غير المشروع، ثم تعمل على تحديد الاسعار كي تكون عادلة في الاسواق، ثم تؤكد على الاوزان والمكاييل بالقسط بمعاينة البضائع والسلع، ثم على ما يطرح في تلك الاسواق من نوعيات جيدة أو رديئة[٧٦] . . ويشير المؤرخ خليل ايناجيك الى ان الدولة العثمانية قد طبقت قواعد الاحتساب التي كانت تخضع لها الاصناف، والتي كانت تتم مراجعتها مع تولي كل سلطان جديد للحكم، وذلك من خلال مراقبتها للاوزان والمكاييل، إذ كان «المحتسب» يتفقد الاسواق، ويتأكد من تطبيق القواعد الاحتسابية، ويقوم بسوق المخالفين الى القضاء، فيتعرضوا الى عقوبات متنوعة . . فضلاً عن قيام المحتسب بوضع اختامه على السلع المتعدده، ويمنع بذلك تداول اية سلع غير مختومة . اما بالنسبة لتحديد الاسعار، فإن عملية تطبيقية وممارسة مجتمعية وشراكة رسمية تجري بحضور القاضي لخصم المصروفات وقوة العمل والوصول الى حدود الاسعار، مراعين بذلك ضمان تحقيق نسبة ١٠٪ من الارباح التي ترتفع لتصل النسبة الى ٢٠٪ في حالة البضاعة الممتازة [٧٧] .

٨ / ٩ مكانة القوى الفاعلة :

تنبؤنا التواريخ الرسمية والمحلية معاً على ان القوى الاجتماعية الفاعلة في المدن الكبيرة (وأخصّ بالتحديد العربية منها) كانت تتمتع بمكانة نافذة في كلٍّ من المجتمع والدولة معاً، وكان لها ممارساتها واندماجاتها مع الاحداث المؤثرة . . كان للاصناف ـ مثلا ـ دورهم في القضاء على الانتفاضات والقلاقل واعمال الشغب لاعادة الامن الى نصابه . . معنى ذلك ان تلك القوى الفاعلة لم تكن اقتصادية حسب، بل تشارك سياسيا من خلال رصدها للاحداث اولا، وانغماسها في تشابكات المجتمع ثانيا، مستلهمة جملة من المعاني الروحية التي عليها قوى المتصوفة، فضلا عن تمثلها بجذور الاساليب الرياضية والمثالية التي كانت عليها الفتوة . . وكل ذلك دعاها الى ان تغدو بقاياها متماسكة في اطار شخصية اجتماعية لها ضماناتها السياسية والاقتصادية والمجتمعية . كانوا دوما يقتربون من الدولة لا من اجل الحفاظ على سلطاتهم التي غدت شرعيتها تاريخية في المجتمع، بل مشاركة الدولة فعالياتها للابقاء على بنيتها ومضامينها الراسخة

واغنائها بالمعاني والرموز والتقاليد . . هكذا ، كانت هناك ظاهرة تاريخية يمثلها الاندماج الحيوي بين القوى الفاعلة والدولة العثمانية . . نتج عنه ابقاء هيمنة الدولة من جانب ، وابقاء فاعلية القوى في تخلص الجانبين من كل التيارات التي هددت نظام الاصناف الاجتماعي ونظام الدولة السياسي .

٨ / ١٠ خصوصيات المنتجين والحرفيين :

وعندما يتوغل الباحث في المظان والتواريخ المحلية لاثنتين من ابرز المدن الانتاجية والحواضر الاقتصادية في مجتمعنا العربي ، تقف امامنا مدينتان تركبت فيهما ابرز القوى الفاعلة ، هما : دمشق والموصل وقد تميزتا بقوة التنظيمات الحرفية وكثرة الاصناف وتنوّعها سواء كانت عامة ام خاصة ، فالاصناف والحرف العامةتتواجد في اية مدينة عربية او اسلامية نظراً لمتطلبات الناس فيها من الخدمات والمنتجات(٧٨) . . اما الخاصة ، فقد تميزت دمشق والموصل باصناف وحرف نسيجية وخدمية وانتاجية لها خصوصياتها فكان هناك الدباغون والشعارون والملاحون والقزازون والحبارون والزياتون والدهانون . . . الخ ويمكن للمرء ان يلاحظ تسميات عدد كبير من الاسر والعوائل اليوم قد انتقلت من اصولها كاصناف وحرفيين في الماضي(٧٩) ، ولعل ذلك العدد الواسع لم نجده قد تحقق بشكل متجانس وكبير الا في المدينتين المذكورتين اعلاه .

اذا كان المؤرخ ياسين الخطيب العمري قد سجل لنا بدقة صفحات موسعة من حياة الموصل الاجتماعية والاقتصادية في القرن الثامن عشر ، فقد حظيت دمشق بالمؤرخ احمد البديري الحلاق الذي سجل «حوادث دمشق اليومية» الموسعة وخصوصا الاجتماعية والاقتصادية في القرن المذكور(٨٠) . . ومن يتوغل مقارناً حياة المدينتين وما عاشته كلتاهما على امتداد القرن الثامن عشر ، سيجد تشابهات وتماثلات لا حصر لها في تنظيمات القوى المحلية من الطرق والاصناف والحرف والاحداث والتراكيب البنيوية على مستوى القاعدة . . انتقالا الى القمة السياسية التي تتشابه هي الاخرى بين المدينتين ، فلقد حكم الجليليون الموصل متزامنين في حكمهم لآل العظم في دمشق . ولعل ابرز ما يلفت النظر : الاسعار وتأثير الاحداث ، واخبار الاحتفالات والمناسبات والطرقيات . . وصولا الى الفئات الاجتماعية الهامشية التي بدأت تسبب مشاكل من وراء الاسوار لكل من المدينتين ، او وجود قوى هامشية طارئة من النازحين والمهاجرين والغجر والاشقياء(٨١) !

٨ / ١١ جغرافيات القوى الفاعلة :

السؤال : ما هي جغرافية القوى المحلية الفاعلة في المجتمع العربي ؟

تركزت تلك القوى في حواضر قديمة كان لها أسواقها وتبادلاتها وتنوعاتها في المكان ما بين مدن جبلية مثل : قسنطينة في الجزائر ، ومكة في الحجاز ، او مدن نهرية كمدينتي الموصل والقاهرة ، أو مدن سهلية كمدينتي حلب و دمشق ، أو مدن ساحلية كمدينة بيروت ومدينة البصره ، نجد أن مدينة مثل البصره.قد اشتهرت منذ القدم كونها مركز بورصة تمور ، في حين اشتهرت دمشق بالزيوت الشامية ، واشتهرت حلب بالصوابين الحلبية ، واشتهرت الموصل بالأنسجة الموسلينية والجلود واشتهرت مكة بخدمات الحجيج . . الخ ، وهذه المدن العربية قابلتها في الاناضول ايضاً عواصم اقتصادية اشتهرت بنمو الأصناف والحرف والصناعات ، فكانت الاسلحة في إستنبول ، والبورصة التجارية في سالونيك ، وهذا ايضاً ما نراه في إيران حيث كان يتجذر هناك البازار الايراني وفعالياته في التجارة الدولية فضلاً عما اشتهرت به المدن في صناعة السجاد ، انتقالاً الى الموانى الهندية ، واستقطابها تجار العالم الذين كانوا مصدرين للتوابل والعطور رجوعاً الى الخليج العربي وتنظيمات الباعة والغواصين ، والبحارة والميليشيات القبلية والمسابلة إنتقالاً الى مدن المتوسط وموانئه كبيروت والاسكندرية وتونس والجزائر ووهران التي كانت لها فعالياتها المالية وهي مزدحمة بالوسطاء والشركات والاحتكارات وحركة الموظفين الأجانب القادمين من الموانىء الاوربية (والايطالية خصوصاً) او من الموانىء العثمانية التي تكثر فيها الرساميل الكبرى(٨٢) .

ولعل ابرز ما يلفت النظر في جغرافية القوى المحلية الفاعلة ، حركة التنظيمات الاصلاحية العربية وانطلاقاتها نحو اعماق العالم الاسلامي البعيد ، فكان للزوايا السنوسية وتراكيب قواها انتشارها الواسع في اعماق افريقيا ودورها في تنظيم المجتمع الافريقي الاستوائي . وكان للبحاره العمانيين ذلك الدور الفاعل في شرق افريقيا وزنجبار طويلا ، وهناك دور التجار العرب في الخانيات الاسيوية وتنظيماتها الدينية ـ الصوفية كالخوجكانية والنقشبندية ، ناهيكم عن دور الشيبانية في مجتمعات آسيا الوسطى (وخصوصا في بخارى وسمرقند) . اما تجار الفراء الروسي فكانت لهم علاقاتهم مع القبيلة الذهبية في اعماق روسيا . . وقد تمخضت في البازار الايراني وفي البيداستانات

والبورصات . . اقوى عمليات التجارة بين الشرق والغرب ، فضلاً عن الخانقات وتنظيمات القوى الفاعلة في الشرق . ولا يمكننا نسيان الارياف ومنتجاتها وعلاقاتها بالمدن واسواقها المحلية ثم الاديرة المسيحية وادوارها الاقتصادية في المجتمع العربي .

٨ / ١٢ انهيار القوى الفاعلة : عوامله ونتائجه

ان حالة المجتمع العربي قد اختلفت اليوم عمّا كانت عليه اوضاعه قبل عمليات التصادم مع الاوروبيين . وعلى الرغم مما الفناه في دراستنا من التراكيب التقليدية والتنظيمات المحافظة التي كانت بحاجة الى تحولات جذرية (تحديثية) يبقيها على ميزاتها وخصوصياتها الأنتاجية ، وجدنا بأن مجتمعات الحواضر العربية تنقاد الى الفوضى نظراً لتشابك العوامل الداخلية وخصوصاً السياسية والاقتصادية وفقدان مصادر الدخل والموارد مع العوامل الخارجية بطغيان المصالح الأجنبية والامتيازات وانفتاح الأسواق للبضائع الأجنبية . لقد كانت السياسات الاقتصادية المحافظة قد خدمت تلك التشكيلات الفاعلة حتى القرن التاسع عشر . وكانت النظم والممارسات بحاجة الى تجديدات حيوية ومستفيضة وشمولية لا تحررها من جذورها التاريخية ، ولا تحرمها من عوامل الالتقاء بالتجارب الأُخرى ، ولكن ضيق الخناق على انشطتها بنمو البرجوازيات القوية والانفتاحات غير المدروسة على تجارب الاوروبيين مها قاد الى انحسارها بعد سنة ١٨٤٠م ، وتفككها أزاء طغيان الرأسمالية الصناعية الاوروبية ، وعسف الكمبرودارات الجديدة ، فكيف حدث ذلك ؟

إنخفضت المواد الخام كثيراً عمّا كانت عليه سابقاً نتيجة للنهب الاستعماري كما ضعفت قدرة الأنسان على مواجهة الصعاب الاقتصادية التي ولدت في العصر الحديث وخصوصاً بعد ازدياد فاعلية الشركات الاجنبية وازدياد الوسطاء والمستغلين مما أضعف تلك القوى وسبب البطالة والعَوز وقاد ذلك جميعاً الى الاندثار . كان لانتشار البطالة في المدن (العربية خصوصاً) يمثل معضلة اقتصادية خطيرة ، وذلك بفعل النقص الحاصل في مواد الأنتاج ، وطرق المواصلات ، ومواجهة المضاربات والمستغلين ، وازدياد تجارة الاوروبيين . . . وعبثاً ذهبت محاولات القوى الفاعلة وشكاويها للحكومة ازاء ما يحدث . وعبثاً ذهبت اصدارات مراسم السلطان بحظر الاستغلال ، وبمنع التجار الاجانب من استغلال حالة الركود ، وايضاً عبثاً منعت الدولة تصدير بعض المواد الخام المهمة مقابل اعطاء الفرصة للاصناف والقوى الفاعلة لكي تقوم باحتكار الانتاج . لقد ضعفت الأصناف بذبول ذوي المهارات العالية وانكمشت روح المنافسة وغدا المجتمع يتطلع الى المنتجات الأجنبية معتقداً

ان نظامه الاقتصادي كان بدائياً ومتخلفاً ولا بد من إنهائه ، في حين كانت المجتمعات الأخرى تجدّد انشطتها الاقتصادية وتطوّر قواها المحلية الفاعلة ، وتنشّط أسواقها ، وتحدّث ورشها الحرفية ، وتحافظ على تقاليدها كمقاييس أساسية لاقتصادياتها فكانت قد خلقت فرصاً من التوازن بين بقايا ما ورّثه التاريخ وبين استخدامات ما اوجده العالم الحديث .

لقد إنهارت الصناعات الكبرى والمنتجات العربية في القرن التاسع عشر انهيارات شبه كاملة مسببة فوضى اجتماعية واقتصادية واضحة وتباينات محلية واسعة ، فكما انهارت صناعة الحديد في إستنبول بدت القوى العربية الفاعلة منهارة هي الأُخرى سواء كان ذلك في دمشق ، أو الموصل ، أو حلب ، أو القاهرة وطرابلس ، وبغداد الخ . . .

يرى البعض من المؤرخين ان التنظيمات العثمانية ، ودخول الانكشارية بعد تفككها في اصناف المدن كانت من العوامل التي أسهمت في انحطاط القوى الفاعلة خصوصاً لان مكانتهم وامتيازاتهم السابقة قد حررتهم من الرقابة فاستغلوا التركيب الاجتماعي على حساب التقاليد الاقتصادية لمصالحهم ، وضعف إتقان الصنعة ، وقاسموا العمال المهرة الارباح ، واستغلوا المواد الاولية دون عقاب ، فضلاً عما حدث من إنقسامات اجتماعية قادت جميعها الى انهيار التراكيب الفاعلة للأصناف وانحطاط الحرف وبروز المحتكرين والطفيليين وأشباه الحرفيين !!

يمكننا التوقف عند كل من كتابات المؤرخ مارشال هودكسن في تحليله نزعة التمركزية الاوروبية أزاء العالم الاسلامي ، وما حدث من تغيرات في البنى الاقتصادية التي أثرت على المجتمع العربي الأسلامي الذي أُخترق اختراقات واسعة فخلقت تباينات واسعة النطاق لم تقتصر على المدن فحسب وإنما وصلت الى الريف أيضاً ، وخصوصاً اذا ما علمنا ان الصناعات او المنتجات الصناعية التي كان ينتجها الشرق الاوسط حتى القرن الثامن عشر كانت تضاهي بل وتتفوق على المنتجات الأوروبية[٨٣] .

اما المؤرخ شارل عيساوي ، فيحلل ليس النقائض الأجتماعية التي ولدتها العوامل الداخلية والخارجية فحسب انما يحاول ان يفحص جذور الأسباب والعوامل التي كانت وراء انهيار البنى التقليدية في المجتمع والقوى الفاعلة[٨٤] ، علماً بأن مقارنة تاريخية بين القوى الفاعلة الاوروبية والقوى الفاعلة العربية تعلمنا ، دون شك ، ان للعرب جذوراً عميقة من التنظيمات الاجتماعية التي ساهمت في اغناء اقتصاديات العالم . . وبناء حضارته الانسانية .

احالات وملاحظات

(1) Stanford J. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.* vol. 1 . *Empire of the Gazis : The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808.* Cambridge, 1979, pp. 1-9. See also, H. A. Gibbons, *The Foundation of the Ottoman Empire*, New York, 1916, pp. 71-9.

(2) E. S. Creasy, *History of the Ottoman Turks*, London, 1878, pp. 4-19. See also, Claude Cahen, "The Turkish Invasion : The Selchukides " in *History of the Crusades.* ed. by K. M. Setton , vol. 1. *The First Hundred Years*, Philadelphia, 1955, 2nd ed. 1967, pp. 135-176.

(3) Arnold J. Toynbee, *A Study of History : Abridgement of vols. I - VI,* written by D.C. Somervell, Oxford, 1964, pp. 175-6.

(4) Cf. Vte. A. de la Jonpuieŕe, *Histiore de l'Empire Ottoman,* Paris, 1881, p. 56.

(5) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire : The Classical Age 1300 - 1660,* London and New York, 1973, p. 76. See also " Orhan" in *Islam Ansiklopedisi,* cilt 9, (1962), pp. 399-408 ; "Murad " in ibid., cilt 8, (1960), pp. 587-598; "Bayezid I" in *EI2*, vol. 1, pp. 23-38.

(6) Alexander Pallis, *In the Days of The Janissaries,* Introduction by Philip Graves, London, 1951, pp. 23-38.

(7) Robert Mantran, *Histoire de la Turquie,* Press Univ. de France, 1975, p. 89.

(8) Jean Aubin, "Comment Tamerlan prenait les villes ", *Studia Islamica,* No. 9,1963, p. 101.

(9) Details in *The Cambridge History of Islam*, Cambridge Univ. Press, 1970, vol. 1, pp. 290-9

(١٠) سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر ، ط١ (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٩) ، ص ١٦٢ .

(11) Kemal Karpat, " The Stages of Ottoman History : A Structural

Comparative Approach " in *The Ottoman State and its Place in World History*, ed. by Kemal Karpat, Leiden & Brill, 1974, p. 151.

(12) Ismail Hakki Uzuncarsili, *Osmanli Tarihi*, vol. 1, Ankara, 1954, p. 211.

(13) Historical details in Halil Inalcik, "Murad II", *Islam Ansiklopedisi*, vol. VIII, pp. 598-615.

(14) Stanford J. Shaw, *op. cit.*, vol 1, p. 52.

(15) *Ibid.* , p. 53-.

(16) *Ibid.*, p. 54.

(17) Historical details in Franz Babinger, *Mehmed II, der Emoberer und Seine Zeit, Weltensturmer elner Zeitenwende*, Munich, 1953, pp. 61-187. See also, Steven Runciman, *The Fall of Constantinople, 1453*, Cambridge Univ. Press, 1965, pp. 113 - 133.

(١٨) وجيه كوثراني ، الفقيه والسلطان : دراسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية ـ القاجارية ، ط١ ، بيروت : دار الراشد ، ١٩٨٩ ، ص٤٧ .

(19) Halil Inalcik, "Mehmed the Conqueror and his Time", *Speculum*, No. 25, 1960, pp. 408-427.

(20) Halil Inalcik, " The Policy of Mehmed II Toward hte Greek Population of Istanbul and Byzantine Buildings of the City ", *Dumbarton Oaks Papers*, No. 23, 1970, pp. 213-249.

(21) Halil Inalcik in his artical " Mohmed II ", Islam *Ansiklopedisi*, vol. VII, p. 510.

(22) Details in L. Thuasne, *Djem Sutan*, Paris, 1892, pp. 21-84.

(23) Details in V.J. Parry, " The Ottoman Empire 1481- 1520" *New Cambridge Modern History*, vol. 1, 1957, pp. 395-410.

(24) Sidney N. Fisher, *The Foreign Relations of Turkey, 1481-1512*, Urbane, III, 1948, pp. 60-111.

(25) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire : The Classical Age ..* , pp. 62 -70.

(26) Robert Mantran, *op. cit.*, p. 120.

(27) Perry Anderson, *Lineages of the Absolulist State,* London, 1977, p. 75.

(٢٨) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ١٦٠ .

(٢٩) سيار الجميل ، « الادارة العثمانية اللامركزية ونظامها في الولايات العربية : دراسة مقارنة للأنماط الاقليمية في تاريخ الوطن العربي الحديث خلال القرن ١٨ » ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد ٥/٦ فيفري / شباط ١٩٩٢ ، زغوان / تونس ، ص ١١٥-١١٩ .

(٣٠) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٨ .

(30) Paul Wittik,*The Rise of The Ottoman Empire*, London, 1971, pp.16-57.

(32) H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *The Islamic Society and the West,* part 1, Oxford, 1950, p. 123.

(33) Alexander Pallis, *loc. cit.*

(34) Stanford J. Shaw, *op. cit.,* vol. 1, pp. 124-6.

(٣٥) محمد م . الارناؤوط ، (ترجمة وتقديم) دراسات ووثائق حول الدفشرمة ، ط ١ ، اربد / الاردن ، ١٩٩١ ، ص ٢٤ وما بعدها .

(36) Details in Wayne S. Vucinich, *The Ottoman Empire : Its Record and Legacy,* Princeton, New Jeresey, 1965, p. 28.

(37) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire : Conquest, Organization and Economy (Collected Studies),* London, 1978, pp. 31-56.

(38) Historical details in H. H. Lybyer, *Gevernment of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent,* Cambridge , 1913; see also, H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *op. cit.,* vol. 1,p. 54.

وأنظر : احمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ط ١ ، بيروت / القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٥-١١٢ .

(39) H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *op. cit.*, vol. 1, pp. 91 - 137. See also, G. Baer, "The Adminstrative Economic and Social Functions of the Turkish Guilds ", *International Journal of Middle East Studies,* 1st Jan. 1970.

(٤٠) فيليب حتى وآخـــــرون ، تاريخ العـرب (المطوّل) ، ج٢ ، ط٣ ، بيـروت ، ١٩٦١ ، ص٨٤٢ - ٨٤٣ .

(41) Sayyar K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920 - 1226 A. H.=1514/1515 A.D. - 1811 / 1812 A.D.)*, Ph.D. Thesis, 3 vols., St. Andrews Univ., Scotland, 1983, vol. 1 : Introduction and Notes, p. 67.

(٤٢) للتفاصيل حول المؤسسات الإدارية الاسلامية ، أنظر :

عبد العزيز الدوري ، النظم الاسلامية : الخلافة ، الوزارة ، النظم المالية ، النظم الادارية (طبعة جديدة ، جامعة بغداد : بيت الحكمة ، ١٩٨٨) ، صفحات ١٤-١٨ / ٢٨-٤٩ / ١٣٩-١٧٢ ، وللمزيد من التفاصيل والتوثيق ، راجع كتب الماوردي والجهشياري والطبري وابو يوسف والمقريزي وغيرهم .

(٤٣) أنظر ، كتبه فون غرينباوم عن هذه «الصنعة» في :

G.E. von Grunebaum, *Themes n' Medieval literature* (London, 1981), pp. 56-9.

(٤٤) راجع تحليلات ذلك عند المؤرخ خليل ايناجيك :

Halil Inalcik, *The Ottoman Empire; The Classical Age.*, pp. 131-2.

(45) *Ibid.*, p. 132.

(٤٦) من أجل تفاصيل أوسع عن نيشانجي جلال زاده ، انظر : *Islam Ansiklopedisi,*

(٤٧) لعل أبرز دراسة كتبت عنه ، هي للمؤرخ :

R.C. Repp, *The Mufti of Istanbul,* (London: Oxford Univ, 1986).

(٤٨) راجع التحليلات الممتازة لـ :

Uriel Heyd, "The Ottoman Ulema and Westernization in the time of Selim III and Mahmoud II", *Scripta Hierosolymitana*; vol. no. IX (1961), p. 75.

(٤٩) راجع ما كتبه برنارد لويس في :

Bernard Lewis, "Ottoman observers of Ottoman decline", *d.c.i.i.R*, vol. I (1952), pp. 71-77.

---

(٥٠) كاتب چلبي هو المشهور باسم «حاجي خليفة» . من المهم مراجعة ما كتبه خالد زيادة في كتابه : كاتب السلطان : حرفة الفقهاء والمثقفين ، ط ١ (لندن : الريس للكتب والنشر ، ١٩٩١) ، ص ١٥٧-١٥٩ .

(51) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: The classical..*, p. 117.

(٥٢) راجع ما كتبه المؤرخ ياسين الخطيب العمري في حولياته :

Sayyar K. al - Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A.H. - 1514/1515 A.U. - 1811/1812 A.D)* (Scotland: St. Andrews Univ., 1983), vol. 3 (= Apparatus Criticus). pp. 1177 - 9.

(٥٣) راجع ما كتبه رضوان السيد في مقالته «الكاتب والسلطان : دراسة في نشوء كاتب الديوان في الدولة الاسلامية» ، الاجتهاد ، العدد (٤) ، بيروت ، ١٩٨٩ .

(٥٤) انظر ما كتبه كلود كاهن عما كان عليه الوضع قبل العثمانيين في :

Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and* spiritual Culture and History, C. 1071-1331, Tran. from the French by Jones Williams (London: Sidgwick and Jackson, 1968), pp. 119-127. and cf. Halil Inalcik, "Ottoman Methods of Conquest", Studia Islamica, vol. II, pp. 103-129.

(٥٥) راجع «الجدول» في :

Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: The Classical* Age.., p. 216.

(56) Bruce McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe 1600-1800*, (Cambridge, New York: Cambridge Univ. Press, 1981), p. 151.

(57) G.W.F. Stripling, "The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574", dans Illinois Studies in Social Sciences, XXVI, no. 4. Urbana, 1942.

(58) I. M. Kunt, *The Sultan's Servants: The Transformation* of Ottoman Provincial Government, 1550-1650, New York, 1983.

(59) Details in, *A. Clot, Soliman le Magnifique*, paris, 1983.

(60) Halil Inalcik, *lol. cit.*

(٦١) راجع :

Ira Marvin Lapidus, *Muslim Cities in the later Middle Ages*, Harvard

Middle Eastern Studies; II, (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967), pp. 27-39.

(62) H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West; A* Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East, vol. 2, London; New York: Oxford University Press, 1950, p. 163.

(63) Abraham L. Udovitch (ed.), *The Islamic Middle East, 700-1900: Studies in Economic and Social History* (Princeton, N.J.: Princeton Univ. Press, 1981), pp. 71-96.

(64) E. Ashtor, *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (Berkeley, Calif.: Univ. of California Press; London: Collins, 1976), pp. 117-125.

(٦٥) راجع التفاصيل في :

Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: The Classical Age..*, p. 171.

(66) *Loc. cit.*; see also, M. A. Cook (ed.), *Studies in Economic History of the Middle East; From the Rise of Islam to the present Day* (London: Oxford Univ. press, 1970).

(٦٧) قارن بين خطط المدن الاسلامية القديمة ، وخصوصاً في أقاليم منطقة الشرق الأوسط ، أذكر من المدن : القدس/ دمشق/ الموصل/ حلب/بغداد/ البصرة/ الحلة/ بيروت/ نابلس ، وغيرها .

(٦٨) وقفت عليه وعلى مجموعة سندات طابو أخرى للكيات عقارية مشتركة في مدينة الموصل القديمة وخصوصاً في المناطق العريقة الواقعة في قلبها سواء كان ذلك في الطرفين الشرقي والغربي من خطط المدينة القديمة . والحاجة العلمية تتطلب الكشف عن المزيد من الدراسات في حالات التعايش الديني الرفيع في الشرق الأوسط مقارنة لما جرى في مناطق أخرى أولا ، ورداً على ما أشاعه البعض من المؤرخين الغربيين حول هذا الجانب ، أنظر مثلاً :

F. W. Hasluck, *Christianity and Islam under the Sultans* (2 vols.), Oxford, 1929.

(69) For details; see, H.J. Kissling, "The Role of the Dervish orders in the Ottoman Empire" in G. E. von Grunebaum, *Studies in Islamic Cultural History*, American Anthropologist memoire no. 76. (1954).

(٧٠) راجع التحليلات الرصينة للمؤرخة ليندا شليشر في ورقتها :
«بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر» ، أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦-١٩٣٩ . ، ج ١ ، (جامعة دمشق ، كلية الآداب ، د .ت) ، ص ٣٢٧-٣٣١ . وانظر الفصل العاشر : «الولايات العربية : القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر» والذي كتبه أندريه ريمون في :

Robert Mantran (ed. et dir.), *Histoire de L'Empire Ottoman* (Paris & Fayard, 1989), pp. 441-3.

(71) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire..*, pp. 211-214

(72) S. K. Al-Jamil, *A Critical Edition..*, vol. 3, pp. 1056-8.

(73) Halil Inalcik, *loc. cit.*

(74) *loc. cit.*

(75) *loc. cit.*

(٧٦) عن نظام «الحسبة» و«الاحتساب» ، راجع :
أبو الحسن الماوردي ، **الأحكام السلطانية** ، (القاهرة ، ١٢٩٧ هـ ، لندن ١٩٠١م) ، ص ٦١-٧٢ ، وراجع : حسن ابراهيم حسن ، **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، ج ١ ، ط ١٤ (بيروت : دار الجيل ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٦) ، ص ٣٩٨-٣٩٩ .

(77) Halil Inalcik, *loc. cit.*

(٧٨) أشير إلى أبرز من أرّخ للمدينتين العربيتين المذكورتين في الحياة الاجتماعية والاقتصادية :
فالدراسات التاريخية عن دمشق وقواها المحلية ، كتبها : عبد الكريم رافق ومحمد عدنان البخيت وليندا شليشر وكارل باربير وبيتر غران وليلى الصباغ وغيرهم .
أما الدراسات التاريخية عن الموصل وقواها المحلية فقد كتبها :
عماد عبد السلام وروبرت أولسن وبرسي كيمب وسيّار الجميل ودينا خوري وغيرهم .

(٧٩) سيّار الجميل ، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمدينة الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤» في عبد الجليل التميمي (محرر ومقدم) : **الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني** ، المجلد الأول ، (تونس : سيرمدي ١٩٨٨) .

(٨٠) قارن ما كتبه المؤرخ الموصلي ياسين الخطيب العمري في حولياته ومحلياته التاريخية عن الموصل مع ما كتبه المؤرخ الدمشقي أحمد البديري الحلاق في يومياته التاريخية عن دمشق .

(٨١) استنتاجات قراءات المؤرخ في الأدبيات الاجتماعية للمدينتين العربيتين : دمشق والموصل ، والتي أنتجتها قواها المثقفة على امتداد العصر الحديث . . ويمكننا أن نلحظ كم كبير من المنتجات الثقافية التى أبرزتها القوى الاجتماعية الفاعلة في مدن عربية واسلامية أخرى كبغداد والقاهرة وحلب وبيروت والبصرة وطرابلس وحمص وحما والحلة ومكة والمدينة . . فضلاً عن مدن معروفة ساحلية وداخلية في الجزيرة العربية .

(٨٢) انظر خير من عالج تاريخية المدن الخليجية الفاعلة هو :

خلدون النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية(من منظور مختلف) ، ط ٢ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩) ، ص ٥٥ ـ ١٠٠ .

(83) Marshall G.S. Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, vol. 3, (Chicago: Chicago University Press, 1974).

(84) Charles Ph. Isawi, *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago: Chicago University Press, 1966), pp. 71-9

الفصل الثالث

العثمانيـــون :
التوسعات في الأراضي العربية



مقـــــدمة :

في بداية القرن السادس عشر ، اختلّ ميزان القوى في منطقة الشرق الأوسط بتفاقم المخاطر البرتغالية في البحار الشرقية أولا ، وبظهور الدولة الصفوية في إيران ثانيا ، وهي دولة جديدة تقوم أساساً على عقائدية دينية / طائفية متطرفة لكي تواجه الدولة العثمانية في الأناضول ، فبدأت مرحلة صراع تاريخي طويل الأمد بين الدولتين استنزف امكاناتهما الكبرى ، وشغل العراق وشرقي الأناضول وأرمينيا ساحته الجغرافية وميادينه الحربية . وكانت أولى عمليات المواجهة بين الطرفين ، أحد الأسباب الإقليمية الأساسية في اندفاع العثمانيين نحو الأراضي العربية ، وخصوصا شمال العراق وشرقي الأناضول ثم العراق بأكمله ومنطقة الخليج العربي بعد ذلك ، اذ كان للتوسع الصفوي يمثل استفزازاً وتحدياً للعثمانيين ، فاندفعوا لدرء المخاطر الايرانية عن كل من المشرق العربي والأناضول . ولا بد لنا أن نتابع الظروف التي رافقت قيام الدولة الصفوية في أذربيجان . . ومن ثم اتساعها في إيران وبسرعة كبيرة :

١ / نشوء الصفويين وقيام دولتهم :

كان صدر الدين موسى بن صفي الدين الأردبيلي ١٣٣٤-١٣٩١ م أي في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي يتزعم حلقة الارشاد الديني في مدينة أردبيل الجبلية باقليم أذربيجان ، وذلك وفقاً للطريقة الصوفية الكيلانية(١) . ولم يكن لتلك الحلقة أي تأثير سياسي ، ولكن بدأت منزلتها ترتفع اجتماعيا منذ الغزو التيموري لأذربيجان في نهاية القرن المذكور ، وخصوصا على يد زعيم الأسرة الشيخ علي خوجه ١٣٩٢-١٤٢٩م في أردبيل وضواحيها . أما تطلعاتها السياسية ، فقد تبلورت مع مجيء خلفه الشيخ جنيد ١٤٤٧-١٤٦٠م الذي رنا الى الزعامة السياسية ، فاتخذ لنفسه لقب «باديشاه»(٢) . واستقر المقام بالشيخ جنيد في تبريز عاصمة دولة الآق قوينلو (= الخروف الأبيض = البايندرية) سنة ١٤٥٦م ليجد الترحيب من لدن السلطان اوزون حسن ، اذ كان مطارداً من قبل المماليك بتهمة الزندقة ، وتعمق الترحيب باقتران الشيخ جنيد بشقيقة اوزون حسن (= الطويل) خديجة بيكوم(٣) ، وقد اتخذ اوزون حسن من الشيخ جنيد أداة ضغط على كل من القوتين : العثمانية والمملوكية . . بقيام جنيد وعشرون الفاً من أتباعه بالغارة على المماليك ، اذ كانت علاقة الآق قوينلو متوترة مع كل من المماليك من طرف

والعثمانيين من طرف آخر، وقد قتل الشيخ جنيد بعد تراجعه على يد حاكم مقاطعة شروان(٤) .

وفي عام ١٤٦٠م، أنجبت خديجة بيكوم في آمد من جنيد ولداً أسموه حيدرا والذي تسلم زعامة الأسرة الصفوية مواصلاً تحالفه مع الآق قوينلو الذين خافوا من تعاظم المدّ الصفوي ومخاطره، فبدأوا بالتضييق على أفراد الأسرة الصفوية . . . وقد نجح اسماعيل بن حيدر الذي كان مسجونا في لاهيجان باقليم كيلان الايراني للفترة ١٤٩٤-١٤٩٩ م باقامة اتصالات مع أتباعه التركمان في الأناضول، والذين كانوا يخاطبونه بـ « المرشد الكامل » وكان لهم الفضل في إطلاق سراحه سنة ١٤٩٩م(٥) ، فبدأ بمهاجمة معاقل الآق قوينلو في تقدم سريع حتى دخل تبريز في صيف ١٥٠١م معلنا قيام الدولة الصفوية وتلقبة بـ « الشاه » ، فانخرطت في دولته الفتية عدة قبائل تركمانية كبرى لها ثقلها الديمغرافي في الأناضول الشرقي، فقام بضمّ مجاميع تلك القبائل الى وحداته العسكرية التي تميز أفرادها بالعمائم الحمراء، وتسموا بـ «القزلباش »(٦) . فاعتمد الشاه الصفوي الجديد على تلك الآلاف المؤلفة في تنفيذ مشاريعه التوسعية في العراق وشرقي الأناضول وترانس قوقاسيا، ونجح الشاه اسماعيل على امتداد السنوات الست التالية في القضاء على نفوذ الآق قوينلو في شمال غربي ايران(٧) .

٢ / الامتدادات الصفوية وموقف العثمانيين :

قاد الشاه اسماعيل الصفوي جيوشه على أطراف لورستان وكيلان وعربستان سنة ١٥٠٢م(٨) ، فانفتح العراق أمامه بمناطقه السهلية، ومدنه المسطحة، ومسالكه الاستراتيجية البرية بعد أن أمّن الصفويون سيطرتهم على تلك السلاسل الجبلية التي تفصل ايران عن الأراضي العربية في حدود طبيعية لها جغرافيتها التاريخية . لقد غزا الصفويون بغداد سنة ١٥٠٨م ومضوا شمالا، فأكملوا احتلالهم للعراق اذ أخضعوا ديار بكر ثم الموصل . وقد بقي إقليم الجزيرة الفراتية بمدنه وتوابعه الجبلية تحت السيطرة الفارسية الصفوية للفترة ١٥٠٨-١٥١٦م ، وبقي السكان ينظرون الى المحتلين الصفويين طارئين على بلادهم، لا يرتبطون معهم بأي رباط قومي او مذهبي او اقتصادي او جغرافي، وهذا ما كان ايضا بالنسبة لسكان العراق، اذ بقي جنوب العراق ووسيطه محتلا من قبل الصفويين حتى سنة ١٥٣٤م . وكان السلطان بايزيد الثاني

١٤٨١-١٥١٢م عاجزاً عن معالجة الامتدادات الصفوية الخطيرة في العراق وشرق الأناضول علماً بأن اسماعيل الصفوي قد احتضن الهاربين من البلاط العثماني ، وكان ابن بايزيد الأصغر الامير سليم حاكما على طرابزون يراقب ذلك التوسع الصفوي ومخاطره على الدولة العثمانية ، وقد أجبر والده على التنازل عن العرش بدعم من الانكشارية وتأييدهم ، فوصل سليم العرش سنة ١٥١٢م كي تبدأ صفحة تاريخية حاسمة بين كل من الطرفين سيما وان سليما امتاز بقوته السياسية وقبضته الادارية واخضاعه كافة اجهزة الدولة لخدمة أهدافه العثمانية العليا . وقد دعي بـ «ياووز» (= المرعب/الصارم) Salim the Grim مقيما العلاقات الدبلوماسية مع كل من روسيا وهنغاريا كي يتفرغ للتعامل مع قوتين اثنتين من أجل ضم الأراضي العربية الى دولته ، وتمثلت القوة الأولى بالصفويين في الجبهة الشرقية ، وتمثلت القوة الثانية بالمماليك في الجبهة الجنوبية (٨) .

ويظهر ان الدولة العثمانية كانت بحاجة الى رجل قوي يحكمها . . كما أن الظروف الدولية في العالم والأوضاع الاقليمية في المنطقة بريا وبحريا قد أنضجتا حاجة الدولة العثمانية الى العمق العربي بكل من دواخله الاستراتيجية وأطرافه ولواحقه فكيف تبلورت تلك الأحداث التاريخية كي تنقل العرب الى تاريخ جديد ؟ ولكن دعونا قبل معالجة ذلك ان نحلل عوامل الصراع العثماني - الصفوي(٩) :

٣ / عوامل الصراع العثماني - الصفوي :

يعد عهد السلطان سليم الاول ١٥١٢-١٥٢٠م هو البداية الحقيقية لنموالصراع العثماني - الصفوي /الايراني ونضوجه سياسيا ومذهبيا وسلطويا واقتصاديا ثم تفجره حربيا ميدانيا . ولا بد لنا أن نتوقف قليلا لكي نحلل عوامل عدة أفضت الى بلورة ذلك الصراع المزمن الطويل الذي سيؤثر كثيراً على حياة المنطقة اقليميا وعلى مستقبلها ازاء ما حصل في تواريخ اوروبا من المجازات نهضوية بارعة وتحولات سياسية واجتماعية وعقائدية واقتصادية متنوعة . .

السؤال الآن : ماذا كان من أسباب وعوامل وراء تفجر الصراع بين الطرفين ؟

١ - **العامل السلطوي** : تجسد ذلك بتنازع أسروي محتدم بين العائلتين الحاكمتين :

العثمانية في الأناضول والصفوية في إيران . وكانت حماية البيت الصفوي لعشرات المنهزمين من افراد البيت العثماني ، والذين فروا هرباً من ظروف الإبادة التي تعرضوا لها في بدء حكم سليم الاول ، فهو لم يقتل اخوته حسب ، بل قتل كل أبناءهم السبعة واولاده الأربعة تاركا واحدا منهم وهو خامسهم الأكفأ فيهم واسمه سليمان كوريث وحيد للعرش(١٠) ، فضلا عن تحسس البيت العثماني قدرة البيت الصفوي على اكتساب الولاء في أصقاع الأناضول ، فكان ذلك بمثابة عامل أساسي ومباشر في تفجير الصراع .

٢ - **العامل الطائفي** : كان للتبشير الصفوي الطائفي / الرافض أثره الواضح عند التركمان في أنحاء الأناضول وجعلها صفوية / قزلباشية بتأثير قوي من الحركة الطائفية التي تزعمها الشاه اسماعيل الصفوي وإشعاله لها في بث مذهبه عنوة ، مع اتفاقاته وخططه من أجل تثبيت غاياتها ، وكان لذلك كله آثاره الواضحة في إثارة الحفيظة الدينية المذهبية - العثمانية . . فضلا عن المآسي التي كان القزلباش يسببونها ، وكان جلهم من الغلاة التركمان المتميزين بعمائمهم الحمراء (١١) . كما وكان للسياسة الطائفية التي اتبعها اسماعيل الصفوي في المناطق التي سيطر عليها في العراق وشرق الأناضول أثرها الواضح في التوجه العثماني والاصطدام حربيا ضد الصفويين . وكان الشاه الصفوي قد غدا ماردا طائفيا مقدسا ، مما جعل السلطان سليم يسارع لايقافه عند حدوده . . ولكن بعد انقسام العالم الاسلامي الى عالمين متنافرين في تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت . ويرى المؤرخ توينبي بأن الشاه اسماعيل يتحمل لوحده مسؤولية ذلك الانقسام التاريخي المرير(١٢) .

٣ - **العامل السياسي** : كان هناك سباق سياسي بين القوتين العثمانية والصفوية للاستحواذ على المنطقة ، ومضتا تسارعان في تحقيق طموحاتهما السياسية في توسيع امبراطوريتهما ، وقد غدا ذلك السباق سببا أساسيا في تفجير المواقف فضلا عن أن الشاه الصفوي بدأ يستغل الصراعات العثمانية - الأوروبية لصالح علاقاته السلبية مع العثمانيين . وكان امتداده في شرقي الأناضول على حساب الدولةالعثمانية له دلالته كونه أحد ابرز التهديدات السياسية الفعالة ضد العثمانيين ، كما أن سيطرة ايران على العراق معناه ذلك التهديد الفعّال لمنطقة المشرق العربي قاطبة ، اذ أن ثمّة تسلّل صفوي بدأ يسري في الأراضي السورية وإثارة النزعات الطائفية هناك ، ولم تنفع المقاومة المملوكية

لحاكم حلب إزاء تلك الخروقات . ولم يكن للمماليك باعتبارهم أكبر قوة في المنطقة العربية اي دور فعال إلا الانزعاج لما انطوت عليه التحركات الصفوية ضد ممتلكاتهم هذه المرة ، فعقدوا حلفا سياسيا رسميا مع العثمانيين ضد اسماعيل الصفوي سنة ١٥١٣م ، أي بعد أشهر من تولي سليم الأول للسلطة(١٣) . . ولا يمكننا أن ننسى تلك التهديدات البرتغالية للأراضي العربية عبر البحار الشرقية .

٤ - **العامل الاقتصادي** : كانت ايران تعتمد تجارة الحرير أساسا في صادراتها الى أوروبا التي كانت تقوم بمقابلتها بالذهب والنحاس كايرادات رئيسية في أوضاع اقتصاديات «البازار الشرقي» عصرذاك ، وكان لإيران سيطرتها الفعلية عليه ، وقد نجح سليم الأول باقامة حصار تجاري على أعدائه الصفويين في أن يحول دون نيل الايرانيين عدة الحرب المتضمنة الحديد والنحاس . . علما بأن الدولة العثمانية كانت تشهد آنذاك عدة تجديدات في الحرف والأعمال التقنية على النحو الذي جعلها تكثر من مطاليبها التي استهدفت ايرادات ايران ومنع تجارة الحرير ، فانخفضت مدخولات الشاه وكثرت بنفس الوقت مطاليبه(١٤) . وأثر الحصار التجاري قليلا على التجار في استخدام المسالك الاستراتيجية المهمة المارة ببلاد الشام والعراق كخطوط تجارية قديمة وفعالة بين الشرق والغرب بدأت الدولة العثمانية تسعى جاهدة للاستحواذ عليها سواء المسالك العمودية منها البرية والنهرية بين الأناضول نحو البحر مرورا بـ :

ديار بكر - الموصل - بغداد - البصرة نحو الخليج العربي ضد البرتغاليين .

او : المسالك الأفقية البرية بين ايران نحو المتوسط مرورا بـ :

الاسكندرون - حلب - الموصل - تبريز (أي : من فينيسيا والبحر المتوسط ضد ايران)(١٥) .

نعم ، لقد أثر الحصار التجاري على حركة التجار في بازار الشرق ، وقد تحولوا جنوبا في تكتيكاتهم التجارية ، الا انهم لم ينالوا حريتهم . . واستطاع سليم الأول أن يصادر البضائع الايرانية من جميع التجار الدوليين(١٦) ، وبدأ يسعى للاستحواذ على تلك المدن العربية المركزية التي كانت تتحكم بتجارة أوروبا وخاصة الموانىء الايطالية وتعاملها مع ايران والهند . ويذكر المؤرخ خليل اناجيك بأن العثمانيين احتكروا تجارة الحرير والبهارات .

وأصبحت مدينة بورسه مركزاً للتبادل التجاري بين الشرق والغرب ، حيث كانت تتم مبادلة الحرير الايراني والبهارات والأصباغ الهندية بالأصواف الأوروبية . . ونجحت الدولة العثمانية بجعل استانبول مركزا لتبادل المنتجات الغذائية بسلع الشمال(١٧) . . وكانت استراتيجية المشرق العربي ذات تأثير قوي على مصالح العثمانيين البرية وسيطرتهم على اقتصاديات البازار الشرقي مع اوروبا ، ولم يكن لمنجزات البرتغال البحرية أي تأثير على ذلك . والحقيقة ، ان اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح ، وما تلا ذلك من محاولة تحويل تجارة البهارات الى هذا الطريق الجديد ،لم يحدث تغييراً كبيراً في حجم التجارة عبر الطرق التقليدية» (١٨) . فبقي المشرق العربي منطقة استراتيجية فعالة عبر القرون المتأخرة .

٤ / معركة جالديران عام ١٥١٤م ونتائجها :

لقد تفاعلت جميع العوامل والأسباب المباشرة وتشبعت تلك الظروف الصعبة بروح الحرب والسعي الى المواجهة ، اذ جرد السلطان سليم الأول حملته العسكرية التي قادها بنفسه في ٢٠ آذار/ مارس ١٥١٤(١٩) بعد أن تبودلت بينه وبين الشاه اسماعيل الصفوي رسائل استفزازية . وفي صباح يوم ٢٣ آب / اغسطس ١٥١٤م/ ٢ رجب ٩٢٠هـ اشتبك الطرفان في معركة حامية عند جالديران الواقعة الى الشرق من بحيرة أورمية ، انتهت بفرار الشاه اسماعيل مجروحا مدحوراً وقد تشتت جيشه ، فزحف سليم بجيشه العثماني الى العاصمة الصفوية تبريز ودخلها في ١٥ أيلول / سبتمبر ١٥١٤م . ولم يتوغل السلطان سليم بجيشه في أعماق ايران ، ولكنه غادر تبريز شمالا ، ليفتتح ارمينيا وعاصمتها اريفان مسيطرا على قلاع عدة ، ثم تركها لكي يستقر في أماسيه التي غدت قاعدة عسكرية استراتيجية لتحركاته الحربية(٢٠) ، وكان قد أرسل أحد قواده لتصفية الامارة القادرية (= ذو القادر) في شرق الأناضول التي وقف أميرها معرقلا حركة اقتصاد حرب السلطان سليم ، وإرساليات المؤن ، فانتقم منه السلطان(٢١) .

كان على السلطان سليم الأول أن يعالج أمر الجبهة الشرقية للدولة العثمانية بعد معركة جالديران لتأمين مخاطرها كي يتفرغ للجبهة الجنوبية ضد المماليك والتوغل في الأراضي العربية ، أي تأمينه اوضاع شمال العراق واقليم الجزيرة الفراتية قبل ان يبدأ بتنفيذ مشروعه في القضاء على الدولة المملوكية في بلاد الشام ومصر . وعليه ، فقد

نصّب الشيخ ادريس البدليسي ١٤٥٢-١٥٢١م ، وهو احد المؤرخين العثمانيين الأكراد الذي ولد ونشأ في مدينة بدليس ، وقصد تبريز حيث خدم في بلاط الآق قوينلو في منصب كاتب الانشاء ، ثم رحل الى الاناضول ملتحقا بخدمة السلطان بايزيد الثاني سنة ١٥٠١م ، فوضع كتابا عنوانه «هشت بهشت» (أي : الجنائن الثمانية) ويتحدث فيه عن التاريخ العام للدولة العثمانية في عهد ثمانية سلاطين . وفي سنة ١٥١١م ، قصد مكة لأداء فريضة الحج . وقد استدعاه سليم من الحجاز ليصبح مستشاراً له نظراً لخبراته الطويلة وبممارساته السياسية وليرافقه في حملاته العسكرية في ايران والشام ومصر ، وقد توفي البدليسي سنة ١٥٢١م(٢٢) . كانت للرجل خبرات واسعة في الشؤون الكردية وخصوصا في مشاكل جنوب شرق الأناضول وشمال العراق والجزيرة الفراتية ، فأحاط السلطان سليم الأول بأوضاعها الاستراتيجية والتي يشكل إدخالها في المجال العثماني كسبا أساسيا ومرتكزا تأسيسيا لانفتاح الأراضي العربية أمام الامتدادات العثمانية نظراً لطبيعتها الصعبة وثقلها السكاني واقتصادياتها الوفيرة . . فنسب البدليسي بمنصب « باش مشاور(٢٣) Bas Musavir » أي رئيس المستشارين عند سليم الأول .

٥ / دخول بلاد الجزيرة الفراتية وشمالي العراق في المجال العثماني سنة ١٥١٦م :

بعد انتصار سليم الأول على الشاه اسماعيل الصفوي في جالديران سنة ١٥١٤م ، تخلخل وضع الحاميات الصفوية في بلاد الجزيرة الفراتية وشمالي العراق ، وبدأت انتفاضات السكان ضد الصفويين بعد التأثر بظروف الحرب ونتائجها الايجابية بالنسبة للعثمانيين . . فضلا عن عوامل أخرى كالاختلاف المذهبي وكثرة الضرائب والرسوم التي فرضها الصفويون لإدامة الآلة العسكرية ، كما وزاد الاستياء العام لما كان يمارسه الصفويون ضد أبناء تلك الأقاليم التي كانت تمر بظروف اقتصادية مريرة . فانتفضت المدن في شمال العراق كالموصل وأربيل وكركوك . . وبدأت تتساقط المدن والقلاع الواحدة تلو الأخرى في مناطق متعددة من تلك الأنحاء التي أثبت أناسها أنهم عمليون جدا(٢٤) .

قاد الشيخ ادريس البدليسي ابناء تلك الأنحاء لتحقيق انتصارات متعددة في الأقاليم المعنية ، وفي خلاص أهاليها من تبعية الحكم الصفوي / الايراني ، وذلك بتعاونه الوثيق ، وسياسته الليبرالية التي اتبعها مع رؤساء القبائل وشيوخ المناطق . وقد أدت الانتفاضة الى إخلاء العديد من المعاقل والمدن من الحاميات الفارسية دون قدوم

الجيش العثماني ، فكانت هناك : بدليس ، حصن كيفا ، سعرت ، رزن ، ساسون ، ميافارقين ، جزيرة ابن عمر ، كركوك ، اربيل .. وغيرها[٢٥] . ولكن ؟

استغل الشاه اسماعيل الصفوي حالة الفراغ السياسي والعسكري والاداري لتلك المناطق المضطربة ، فأرسل بقواته الصفوية كي تسترد حامياته مواقعها مرة أخرى في كركوك وأربيل والموصل وجزيرة ابن عمر وسعرت - ورزن وميافارقين وساسون وبالوا- بدليس وغيرها من المناطق في نهاية سنة ١٥١٥[٢٦] . فبدت معالم حرب واضحة وسريعة الحدوث بين الطرفين والتي ستقرر نتائجها مصير تلك « المناطق » بشكل كامل سياسيا واقتصاديا وعلى المدى التاريخي الطويل .

٦ / معركة قرة غين دده الحاسمة في ٤ مايس/ مايو ١٥١٦م ونتائجها :

تعد هذه المعركة الفاصلة في ظروفها ومداخلاتها ونتائجها ، إحدى أبرز المعارك التاريخية المهمة (التي لم تلق عليها الأضواء التاريخية عربيا او تركيا او أجنبيا حتى يومنا هذا) ، والتي حسمت مصير شمال العراق وبلاد الجزيرة الفراتية وجنوب شرقي الأناضول لصالح العثمانيين بقلبها موازين القوى لتأمين نفوذهم وسيطرتهم لأخطر جبهة عسكرية ضد الفرس الصفويين .. ومنها لتأمين التفرغ العثماني في التعامل الحربي ضد قوى دولة المماليك في بلاد الشام ومصر . اذ انها وضعت النهاية الحقيقية لجميع محاولات الشاه اسماعيل الصفوي في أن يعود الى تلك المناطق الاستراتيجية كرة أخرى[٢٧] .

بدأ الشاه اسماعيل الصفوي في مطلع سنة ١٥١٥م يجرد حملاته العسكرية المنظمة والقوية على الحاميات العثمانية المرابطة في شرق الأناضول وشمال العراق على محور استراتيجي شكله كالهلال يمتدُّ بين : خوى - كركوك - أربيل - الموصل - سنجار - ماردين - ديار بكر بقيادة قرة خان شقيق محمد خان اوستاجلو الذي وصل دياربكر اثر التحاق قوات صفوية به كانت مرابطة في ماردين والرها (= اورفه) وحصن كيفا[٢٨] .. ففرض على ديار بكر حصاراً قاسيا ناضل ضده سكانها الذين أرسلوا للسلطان سليم الأول يطلبون مساعدته وهو يراقب الأحداث من مدينة أماسيه بواسطة مستشاره الشيخ ادريس البدليسي[٢٩] .

أوعز السلطان لمستشاره البدليسي اختيار الأمراء الأكراد زعيما لهم لكي يقودهم في

حملة عسكرية لطرد الصفويين . وكان رأي البدليسي ان ليس من السهولة اتفاق أولئك الأمراء على انتخاب زعامة ذاتية من لدنهم تقودهم الى الحرب(٣٠) ، فقرر سليم تكليف محمد باشا بيغللي والي ايرزّنكان لقيادة حملة عثمانية بالاضافة الى منصبه واليا على ديار بكر وبرتبة « بكلربكي » ، اضافة الى تكليف شادي باشا والي سيواس للاشتراك في الحملة(٣١) . . . وتم تكليف ادريس البدليسي بقيادة القوات الكردية غير النظامية والتي بلغ تعدادها عشرة آلاف مقاتل كردي . وبدأت القيادة الثلاثية المتألفة من بيغللي وشادي والبدليسي بوضع خطة استراتيجية لازاحة قرة خان من ديار بكر في اجتماع حربي قرروا فيه ساعة الهجوم على الصفويين(٣٢) .

لقد تخلى قره خان عن حصاره لديار بكر فجأة متجها نحو ماردين(٣٣) . وتزامن ذلك مع وصول قوات صفوية جديدة شقت طريقها نحو ماردين مع ما صادفته من هجومات محلية عليها كبدتها خسائر فادحة(٣٤) . وفي الجانب العثماني ، وقع خلاف بين القائدين بيغللي باشا وشادي باشا إثر دخول جيشهما العثماني ديار بكر ، اذ رأي شادي باشا التوقف عن ملاحقة الصفويين لكي يرتاح الجيش المنهك قبل الهجوم على ماردين . . في حين رأي بيغللي باشا العكس مدعما ذلك برأي البدليسي . فانسحب شادي باشا نحو ولايته(٣٥) . مما حدا بالسلطان سليم أن ينصب خسرو باشا والي قرمان بديلا عن شادي باشا ، وكان بمعية خسرو (٢٠) الف مقاتل . ويكشف لنا أقدم مصدر عثماني الموسوم بـ « سليم نامه » الذي كتبه مصطفى جلال زاده ، ان البدليسي لم يدخل ماردين بعد مفاوضات سرية مع أبنائها ، بل إن غارة عسكرية شنّها البدليسي مع أمراء أكراد آخرين أمثال : قاسم بيك وجمشيد بيك وصلت نحو أطراف ماردين(٣٦) . . وكانت الغارة لاختبار الموقف الصفوي ومعرفة طبيعة الأوضاع في الجبهة .

انضمت التشكيلات العسكرية العثمانية والاقليمية للقواد الثلاثة ، وتوحدت فصائلها ، فغدت جيشاً عثمانياً شكّل وزناً حقيقياً ثقيلاً في صنع الأحداث التي ستلد تباعا . وعقد القادة الثلاثة بيغللي وخسرو وادريس مؤتمرهم الحربي لبحث خطة الهجوم العثماني المشترك على الصفويين ، وارتأى بيغللي باشا على الاثنين ،ارسال قوة استطلاعية لمعرفة امكانات الصفويين ، فأرسل حسين بيك حاكم مدينة خربوت على رأس قوة عسكرية تتألف من أربعة آلاف مقاتل ، ولكن فشلت مهمته في تحقيق

الأهداف . . وتكبدت تلك القوات خسائر فادحة على أيدي قوات قرة خان بعد معركة ضروس ولم يسلم من تلك القوة إلا الفا انهزموا أمام الايرانيين (٣٧) .

وشرع قره خان بتحريك قواته تجاه دياربكر مباشرة ، لكي تبدأ فصول تلك المواجهة الحاسمة في موضع يعرف بـ «قره غين دده» الواقع للجنوب من ماردين(٣٨) . وفي صباح يوم ٤ مايس / مايو ١٥١٦م ، التحم الطرفان ، ودارت رحى معركة عنيفة ضارية غاية في القسوة . . وأسفرت عن هزيمة مروّعة لقوات قره خان الصفوية ، وخرّ هو نفسه صريعا برصاص قاتل ، وهرب من كتبت له الهزيمة نحو صحراء سنجار لكي يموتوا ظمأى في مفازاتها الرملية(٣٩) . وحزّ رأس قره خان وأرسل الى السلطان سليم الأول الذي كان يقيم في منطقة آق شهر بولاية قرمان يراقب مجرى الصراع ونتائجه السافرة . وقد كافأ القادة والأمراء المشتركين في معركة قره غين دده ، وأمر بتنصيب الشيخ البدليسي بمنصب « قاضي عسكر العرب » ، وهو إجراء ينطوي على دلالات مستقبلية عدة تعلمنا بشكل لا يقبل الجدل عن نظرة سليم الأول إزاء المرحلة العثمانية القادمة وخططه إزاء المنطقة العربية التالية التي فتحت نتائج هذه المعركة الأبواب أمامها(٤٠) . . فما هي أبرز النتائج التاريخية المهمة :

١ - بدأت المدن والقلاع الخاضعة للصفويين بالسقوط واحدتها تلو الأخرى علي يد محمد باشا بيغللي . . ولم تبق إلا ماردين بيد الصفويين مستعصية على العثمانيين نظراً لطبيعتها الجغرافية الصعبة .

٢ - يشير المؤرخ سعد الدين خوجه (وهو من أقدم المصادر العثمانية) ان بيغللي باشا زحف على رأس قواته باتجاه الموصل التي كان الحاكم الصفوي أحمد افشار بك مستحكما فيها ، ولكنه استولى عليها بعد مقاومة عنيفة .

٣ - حسمت المعركة في قره غين دده ، جميع الاضطرابات والمواقف المتأرجحة بين الطرفين لصالح العثمانيين الذين انفتحت أمامهم المسالك والطرق نحو أبرز المدن والأطراف المهمة في تصريف الاقتصاديات الدولية .

٤ - السيطرة العثمانية على جميع المناطق الجبلية الصعبة في كردستان ومنابع الأنهار ، وعلى بلاد الجزيرة الفراتية ، ومن أبرز المدن المهمة التي خضعت للعثمانيين : ديار بكر

– الموصل – حرّان – الرقـة – ارغني – نصيبين – اورفة – حصن سوران – كركوك – اربيل – ميافارقين – سنجار – عموم جزيرة ابن عمر – وغيرها من المدن شمالا وشرقا(٤١) .

٧ / تحليل نتائج التحركات العثمانية :

لقد أفرزت أحداث مايس ١٥١٦م نتائج إقليمية فيما يخص شمال العراق وشمال غربه وفيما بعد بلاد الشام ومصر ، فقد أثّرت تلك « النتائج » على مسيرة الأحداث اللاحقة ، خصوصا عندما أصبحت الموصل ضمن المكتسبات العثمانية على عهد سليم الأول باعتبارها اول مدينة عربية ، تدخل بمقاطعاتها جميعا في المجال العثماني(٤٢) . ولقد جاءت السيطرة المباشرة على شمال العراق ، في خط يمتد محوره الجغرافي على النحو التالي :

خوى – كركوك – اربيل – الموصل – سنجار ، اضافة الى ما يعلو هذا الامتداد او يتدانى عنه . فلقد تداعت منطقة بادية الجزيرة الفراتية على خط يمتد نزولا من : سنجار – تلعفر – عانة – هيت وأطراف نهر الفرات وحوافيه الصاعدة حتى مدينة الرقة . أما ما يعلو المحور الجغرافي الأساسي ، فلقد كانت جبال كردستان عالية الذرى ومنابع الأنهار . وعليه ، فان المحور الجغرافي الأول كان من المناطق المكتسبة . أما مناطق البوادي الفراتية الدنيا ذات البراري المعشوشبة ، ثم المناطق الجبلية الكردستانية العليا ذات الطبيعة المعقدة ، فتعتبران من المناطق التابعة (باستثناء ماردين التي استعصت حاميتها الفارسية على العثمانيين في حصار طويل الأمد ، اذ لم تخضع للعثمانيين حتى نيسان/ ابريل سنة ١٥١٧م) (٤٣) .

لقد بدأ العثمانيون يتحكمون بالمسالك التجارية بين الشرق وأوروبا ، وسوف يزداد ذلك إثر امتدادهم في بلاد الشام وخصوصا من خلال سيطرتهم على خط : ديار بكر – الموصل – حلب – البحر المتوسط ، فسيطروا على دواخل تجارة الشرق ومخارجها وخصوصا الحرير والتوابل (٤٤) . وقد حاول الشاه اسماعيل الصفوي استرجاع تلك المناطق الاستراتيجية من خلال تعزيزات عسكرية أرسلها من بغداد للهجوم على الموصل . . فزحفت القوات العثمانية نحو الموصل باتجاه أربيل في مطلع سنة ١٥١٨م ، وقد كلف

سليم الاول وزيره الأعظم بيري محمد باشا قيادة حملة عسكرية عثمانية وصفت بأنها أضخم من حملة جالديران سنة ١٥١٤م(٤٥) . واتخذت الموصل قاعدة حربية لادارة العمليات ضد الصفويين ، ثم زحفت الحملة نحو كركوك وبعدها الى تكريت التي دخلت تحت السيطرة العثمانية في شهر نيسان/ ابريل سنة ١٥١٨م(٤٦) . فكان ذلك بمثابة ضربة استباقية للحاميات الصفوية ، وعملية لامعة لاجهاض المخططات الحربية الصفوية لاستعادة الموصل التي تمتعت بحماية عثمانية عالية المستوى .

ان مجمل التحركات والفعاليات الحربية لقوى سليم الأول في الجبهة الشرقية من دولته وخلال أربع سنوات من عهده . . يوضح لنا مقدار ما أنجز من عمليات ضخمة كان من نتائجها : السيطرة على أجزاء مركزية واستراتيجية من دواخل الوطن العربي ، وجاء ذلك كله مترافقا في الزمان والمكان معا على النحو التالي :

١) المحاور الجغرافية لما سقط بعد معركة جالديران في ٢٣ آب / اغسطس ١٥١٤م :

١ . خط جالديران – تبريز – اريفان – كرباغ سنة ١٥١٤م .

٢ . خط كرباغ – اماسيه – كيماخ سنة ١٥١٥م .

٣ . خط ديار بكر – (ماردين المحاصرة) – الموصل (= شمال العراق) سنة ١٥١٦م .

٢) المحاور الجغرافية لما سقط بعد معركة مرج دابق في ٢٤ آب / اغسطس ١٥١٦م :

١ . خط مرج دابق – حلب – دمشق – القدس – غزة – خان يونس سنة ١٥١٦م .

٢ . خط مصر : الريدانية – القاهرة – الاسكندرية سنة ١٥١٧م .

لقد قدم السلطان سليم الأول خلال أربع سنوات من عهده القصير . . انجازات تاريخية كبرى للدولة العثمانية عندما كان العالم (واوروبا خصوصا) يمر بتحولات خطيرة . لقد كان دخول العرب ومواطنهم الأساسية والاستراتيجية في نطاق الحكم العثماني من اعظم تلك الانجازات ، اذ نقل سليم الاول حدود دولته السياسية من سيواس وادنه الى الموصل وكركوك وتكريت والرقة صعودا حتى جبال ارارات ، فأمن الجبهة الشرقية الصعبة جغرافيا والخطيرة سياسيا واقتصاديا ضد الصفويين في التعامل مع المماليك . . اذ سيفتح سليم الاول بعد تأمينه لهذه الجبهة عثمانيا ، صفحة تاريخية جديدة من الصراع ، ولكن ضد المماليك هذه المرة لضم الأراضي العربية الى دولته

العثمانية والتي ستتيح له الوصول الى البحار العربية في كل من البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب . . من أجل صد التوغل البرتغالي براً وبحراً عن البلاد العربية والاماكن المقدسة .

٨ / خطط سليم الأول العسكرية وعملياته البرية في بلاد الشام ومصر :

كانت جيوش سليم الاول قد أمنت الجبهة الشرقية الصعبة بسيطرتها على أقاليم واسعة في شرقي الأناضول وأجزاء من أرمينيا وأذربيجان وشمالي العراق (= كردستان) وبلاد الجزيرة الفراتية ، وذلك خلال أصعب مرحلة تاريخية في عهد سليم والتي انحصرت بين معركتين فاصلتين جالديران وقره غين دده ، اي بين آب / اغسطس ١٥١٤م ومايس / ايار ١٥١٦م ، اذ كان سليم قد عاد من اريفان العاصمة الارمينية ليفتتح مدينة كيماخ وازال الامارة القادرية (= دولة ذو القدر) التي كانت على علاقة وطيدة بالصفويين من طرف وبالمماليك من طرف آخر .

وبعد نجاح سليم الاول في استئصاله قوة الصفويين ، بدأ يعمل باتجاه الانهيار المملوكي ، وكانت دولة المماليك في مصر وبلاد الشام تعاني كثيراً سياسيا واقتصاديا وتهددها الأطماع البرتغالية اقليميا في البحر الأحمر . اذ كان البرتغاليون منذ عام ١٥٠٢م يستحوذون على مواقع استراتيجية لهم على طريق الهند اثر استكشافهم رأس الرجاء الصالح ، وانهار الاقتصاد المملوكي وبقية الاقتصاديات العربية القديمة بفعل احتلال البرتغال لجزيرة سوقطرة في خليج عدن سنة ١٥٠٧م عند رأس البحر الأحمر ، ولمضيق هرمز سنة ١٥٠٨م عند رأس الخليج العربي . وعملت السيطرة البرتغالية على كل من هاتين الركيزتين الاستراتيجيتين لسدّ الطريق أمام الاقتصاديات المملوكية والعربية[٤٧] . . في حين كان موقف الصفويين مماثلا في ايران للبرتغاليين ضد تلك الاقتصاديات والمراكز التجارية الحيوية وخصوصا ، عندما كان الصفويون يزوّدون السفن البرتغالية بالمؤن والذخائر مقابل الدعم والإسناد ضد العثمانيين[٤٨] .

لقد استاء المماليك كثيرا نتيجة ما لحقهم من تدهورات اقتصادية مريرة اثر انهيار مصالحهم الاقليمية بيد البرتغاليين . . ولم يكن بمقدورهم صد ذلك على الرغم من استجابة سليم الاول لمطاليبهم الاولى ، اذ أرسل لهم أسلحة ومدافع وتجهيزات بحرية وسفنا قوية وبحّارة مساعدين بغرض إعادة بناء الأسطول المملوكي[٤٩] ، وتشكيل قوّة

بحرية مملوكية تصمد بوجه عمليات البرتغاليين في البحر الاحمر . ويبدو ان سليما أراد بذلك كلّه الهيمنة السياسية على المماليك امام تصاعد النفوذ البرتغالي(٥٠) . وكان الرجل يتحسس شراهة البرتغاليين للمنطقة العربية ، فأراد خلق حالة من توازن القوى البحرية فيها ، وان يكسب حياد دولة المماليك إزاء صراعه ضد الصفويين .

كان الموقف السياسي مضطربا جدا بعد معركة جالديران سنة ١٥١٤م ، ولكن كانت قد تأمنت جميع المنافذ والتخوم والمسالك الفاصلة بين الأناضول وبين الأراضي العربية . . فتحرك الجيش العثماني عبر الأناضول في ربيع سنة ١٥١٦م ، وقد ساورت المماليك الشكوك من أمر تحرك ذلك الجيش رفقة آلياته الحربية وعدّته الكبرى وقيادته السلطانية . ولما تأكد لهم أن بلاد الشام هي غاية سليم وهدفه هذه المرة . فقد تحرك الجيش المملوكي بقيادة السلطان الأشرف الغوري(٥١) ، ونصّب خاير بيك قائداً للجيش المملوكي (الشامي) على الرغم من كونه حاكم حلب وكان على اتصال سري مع العثمانيين . . وقد نجح السلطان سليم الاول باستدراج المماليك الى ساحة المنازلة باسلوب ذكي وبارد جداً لكي تحتدم المواجهة الفعلية حربا بين الطرفين على الأرض العربية ولاول مرة . .

السؤال الآن : ما هو موقف المماليك وأسبقياته ؟

لقد بدأت أزمة العثمانيين مع مماليك مصر وسوريا في عهد بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢م ، والذي عاصر عهد السلطان قايتباي ، وتفاقمت العداوة بين الجانبين العثماني - والمملوكي وتطوّرت على شكل مناوشات بين الطرفين عند تخوم الدولتين . وأصل الأزمة قبول قايتباي لجوء الأمير جم أخي بايزيد الثاني الذي فرّ ملتجئاً الى مماليك مصر مطالبا بالعرش العثماني لنفسه . . وقد تدهورت العلاقات الثنائية فيما بعد الى درجة صدام الدولتين عندما وقع قانصوه الغوري سلطان المماليك محالفة سرية مع الشاه اسماعيل الصفوي زعيم ايران الصفوية وهو العدو اللدود للأتراك العثمانيين ، وذلك في سنة ١٥١٥م ، فضلا عن عوامل وأسبقيات اقتصادية سواء تلك التي كان المماليك طرفا أساسيا ومباشراً في بلاد الشام ، أم كانوا فيها طرفاً غير أساسي ومباشر في البحر الأحمر(٥٢) .

وفي ربيع سنة ١٦١٦م ، سار السلطان قانصوه الغوري وكان أصله من مماليك قايتباي ، الى حلب في شمالي سوريا بحجة التوسط بين الفريقين المتحاربين : الصفوي

والعثماني وكانا يتحاربان في شمالي العراق . ولكن قانصوه كان يخفي هدف حركته لمساعدة اسماعيل الصفوي ونجدته خشية من الامتدادات العثمانية ، ولكي يجعل لمهمته صبغة سلمية ، فقد اصطحب معه المتوكل العباسي الخليفة العباسي الأخير الذي كان وآباؤه وأجداده يستظلون بظل المماليك ، فضلا عن مصاحبته لرؤساء القضاء في سلطنته . . غير أن مثل هذه الاجراءات لم تنطل على السلطان سليم الأول الذي كانت له مشاوراته ومخابراته وفرقه التجسسية التي كانت ترسل لسليم جميع أخبار سلطان المماليك وقراراته وتحركاته واقواله اليه .

وهكذا ، ولما لحق رسول قانصوه بمعسكر سليم في باب تقوية العلاقات بين الجانبين ، حلقت لحيته ، فكانت بمثابة إهانة عظمى لحقت بدولة المماليك لا سيما وأنه أرجع الى سيّده على بغلة مرفوقا باعلان الحرب . أما مرافقوه فقد أعدموا ، فلم تكن هناك أمام قانصوه الغوري من سبيل لتجنب الكارثة . . وكان يناهز الخامسة والسبعين من العمر ، لكنه لم يزل نشيطا حاد الذهن قديرا على ملكه ، وقد توهم ولاء بعض أعوانه وقواده ورجالاته الذين كان يعتمد عليهم اعتمادا أساسيا ، ، اذ أنهم خانوه في اللحظات الحرجة ووقفوا الى جانب عدوه سليم الأول(٥٣) .

٩ / الحرب العثمانية - المملوكية وامتداد سليم الأول في سوريا ومصر :

تحرك جيش سليم الأول نحو المقاطعات العربية ، وتوقف قرب مدينة ملاطية في يوم ٢٨ تموز / يوليو ١٥١٦م ، اي بعد قرابة ثلاثة أشهر من نشوب معركة قره غين دده الفاصلة ضد الصفويين . لقد تتابعت السيطرة العثمانية للأراضي العربية الشامية وانهيار القوى المملوكية بشكل متسارع بعد استنزاف قواها ، وامتصاص حيويتها اثر قرار عدد من القواد المماليك الكبار ، أمثال : خاير بيك وجان بردي الغزالي بالانحياز الى الجانب العثماني . وكان السوريون من سكان البلاد قد نفروا من دعم واسناد الجانب المملوكي المنهار شيئا فشيئا . ولكن اتفق أغلب الأمراء الإقطاعيين في بلاد الشام مع قانصوه ، ويقود كل واحد منهم قواته : الأمير عساف التركماني حاكم كسروان والأمير جمال الدين الأرسلاني اليمني حاكم الشويفات ، والأمير فخر الدين المعني الاول حاكم الشوف والامير منصور الشهابي حاكم وادي التيم ، والأمير البحتري التنوخي القيسي حاكم الغرب . . ولكن يبدو ان هؤلاء الأمراء قد تآمروا سرّاً مع جان بردي الغزالي وخاير بيك لتسهيل مهام

العثمانيين في بلادهم ، ففي أثناء معركة مرج دابق ، انحازوا الى جانب السلطان سليم الأول عدا الأمير البحتري الذي ثبت مع المماليك(٥٤) . ولا شك أن في موقف الأمراء هذا أثره في تحقيق النصر الذي حازه العثمانيون إبان عمليات تلك المعركة الفاصلة في تحديد مصير دولة قديمة بشكل كامل . . وعليه ، فقد وجدنا ان سليما الأول يعتمد عليهم كأمراء إقطاعيين في تثبيت أركان السلطة العثمانية الجديدة .

١٠ / معركة مرج دابق ونتائجها :

في صباح يوم ٢٤ آب / اغسطس ١٥١٦م ، التقى الجيشان العثماني والمملوكي في سهل مرج دابق على مسيرة يوم واحد من حلب شمالا ، وكان قانصوه الغوري قد عهد قيادة ميسرة جيشه الى خاير بيك حاكم حلب ، اما ميمنة الجيش فقد عهد بها الى جان بردي الغزالي وقد خان كل منهما سيّده في اللحظات الاولى من المعركة ، فقد سحب الأول جيشه في بداية القتال ، ودارت رحى معركة قوية فاصلة تحقق فيها عثمانياً روح الانضباط وكفاءة الأسلحة الجديدة ، وممارسة التدابير والخطط العسكرية الناجحة التي لم يمتلكها او يمارسه المماليك الذين اعتمدوا البطولة الشخصية كعامل حاسم في القتال في حين كان العثمانيون يستخدمون البارود الذي عرفوه منذ عهد بعيد . . واحتدمت الحرب وحمي وطيسها ، ففرت ميمنة الجيش المملوكي بقيادة جان بردي الغزالي ، فكانت هجمة العثمانيين قوية جدا على قلب الجيش المملوكي وحصده وسحق فلوله ، وخرّ السلطان المملوكي الأشرف الغوري صريعا بعد استبساله كثيرا . ويقال انه مات بالسكتة القلبية . . ويقال ايضا انه خرّ صريعا بسهم وكان جالسا يصلي داعيا ربه ان يحرز النصر ، ولكن النصر كان حليف العثمانيين الذي حققوه بشكل باهر(٥٥) .

هكذا اذن ، « لم يحتج العثمانيون لفتح سورية الى اكثر من معركة كبيرة حاسمة دارت في مرج دابق شمالي حلب ، هزموا فيها القوة العسكرية المملوكية بقيادة السلطان قانصوه الغوري ، ومما اعان العثمانيين على هذا الانتصار ، موقف الخيانة الذي وقفه بعض أمراء المماليك إزاء سلطانهم ، وموقف أكثر العصبيات السورية التي آثرت - في اللحظة الحاسمة- التخلي عن سلطانهم والمماليك والانحياز الى - سليم - والعثمانيين . وقدر السلطان سليم هذا الموقف الودي من أصحاب العصبيات الاقطاعية السورية من التنوخيين

والجنبلاطيين والمعنيين وغيرهم ، فأقرهم على بلادهم واقطاعاتهم وعوّل على اصطناعهم أدوات للحكم العثماني» (٥٦) .

دخل سليم الاول مدينة حلب ظافرا ، فاحتفل به أهلوها ، واعتبروه منقذا لهم من الفظائع التي كان يقترفها المماليك بحقهم ، ووجد سليم في قلعة حلب كنوزا طائلة تقدر بملايين الدنانير كانت ذخائر وكنوز يمتلكها سلطان المماليك ورجالاته من الأمراء والأعيان وأصحاب المناصب قد اختزنوها فيها على غرار ما كانوا يمتلكونه في قلاع أخرى . كانت حلب اول مدينة سورية كبيرة رحبت بالسلطان العثماني سليم الاول ، فدخلها ، ثم ترك عليها احد كبار قواده ، قراجا باشا ، فأظهر السلطان عزمه منذ البداية على أن يبقي سورية محتفظة بتخطيطها الاداري العام ، لكنه استبدل النواب من الأمراء المماليك بقادة عثمانيين من جيشه ، فرسّم على مدينة حماه كوزلجه قاسم باشا . أما دمشق ، فقد أنفذ اليها أحد قواده لكي يدخلها قبله ، والتي أظهر أكابرها وأعيانها ومشايخها عزمهم على تسليم المدينة اليه(٥٧) . فدخلها بعد أن فر نائبها المملوكي جان بردي الغزالي الى حوران ، ومن ثم الى مصر .

وفي دمشق ، عيّن سليم نائبا عليها هوالأمير شهاب الدين احمد بن يخشى والذي أمضى في منصبه تلك الفترة التي قضاها سليم الاول في مصر (أي : بين تشرين الاول/ اكتوبر ١٥١٦م حتى تشرين الاول / اكتوبر ١٥١٧م) ، وعندما عاد سليم الى دمشق ، أقام بها خمسة أشهر ، وكان بمعيته جان بردي الغزالي بعد ان اعلن ولاءه المطلق للعثمانيين في مصر . وقد اهتم سليم بتنظيم امور البلاد وشؤونها الادارية وجباية أموالها ، مختارا ثلاثة من كبار القضاة الممتازين ، وعهد الى كل واحد منهم بدراسة أحوال إحدى المناطق الرئيسية السورية : حلب ودمشق وطرابلس ، في كل ما يخص جوانبها الاقتصادية والاجتماعية . . وما ان انتهت تلك « الدراسات » حتى أصدر قراراته من خلالها وما انطوت عليه مضامينها . . وقبيل مغادرته الشام الى حلب في طريقه الى عاصمته في ٥ آذار / مارس ١٥١٨م ، فقد نصّب جان بردي الغزالي نائبا عنه في حكم الشام ، فوصل نفوذه حتى العريش بعد أن خوله صلاحيات واسعة وأطلق يده في مصير البلاد التي يعددها ويحددها المؤرخ ابن ايّاس بـ : الشام وحماه وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والكرك وغير ذلك من الأعمال(٥٨) . . وكان سليم الاول قد عين قوادا

من العثمانيين للنيابات الاخرى ، و أقرّ الأمراء والمقدمين والمشايخ الاقطاعيين يحكمون في مقاطعاتهم تحت إشراف نوابه وباشواته . وقد بقي موروث الحكم المملوكي في بلاد الشام كذاك الذي جرى في مصر ايضا ، ومنها مناصب ذلك العهد كنائب القلعة (في الشام وفي طرابلس) ، ونائب الغيبة .... الخ .

لقد كان السلطان سليم الاول قد زحف على دمشق في منتصف تشرين الاول / اكتوبر ١٥١٦م ، واستولى عليها ، وكان اكثر قوادها قد التجأوا اليه واكتسح السلطان الأراضي السورية مندفعا اندفاعا سريعا عبر مرابعها ومدنها . ويعلمنا أغلب المؤرخين العرب القدامى(٥٩) الذين عاصروا تلك الأحداث ، بأن العرب قد رحبوا بالعثمانيين ، وكانوا يحتفون بالسلطان العثماني في خطبهم وكتاباتهم وأغانيهم وبصورة لم يألفها أي فاتح عثماني من قبل في غزواته الكبرى والصغرى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى أحد عاملين أساسيين اثنين : فربما كانوا يتلهفون للسلطان العثماني الجديد كي يخلصهم من أوضاعهم المتردية وحياتهم المضنية في سبيل الاعتماد عليهم وتحسين أمورهم وبلادهم وهو أقوى الاحتمالين . . أو كأنهم كانوا يقدمون ولاءهم ويعلنون عن أفراحهم وعظيم استقبالهم خوفا من سليم وخشية من سطوته وتزلفا له . . كونه اشتهر بالصرامة والقسوة .

كانت فلول المماليك المتبقية قد ولت الأدبار ، وفرت أمام زحف الجيش العثماني نحو عاصمتهم القاهرة ، كما فر ايضا طومان باي احد ابرز وزراء قانصوه الغوري والذي نصب سلطانا جديدا على المماليك في يوم ١١ تشرين الاول / اكتوبر ١٥١٦م وكان طومان باي قد نجح نجاحا مبتسراً في إعادة تشكيل جيش مملوكي جديد في مصر التي ساءت أحوالها وانتكست أوضاعها بفعل انهيارها السياسي والعسكري والاقتصادي . . ومصرع سلطانها الغوري ، وبات الناس فيها يترقبون مصيرا جديدا على أيدي القادمين العثمانيين تحت قيادة السلطان سليم الاول الذي ملأت سمعته آفاق مصر والمناطق العربية الاخرى في المشرق والمغرب كونه حقق الانتصار الباهر على دولة المماليك القديمة والتوغل في ممتلكاتها الشامية متوجهاً نحو القاهرة (٦٠) .

نعم ، لم يتوقف سليم الاول في مكان معين او مدينة معينة من بلاد الشام ، بل سلك هو بنفسه مسالك عدة للمرور في المدن السورية الرئيسية واسترضاء الأهلين . .

فضلا عن الأقاليم التابعة ، واستقباله لرؤساء القبائل العربية ، وكبار رؤوس الجماعات الدينية من المسلمين وغير المسلمين(٦١) . . وقد أطلق عليه العرب لقب « حامي الحرمين الشريفين » فماذا فعل ؟

« لقد مهّد الملك ويجري العدل والسياسة ويحسن الى العرب . . ثم توجه الى افتتاح اقليم مصر ودفع البؤس عنها » – كما اتفقّت على ذلك النصوص التاريخية القديمة – .

ولا بد من الوقوف عند نقطة أساسية في تحليل أبعاد الفتح العثماني لبلاد الشام ، ذلك ان انتقالات سليم الاول عبر الاراضي السورية كان قد تم سلما دون اي قتال ، وطاف بعض زوايا المتصوفة لا سيما التكية الكيلانية ، كما أنه زار القدس مع بعض رجالاته وصلى تحت قبة الصخرة وتلقى ترحيبا واسع النطاق من قبل العرب الذين خطبوا به وأطلقوا عليه لقب « حامي الحرمين الشريفين » الذي كان يعتز به غاية الاعتزاز(٦٢) .

١١ / الامتداد العثماني نحو مصر :

اجتاز الجيش العثماني شمال شبه جزيرة سيناء بعدّته ومدافعه وتجهيزاته في خمسة أيام للفترة ١١-١٦ كانون الثاني / يناير ١٥١٧م ، وكان طومان باي قد أبدى مقاومة عنيفة بوجه العثمانيين ، فنصّبه المماليك سلطانا على مصر بعد مصرع الأشرف قانصوه الغوري . وسعى طومان باي لتشكيل جيش مملوكي جديد يواجه به الزحف العثماني السريع على القاهرة . وكان سليم الاول يشرف بنفسه على الخطط العسكرية ويواصل تقدمه نحو خان يونس وغزة ، وقد أحسن الى الرعايا في كل بلدة وقصبة وقرية عربية مرّ بها(٦٣) .

كان المماليك الجراكسة قد جمعوا جيشهم بعد تشتته في سوريا بغرض صد العثمانيين عن مصر ، وعسكروا عند موقع « الريدانية » خارج القاهرة ، واستعدوا للمقاومة بالمدافع والبارود . وكان العثمانيون من طرفهم قد بثوا جواسيسهم الذين كانوا يرسلون اليهم بالأخبار ، ويعلمون سليم الأول بالخطط المملوكية . وعليه ، فقد قام العثمانيون بالالتفاف حول جبل المقطم ، وبدأوا يهاجمون المماليك الجراكسة بضرب المدفعية من الخلف ، ففقدت الخطط المملوكية أهدافها ولم ينتفعوا بآلياتهم في وقت كان طومان باي يناضل بشراسة منقطعة النظير رفقة بعض معاونيه ضد أعدائه العثمانيين الذين فقدوا

في ذلك اليوم الصعب وزيرهم الشهير الخطير سنان باشا . . ولكن مع توالي الساعات ، فقد المماليك السيطرة على الموقف الصعب ، وبدأ يتشتت شملهم ، فهرب طومان باي الى البر ، ونزل على شيخ العربان من بني جذام عبد الدايم بن بقر الذي آواه بعد استبساله العنيف(٦٤) .

دخل السلطان سليم الأول الى مصر دخول الفاتحين المنتصرين مؤمّنا للناس على حياتهم وأموالهم ما عدا المماليك الجراكسة الذين أمر بضرب رقابهم ، ورمي جثثهم في نهر النيل . لقد سحق المماليك الجراكسة في موقعة الريدانية عند أطراف مدينة القاهرة خلال نهار واحد من يوم ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٥١٧م ، وهلك الآلاف من المماليك(٦٥) . أما الذين استسلموا منهم بلا مقاومة ، فقد عفا عنهم سليم . . وسيطر الجيش العثماني على القاهرة بعد أن أخذ مواقعهُ في يوم ٢٥ من الشهر المذكور ، وغدت تلك العاصمة العريقة مركزا حقيقيا للادارة الجديدة في حين بدأ طومان باي ينظم قواته من جديد كي يقود مقاومة عنيفة وبأسلوب حرب العصابات دامت فصولها ثلاثة أيام قاسية في شوارع القاهرة ، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى وتحطمت أحياء كاملة من المدينة(٦٦) .

هكذا استمر المماليك يدافعون عن وجودهم التاريخي في مصر حتى الرمق الأخير ، وبعد مطاردات عنيفة في الدلتا ومصر العليا ، لقد كان من أبرز اسباب فشلهم في المقاومة والدفاع عن دولتهم ونظامهم : استشراء الفساد والانقسامات وفقدان الأموال ، وصراع الأمراء ، وقلة الأسلحة النارية ، وتفوق المدفعية العثمانية . . فضلا عن انعزال الشعب المصري عنهم في تلك العمليات(٦٧) . . وكان الفرق كبيراً بينهم كجراكسة مماليك يدافعون عن مصالحهم ووجودهم وبين أجدادهم من المماليك البحرية الذين دافعوا في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ عن وجودهم ودولتهم وعن مصر بالذات ضد المغول وأوقفوا زحفهم نحوها ونحو بلدان المغرب العربي . . ولكن قبل أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن حينما كانت دولة المماليك البحرية في عزّ شبابها . . لا كما غدت عليه أوضاع دولة المماليك البرجية في مصر عند بدايات القرن السادس عشر حينما أصابتها الشيخوخة والعجز التام .

١٢ / ترسيخ الحكم العثماني في مصر :

بدأ الحكم العثماني في مصر يترسخ يوما بعد آخر . وكان طومان باي قد خانه مضيّفه الذي وشى به عند السلطان سليم ، فأحضره عنده ، مستقبلا إيّاه في « مجلس الصحبة » ، وبدأ يستشيره في أحوال البلاد والعباد ، وقد أعجب السلطان سليم بطومان باي وبشخصيته ومعلوماته . . وفكر في ساعة صفوه ان يقلده نيابة مصر ، ولكن سرت جملة من الشائعات في القاهرة تهمس قائلة باختفاء طومان باي ، وتنظيمه لجيش سرّي جديد يقاتل به الغزاة الأتراك . . وكان المصريون يتحادثون فيما بينهم عن شجاعة طومان باي ورجولته ، فبلغت تلك الشائعات أسماع سليم الأول ، فأمر باخراجه تحف به الانكشارية نحو باب زويله (= احد اشهر ابواب مدينة القاهرة القديمة) حيث جرى هناك تنفيذ حكم الاعدام فيه في ١٣ نيسان / ابريل ١٥١٧م ، وقد شنق امام الناس ، وبقيت جثته معلقة عند ذلك الباب والناس من حوله يشيدون بروحه النضالية المقاتلة [٦٨] . ولكن ؟

لم يكن سقوط القاهرة بيد العثمانيين هو نهاية للمماليك في مصر برغم حصارهم وإذلالهم وإخماد قوتهم . . إذ بقيت جذوتهم حية تنبض بالحياة ، نظراً لقدم عهدهم ، وتمكنهم من المواقع الأساسية في الدولة والمجتمع والحياة الاقتصادية والقسمات الادارية ، اذ بدأ سليم يعتمد على خبرات الذين أيدوه منهم . كما كان يتقبّل ولاءات رؤساء القبائل البدوية ، كما وتسلم ولاء شريف مكة والمدينة وتبريكاته كأبرز قوة شرعية تاريخية عربية في إقليم الحجاز . . فوقع الحجاز بأيدي العثمانيين دون قتال ليكون حلقة اتصال قوية بين العثمانيين واليمن[٦٩] .

لقد زار السلطان سليم الاول مدينة الاسكندرية التي استسلمت لقواته طوعا ، وبدأ ينظم الادارة العثمانية في مصر . . ولما اطمأن لأوضاعها ، عاد بجيشه الى الأناضول ، وشرع الأسطول العثماني بالعودة الى العاصمة استانبول وعلى متن إحدى سفنه المتوكل العباسي وأسرته ، ذلك الخليفة العباسي (الشرعي) الذي كان يمثل رمزاً اسلاميا مقدسا في العالم الاسلامي . وكان يعيش كما عاش أسلافه من آبائه واجداده في ظل سلطنة المماليك بالقاهرة كوارثين شرعيين للخلفاء العباسيين الأوائل الذين انهارت دولتهم ببغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م . . وكان على متن سفن ذلك الأسطول (٢٠٠٠) من كبار التجار والحرفيين والصناع والمهندسين والبنائين المهرة ورجال الدين

المصـــريين[٧٠] . . الذين ارادهم سليم ان يكونوا في عاصمته ، للاستفادة من خبراتهم الواسعة التي تجمعت لديهم عن آبائهم وأجدادهم منذ العهود المملوكية القديمة .

هكذا ، انتصر سليم الاول وخطب الخطباء على المنابر في الجوامع قائلين : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرّين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحا مبينا يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين[٧١] » .

نعم ، لقد انتصر سليم الاول سياسيا بعد انتصاره عسكريا بالسيطرة على قلب الوطن العربي ، وافتتح دواخله العريقة التي كانت تزدهر فيها المدن والحواضر والمراكز والقلاع القديمة والطرق والمسالك والموانىء والتجارات والأسواق والثقل السكاني والأراضي الخصبة والموروثات العربية المتحضرة . . كما وانتصر حضاريا في جلبه للآلاف المؤلفة من الرجال العرب المدربين كي يدخلوا بخبراتهم وخدماتهم الى مراكز الدولةالعثمانية وخصوصا عاصمتها استانبول ، فيؤثروا مع توالي الأيام في بنيتها الحضرية ، وعملياتها الادارية ، وتشريعاتها القضائية ، وتدريساتها العلمية والفقهية والأدبية . . ورقيها العمراني واسع النطاق .

١٣ / نتائج الحملة : مسألة الخلافة ومصير المماليك

لقد استطاع سليم الاول ان يقضي على آخر انفاس الخلافة العباسية / الاسلامية اثر اعتقاله ونفيه للمتوكل العباسي آخر الخلفاء الرسميين ، وهو آخر خليفة عربي لم تكن له القدرة على اتخاذ القرار ، ولم يكن له تأثيره السياسي . ان المصادر التاريخية القديمة ويضمنها الوثائق العثمانية لم تشر لا من قريب ولا من بعيد حدوث اي تنازل عربي /عباسي عن « الخلافة » الى العثمانيين والى سليم الاول بالذات ذلك لأنهم لم يمتلكوا الشروط الشرعية الواجب توفرها في خليفة المسلمين .

وعليه ، فان الرواية الشائعة على الألسنة بخصوص « خلافة آل عثمان » وتسمية السلطان سليم الاول بخليفة المسلمين ، انّما هيَ دعوة لا تستند الى جذر تاريخي او مصدر شرعي . ولم يبدأ التداول بهذا «الاصطلاح» إلا في القرن التاسع عشر . فالدولة العثمانية هي دولة سلطنة دون أن تكون يوما دولة خلافة ، وان ما أشيع بصدد ذلك قد جاء متأخراً على عهد السلطان عبد الحميد الثاني في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين[٧٢] .

يقول المؤرخ دانيال كريسيليوس : « ان الفتح العثماني لم يمح النظام المملوكي في مصر ، لكنه قمعه فقط وبصورة مؤقتة ، فبدلا من إبادة المماليك استخدمهم العثمانيون في النظام الجديد الذي أقاموه في مصر ، وسمحوا لهم بممارسة تقاليدهم السابقة بما في ذلك شراء المجندين الجدد وتدريبهم للعمل في نظامهم الخاص شبه المستقل . «فقانوننامه مصر» الصادر في عهد السلطان سليمان عام ١٥٢٤م قد يوصي بهيمنة النظام العثماني وسيطرته على البناء المملوكي المهزوم ، لكن هذا النظام كان في حقيقته نوع من الحكم العثماني – المملوكي الثنائي (Condominium) لأن المماليك منحوا مناصب سلطوية في هذا النظام الجديد ، واندمجت السلطة العثمانية واقعيا مع القوة العسكرية والادارية المملوكية[٧٣] . وعلى الرغم من ممارسات العثمنة لمصر في إطار تطبيقات نظام قانوننامه مصر اداريا واقتصادياً ، إلا أن ذلك كله لم يكبح جماح المطامح السياسية المملوكية ، ومع توالي الزمن استفحل خطر المماليك بسيطرتهم الفعالة على مقاليد مصر الاقتصادية وابتلعّ النظام المملوكي بجذوره المنغرسة في أعماق تاريخ مصر ومجتمعها . . تلك الادارة العثمانية بأجهزتها التقليدية ، وذلك في مطلع القرن الثامن عشر الذي انحسرت خلاله مركزية استانبول وانطلق نظام المحليات العثمانية على امتداده الواسع في معظم الاقاليم والولايات والنيابات .

١٤ / السيطرة العثمانية على العراق والخليج العربي :

سادت الفوضى والاضطرابات في العراق كثيرا إثر سقوطه تحت حكم الصفويين في مطلع القرن السادس عشر بعد سيطرة الشاه اسماعيل الصفوي على بغداد سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م ، ثم سيطر على كافة أنحاء العراق محاولا تأسيس كيان طائفي في قلب الخلافة العباسية [٧٤] ، اذ رافق ذلك كله ، عمليات قتل وهدم وحرق . . واعدامات لمئات العلماء مع تخريب للأضرحة والمراقد المعروفة ، فضلا عن أسباب أخرى قادت الى تفجير الموقف بين العثمانيين والصفويين مرة أخرى ولكن على عهد السلطان سليمان القانوني الذي أجّل مشروع تقدمه في القارة الاوروبية لكي يتوجه نحو العراق ويخلص بغداد من خلال بدء الصراع بين الطرفين من جديد . .

كانت حوادث الحدود بين الدولتين في شرقي الأناضول كافية أسبابها لإذكاء نار الحرب الاقليمية ، ناهيكم عن تفاعل عدة عوامل مذهبية داخلية واستراتيجية دولية

معقدة . . وجهت سليمان القانوني وجهته نحو العراق الذي كان يعد قلب العالم القديم كونه يربط خطوط التجارة الكبرى بين اوروبا والشرق البعيد . وكان نفوذ البرتغاليين قد استفحل كثيرا في الخليج العربي ، فما كان من سليمان إلا أن يدير رأسه قليلا عن عملياته الكبرى في اوروبا لكي يوجهه قليلا نحو الشرق ، ويمضي نحو عاصمة العباسيين ، مركز الخلافة السياسي وموطن السحر الحضاري والعاصمة الاسلامية التي غرست على مدى الأحقاب الاسلامية صورها وذكرياتها الجميلة في أذهان أبناء العالم الاسلامي قاطبة(٧٥) .

لقد كانت سنة ١٥٣٤م نقطة تحول تاريخية في حياة العراق والخليج العربي ، اذ تضمنت عمليات سليمان القانوني وجيشه ضد الصفويين . وكان أبوه السلطان سليم الاول قد أمن قبل قرابة (١٨) سنة امام ولده سليمان منطقة شمال العراق وبلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام بادخالها جمعاء في المجال العثماني . ولكن كيف تفجر الموقف السياسي بين الدولتين من جديد؟ إبان بدايات العقد الثالث من القرن السادس عشر ، انسلخ أحد الولاة الصفويين واسمه « ذو الفقار » وكان منصّبا على بغداد من قبل الشاه ، اسماعيل الصفوي ،كان تمرّده بمثابة الضوءالاخضر للسلطنة في استانبول ، ودعوة غير مباشرة لانقاذ بغداد والعراق الأوسط والجنوبي من النفوذ الايراني . وقد وأد الشاه اسماعيل تلك الحركة المتمردة سنة ١٥٣٠م بنفسه ، فقضى على ذي الفقار وتم اغتياله . في حين كان السلطان سليمان القانوني يترقب أوضاع بغداد التي وصلته - كما يقال - رسائل من أعيانها تطالبه بانقاذها ، فبدأت الاجـــراءات العثمانية لفتح العراق من خلال فتـــح صفحة الحرب الاقليمية ضد ايران الصفوية (٧٦) .

انتهت الاستعدادات الحربية العثمانية باشراف السلطان نفسه ، وانطلق الجيش العثماني بقيادة الوزير الأعظم ابراهيم باشا مخترقا أصقاع الأناضول ، نحو بتليس . . . ثم عبر نهر الفرات في بيره جك ووصل مدينة ديار بكر في يوم ١٤ ايار / مايس ١٥٣٤م حيث تريث فيها ستة اسابيع استسلمت خلالها له جميع المدن في بلاد اقليم الجزيرة سلما ، تلك المدن التي استطاع السلطان سليم الاول ان يضمها الى دولته سنة ١٥١٦م ، وحتى نقطة وان فانفتح الطريق أمام الجيش العثماني نحو العاصمة الصفوية تبريز ، كما أصبحت المسالك المؤدية الى أذربيجان خالية من الأعداء(٧٧) .

وفي أوائل شهر تموز / يوليو ، غادر ابراهيم باشا ديار بكر ، وفي نفس اليوم الذي انطلق فيه السلطان سليمان القانوني على رأس جيشه العثماني الثاني من اسكودار ، دخل الوزير الأعظم ابراهيم باشا تبريز العاصمة الصفوية التي سقطت دون مقاومة تذكر ولا سفك دماء ، وانفتح الطريق أمام الجيش العثماني الثاني لكي تتركز حامياته في سفوح أذربيجان الاستراتيجية . وفي أواخر شهر أيلول / سبتمبر التحقت القوات السلطانية (= الجيش الثاني) بقوات الوزير الأعظم (= الجيش الاول) ، ولم يجد السلطان سليمان اي صعوبات أثناء تقدمه نحو إيران ، فالتقى جيشه بجيش وزيره . . ومكث السلطان مكوثا قصيرا في تبريز بذل فيها عطاياه وأسبغ فضائله بسخاء واستقبل كبار القوم من الخانات والأعيان الذي وفدوا عليه لتقديم الطاعة والولاء بحفلة عامة (٧٨) .

بدأت التحضيرات العثمانية للانطلاق نحوالعراق ، اذ كانت بغداد هي هدف الحملة أصلا ، واندفع الجيش العثماني بكل قوته وفصائله ومدافعه وآلياته وذلك في أيام فصل الخريف الاولى دون تحسب لقسوة المناخ في الأيام القادمة مرورا بمدينة زالجان ثم مدينة سلطانية في يوم ١٣ تشرين الاول / اكتوبر ١٥٤٣م ، وانفتحت المسالك الجبلية نحو مدينة همدان بانسحاب الصفويين ، ولكن هجم البرد في تشرين الثاني / نوفمبر هجوما كاسحا مع غزارة الأمطار ، وكثافة الثلوج فانغلقت الممرات الجبلية غير المطروقة ، فواجهت الجيوش العثمانية مصاعب غاية في السوء فجرفت السيول الفائضة في الوديان العميقة قسما من عدة الآليات ونفقت مئات من الحيوانات ، وتفشت الأمراض في أوساط الجنود . . وخشنت الطباع حتى أهين الضباط الكبار ، ودفنت المدافع كيلا يستفيد منها الأعداء الألداء ، . . وكان عبور جبال زاكروس العصية قد حال دون ملاحقة الصفويين في أعماق ايران . . حتى ذا ما أطل ذلك الجيش على سهول العراق المتموجة ثم المستوية ، فقد غالبه الارتياح وانتظمت حركته وفاعليته من جديد (٧٩) .

كان الرأي العراقي العام في بغداد يضج بالفرح لاستقبال هذا القادم الجديد الذي ملأت سمعته الآفاق . ولم يستطع الخان الايراني وحاميته في بغداد من مواجهة الموقف ، فهرب نحو ايران ، وقبل وصول السلطان سليمان بغداد بمسافة ، تسلم مفاتيحها وهو في طريقه اليها . ودخل في البداية ، الوزيرالأعظم ابراهيم باشا العاصمة العباسية العريقة دون مقاومة تذكر . . في حين انتشر الجيش العثماني لينال قسطه من الراحة ، ثم استعد الجميع لاستقبال سليمان القانوني في دخوله بغداد عاصمة الخلفاء القديمة (٨٠) .

وجاءت اللحظة التاريخية التي دخل السلطان العثماني بغداد فاتحا عاصمة العراق ومفتتحا عصر تاريخ جديد للعراق الذي ولدت منذئذ تنظيمات العراق الحديثة والتي تأخرت عن مصر وبلاد الشام لأكثر من (١٥) سنة ، وقد استوجب وضع العراق واحوال الجيش ان يبقى السلطان سليمان بضعة أشهر في العراق استطاع خلالها ان يخضع كافة قسماته واقاليمه ويلحقها بمملكته رسميا ، ثم بدأ يتقبل فروض الطاعة والولاء من قبل أعيان العراق وشيوخ القبائل وكان بلاط السلطان تحفه الأبهة والمراسيم(٨١) في حين كان مثقفو بغداد والعلماء والأدباء والوجهاء الكبار يفاخرون أمام ضيوفهم بعظمة تاريخ مدينتهم وثرائها الأدبي والروحي منذ قرون خلت والذي تشهد عليه بقايا آثارها وأبنيتها وقنواتها وخزفها وجوامعها ومزارعها وأطلالها التي أثرت في نفس سليمان القانوني كثيراً وكان يستمع الى من كان يهتف له بإعادة أمجادها !!

لقد قضى السلطان القانوني في العراق شتاء سنة ١٥٣٤ - ١٥٣٥م كاملا مؤسسا الادارة الجديدة ، والنظام الضرائبي الجديد ، ومعلنا عن سياسته الاقتصادية للعراق ، كي يبدأ المجتمع العراقي حياته العثمانية الجديدة مع ما رافق ذلك كله من إصلاحات في المكاتب والمدارس والمساجد وقنوات الري والعمران والأبنية . وزار السلطان عددا من الأماكن المهمة والمدن الرئيسية والعتبات المقدسة ، وكان سخيا في عطاياه وانفاقاته ، كما ونصّب الولاة الجدد ، وأسس الحاميات العسكرية ، وطبق لأول مرة النظام الاقطاعي العسكري في العراق (٨٢) .

هذه هي أبرز أعمال القانوني في العراق ، ولما عاد الشاه الصفوي مسيطرا على إقليم اذربيجان مرة أخرى ، بدأ سليمان القانوني يعد العدّة لتوجيه ضربة أخرى له ، فغادر السلطان بغداد في نيسان / ابريل ١٥٣٥م ، ومضى نحو شمال العراق عن طريق كركوك - أربيل - كردستان . وقد غدت تلك السنة حدا فاصلا بين عصرين كاملين في تاريخ العراق الذي بدأ الحياة العثمانية من خلال النظام الجديد ، والأعراف والقوانين والتقسيمات والضرائب والاقطاعات والمؤسسات والأجهزة الجديدة (٨٣) . . . كما وبدا العراق وحدة اقليمية مترابطة اكثر من ذي قبل بولاياته الكبرى الثلاث : الموصل وبغداد والبصرة واللواحق العراقية ، ولكن سيغدو العراق فيما بعد مسرحا حقيقيا للصراع التاريخي المزمن بين العثمانيين والايرانيين من أجل التحكم بمنافذه ومسالكه الاستراتيجية البرية والبحرية(٨٤) .

أما بالنسبة للخليج العربي ، فقد غدت بغداد مصدرا للتحرك العثماني نحو جنوبي العراق والسواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية التي كانت امتداداتها تتصل بقطبين أساسيين استراتيجيين اثنين ، أولهما بالبصرة شمالا وثانيهما بمسقط جنوبا . وكان العثمانيون يهدفون الى إقامة توازن استراتيجي بين سيطرتهم على مصر على يد السلطان سليم الأول باتجاه البحر الأحمر ، ثم سيطرتهم على العراق على يد السلطان سليمان القانوني باتجاه الخليج العربي ، فشكلوا بذلك جناحين قويين ضد القوى البرتغالية في البحار الشرقية . وبقدر ما كانت مدينة السويس نقطة استراتيجية مصرية إزاء البحر الأحمر ، كذلك كانت مدينة البصرة نقطة استراتيجية عراقية إزاء الخليج العربي وخليج عمان ، فقد كانتا مركزي تجمع والتقاء وجذب واستقطاب فضلا عن صناعة السفن التي استفادت منهما الدولة العثمانية كثيراً في مجابهة البرتغاليين . (للتفاصيل : انظر الفصل السابع من هذا الكتاب) .

تسلم السلطان سليمان القانوني عندما كان ببغداد خضوع وولاء الشيخ راشد بن مغامس الذي أرسل رفقة ابنه مانع مفاتيح البصرة ، متعهدا تقديم طاعته ، وقد نصّب راشد بن مغامس حاكما على البصرة ، ثم غدت مركز ايالة بايلربيك بعد أن جرد اياس باشا بايلرباي بغداد حملة عثمانية للاستيلاء على البصرة وملحقاتها ، فدخلها العثمانيون عسكريا في ٢٦ كانون الاول / ديسمبر ١٥٤٦م . . وامتد من خلالها النفوذ العثماني الى الاحساء والقطيف والبحرين . ولقد بدأ الدور الحقيقي للبصرة في التاريخ الاقتصادي الحديث منذ تلك السنة الفاصلة وما اضطلعت به من مهام في تطور الماركنتالية الدولية (٨٥) .

يذكر المؤرخ التركي المعاصر صالح اوزبران بأن الأتراك قد استحوذوا على إقليم الاحساء مباشرة بعد استيلائهم على البصرة ، وامتدوا نحو القطيف كجزء من خطة عثمانية كبرى في مواجهة الوجود البرتغالي وأساطيله القوية ، وقد غدت البصرة من الولايات العثمانية المهمة . أما اقليم الاحساء (= الحسا) ، فقد امتد الحكم العثماني فيه كسنجق اداري على مدى مرحلتين عثمانيتين مباشرتين : الاولى منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف سنة ١٥٥٠م(٨٦) . والثانية امتدادهم في منطقة الهفوف سنة ١٥٥٥ م . وبذلك يكون العثمانيون قد جسدوا وجودهم في مناطق الخليج العربي ، اذ شكل العراق

مع لواحقه البحرية في الخليــج العربي ، منطقة متنوعة الاتجاهــات لترانسيت تجارات العالم القديم .

ولكن السؤال هو : كيف كانت طبيعة تَدخّل الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي ؟

لم يستطع العثمانيون بعد استيلائهم على بغداد سنة ١٥٣٤م ثم البصرة سنة ١٥٤٦م ان ينشئوا لهم قاعدة بحرية أساسية لهم يبسطون منها نفوذهم على مياه الخليج . . فضلا عن ان الأتراك كانوا يواجهون مقاومة خفيفة من جانب العصبيات البدوية المحلية من طرف ومن الايرانيين الصفويين من طرف آخر . . وكان البرتغاليون لهم قصب السبق في احتلال هرمز ومسقط ومراكز حصينة أخرى ، وقد نجح العثمانيون في فرض سيطرتهم متأخرين على القطيف والاحساء التي أنشأوا فيها ولاية عثمانية ، وباشر الموظفون الأتراك أعمالهم فيها مستمدين القوة من بغداد دون استانبول . . وعليه ، فان التأثيرات الادارية والعسكرية العثمانية كانت أقل شأنا من بقية الايالات العثمانية في دواخل الوطن العربي سواء تلك التي تقع في العراق ام بلاد الشام ام مصر .

١٥ / الامتداد العثماني نحو اليمن :

تمتعت بلاد اليمن بموقع استراتيجي فعال إبان التواريخ الوسيطة والحديثة وكان لها أهميتها البالغة جغرافيا بالنسبة الى القوى الثلاث : المملوكية والعثمانية والبرتغالية . وعلى الرغم من هيمنة دولة المماليك في مصر عليها منذ عهد طويل ، إلا أن سلطة الأئمة الزيدية العريقة فيها كانت قوية بحكم ميراثها المذهبي والقبلي القديم فيها . وكانت تهددها الأخطار البرتغالية في البحار الشرقية . . كما بدأت تلك الأخطار تهدد البحر الأحمر من خلالها .

وعندما سقطت دولة المماليك في مصر على يد السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧م ، أرسل أمير اليمن مبعوثه الى القاهرة محملا بالهدايا لسليم كي يبدي وده وولاءه[٨٧] خصوصا وان الدولة العثمانية كانت مهتمة كثيرا بالبحر الاحمر اثر تفاقم التهديدات البرتغالية لكل من اليمن والحجاز . فالسيطرة العثمانية على اليمن تضمن للعثمانيين سلامة الحرمين الشريفين في الحجاز ، والتحكم في البحرين : الاحمر والعربي والامتداد في البحار الشرقية ، فضلا عن جعل تلك المناطق البحرية قواعد استراتيجية ضد القوى

البرتغالية بحرا والصفوية براً في المشرق العربي ، وكمحطة اتصال في التعامل مع أجزاء العالم الاسلامي في كلٍّ من أعماق آسيا وافريقيا .

تمكن العثمانيون من فرض سيطرتهم على اليمن التي أعلن أمراؤها تبعيتهم لسليم الأول اثر سقوط القاهرة سنة ١٥١٧م ، الا ان البعض من القادة المماليك لم يذعنوا للسيادة العثمانية ، وخرجوا عن طاعة السلطان ، وأعلنوا استقلالهم ، وبدأوا يهددون الولاة الاتراك الذين وصلوا وتولوا حكم اليمن[٨٨] ، وقد فروا منها نظرا لعدم امتلاكهم قوة عسكرية يردّوا بها على تلك التهديدات . . خصوصا وان دخول اليمن في المجال العثماني لأول مرة جاء بأسلوب التتابع السلمي وليس بطريق الاكتساب العسكري كما حدث لكل من بلاد الشام ومصر ، فوجدت الدولة العثمانية ان تبعية اليمن واكتسابها فعلاً لا يتم الا بواسطةالاحتلال العسكري وتأسيس حكم عثماني بقوة السلاح وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني[٨٩] . وقد استمر الحكم العثماني الاول على اليمن للفترة ١٥٣٨ -١٦٣٥م ، أي قرابة قرن كامل من تاريخ اليمن الحديث .

فكيف تمت السيطرة العثمانية على اليمن ؟

أمر السلطان سليم القانوني بتجهيز حملة عسكرية ضخمة أبحرت بأسطولها من ميناء السويس المصري في ٢٧ حزيران / يونيو ١٥٣٨م ، بهدف القضاء على البرتغاليين الذين لن تتوقف غاراتهم البحرية على المدن الساحلية والموانىء العربية في البحر العربي والبحر الأحمر . . مع تهديدات مستمرة لتلك المناطق العربية القصية . ووصل الأسطول العثماني الى عدن في أواخر شهر تموز / يوليو ١٥٣٨م بقيادة سليمان باشا الأرناؤوطي ، أحد أبرز القادة العثمانيين الذي غدر بأمير عدن ، ذلك الذي ابدى استعداده للتعاون مع العثمانيين ضد عدوه في الشمال اليمني الامام شرف الدين الزيدي ، فسيطرت القوات العثمانية على عدن دون قتال في ٣ آب / اغسطس ١٥٣٨م ، وقضى سليمان باشا على الأسرة الطاهرية الحاكمة باعدام جميع أفرادها بقسوة بالغة ، وصادر أملاكهم واموالهم وأشاع عنهم انهم كانوا يتعاونون مع البرتغاليين بغرض تسليم عدن اليهم ، وهي تهمة نفاها عدد من المؤرخين عن الطاهريين فيما بعد والذين حكموا عدن ردحاً طويلا من الزمن وكانوا من (السّنة) الذين اختلفوا في مذهبهم عن الزيدية في اليمن [٩٠] .

نصّب سليمان باشا أحد قواده حاكما على عدن ، ثم مضى بأسطوله العثماني نحو

الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، ولكنه فشل في حملته عندما واجه اساطيل البرتغاليين في البحار ، وعاد الى عدن منسحبا ، وكانت القبائل اليمانية في الجنوب قد ثارت على الحامية العثمانية انتقاما لمقتل أميرها عامر بن داؤد الطاهري . . أما حضرموت ، فقد امتد العثمانيون الى سواحلها وثغورها ، ولكن سكانها رفضوا الحكم العثماني ولم يعترفوا بالولاء للسلطان العثماني ، فعادت القوات العثمانية الى عدن من جديد (٩١) . ولكن بدأت الهيمنة العثمانية الفعلية على سواحل اليمن عندما أعلنت تبعية مخا للدولة العثمانية التي بدأت تسيطر على الصليف ، ومنها كان التقدم العسكري نحو زبيد ، وقد غدروا بالحاكم المملوكي وأعدموه مع رفاقه ، فقضوا على الحكم المملوكي في اليمن بصورة نهائية ، فما ان جاءت نهاية سنة ١٥٣٨م حتى خضعت اليمن للسيادة العثمانية ، ولكنه ليس خضوعا كاملا على معظم قسماتها نظرا لوجود الأئمة الزيدية في شمال اليمن والذين كانوا يستحوذون على مشاعر اليمنيين وولاءات القبائل وعدد كبير من السكان الذين يؤمنون بوجودهم ، بل قد يصل الولاء الى حد التقديس(٩٢) .

لقد قادت ضغوطات اليمنيين على العثمانيين والهجومات الخاطفة في بيئة صعبة ومناخ موسمي لم يعتد عليه الضباط والجنود في القوات العثمانية الى أحداث دامية في أغلب ربوع اليمن مسببة قلقا عثمانيا حدا بالباب العالي ان يرسل اسطولا بحريا عبر البحر الاحمر تحت قيادة بيري ريس احد ابرز ادميرالات البحرية العثمانية في القرن السادس عشر ، والذي تمكن بسهولة من استعادة عدن واخماده لثورة القبائل بعد مصرع أميرهم الطاهري وكان سليمان باشا الارناؤوطي قد أقيل من منصبه وقفل راجعا الى استانبول . واستطاع العثمانيون ان يتوسعوا في أجزاء اليمن منذ سنة ١٥٣٩م ، وقد اصطدموا بالامام شرف الدين الزيدي في معارك عدة . . ثم سيطر العثمانيون بعد صراع دام على مدينة تعز سنة ١٥٤٥م ، وتتوجت الجهود العثمانية أخيراً بسقوط مدينة صنعاء بأيديهم . . ولكن أثار عليهم ذلك تأجج نضال اليمنيين ضدهم الذي بدأ يقودُه الامام المطهر منذ سقوط صنعاء سنة ١٥٤٧م حتى ارجاعها يمنية سنة ١٥٦٨م ، ثم عقد صلح شكلي بين الطرفين (٩٣) .

ان مقاومة اليمنيين الضارية جعلت الدولة العثمانية ترسل حملة كبرى بتسليحها الحديث يقودها الوزير الأعظم سنان باشا اشهر القادة العثمانيين والذي عرف فيما بعد بلقب « فاتح اليمن »(٩٤) فوقعت المزيد من الحروب الصعبة بين الطرفين تتوجت باستعادة

صنعاء سنة ١٥٧٠م واستمرت الحرب سجالا ما يقرب من عامين حتى موت الامام المطهر سنة ١٥٧٣م فأتاح ذلك للاتراك مزيدا من السيطرة وبسط النفوذ ضد الأئمة الضعفاء ، واستؤنف الصراع مجددا بتولي الإمامة الإمام المنصور القاسم بن محمد وشغل عهده صفحات من الحرب والسلام . . ومع استمرار تلك الثنائية في الحكم والصراع والصلح المزيف ، وجد العثمانيون أنفسهم يواجهون تذمرا وعداء وانتفاضات وثورات عنيفة ضدهم على امتداد سنوات حكمهم لليمن حتى جلائهم عنها سنة ١٦٣٥ م في عهد السلطـــان مراد الرابع (٩٥) .

١٦ / العثمانيون ومجهودات باربروسا في البحر المتوسط :

بدأت المواجهات الفعلية بين القوى البحرية الاوروبية والقوى البحرية العثمانية اي بين اكبر سيادتين بحريتين قويتين في كل من الحوضين الغربي والشرقي من البحر المتوسط ، متمثلة ببروز رجلين بطلين اكتسبا شهرتهما في البحر ، وامتلكا من خلاله خصوصية ناجحة ، وهما اخوان من اب تركي وام اندلسية ، وكان اول بروزهما في جزيرة ميدلي (= Metlin) : عروج ريّس وخسرو ريّس اللذين استقرا في كوليطا (= حلق الوادي) سنة ١٥٠٢م وهو ميناء تونسي شهير . واستطاعا من هناك أن يقابلا القرصنة الاسبانية ببناء قوتهما البحرية ، فنجحا في ذلك نجاحا باهرا عندما اتصلا وتحالفا عمليا مع أغلب الموريسكيين في المنطقة ، والذين كانوا قد فرّوا بدينهم وحياتهم أمام خطر الاستئصال الاسباني/ الكاثوليكي لهم ، وكانوا من البحارة الأذكياء في غاراتهم القـوية وعملياتهم الجريئــة ضد السواحل الاسبانية (٩٦) .

مرت مرحلة زمنية صعبة اكتسب خلالها كل من الأخوين عروج سيطرتهما على الجزائريين . ولكن الاسبان إتخذوا من بعض الأسر المحلية في المغرب العربي أدوات وصنائع لمواجهة نفوذ كل من الأخوين عروج ، فتبلور صراع اقليمي حاد أذكت اسبانيا مسبباته وعناصره . . وفجأة سقط عروج ريّس صريعا قرب تلمسان في غربي الجزائر ، فاستفاد أخوه خسرو ريّس من تجربة ذلك الصراع الخارجي والازمة الاقليمية كي يبرز صاحب مكانة سياسية ، وكبطل مسلم عظيم شاعت أعماله البحرية ضد الغزاة الأجانب . . كان يدعى بـ «خير الدين» من قبل المسلمين ، وباسم « باربروسا » (أي : ذو اللحية الحمراء) من قبل الأوروبيين (٩٧) .

تقدم خير الدين باربروسا بطلب المساعدات العثمانية بعد سيطرة سليم الأول على

مصر مباشرة ، وقد كسب الجولة بأسلوب ذكي عندما طلب الترخيص من السلطان العثماني تزويده بالمدد العسكري والبحارة الملاحين من الأناضول . وان تضمن له الدولة العثمانية المدفعية والقوة المسلحة والبارود لتقوية أسطوله ، ويكون مقابل ذلك قد ضم سكان الجزائر الى الدولةالعثمانية ، فتم له ما أراد ، فضلا عن تنصيبه حاكما على الجزائر(٩٨) .

لقد انتهى عهد سليم الاول بسرعة ليأتي من بعده سليمان القانوني مواصلا الاستعدادات والمساعدات ، فقدّر لباربروسا ان يضم أجزاء واسعة من الجزائر الى الدولة العثمانية .. مضيفا ومستردا جزيرة بينون – دارجيل اليها .

ونظرا للمشاكل التي كان يثيرها فرسان القديس يوحنا والتخريبات التي كان يمارسها اندريا دوريا في البحر المتوسط ، ودرءا لما قد تجر اليه من مخاطر ، فقد أوعز سليمان القانوني لباربروسا القيام بتلك المهام ، فأبحر الأخير نحو استانبول التي نصب فيها ادميرالا اعظماً للأساطيل العثمانية (= قبودان باشا) في ٢٧ كانون الاول / ديسمبر ١٥٣٣م ، وأهلته الدولة بمئات السفن ، كما أمر ببناء اسطول جديد لمواجهة الهابسبورك .. والتصدي بكامل طاقمه من كبار الملاحين والمحاربين والقباطنة للأوروبيين من أجل تحرير كامل التراب المغاربي .

بينما كان سليمان القانوني يمتد بجيوشه براً في براري الأناضول وجبال العراق كان بربروسا يمخر باساطيله بحرا على سواحل المتوسط .. وبينما كان القانوني يقضي أيامه ببغداد ، فقد استعيدت تونس في ٢ نيسان / ابريل ١٥٣٤م التي اتخذها باربروسا قاعدة له في مهاجمته صقلية (= سيسلي) .. وعاد اندريا دوريا ليحتل تونس من جديد وليحكمها بالحديد والنار لكي يحول وسيطرة العثمانيين على بلاد المغرب العربي (٩٩) .

وكان للتحالف العثماني – الفرنسي بين سليمان القانوني وفرانسوا الاول في سنة ١٥٣٦م مثار قلق دول اوروبية عدة قامت بالمقابل بتشكيل حلف ديني مقدس ضد العثمانيين من أجل شق التحالف العثماني الفرنسي من ناحية ، وفصل العلاقة بين الايالة الجزائرية / الباربروسية والعاصمة العثمانية استانبول من ناحية أخرى .. فلم تنجح المحاولات تلك .. اذ شغل الصراع البحري المحتدم على مدى عشر سنوات

١٥٣٦-١٥٤٦م ، كان باربروسا بطلها الشهير . . قدم خلالها خدمات تاريخية لا تقدر بثمن لأبناء تونس والجزائر ، وعندما مات خير الدين في ١٠ تموز/ يوليو ١٥٤٦ ، كانت الجزائر قد غدت ايالة عثمانية قوية (١٠٠) .

ويبدو أن أبناء الجزائر وتونس وطرابلس الغرب قد تكاتفوا وتعاونوا في استقبال العثمانيين والقادمين الأتراك من بعيد عبر البحر المتوسط ، والوقوف بوجه القوى الكاثوليكية لاسبانيا وفرسان القديس يوحنا . ولمايزل أبناء المغرب العربي يحفظون في ذاكرتهم التاريخية للعثمانيين القدماء جميل صنيعهم إزاء الخدمات التي قدموها . . . وبدأت الحياة التاريخية العثمانية في بلاد المغرب العربي منذ عهد باربروسا وسليمان القانوني وعاشت هناك ثلاث ايالات عثمانية قوية ، هي : تونس والجزائر وطرابلس الغرب ، وبقيت سلطنة المغرب الأقصى تحت حكم السعديين والعلويين بعيدة عن النفوذ العثماني .

استنتاجات تاريخية :

لقد تعرفنا مليا في دراستنا هذه على مكانة الدولة العثمانية في تاريخنا العربي والاسلامي ، كما ووقفنا على تراكيبها الزمنية وخصائصها التاريخية وأبرز عناصرها سواء في انتماء سلالتها الحاكمة او ولادتها ونشوئها كدولة ، ثم في ارتقائها كسلطنة وكيف استطاعت ان تسقط أعتى قلعة حصينة في التاريخ استعصت على المسلمين العرب والأتراك معا على امتداد قرون طويلة . وقد توقفنا عند طبيعة نظام الحكم العثماني من خلال مؤسساتها وتشكيلاتها ابان عهد تطورها والفتوحات والتنوعات والقوانين . . التي زخرت بها خلال القرن السادس عشر .

ان الفتوحات (= الامتدادات) العثمانية للأراضي العربية قد انبثقت من خلال الصراعين البري والبحري معا ضد أكثر من دولة ، فكان هناك الصراع العثماني البري ضد الصفويين في ايران وضد المماليك في مصر وبلاد الشام . وكان هناك الصراع العثماني البحري ضد البرتغاليين في البحار الشرقية . وضد الاسبان وفرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط . لقد شكل الفتح العثماني للأراضي العربية في القرن السادس عشر ظاهرة تاريخية لها أبعادها الواسعة كونها استمرت طويلا لا سيما وانها كانت تختلف اختلافا جذريا عن الاراضي الأوروبية جغرافية وتاريخا ، فضلا عن كونها أراضي الخلافة العربية - الاسلامية القديمة والتي كانت مثار اهتمام واحترام السلاطين

العثمانيين الأوائل والأواخر ، وخصوصا سليم الأول الذي ضاعف مجهوداته كثيرا في مجال جغرافي / عربي لم يقدم على دخوله من سبقه من السلاطين ، وقد اختار في خططه واستراتيجيته الدواخل العربية كي يتوغل بنفسه في بلاد الشام ومصر فتتوالى عليه ولاءات العرب في المشرق والمغرب العربيين . . وسيندفع خلفه سليمان القانوني لاستكمال مشروع والده سليم الاول كي يتوغل بنفسه في العراق فأمن الأول استراتيجية دولته إزاء البحر الأحمر من خلال مصر ، وأمن الثاني استراتيجية دولته إزاء الخليج العربي من خلال العراق (١٠١) .

لقد كانت تلك الانجازات العثمانية ذات أهمية تاريخية كبرى في تحديد مصير الوطن العربي في مشرقه ومغربه منذ النصف الاول من القرن السادس عشر ، وقد انتهى النظام السياسي العربي القديم وبضمنه بقايا الخلافة العباسية التي كانت تلتقط انفاسها تحت ارادة المماليك الجراكسة في القاهرة ، ولكن بقيت عدة نماذج عربية تاريخية أصيلة محتفظة بمقوماتها السياسية (= السلالية والعصبية) في مناطق عديدة من البلاد العربية والتي لم تزل حية ترزق حتى يومنا هذا ، كما كان عليه الحال في كل من المغرب الأقصى والحجاز واليمن ومسقط . . الخ ولا بد لنا أن نستنتج كم كانت انجازات العثمانيين واسعة نافذة في البحر المتوسط ضد القوى الأوروبية الطامعة ببلدان المغرب العربي ، وذلك من خلال تقديم المساعدات البحرية واللوجستية للقوى المحلية المغاربية والمورسيكية . . ومن ثم ضم تلك الاقاليم الاستراتيجية الى مجال الدولة العثمانية .

لقد قسمت البلاد العربية من قبل العثمانيين الى عدة ولايات وسناجق (=ألوية) ارتبطت جميعها في المراحل التاريخية الاولى بالسلطة العثمانية العليا في العاصمة استانبول مباشرة ، وكان من ابرز تلك الولايات والايالات العربية : ولاية الموصل / ولاية بغداد / ولاية البصرة / ولاية شهرزور/ ولاية حلب / ولاية دمشق / ولاية طرابلس الشام / ولاية بيروت / ولاية مصر / ولاية الحجاز / ولاية اليمن / ايالة طرابلس الغرب / ايالة تونس / ايالة الجزائر . فضلا عن العديد من السناجق واللواحق والاطراف الاقليمية . لقد غدت مع تقدم الزمن لكل ولاية اجهزتها الادارية والعسكرية والمالية والقضائية وتطبيقاتها للأوامر والتعليمات والقوانين ، واختصت كل ولاية بتشكيلاتها العثمانية وعلاقاتها الاقتصادية .

وأخيرا علينا ان نستنتج أيضا ، بأن العرب كانوا من السباقين الأوائل الى استقبال العثمانيين استقبالا حسنا في معظم الاقاليم العربية ومدنها وحواضرها . . نظرا لاسباب ومسبّبات عديدة ، عدا بلاد اليمن وعدن وحضرموت التي عدت استثناء عربيا شاذا عن القاعدة ، فقد واجه اليمنيون قوات العثمانيين منذ البداية وحتى النهاية مواجهة دموية قاسية صعبة استمرت اكثر من قرن كامل . اما في أماكن عربية اخرى ، فان العثمانيين قد اعتمدوا على عدة قوى محلية واقليمية للمشاركة في ادارة المؤسسات والأجهزة والقضاء ونظام الالتزام . ومن أبرز تلك القوى : المماليك الجراكسة في مصر ، واشراف مكة في الحجاز ، والزعماء المعنيين في لبنان ، وريّاس البحر في الجزائر . . وعدد من رؤساء العصبيات القبلية العربية في أماكن عدة من اللواحق والأطراف العربية . ولقد بقي العرب تحت ادارة العثمانيين الشديدة التي بدأت تسوء يوما بعد آخر في اكثر من ولاية عربية مع توالد الانقسامات واستشراء الصراعات . . وبقي العرب يزودون استانبول بالأموال . . وقاموا بجهد كبير في الحفاظ على ممتلكات الدولة العثمانية وحل مشاكلها . . وتأثروا كثيرا بأنظمتها واساليبها ومواريثها في الحياة على امتداد اربعة قرون من الوجود العثماني في الوطن العربي .

احالات وملاحظات

(١) محمد بيك النقشبندي البرهانبوري ، ملحق خلاصة السير ، تحقيق ، احمد أظهر ، لابور ، ١٩٤٠ ، ص ١٣٠ . وقارن مع ما يذكره كامل مصطفى الشيبي ، الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠- ٢٢ .

(٢) بديع جمعة واحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ط١ ، بيروت ١٩٧٦ ، ج١ ، ص٤١ .

(3) Walther Hinz, *Uzun Hasan ve Seyh Cunyd,* Ceviran Tevfik Biykli Oglu, Ankara, 1948, s. 24.

(٤) عاشق باشا زاده ، عاشق باشا زاده تاريخي ، استانبول ، ١٣٣٢ هـ ، ص ٢٦٦ .

(5) R. M. Savory, "The Consilidation of Safawid Power in Persia", *Der Islam,* Band 41, Berlin, 1965, p. 85.

(6) R. M. Savory, "The Struggle for Supermacy in Persia after the Death of Timur", *Der Islam,* Band 40, Berlin, 1964, pp. 63-4.

(٧) سيار الجميل ، « استراتيجية العراق وأثرها في نشوء الصراع العثماني الايراني » ، آفاق عربية ، العدد (١٠) ، السنة (٦) ، يونيو ١٩٨١ ، ص ١٤ .

(8) R. M. Savory, *Iran under the Safavids,* Cambridge, 1976, pp. 35-9.

(9) E.S. Creasy, *op. cit.,* p. 127; see also, V. J. Parry, "The Ottoman Empire 1481-1520", *New Cambridge Modern History,* vol. 1, 1957, pp. 395-410.

(١٠) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦ ، جامعة الموصل ، ١٩٩١ ، ص ٦٠ - ٦٤ (تحليلات موسعة للعوامل التاريخية) .

(11) "Selim I" in *EI 1,* vol. IV, pp. 214-7.

(12) Stanford J. Shaw, *op. cit.,* vol. 1, p. 81.

(13) A. J. Toynbee, *A Study of History,* vol. 1, Oxford, 1934, pp. 385-6.

(14) V. J. parry and Others, *A History of the Ottoman Empire to 1730,* ed. by M.A. Cook, London, 1970, pp. 213-4.

(15) Halil Inalcik, "The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy", *Studies in the Economic History of the Middle East,* ed. by M. A. Cook, London, 1970, pp. 213-4.

(١٦) سيار الجميل ، « دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل واقليم الجزيرة سنة ١٥١٦م وبدايات الصراع العثماني الايراني في عهد سليم الاول» ، حولية بين النهرين ، العدد (٣٠) ، الموصل ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٦ .

(17) Halil Inalcik, "The Ottoman Economic..", *op. cit,.* f. n. 19, pp. 213-4.

(18) Halil Inalcik, "Bursa and the Commerce of hte Levsnto ", *Journal of the Economic and Social History* of the Orient, vol. III, 2, 1960.

(19) Fredrick C. Lane, "The Mediterranean Spice Trade : Further Evidence of its Revival in the 16the Century", *American Historical*

Review, vol. XLV, 3, Apr. 1940.

(20) "Chaldiran " in *EI 2,* vol. 2, 1965, pp. 7-8.

(21) D. E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earliest times to the end of the sixteenth contury,* Leiden & Brill, 1972, p. 102.

(22) *Islam Ansiklopedisi,* 3 cilt, 1945, ss. 662-8.

(23) Biographical details in Mehmet Bayrakdar, *Bitilisi Idris,* Ankara, 1991, ss. 12-57.

(24) *Islam Ansiklopedisi,* 5 cilt, 1950, s. 936.

(25) R. B. Merriman, *Suleiman The Magnificent 1520-1566,* Harvard, 1944, p. 24.

(26) Von - Hammer Purgstall, *Geschichte der Osmanischen Reiches,* Band 2, (1453-1530), Wien, 1828, p. 426.

(27) Celal-Zade Mustafa, *Selim-nameh* : Hazirayanlar, Ankara, 1990, s. 400.

(٢٨) سيار الجميل ، حصار الموصل : الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه ، الموصل ، ١٩٩٠ ، ص ٧٠-٧١ .

(29) Von-Hammer, *loc. cit.*

(٣٠) سعد الدين خوجه ، تاج التواريخ (جزءان) ، استانبول ، ١٨٦٢/ ١٨٦٣ ، ج٢ ، ص ٣٢١-٣٢٢ (وهو من أقدم التواريخ العثمانية) .

(٣١) شرف الدين خان البدليسي ، شرفنامه ، ترجمة : محمد علي عوني ، (جزءان) ، القاهرة ، ١٩٥٨/ ١٩٦٢ ، ج١ ، ص ٤٣٢ .

(٣٢) صولاق زاده ، محمد جلبي ، تاريخ صولاق زاده ، استانبول ، ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م ، ص ٣٧٩ .

(٣٣) المصدر نفسه وانظر مقارنا تحليلات سيار الجميل في «دراسات . .» المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

(٣٤) سعد الدين خوجه ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣١٣ .

(35) Von-Hammer, *loc. cit.*

(٣٦) صولاق زاده ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ، مقارنا مع سيار الجميل في «دراسات . .» المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

(37) Celal-Zade Mustafa, *A. g. e.* , s. 309.

(٣٨) سيار الجميل ، « دراسات . . » ، المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

(٣٩) راجع خرائط في جغرافية المواقع التاريخية عند كل من المؤرخين : فون هامر بورجشتال ودونالد بيتجر وسيار الجميل في مصادرهم المذكورة أعلاه .

(40) Celal-Zade, Mustafa, *A. g. e.*, ss. 401-2.

وانظر : سعد الدين خوجه ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

(41) Mehmet Bayrakdar, *A. g. e.*, s. 10.

(42) D.E. Pitcher, *op. cit,* p. 103.

وانظر : سيار الجميل ، العثمانيون . .(سبق ذكره) ، ص ٣٤٤، ٣٤٥ .

(٤٣) راجع : سيار الجميل ، « الحياة الاقتصادية والاجتماعية في ولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤م» في ملف أعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية سنة ١٩٨٦ والموسوم بـ : الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني (ثلاثة أجزاء) ، جمع وتقديم : عبد الجليل التميمي ، زغوان / تونس ١٩٨٨ ،ج ٢/١ ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

(٤٤) قارن النتائج المتباينة التي توصل اليها كل من :
نيقولاي ايفانوف ، الفتح العثماني للأقطار العربية ، ترجمة : يوسف عطا الله ، بيروت ، ١٩٨٨ ،ص ٨٣ . وراجع الاختلافات في التواريخ : سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث (سبق ذكره) ، ص ٦٨-٦٩ . وانظر النتائج التي جمعت بين الاثنين في : خليل علي مراد ، بحثه الموسوم : « الموصل بين السيطرة العثمانية وقيام الحكم الجليلي ١٥١٦-١٧٢٦» ، موسوعة الموصل الحضارية ، ج ٤ ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢ ، ص ١٣-٢٢ .

(45) Halil Inalcik, "The Ottoman Economic Mind..", in *op. cit.*, p. 211.
(46) Celal-Zade Mustafa, *A. g. e.* , ss. 444-5.
(47) *Loc. cit.*
(48) David Ayalon, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom : A Challenge to the Mediaeval Society,* London, 1965, pp. 71-8.
(49) Stanford J. Shaw, *op. cit.*, vol. 1, p. 83.
(50) *Loc. cit.*
(51) W. E. D. Allen, *Problems of Turkish Power in the Sixteenth Cintury,* London, 1963, p. 26.
(52) Philip Hitti, *History of Syria Including Lebanon and Palestine,* London, 1951, p. 161.

(٥٣) من أبرز المصادر التاريخية : ابن زنبل الرمال ، فتح مصر ، القاهرة ، ١٢٧٨هـ ، وابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

(54) A. C. Hess, "The Ottoman Conquest of Egypt 1517, and the Beginning of the sixteenth Century World War" *Journal of Middle East Studies,* vol. 4, 1973, p. 210.

(٥٥) انظر مقارنا كتابات محمد عبد المنعم راقد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، القاهرة ، ١٩٧٢ . ومحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

(56) Sayyae K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 2 (= Text) , p. 5 .

(٥٧) أحمد عزت عبدالكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ،١٩٧٠ ، ص ١٠٩ .

(٥٨) انظر : عبد الكريم غرايبة ، مقدمة تاريخ العرب الحديث ، دمشق ، ١٩٦٠ . وانظر ايضا : ليلى الصباغ ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٧٣ .

(٥٩) انظر التفاصيل في ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

(٦٠) من أشهر المؤرخين العرب القدامى : ابن زنبل وابن اياس والمحبي والشيخ قطب الدين النهروالي في كتابه : الاعلام باعلام بيت الله الحرام (= اخبار مكة المشرفة) ، ج٣ ، تحقيق فيرناند ويستنفيلد ، خياط/ بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ . وانظر ايضا ما كتبه المؤرخ العراقي الشهير ياسين الخطيب العمري في حولياته : الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون ، تحقيق : سيار الجميل ، جامعة سانت اندروس/ اسكتلندا ، ١٩٨٣ ، ج٢ (صفحات عدة) (انظر أعلاه ملاحظة رقم٤٠ في حالات وملاحظات الفصل الثاني) .

(٦١) ابن زنبل الرمال ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(62) Cf. W. H. Salmon, *An Account of the Ottoman Conquest of Egypt*, London, 1939, p. 66.

(٦٢) ليلى الصباغ ، المرجع السابق ، ص ٣١ . وراجع ايضا ما كتبه المؤرخ عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨ ، ط٢ ، دمشق ، ١٩٦٨ .

(64) Cf. *EI 1*, vol. IV, p. 215.
(65) Stanford J. Show, *loc. cit.*

(٦٦) النهروالي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٧٩ .

(67) A. C. Hess, *op. cit.*, pp. 211-2.
(68) H. Jansky, "Beitrage Zur Osmanische Geschichtschreibung Uber Agypten", *Der Islam*, No. 21, 1933, p. 269.

(٦٩) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص٣٦٥ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٤٦٩ .

(71) Stanford J. Shaw, *loc. cit.*

(٧٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٧٣) سيار الجميل ، «دولة السلطنة العثمانية واشكالية الخلافة . .» مجلة دراسات عربية ، العدد (٩) ، السنة (٢٤) ، تموز/ يوليو ١٩٨٨ .

(٧٤) دانيال كريسيليوس ، جذور مصر الحديثة ، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٥٥-٥٦ .

(75) Stanford J. Shaw, *op. cit.*, vol. 1, p. 95.

(٧٦) سيار الجميل ، حصار الموصل . . . ، ص ٧٣ و ٧٤ .

(77) S.H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq* Oxford, 1925, p. 18.
(78) Von-Hammer, *op.cit.*, Band 3, p. 143.
(79) *Loc. cit.*
(80) S. H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 21-2.

وانظر : النهروالي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣١٦-٣١٧ .

(81) Von-Hammer, op. cit., Band 3, p. 154.
وانظر الخط الجغرافي الذي سلكه سليمان القانوني نحو العراق في :
D. E. Pitcher, *op. cit.*, p. 111.
(82)"Iraken Seferli 1534-5" in *Islam Ansiklopedisi,* cilt 3,1967, ss. 116-8.
(83) Robert Mantran, "Baghdad a epoque Ottoman" *Arabica,* Special vol., 1962, p. 95.
(84) S. H. Longrigg, *op. cit.*, p. 23.
(٨٥) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٣٦٨ .
(٨٦) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث . . ، ص ٨٣-٨٤ .
(87) Historical details in Salih Ozbaran, "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf 1534-1581", *Journal of Asian History,* vol. 6', No. 10, 1972, p. 116.
(٨٨) فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨ ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٥ (نقلا عن مخطوطة عبد الله بن داعر) .
(٨٩) المرجع نفسه ، ص ١٧ (نقلا عن مخطوطة عبد الصمد الموزعي) .
(90) Cf. G. W. Bury, *Arabia Infelix or the Turks in Yemen,* London, 1915, pp. 12-13.
(٩١) احمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٦٢ .
(٩٢) فاروق أباظة ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .
(٩٣) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث . . ، ص ١٠٥ .
(٩٤) احمد شرف الدين ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .
(٩٥) انظر : محمد عيسى صالحية ، «وثائق جديدة عن حملة سنان باشا الى اليمن سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٦٨-١٥٦٩م ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثامنة ، الرسالة (٤٢) ، ١٩٨٦/١٩٨٧ ، ص ١١-١٤ .
(٩٦) راجع التفاصيل في حسين بن احمد العرشي ، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وامام ، تحقيق : الأب انستاس ماري الكرملي ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٦٢-٦٣ .
(97) *Islam Ansiklopedisi*, cilt 2, ss. 311-5.
(98) Stanford J. Shaw, *op. cit.*, vol. 1, p. 96.
(٩٩) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٣٧١ .
(100) Andrew C. Hess, "The Evolution of the Ottoman Seaboune Empire in the Age of the Oceanic Discoveries 1453-1525", *American Historical Review,* 75, No. 7, Dec. 1970, pp. 1892-1919.
(١٠١) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٣٧٣ .

الفصل الرابع

تحوّلات النظام التاريخي
بــــين
العرب والعثمانيين



١ / مقاربة منهجية :

سأحاول جاهدا ان أقلّل كثيرا من استخدام المنهج الايبستمولوجي في الكشف عن الحقائق اللاواعية . وسأقتصر مختزلا على طرح توصيف نظري / تاريخاني - Historicisme - لمسائل تاريخية متعدّدة ، مستنبطا بعض الظواهر ، ومستنتجا بعض الاستنتاجات من خلال التحليل المقارن للبنى التاريخية التي تبيّنت قياسها على ضوء بعض المناهج المعاصرة ، وبعد تحقيق لبعض المعلومات الجديدة التي تكمن في ارشيفات خاصة ومخطوطات محلية والسالنامات . . . . مع استبطان للاعراف الاسرية والسلالية والعصبية المتوارثة في العديد من بيئات المجتمع العربي .

دعوني احدّد ثلاثة مفاهيم فقط في دراسة الانماط الاقليمية العربية التي أفرزها النظام الاداري / العثماني وتحوّلاته (المركزية / اللامركزية) في علاقة الاقاليم العربية بالسلطة العثمانية ، وما جرى من تطوّرات تاريخية خلال القرن الثامن عشر . وهو العصر الذي اعتبره ، ذلك الجذر التاريخي الذي امتدت عنه ، وتفرّعت منه ، مختلف التكوينات السياسية العربية المعاصرة خلال القرن العشرين ، وقبل انبثاقها الذي ترافق مع المؤثرات الكولينالية / الاوروبية ، أي : التدخلات الاستعمارية غير المتكافئة لمعظم القسمات العربية . الآن : ما هي تلك المفاهيم؟

١ - مفهوم التركيب والتفكيك : الذي وفّر استنتاجات في البحث عن طبيعة المناخ الاداري / العثماني وتحوّلاته من اللامركزية الى المركزية على عهد محمد الفاتح ١٤٥١ - ١٤٨١م ، ومع تركيز السيطرة العثمانية على الاراضي العربية تمارس الصيغ اللامركزية على يد السلطان سليم الاول ١٥١٢ - ١٥٢٠م ، ثم يتحوّل الى نظام مركزي منذ عهدسليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦م ، ويبقى هكذا ، قرابة قرنين كاملين حتى تنحسر السلطة العثمانية عن مركزيتها كي تغدو العلاقة اقليمية لا مركزية خلال القرن الثامن عشر ، وتتبلور ادارات جديدة ، او تترسّب عن القديمة أنماط اخرى . . وقد انتهى النظام العثماني مركزيا على عهد التنظيمات خلال القرن التاسع عشر ، وسيزداد مركزية شديدة على عهد الاتحاديين ١٩٠٨ - ١٩١٨م ، وقاد رد الفعل العربي الشديد الى تأسيس حزب

اللامركزية الادارية العثماني في مصر عام ١٩١٢م وتأثير اهدافه في الاوساط العربية . . ولمّا تزل الذهنية العربية غير متحرّرة منه ، نظرا لرسوخ «العثمنة» المركزية والتي غرستها العديد من القوانين والتنظيمات والاعراف والسياسات والنظم الادارية .

٢ ـ مفهوم الجيو ـ هستغرافي Geograpgical History (ـ الجغرافية التاريخية) ، وقد استطعتُ تطوير آلية في العمل التاريخي / النظري باستخدام تطبيقات المؤرخ الجغرافي دونالد بيچر D.E. Pitcher في اطروحته القيّمة [١] . . والتي اشار فيها من طرف خفي الى مصطلحي : «الدواخل» و «الاطراف» [٢] واعتقد انّني قد نجحت في ترتيب طبيعة العلاقة الجدلية / الجيوتاريخية بين عمليات وآليات هذين المصطلحين منذ بداية سنوات السيطرة العثمانية على الوطن العربي بجناحيه المشرق والمغرب لقد غدت «الدواخل» من المكتسبات العثمانية (ـ المسيطر عليها عسكريا / سلطانيا) . اما «التوابع» فهي الاطراف الجغرافية الواقعة على امتدادات عديدة في تخوم الدولة ام في مناطقها الصعبة ، وهي بعيدة عن «المركز» العثماني وعن «الاقطاب» العربية [٣] ان سقوط التوابع في اليد العثمانية القوية ، يأتي نتيجة عن قوّة المؤثّرات الجيواقليمية . لقد انتج النظام العثماني ، حالة تناقض استمرّت على مدى اربعة قرون ، بل وازدادت حالة التناقض رسوخا خلال القرن العشرين : تناقض ذلك الذي يسمّيه بليك G. Blake ودرزديل A. Drysdale في كتابهما : «الشرق الاوسط وشمال افريقيا» بـ القوى الجاذبة نحو المركز او القطب الوحدوي Centripetal والقوى الرافعة بعيدا عن المركز الوحدوي Centrifugal بين عوامل الانتاج وعوامل التجزؤ ، وكلاهما موجود في الاقطار العربية اليوم ومنذ تأسيس كياناتها السياسية / الوطنية . [٤]

٣ ـ البحث عن «الايبستيم (= Ipestem)» المعرفي / التاريخي المقارن لطبيعة حكومات (= ادارات) الاقاليم العربية خلال القرن الثامن عشر . وقد استطعت من خلاله استنباط اربعة انماط اقليمية / عربية ، تشكل بنى تاريخية متجذّرة في البيئة العربية على طرفيها المشرقي والمغربي . . وقد بدت لي تلك البنى بعد فحصها ، على شكل انساق حفرت الجذور التاريخية لتكوين العرب الحديث ، أي : مأسسة الدول العربية المعاصرة ونشوء كياناتها السياسية في خضم الهجمة الاستعمارية الاوروبية[٥] وقد

ساعدتني حقًا ، افكار الفيلسوف ميشال فوكو في «اركيولوجيا المعرفة» (٦) وطروحات جاك دريدا المنهجية في «التفكيك» الفلسفي (٧) والاستفادة من ذلك بافتراض عدة تساؤلات حول كيفية تفكيك التواريخ . . فالنتائج التي حصلت عليها بالمقارنة بين المتشابهات وبين المتغايرات ، بين السوابق واللواحق . . للاقاليم العربية التي ظهرت وتشكّلت ضمن هياكل وهيئات ادارية متنوعة (= ايالة / نيابة / ولاية / سنجق / متصرفية / قائمقامية / قضاء . . الخ) هكذا ، سنجد بأنّ دولا ستتركّب عن بعضها ، وان اخرى ستتفكك عن بعضها الآخر . . فكيف يتم تفسير ذلك ؟

٢ / طبيعة نظام الحكم العثماني

جذور ومفاهيم

بقي العرش العثماني طوال ستة قرون وربع القرن يتبوأ قمة النظام السياسي / الاجتماعي وهو يرتكز على شرعية تاريخية حافظت على نفسها من خلال الصراع الداخلي . وكانت الهيئة الحاكمة قد اكتسبت ميراثها في نظام الحكم عن الفرس من خلال السلاجقة ، وهو نظام ورثهُ الغزنويون عن العباسيين ، ورافقته تعديلات كبرى على مدى سنوات طوال ، ولكن بنية النظام العثماني قد انبثقت عنها نظم متعدّدة (٨) ، تنوّعت حسب البيئة التاريخية والانتربولوجية . . وعلى هذا الاساس ، فان نظماً ادارية مختلفة سادت العوالم الثلاثة : **الاناضول** (= اناتولي) ، **وشرقي اوروبا** (= روميليا) ، **والوطن العربي** (= آسيا وافريقيا العربيتين) ، واصطبغ كل نظام بالصبغة العسكرية .

لقد شغل السلطان العثماني قمة نظام الحكم المتألف من اجهزة عديدة مدنية وعسكرية ، باصدارهِ لجميع القوانين والنظم والاوامر ، نظرا لتمتّعه بالسلطتين التشريعية والتنفيذية . ان قوانينه كانت تأتي بعد القرآن والسنة والمذاهب الاربعة (٩) (= الحنفي بالتخصيص) ، فتغدو مراسيمه بمثابة «اعراف» مكمّلة لجميع المسائل والمشاكل الدينية والدنيوية المستمدّة من المصادر الثلاثة اعلاه . وينطلق على مجموعة المراسيم العثمانية للقانون السلطاني : «قانونامه» (= كتاب القوانين) (١٠) **الذي لا علاقة له بـ «الشريعة» واعتبرت «المركزية» في الحكم ، هي المسيطرة على شؤون الدولة سياسيا واقتصاديا بواسطة البيروقراطية العثمانية التي استفحلت كثيرا عقب التركيز العثماني على اوروبا الشرقية من طرف ، وعقب الهيمنة على المنطقة العربية من طرف آخر . .**

لاسباب دينية ، اكتسب آل عثمان ولاء الشعوب العديدة ، ولكن الدولة العثمانية لم تكتسب لها شرعية دينية رغم اكتسابها شرعيتها التاريخية (١١) .

لقد عالج المؤرخ كمال كاربات مفاهيم العديد من المؤرخين والدارسين لطبيعة نظام الحكم العثماني ، ومنهم ارنولد توينبي الذي يؤمن بأن الدولة العثمانية قد ورثت حكوماتها المركزية ثلاثة تقاليد منفصلة ، وهي : التقاليد العربية الاسلامية والرومانية المسيحية ورعاع الاستبس من الاتراك والاوراسين (١٢) . اما المؤرخ خليل اناجيك ، فيشير الى ان الامبراطورية العثمانية كانت تقوم على مبادئ ونظم ادارة الدول المتنوعة التي قامت في الشرق الاوسط منذ قرون عديدة ، وحجته في ذلك : الطبيعة الزراعية والاقتصادية المشتركة بينها كميراث لدول ومجتمعات شرقية تتصف بالزراعة والتجارة .. وسرعان ما تحررّت الدولة من رعويتها ، لتغدو سلطنة اسلامية نموذجية لها قواعدها الاساسية في التشريع والاقتصاديات والبنى الاجتماعية .. فان تلك البنى كانت تتلاقح مع مصادر الثروة بتجانس لتشكل اداة محافظة للحاكم وسلطته العليا ومؤسساته ورعاياه»(١٣) اما بيري اندر سون فيجد بأن الدولة العثمانية قد تركزت فيها جميع المورثات الاستبدادية الشرقية كدولة قامت على ظهور العبيد / المماليك (١٤) في حين يستخلص كمال كاربات نتائجه موضحاً بأن العثمانيين قد جمعوا بين المركانتاليتين الاوروبية والشرقية فتولّد نظام الحكم العثماني (١٥) فاذا كان المؤرخ احمد عبد الرحيم مصطفى يميل كثيرا للأخذ برأي اناجيك (١٦) واذا كان عالم الاجتماع خلدون النقيب يقترب من رأي كاربات (١٧) ، اذا كان المؤرخ عبد الله العروي يشابه برأيه افكار بيري اندرسون (١٨) ، فانني اشاطر ارنولد توينبي أحكامه (١٩) .

٣ / الاسس التنظيمية : المركزية واللامركزية

ان المركزية العثمانية لم تكن طاغية في كل مجالات الحياة العثمانية ، فثمّة استقلاليات او اتّصالات لا مركزية ، تطلعنا عليها ملامح عديدة في اكثر من مكان ، وفي اكثر من بيئة ، بما في ذلك بعض الطوائف والملل والحرفيين وبعض المؤسسات والاجهزة والهيئات .. كانت تشكل جميعها بنى تحتيّة تتعاون فيما بينها لتوفّر حاجاتها اولا ، وتعطي للدوائر الاجتماعية والسلطات الحاكمة نوعا من الانسجام . بل ولتضفي بعض

المصالح لتنظيمات الدولة والمجتمع معا . ثمّة حفريات عديدة في التاريخية العثمانية ، تؤكد وجود جذور لنظام «اللامركزية» مغروسة في عروق نظام الحكم منذ عهود السلاطين الاوائل الذين كانوا يتجهون الى ترك العديد من الشؤون الاقليمية والمحلياتية سواء كانت ادارية ام أمنية ام اقتصادية . . وفي ايدي الحكام المحليين او الاقليميين ، او نوابهم في بعض القسمات ، والمدن والقصبات . وقد تمتع اولئك الحكام بصلاحيات اقليمية ومحلية وأمنية واقتصادية واسعة النطاق [٢٠] وكان هذا النسق اللامركزي هو المسؤول المباشر عن استقرار النظام الاجتماعي وحياة البني الاجتماعية في حلقاتها واساليبها المتنوعة وبشكل يثير الدهشة ، بحيث فرضت طبيعة الحياة اللامركزية الادارية في الدولة العثمانية نوعا من الاستقرار الامني ، وكانت الجرائم قليلة في الامبراطورية شاسعة الاطراف طوال تاريخها الداخلي [٢١] .

اضافة الى ذلك ، فإن العديد من السلاطين الاوائل ، كثيرا ما مارسوا اعمالا ادارية بحكم ولايتهم للعهد ، واثبتوا انّهم امتلكوا قدرات جديرة بالتقدير في حكم الولايات عند مقتبل اعمارهم [٢٢] . وقد اكسبهم هذا التوظّف خبرات بيروقراطية وامنية وعسكرية ، اضافة الى فهم طبيعة القيادة الحربية للجيوش ، والانصات الى مداولات الديوان من وراء الاستار . وكان «الديوان الهمايوني» [٢٣] هو بمثابة مرجعية الدولة في هيمنته السلطوية على جميع مكاتبها التي تشكل جميعها الادارة المركزية للامبراطورية . . وقد بقي «الديوان» مرجعية مؤثّرة وعلى قمّة هرم الدولة منذ نشأته حتى القرن السابع عشر .

من جانب آخر ، فقد تبلور نظام يقوم على تركيز السلطة الاقتصادية بيد الدولة التي اطبقت على كافة الموارد الاقتصادية ، مستندة على اجهزة بيروقراطية ذات قوة مركزية وتفاعل قوى بين المركز والاقاليم التي غدت ذات ولاء مطلق له ، وللسلطان على الخصوص [٢٤] . وبقي تأثير ذلك واسعاً ونافذا حتّى عندما ظهرت تحوّلات وتقلبات في طبيعة العلاقة بين الطرفين مما ادام عمر الدولة طويلا . . . وخصوصا عندما تبلورت صيغ اللامركزية ، بالاعتماد على الجماعات والنخب والاحزاب والاثنيات والاسر . . . الخ وقد ساعد في ذلك على امتداد قرون عديدة : الانكشارية المركزية كتنظيم استخدام اداة للمركزية في فرض السلطوية السياسية على الولايات ، بل وساعدت تنظيمات اخرى كالمماليك (= العبيد / نظام القول) والسباهية (= الفرسان) في فرض

انظمة اقتصادية / اجتماعية كالتيمار ـ مثلا ـ . لقد ارتكزت الدولة العثمانية / المركزية على اربعة اعمدة اساسية ١) الوزراء . ٢) قضاة العسكر ، أي : قاضيا اناتولي وروميلي . ٣) الدفتردارات . ٤) النيشانجية (= سكرتيرو الدولة) . يقف الى جانبهم جميع اغوات الجيش / (اغوات الخارج (= الحكام العسكريون) ، واغوات الداخل (= موظفو البلاط والديوان) ، اضافة الى فئات العلماء (٢٥) .

٤ / التشكيل العثماني للوطن العربي في القرن ١٦ :

كان التنظيم المركزي للاقاليم العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح ، يعتمد على مناصب «البكوات» و «البيكلربيكات» في ادارة الولايات . . وهم الذين اعتبروا بمثابة رؤساء لطبقة من الاقطاعيين والشيوخ والملاكين (٢٦) وتعتبر التنظيمات القانونية التي اجراها الفاتح ، من ابرز التحولات في حياة الدولة ، واكتساب اكبر قدر من الطاقات الايديولوجية ، والمواريث البيروقراطية الاوروبية . . واذا كانت تنظيمات الفاتح تنضوي في اطار مأسسة لـ «دولة سلطانية» كبرى ، وتكريس لنظام محكم في «المركزية الادارية» . . فان الانفراج سيأتي مع سياسة سليم الاول لفتح صفحة تاريخية جديدة في اطار من العلاقات الاقليمية اللامركزية . . . فكيف جرى ذلك ؟

لقد تنوع الحكم العثماني في الاراضي العربية من صيغ لا مركزية في الادارات على عهد سليم الاول ، الذي اخضع اجزاء واسعة من الدواخل العربية على مدى سنتين فقط من عهده القصير ، أي خلال الفترة : مايس ١٥١٦ ـ اكتوبر ١٥١٧م ، والتي بدأت منها حياة السيطرة العثمانية على الوطن العربي . وكانت ايضا ، بمثابة البداية التي انبثق عنها التاريخ العربي الحديث ، بعد التخلّص من المؤسسات القروسطية ، وتشكيل تكوينات جديدة ، ستبرز واضحة للعيان فيما بعد . انني أرى من خلال التحليل المقارن للتواريخ العثمانية في البيئات الجغرافية الكبرى الثلاث للامبراطورية : ١) الاناضول ٢) شرقي اوروبا ٣) الوطن العربي ، بأن الاعتماد العثماني على ابناء البيئات الاقليمية كان عرفا سياسيا / عثمانيا ، استفادت منه الدولة كثيرا خلال حياتها الطويلة ، وقد تمتّعت به اغلب الاقاليم التي توزعتها ثلاثة انظمة ادارية متنوّعة هي الاخرى : ١) النيابات ٢) الولايات ٣) الايالات . وقد كان لكل نظام اداري توابعه ووسائله وادواته واعرافه . .

ان ذلك «الاعتماد» العثماني قد غدا عرفاً تاريخياً بعد عشرات السنين ،وبصورة

متواترة ، وعلى انساق سكولاستيكية متوارثة ، أي منذ أن بدأ التركيز العثماني على اوروبا الشرقية .. ان ابرز الامثلة والشواهد على ذلك : استخدام آل عثمان للعديد من الملوك والامراء الاوربيين نوابا لهم سواء كان ذلك في صربيا ام البلقان ام هنغاريا وغيرها ، بل واستخدموهم حتّى في حروبهم وامتداداتهم نحو فيينا قلب اوروبا النابض .. سواء في عهد القانوني (= القرن ١٦) ام عهد محمد الرابع (= القرن ١٧) (٢٧) . امـــا في الاراضي العربية ، لقد وجدنا - مثلا - سليم الاول ، ينصّب اية شخصية قيادية قويّة ولها خبرتها ومكانتها الاقليمية .. شخصيّة تقف الى جانبه في السلم والحرب ، والامثلة التاريخية عديدة ، تلك التي ابرزتها تجربة سليم الاول عند مطلع القرن السادس عشر ، وخصوصا ابان عهد سيطرته وامتداداته في الاراضي العربية .. وهذا ما فعله مع الشيخ ادريس البدليسي في كردستان ، وخاير بيك في مصر ، وفخر الدين المعني الاول في لبنان ، والشريف محمد الثاني ابن بركات شريف مكة في الحجاز ، وخير الدين بربروسا في الجزائر وغيرهم .

٥ / العثمانيون بين التركيز الاوروبي والميراث العربي الاسلامي

(تفكيك تنظيمات «قانونامه لر» العثماني : تحليل ركائز نظام الشرق)

كان العرب قد وجدوا منذ العصر العباسي الاول شراكتهم التاريخية مع جيرانهم الفرس والاتراك ، وكانت شراكة متأزمة في المنافسة والصراع والمصالح من اجل الحياة والتوسع والبقاء ، نتج عنها مشاكل تاريخية لم تزل المنطقة (الشرقين : الادنى والاوسط) تعاني منها كثيرا نتيجة ما ترسب عنها سياسيا وسوسيولوجيا وسايكلوجيا ، خصوصا في المشرق العربي «ففي الامبراطورية العباسية المنهارة ، كان الاتراك عسكريين والفرس اداريين والعرب قضاة» (٢٨) وعلماء ، أي لم يتبق للعرب غير الايديولوجيا ، اذ فقد العرب الاتصال بما يصنع التاريخ .. ولكن ؟

لقد استفاد العثمانيون الاتراك ليس من الفرس فحسب ، بل من ميراث الادارة العربية (= نظام الامصار) ، اذ تبلورت مؤثراته بشكل مكثّف ومنظم على عهد سليمان القانوني الذي استفاد كثيرا من بيروقراطيات اوروبا الشرقية ، ولكنه استطاع ابقاء نظرية العرب في مفاهيم الجغرافية الانسانية بتقسيم العالم الى : دار الاسلام ودار الحرب وما

بينهما «الثغور» ـ حسب توضيحات اندريه ميكال ـ في كتابه : «الجغرافية الانسانية عند العرب المسلمين» (٢٩) .

تأثر النظام الاداري العثماني من جانب آخر ، بالبيروقراطيات الاوروبية ، اثر التركز العثماني الطويل على اوروبا الشرقية ، فكانت التنظيمات الادارية مؤثرة وجديدة في البيئات العثمانية ، ومنها البيئة العربية ، وخصوصا على النسق الذي رسمته بنود «قانوننامه لر» التي اصدرها سليمان القانوني خلال الزمن الذي كانت اوروبا فيه قد بدأت تتخلخل ركائزها الدينية ، وتنبثق اطرها التاريخية / البيروقراطية . . وتبحث لها عن مصالح اقتصادية جديدة ، بعد ان استطاع مارتن لوثر وكالفن ان يزيحا قليلا البنى الفوقية في اكبر المجتمعات الاوروبية (٣٠) .

ان فلسفة بنود «قانوننامة لر» ، هي عبارة عن انظمة «دولة» قوية كان تركيزها الاساسي على «الادارة والنظم الادارية» (٣١) . وقد ترافق ذلك التركيز العثماني مع امتداد السيطرة الكاملة على الاراضي العربية التي كان سليم الاول قد بدأها عام ١٥١٦-١٥١٧م ، فكانت هناك فترة زمنية كافية مهدت لتشكيل التكوينات الادارية / الاقليمية التي غدت مرتبطة ارتباطا مركزيا بالسلطة العليا على عهد سليمان القانوني ومن خلال تنظيماته الشهيرة .ولكن : لماذا اكد سليمان القانوني على «الادارات الاقليمية» ؟

كان تأكيده بمثابة قيمة عثمانية مضافة في فلسفة تنظيمات الدولة ، واكمالا لمن سبقه من السلاطين في هذا المضمار ، اذ انه اهتم بالمؤسسة البيروقراطية العثمانية اهتمام السلاطين العثمانيين بالطغراء والرسائل السلطانية والفرامين والديوان البريد والحاميات وعملات الذهب والفضة ، وكانت العملة العثمانية امتدادا للعملة السلجوقية . . اضافة الى المدن والقلاع والتحصينات (٣٢) . واعتبرت استانبول ، العاصمة العثمانية ، بدون شك ، الى جانب روما ، اهم مدينتين في العالم خلال القرن السادس عشر سواء من حجم المساحة ، او كثافة السكان ، فهي «دار السلطنة» التي كانت تستقبل السفراء والولاة ، جامعة بيديها الى جانب الجيش الانكشاري :

١ - الركيزة السياسية : من خلال التركيز العثماني على على امارات وبيروقراطيات شرقي اوروبا .

٢ ـ الركيزة الادارية من خلال التركيز على الموروث العربي القديم في ادارة الامصار

لقد نجح العثمانيون عندما مزجوا تجاربهم وحصيلة خبراتهم ، كي تبرز «تنظيمات» القانوني للوجود . لقد كانت «تنظيمات» هذا السلطان جديدة ، وقد طبقّت القوانين مذ اتّخذت بغداد منطلقاً لبدء حياتها ، عندما كان القانوني يمضي فيها اطول فترة قضاها في غير عاصمته . . لقد قضى في العراق حوالي ستة اشهر ، زار خلالها مناطق عراقية عديدة ، وذلك للفترة ١٥٣٤/١٢/٣٠ ـ ١٥٣٥/٥/٣١م (٣٣) . وخلال ذلك الزمن نفسه ، كان المغربان الاوسط والادنى يغدوان منطقة اقليمية/عثمانية ، اعتمدت الدولة العثمانية : «البحر المتوسط» اساسا في الامتداد الاقليمي المغاربي ، مقارنة باعتمادها «البر الايراني» اساسا لها في الامتداد الاقليمي نحو المشرق العربي .

ان تنظيمات «نظام الشرق» التي انطلقت من بغداد بعد دخولها تحت الهيمنة العثمانية على يد سليمان القانوني (٣٤) ، كان لها اكثر من دليل تاريخي في حياة العثمانيين ، فبغداد كاعرق عاصمة لدولة الخلافة الاسلامية على مدى اكثر من خمسة قرون ، كانت تعيش منذ سقوطها على يد هولاكو عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، **انحلالا سياسيا** واقليميا / اداريا ، وما كان يتبع ذلك من اختلالات في التوابع والمؤسسات والاجهزة ووسائل العيش الاقتصادية والزراعة وادوات الانتاج وعناصر الانتاج . فكانت «تنظيمات» القانوني ، بمثابة تصحيح لاوضاع متراكمة من السلبيات والخطايا التاريخية ، للبدء **والانطلاق في حياة جديدة تختلف عن الانماط القروسطية والانساق القديمة التي الفتهما العصور الوسطى بمختلف آلياتها في السيطرة والحكم وعناصر الانتاج والعلاقات بين الدول . .**

علينا ان نعرف ايضا ، بأن الذاكرة العثمانية كانت تحتفظ بذكرى تاريخية مزدوجة بين السلب والايجاب ، ففي نفس تلك السنة التي ولد فيها عثمان «مؤسس الدولة العثمانية» عام ١٢٥٨م ، تكون بغداد قد سقطت بيد هولاكو ، فكان ابرز حدث سلبي خلق ذعرا رهيبا ليس في الذاكرة العثمانية لوحدها ، بل في الذاكرة العربية والاسلامية عموما . . معنى ذلك : **انه في الوقت الذي انتهت خلاله مرحلة عظمى من التاريخ الاسلامي ، بدأت مباشرة منه ، مرحلة تاريخية جديدة اخرى !**

اما من الناحية الاخرى ، فان اسم سليمان سيقترن بمصطلح «القانوني» ، وهو اقتران

دلالي وضمني صريح ، استخدم بسبب عظمة تنظيماته الادارية التي غيّرت استراتيجيا في الحياة الاقليمية والبيروقراطية في دولته التي اوصلها الى مرحلة «الامبراطورية» . لقد كرّست تنظيماته الادارية نظام المركزية في العلاقة بين السلطة العليا والاقاليم ، والذي دام طويلا ، أي على مدى قرنين كاملين من تاريخ امبراطوريته (٣٥) ، ان مصطلح «القانوني» هو عربي الدلالة والمضمون ، وقد استخدمته الادبيات العربية والتركية معاً حتى اليوم ، في حين استخدمت الادبيات الاوروبية مصطلح «الزاهي» The Magnificent ، كدلالة تاريخية / رمزية تشير الى ما امتاز بـ ، عهده بـ «العظمة والزهو» ، وسياسته التي اختلف بها عن اسلافه ، اذ كانت سياسة متسامحة الى حد كبير (٣٦) .

لقد استطاع سليمان القانوني ان يركز عمليات «العثمنة» بنظام «النيابات» الذي استخدم بشكل مكثّف في شرقي اوروبا ، في حين ركز عمليات «العثمنة» بنظام «الولايات» في المنطقة العربية اضافة الى الاناضول . . وجرت عمليات «العثمنة» بواسطة البدء بآليات ووسائط التقسيمات التي دام استخدامها طويلا ، وهي : (التيمارات والزعامات والخواص) (٣٧) ، فورثت جملة من التراكيب والمنتجات والهياكل والانماط والاعراف العديدة في المجتمع . . كما افرزت تلك الاليات ومنتجاتها ، جملة من السلبيات والاخطاء والمآسي نظرا لسوء استخداماتها من قبل موظفي الدولة اغواتها سواء كان ذلك في الجيش ام الادارة على امتداد قرون عديدة . لقد نجح نظام «الالتزام» في تطبيقاته الاولى ابان عهد القانوني نفسه ، ولكنه ظهر سيئا في تطبيقاته المتوالية ، وخلق فراغا تاريخيا كبيرا في اقتصاديات العرب بوجه خاص في عزل الموارد عن بيئتها ، واضعاف عناصر الانتاج ، وابعاد التفاعل الاقتصادي بين الاقاليم العربية من طرف ، وبينها اوروبا من طرف آخر (٣٨) .

لقد كرّس القانوني اهتماماته لتوطيد «المركزية» العثمانية ، وهيبة «السلطنة» بعد وفاة المتوكّل العبّاسي ، آخر خليفة عربي كان يعيش في ظل المماليك ، والذي كان قد قضى سليم الاول عليه عام ١٥١٧م ابّان سيطرته على مصر ، ونفيه الى قلعة «يدى قله» بالقرب من استانبول(٣٩) . ان اسقاط الخلافة العبّاسية «الرسمية» على يد العثمانيين ، معناه : ايجاد بدائل سياسية وادارية واقتصادية متنوّعة لملىء الفراغ التاريخي الكبير الذي

احدثه العثمانيون في العالم الاسلامي ، وتفكيره الملتصق بشعار «الخلافة» ومدلولاته الدينية / الفقهية / الشرعية (= الروحي) دون مضامينه المفتقدة على ايدي الدويلات السلطانية والمملوكية ، التركية والفارسية الاخرى (= الزمني) ، والتي لم تجازف يوما حتّى بعد افراغ بنية «الخلافة» من محتواها الروحي ، بالغائها (= الروحي + الزمني) كرمز تاريخي ديني / اسلامي ، بقي هو الوحيد الذي يرفعه العرب الذين انشغلوا بانقساماتهم البيئوية والسياسية والايديولوجية / المذهبية في كلّ من المشرق والمغرب العربيين (٤٠) .

بعد اصدارات القانوني لـ «قانوننامه لر» ، بدأت الدولة ، تنفذ سياسة مركزية قوية تجاه الاقاليم كافة (٤١) ، وخصوصا بعد دخول القانوني بغداد وهيمنة قواته عليها عام ١٥٣٤م ، وقضائه ستة اشهر في ربوعها . ومن الجدير بالملاحظة ، ان وصول القانوني العراق ودخوله بغداد ، قد جرى بعد وفاة المتوكل آخر خليفة عباسي في التاريخ كان يعيش في القاهرة ، فتكون الدولة العثمانية قد وصلت اوج عظمتها . ومن غريب الصدف ، ان تطورها التاريخي قد حصل على مدى قرنين ونصف القرن من الزمن ١٢٨١ - ١٥٣٤م ، وكما عرفنا مما سبق ، ان ولادة مؤسسّها عثمان بن ارطغرل كانت في سنة ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ أي في نفس السنة التي تحطّمت فيها بغداد على يد التتار ، فربما يفيدنا التأمل قليلا في القيمة التاريخية لهذا التواصل ، خصوصا عندما نعلم بأن تطور الدولة العثمانية قد جرى متناسقا مع بقاء خلفاء بني العبّاس في ظل مماليك القاهرة .

ان حركة تنظيمات سليمان القانوني الادارية قد اعتبرت بمثابة «انقلاب جذري في تطبيع العلاقات بين السلطة المركزية والاقاليم كافة» (٤٢) ، بالرغم من ملاحظتنا ، وجود وتمتّع بعض الاقاليم الهنغارية بنوع من الحكم الذاتي ، ألا ان نظام المركزية العثماني كان قد وصل الى ابلغ درجاته خلال عهد القانوني وعهد ولده سليم الثاني ١٥٦٦ - ١٥٧٤م . وتستمر المركزية العثمانية كنزعة قوية تحكم علاقة السلطة باقاليم الدولة حتّى مطلع القرن الثامن عشر ، إي حتّى بروز النزعة اللامركزية وتطوّرها - كما سنعالج ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس - لقد تمّ التأكيد على مدى القرنين ١٦/١٧ على تطبيق تنظيمات السلطان القانوني التي تمحورت اساسا حول «الاقطاعات العسكرية » المرتبطة بالادارات في كافة الاقاليم .

اما مرحلة القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، فقد كانت مرحلة تاريخية جديدة عمرها اكثر من قرن بقليل ، تمتّعت الاقاليم العثمانية خلالها بالنظم اللامركزية في الادارة ، بعد تفكيك بنية القرن الثامن عشر التاريخية ، بأن التراكيب الاقليمية تجد اسبقياتها التنظيمية ومسبباتها الفنية والموضوعية في القرن السابع عشر ، (٤٣) وقد وجدنا بأن الانفراج العثماني اللامركزي قد بدا واضحاً بعد انهيار العثمانيين امام جيوش التحالف الاوروبية ، اثر الحصار العثماني لـ فيينا عاصمة الهابسبورك النمساويةعام ١٦٨٣م بقيادة الوزير الاعظم قره مصطفى باشا الذي خسر الحرب ، ففقدت الدولة العثمانية دفاعاتها الاستراتيجية(٤٤) . . وكان لتفاقم المشاكل العثمانية بعد ذلك والتي تزايدت في البلاط ، وفي العديد من المؤسسات (العسكرية بشكل خاص) (٤٥) ، آثارها البالغة **واسبابها الاكيدة التي قادت الى انحسار السلطة المركزية عن الاقاليم مباشرة ، كي تظهر قوى محلية واقليمية لها تأثيراتها الواضحة في كيان الدولة ،** بل وفي الحفاظ على المصالح الدولية والاقتصادية على امتداد القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، أي حتّى بروز «التنظيمات» خلال عصر الاصلاحيات العثمانية .

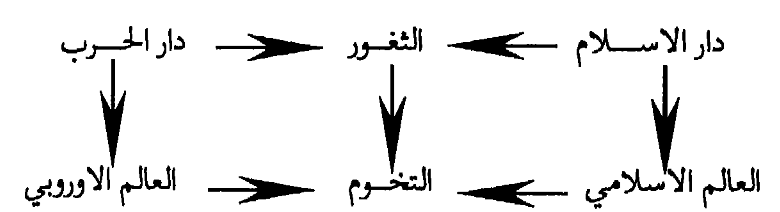
لقد عادت خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، تلك الانساق الادارية المركزية في طبيعة الحكم المباشر والقوى لمختلف واغلب الاقاليم والولايات العثمانية .. **وقد استمرّت تطبيقات المركزية العثمانية حتى الانهيار الاخير للدولة وسقوطها النهائي** ، علما بأن ايّة تنظيمات قانونية كبرى وشاملة لم تحدث منذ عهد سليمان القانوني وعلى امتداد القرنين ١٨/١٧ حتّى بداية عصر الاصلاحية العثمانية الذي بدأه السلطان سليم الثالث ١٧٨٩ - ١٨٠٧م والذي لم تتواصل تجربته التحديثية الممتازة ، في حين تواصلت التجربة الاصلاحية للسلطان محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩م وقضائه على المؤسسة الانكشارية القديمة واعرافها الجامدة ، ثم صدور «التنظيمات» على عهد السلطان عبد المجيد الاول ١٨٣٩ - ١٨٦١م ، واستمرار فاعليتها في الممارسة والتطبيق خلال عهدي السلطان عبد العزيز الاول ١٨٦١ - ١٨٧٦م ، والسلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩م (٤٦) .

ساءت استخدامات التنظيمات الادارية / المركزية كثيرا على ايدي الاتحاديين للفترة ١٩٠٨ - ١٩١٨م ، والذين اتبعوا سياسة اقليمية سيئة للغاية قوامها ايديولوجية عنصرية

صارخة متمثلة بـ «التتريك» ، وقد نالت الولايات العربية اقسى النتائج من جرّاء ممارسة الاتحاديين لتلك « السياسة » المؤدلجة العنيفة . . وقد كانت هناك المزيد من الاماني العربية قبيل ١٩٠٨ . تطمح الى عودة حكم اللامركزية ، وبناء علاقات اقليمية/ وادارية غير مباشرة مع استمرار حكم الدولة العثمانية ، بل وقد ظهر حزب عربي بمصر نادى بهذه الفكرة بعد مجيء حكم الاتحاديين ، وهو حزب اللامركزية الاداري العثماني عام ١٩١٢م ، مع تعاطف فئات عريضة من المثقفين العرب لفكرة «اللامركزية» وايمانهم بدورها الفعال والمتواصل في العلاقة العثمانية / العربية [٤٧] . . ولم تنفع ولن تجدي تلك التطلعات شيئا امام السياسة العنيفة التي اتبعتها الدولة العثمانية في ايامها الاخيرة فقاد ذلك الى العمل لتحقيق الاماني القومية ، وقد حسمت الحرب العظمى الاولى كل شيء . . مع مداخلاتها واحداثها التي حددت مصير العرب في القرن العشرين !

٦ / العثمانيون والنظرية الجغرافية / الانسانية العربية

لقد اعتمدت تنظيمات «قانوننامه لر» [٤٨] على سياقات المنشأ الداخلي للارث العربي ، المنبثق مع ريادة المؤسسات الاسلامية ذات التشكيلات الاولى وخصوصا خلال العهد العبّاسي الأول ، أي انها استلهمت بنودها المرجعية من ذلك الارث الجيوغرافي العربي المنطلق اساسا على قاعدة قسمة العالم الكوني الى دارين (= ثنائية الوجود) وما بينهما (= الفاصل) فهناك : دار الاسلام ودار الحرب وبينهما الثغور :



فالعالم الاسلامي هو دار الاسلام ، اما اوروبا المسيحية فهي دار الحرب ، وتبقى الثغور هي مناطق عازلة بين الدارين . وقد وجدت الدولة العثمانية نفسها منذ البداية كامارة ناشئة في التخوم (= منطقة حدودية عازلة) بين السلاجقة وبيزنطة [٤٩] ، فاستطاعت مقابلة التحديّات التاريخية والماركنتالية ، فانطوت منذ ولادتها البكر ، ليس على ذاتها كي تذوى وتموت في خضم وجود عشرات الامارات الاخرى ، بل لتنمو في رحمها ديناميكية قابلة لأن تفرض مع الوقت ، احتكاراً شديدا جدّا لمأثورات داري الاسلام والحرب

... هكذا معاً ، وبسبب مجابهتها التنافسية الدائمة بين وحداتها الاقليمية التي توالدت اثر تركيزها التاريخي / الشرقي على اوروبا ، وكأول دولة «اسلامية» تخترق الحواجز الاوروبية براً في عالم «دار الحرب» (٥٠) . . وقد وصلت في عهدي سليمان القانوني وولده سليم الثاني ، مرحلة التوسّع الجغرافي الاكبر على الصعيد التاريخي ، ورهبة مركزيتها السلطوية العليا على اقاليمها العديدة والمتنوعة ، وفي وحدة اقليمية / امبراطورية ذات حدود ممكنة الحماية ، كان لها القدرة على الاختراق والامتداد من طرف ، وعلى عقد الاتفاقيات والمعاهدات من طرف آخر .

نجح سليمان القانوني في خلق نظام امبراطوري / سياسي مؤسس وممركز جدّاً ، كانت له القدرة لأن يمضي قدما في مأسسة السلطة المركزية التي احتكرتها استانبول قرونا طويلة (٥١) . وقد حدّد بيري اندرسون فرضيات اخرى تختلف عمّا طرحته اعلاه ، سواء بشأن الماضي الاقطاعي او شأن التشكيلات البنيوية التي انبثقت عنه . (٥٢) أن الفرضية التاريخية التي طرحتها اعلاه في التكوين المركزي ـ العثماني ، قد اعتمدت صيغ المزاوجة بين العالمين : الاسلامي والاوروبي ، وهي «النتائج» التي خرج بها الاتراك وحدهم في الامتداد والاتساع والتكوين العثماني بعد قرون طويلة من المكابدات التاريخية والجهودات الحربية العربية والتركية / التركمانية الممتدة في عمق التاريخ العربي / الاسلامي حتّى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وتنفيذات معاوية ومن تبعهما من الخلفاء الامويين والعباسيين الذين تركوا ميراثا تاريخيا خصبا من التشكيلات في العلاقات السياسية والاقليمية / الادارية والتي ورثها سلاطين آل عثمان بجملة اسبقياتها وفلسفاتها ومضامينها ومشاكلها ، فاختلفوا عن العرب في التطبيقات والممارسات . وقد قادهم ذلك بعد فهم الميراث التاريخي كي يعملوا باسم الدين / الشرع ، فيضغطوا باتجاه الصراع مع البنى والمؤسسات والقوى والدول الاوروبية / المسيحية القديمة ، وتوجّت جهودهم بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد محمد الفاتح بعد خمسين سنة بالضبط من الكبوة العثمانية امام تيمور لنك في معركة انقرة الشهيرة عام ١٤٠٢م ممثلة بالهزيمة المريرة للسلطان بايزيد الاول ١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م ، والتجربة المرّة التي اعقبتها ابّان فترة الدرقة كما يسميها المؤرخ توينبي ـ Toynbee ـ (٥٣) ، عاشت الدولة العثمانية حالة فراغ تاريخي وصراع داخلي كتحدّ للنهوض الامبراطوري من جديد .

ان النظرية الجغرافية العربية في تقسيم العالم ، هي نظرية انسانية من الوجهة العلمية المقارنة الصرفة (٥٤) ، والتي اعتمدها العثمانيون كثيرا في مبدأ «الجهاد» وذلك عبر ممارسات فعالة اختلفت كثيرا عن الممارسات العربية في البر والبحر (٥٥) . وقد ساعدتهم لكي يعلنوا عن انجازات واسعة النطاق في الامتداد والتوسّع والسيطرة ليس عل حساب التركيز الشرق / اوروبي فحسب ، بل في السيطرة الواسعة على التراب العربي خلال النصف الاوّل من القرن السادس عشر برّا وبحرا .

وعله ، فان استفادة الدولة العثمانية من الميراث العربي السخي في الحرب والادارة ، قد خدمهم جنبا الى جنب مع تمركزهم على الجانب الاوروبي ، رغم انّهم لم يطبقوا الموروث العربي الخالص كما اقرّه الاسلام اولا والتاريخ العربي ثانيا . . **فالتأثّر بالنماذج الاوروبية قادهم الى توجّهات جديدة في المركزوي ـ الاثنية ، وتكريسات للانماط البيروقراطية والاقطاعية متعدّدة الانتماءات . . وقد خلقت صيغ المزاوجة كفالة تاريخية / ضمنية بخلق انظمة عثمانية متعدّدة ومتنوعة نتيجة التأثر بالبيئات الجغرافية** المتباينة التي ادخلتها في محيطها الواسع . . وقد مورست تلك «الانظمة» في اقاليم السلطنة كافة ، القاصية والدانية ، العربية والاناضولية والشرقي/ اوروبية ، كان احداها نظام «قانونامه لر» الذي ابرزه سليمان القانوني ، وافرزته تجارب اضداد الثنائية التاريخية (= الدارين) في التكوين الاداري العثماني المركزي ، أي : **نظام العلاقات السلطوية ـ الاقليمية العثماني** (٥٦) . ولكن ؟

اذا ما قارنا بين اقاليم شرق اوروبا والاقاليم العربية ابّان عهود السلطوية العثمانية ، سنجد ثمّة اختلافات واسعة في التطبيقات والممارسات الادارية والبيروقراطية . . ويعود السبب الى طبيعة الانتماء ، والتوزيع الديمغرافي ، والاختلافات العقائدية والاجتماعية ، وتباين المصالح الاقتصادية حتى في تشكيلات البنية الاقليمية الواحدة وانماطها المتنوعة في اللغة والثقافة واساليب العيش . . الخ وعلى هذا الاساس ، فقد برزت اساليب متعددة ، ونظم متنوّعة في التطبيق على طرفي جناحي السلطة ، فيما يخص : الانكشارية / الاعيان / شيخ الاسلام / الاقطاع / السباهية / الالتزام / رياس البحر / الشرافة المقدسة / ركبان الحج / الامتيازات / الحريم / الاقطاع العسكري / طبقة العلماء / القضاة / السفارات الاجنبية / نظام الوقفيات . . . الخ

٧ / اختلالات النظام العثماني :

انحسار المركزية واسباب التحوّلات (= جذور الاقلمة العثمانية) .

لقد وجدنا مّما سبق ، ان نماذج عديدة من التشكيلات اللامركزية العثمانية قد ظهرت على امتداد التاريخ العثماني ، وبمباركة سلطانية عليا . كما وجدنا بأن سليم الأول الذي يرتبط اسمه بالسيطرة العثمانية على الوطن العربي بين مايس ١٥١٦ - اكتوبر ١٥١٧م ، قد منح بيئات عربية عديدة شخصيتها الاقليمية باعتمادة على اللامركزية الادارية . وقد اختلفت الاوضاع على عهد سليمان القانوني اثر تطبيقه تنظيمات «قانونامه لر» التي استمرّت مجسّدة للمركزية البيروقراطية منذ صدورها على اسس جديدة للاقطاعية العسكرية (٥٧) ، وتسوية المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتي ارتبطت عناوينها بالمستشار الشهير ابو السعود افندي ١٤٩٠ - ١٥٧٥م ، والذي انبثت اراؤه في البنود القانونية سواء ما يخصّ الضبط الاداري والامور المالية والعسكرية ، اضافة الى النظام الاقتصادي للدولة . . ويعتبر ابو السعود افندي واحدا من ابرز القانونيين والمصلحين والمنظمين لمشاكل الدولة العثمانية وقضاياها الاستراتيجية خلال القرن السادس عشر ، كان الساعد القوى لسليمان القانوني ، وكانت جهوده واضحة وراء كل الانجازات التي شهدها عهد القانوني وعهد ولده سليم الثاني (٥٨) .

(٥٩)

استمرّت الفعاليات النشيطة للـ «قانوننامه لر» خلال القرن السادس عشر ، ثم ضعف تطبيق العديد من بنودها ، وخصوصا بعد وفاة ابو السعود افندي ، واهتزاز ضبط القوانين في الدولة ، عاصمة ولواحقاً . اي : حدوث خلل في عملية التشريعات مما اثّر على طبيعة عمل الشؤون الادارية . . يقول المؤرخ ريب ما نصه :

"It could certainly be argued that the effeorts of such as Edussu'ud Efendi to achieve a workable compomise between the spirit of the Seriat and the exigencies of the practical administration of the empire worked to the advantage of the state ...... It cannot be maintained that no mufti after Ebussu'ud Efendi showed the independence of Ali Cemali, nor can it be argued that no mufti before Ebussu'ud Efendi showed the willingness to compromise which is implicit in Mank Ali's criticism. None the less, it may be suggested that the change in the nature of the Muftilik which is seen to have taken place by the end of Ebussu'ud Efendi's tenure of the

office created the conditions whereby the fault of which he stands accused was Likely to become the norm" (٥٩)

هكذا نعلم بأن طبيعة الامور بدأت تتغير في الربع الاخير من القرن السادس عشر، وخصوصا عندما بدأ «علماء» الدولة العثمانية يرفضون العمل في «التشريعات» واستنباط القوانين بهدف تجديد الواقع واصلاح الامور، بل انغمروا ضمن اطر الافتاء التقليدي، وممارسة القضاء الرسمي، والتدريسات الدينية سواء كان ذلك في مركز عاصمة الدولة ام في مركز الولايات المتعددة.

لقد بقيت تنظيمات سليمان القانوني سارية المفعول طويلا، وورست ـ كما ذكرنا ـ في عهود عدّة سلاطين، حتى عصر «التنظيمات» في القرن التاسع عشر(٦٠)، أي بمعنى: **ان الدولة العثمانية لم تجدّد نفسها طوال تاريخ يمتدّ نحو الادنى، في حين كان تاريخ اوروبا يمتد نحو الاعلى. وكان حرّى بالعثمانيين تجديد تاريخهم، وتحديث جميع البنى والمؤسسات مع نهاية القرن السادس عشر، وذلك من اجل فضّ العلاقة مع بنيويات قروسطية قديمة.** فكان من الطبيعي جدًا ان تصاب جميع المرافق والابنية والاقنية المركزية والاقليمية بالخلل الاداري والضعف السياسي، والتي اثّرت بعد سريانها في العلاقات الاقتصادية / الاجتماعية.

ان ضعف المركزية الادارية، وخصوصا ـ أعني ـ في الولايات العربية مشرقا ومغربا، قاد الى اختلالات فاضحة في الاجهزة والاساليب(٦١)، سواء ما يخصّ نظام الاعيان ونظام الالتزام، او ما يخص سلطويات البلاط (= الباب العالي) ـ كما اسمي فيما بعد ـ. ففي حين اخذت معظم الولايات العربية تشكو الكوارث والمحن الاقتصادية الرهيبة، بدأت استانبول تشكو كثرة الحرائق والانتفاضات المريرة(٦٢) وقاد هذا كلّه الى انقسامات في السلطة العليا، وخصوصا بعد عهد وزارة اسرة آل كوبرلو ١٦٥٦ ـ ١٦٨٣م(٦٣)، ناهيك عن توقيع الدولة جملة من المعاهدات المذلة مع الخصوم التقليديين وخصوصا روسيا (٦٤).. كما قادت السياسات التقليدية الى امراض فكرية واجتماعية، اذ اطبق على طبقة العلماء غطاء سكوني، وافتقد الوعي الاسلامي من خلال الانغمار المطلق في «الطرقية» (= الصوفية العثمانية) (٦٥).

ثمّة انعكاس ثنائي مؤثّر بين ما كان يحدث في سياسة الدولة على الاوضاع العامة في ولاياتها ، وخصوصا في الاقاليم العربية عندما انحسرت عنها المركزية العثمانية . . اثر انهيار العديد من النظم والاعراف والسلطات والقوانين العثمانية خلال القرن السابع عشر ، فاختل التوازن الذي كانت تحكمه قوانين سليمان القانوني بين السلطة المركزية ممثّلة بالادارات والوزراء والباشوات من ناحية ، وبالحاميات العسكرية العثمانية والاوجاقات والزعامات والعصبيات المحليّة من ناحية اخرى . . وقد غلبت هذه الاخيرة على الادارات المركزية ، لكي تسيطر على الاوضاع باسم «الباب العالي» الذي اعتراه الخوف والتردد من جرّاء ذلك الاضطراب الداخلي في البنية العثمانية ، وغلبة الضعف على مؤسسة الافتاء والتشريع الديني الذي يمثله «شيخ الاسلام» في الدولة ، حتّى بدأ يتحكم في تنصيب وعزل السلاطين . . هكذا ، غدا «الباب العالي» مضطربا في سياسته الداخلية بين انتهاج مركزيته الضعيفة في تغيير الباشوات والقضاء على الاضطرابات والتمردات والثورات كتلك التي احدثها «الجلاليون» في ولايات الاناضول ، وبين تثبيت الباشوات والاسر والعصبيات والزعامات في الولايات العربية . . والذين حافظوا على كيان الدولة ونظامها السياسي ، ومصالحها الاقليمية ، واقتصادياتها المتنوّعة ، وسياساتها الاستبدادية / الشرقية ، واوضاعها الاجتماعية العامة . . فكانت بحق : جذوراً عثمانية للاقلمة والتحوّلات المضطربة .

٨ / العثمانيون وبقايا النظام التاريخي / العربي الوسيط

لقد رحب العرب بالعثمانيين ـ باعتراف معظم المؤرخين العرب ، منهم : ابن اياس وابن زنبل والحبي والنهروالي والمرادي والعمري [٦٦] . . وغيرهم ـ واطلقوا على السلطان سليم الاول لقب «حامي الحرمين الشريفين» وقد سجّلوا ذلك عمّا جرى في الخطبة ولدى الرأي العام ، وهو السلطان العثماني الذي اغتال رمز نظام الخلافة ، احد اسمى مبادئ السيادة الروحيّة عند العرب والمسلمين على مدى تسعة قرون . وكانت الخلافة قد **افتقدت مضامينها السلطوية قبل ذلك بثلاثة قرون على يد السلطان التركي في دولة بني العباس** . . فليس بغريب على العرب اذاً ، ان يجدوا انفسهم وجها لوجه امام الجند الانكشاري ، اذ كانوا قد اعتادوا وراثة وتقليداً ، على الوجه التركي والمملوكي قبل العثمانيين بقرون طويلة . . (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٦) .

ماذا نستنتج اذا ؟

١ ـ ان البداية الحقيقية للتاريخ الحديث للوطن العربي قد تبلورت مع تاريخ الارتباط بالمركزية ـ العثمانية ، وليس من خلال الارتباط بتاريخ اوربا الحديث الذي بدأ مع فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

٢ ـ صحيح ان المركزية العثمانية قد جاءت تطبيقا لبنود «قانوننامه لر» في ولايات الدولة ، ومنها الاقاليم العربية . وانها قد «نظمت اقاليم الشرق» على نحو جيو تاريخي عثماني ، الا انها قد اضرّت بالمصالح العربية على المدى البعيد من النواحي السياسية والاقتصادية ، نتيجة للممارسات الادارية والاقطاعية والاقتصادية الصعبة .

٣ ـ لقد تأثر النظام الاداري العثماني بالبيروقراطيات الاوربية والاوضاع الماركنتالية القديمة ، اثر التركز العثماني طويل المدى على اوروبا الشرقية . فكانت التنظيمات الادارية / المركزية العثمانية مؤثرة في البيئة العربية التي لم تألفها عبر تاريخها الاسلامي الطويل ، وخصوصا تطبيقات ذلك النسق العثماني الذي رسمتهُ بنود «قانوننامه لر» والذي استمر طوال ثلاثة قرون من التاريخ الحديث ، وهي «حقبة مجتمعات الازمنة الحديثة التي بدأت البحث عن اشكال التنظيمات السياسية الخاصة والمتكللة بعصر التنوير الاوروبي» (٦٧) في حين عجّت المجتمعات العثمانية ، واقصد «الاقاليم العربية» ، بالكوارث والمصاعب والمحن الاجتماعية / الاقتصادية ، والانحسار والسكونية السياسية . . .

٤ ـ لقد رسمت التنظيمات المركزية / العثمانية ، خارطة البيئة العربية على نحو جديد ، لم تألفه في القرون السابقة ، وخصوصاً في الدواخل المنحصرة بـ : العراق / سوريا / الحجاز / مصر / طرابلس الغرب / تونس / الجزائر (وما تبقى من البيئة العربية فهو اطراف) ، والتي عاشت هيمنة عثمانية ، في حين عاش كلّ من لبنان واليمن وشهرزور اضافة الى اللواحق بالاقاليم المهمة (اي : لواحق الدواخل) تخلخلا عثمانيا . وبقيت الاطراف البعيدة مستقلة استقلالا كاملا عن العثمانيين كسلطنتي المغرب ومسقط / وزنجبار ، اذ انحسرت بهما وببعض الاطراف الاخرى كحضرموت والصحراء الكبرى والسودان . . بقايا النظام العربي والقبلي القديم . اما البنية الشريفية بمكة ، فقد اعلنت عن ولائها وتحالفها مع العثمانيين دون استقلالها ، فكانت اشبه

بنيابة عثمانية كتلك «النيابات» العثمانية في شرقي اوروبا (٦٨) .

ودائما ما كان يمرّ التقسيم طردياً ، اذ تقوى الهيمنة العثمانية في الدواخل العربية ، ثم تضعف شيئا فشيئا . وهذه ظاهرة قديمة في التمفصل الاقليمي / العربي ، تعود في جذورها الى العصور الوسطى والكلاسيكية .

تتميز الدواخل العربية بتضاريسها الجغرافية / السهلية الصالحة للزراعة ، ووفرة مياهها ، وكثافة سكانها ، وانتشار مدنها وقصبات المدن ، والمسالك التجارية التي ترتبط واحدتها بالاخرى عبر المدن العربية ، ناهيك عن رصيدها الحضاري / الاقتصادي في ابرز حواضرها التاريخية التي كانت مراكز اقليمية قديمة ، او اسواق تجارية ضخمة ، او موانئ استراتيجية تربط الشرق بالغرب ، او الشمال بالجنوب . وقد ارتبطت الاطراف بها ارتباطا مصيريا من اجل الحياة . . لذا كرّست السيادة العثمانية نفسها على الدواخل العربية التي ذكرناها آنفا (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٣ ، شكل رقم ٢) .

اما الاطراف ، فتشكلّها جيوتاريخيا : نجد والجزيرة الفراتية والربع الخالي والدهناء والهفوف والصحراء الكبرى وموريتانيا والسودان الجنوبي واريتريا والصومال والمشيخات الخليجية وحضرموت وعمان وعسير والجزر العربية والصحراء المغربية . . .

ان كلا من الدواخل والاطراف العربية محاطة باحزمة جبلية وبحرية تفصلها عن العوالم الاخرى ، فسلاسل جبال طوروس وانتي طوروس وزاكروس تفصل الوطن العربي عن كل من الاناضول وايران . . اما البحر المتوسط والمحيط الهندي والبحار العربية ، فانها تفصل الوطن العربي عن الهند وسيلان واوروبا وايران والباكستان . . في حين تفصل الصحارى الكبرى / الافريقية الوطن العربي عن افريقيا الاستوائية .

السؤال الآن : هل من تحليل تاريخي يفصح عن ما هيّة بقايا النظام العربي القديم في البيئة العربية ؟ وما هي مؤثراته في بنية تاريخ العرب الحديث ؟

لقد ترسبت في البيئة العربية خلال القرون الخمسة المتأخرة ، بقايا النظام العربي / التاريخي ، والذي تبرزه نماذج مختلفة من الكيانات : «سلطنة» ام «شرافة» ام «امامة» . . . أم «مشيخية» على الاطراف العربية . ويمكننا ان نبرز خمسة نماذج اساسية ، هي :

١ ـ اشراف مكة في الحجاز (بنية شرافية / سلالية تحالفت مع العثمانيين) .

٢ ـ البو سعيد في مسقط وزنجبار (بنية امامية / اقليمية تهادنت مع العثمانيين) .
٣ ـ العلويون في المغرب الاقصى (بنية سلطانية / عربية مستقلة عن العثمانيين) .
٤ ـ الائمة الزيديون في اليمن (بنية امامية / مذهبية متصارعة مع العثمانيين) .
٥ ـ المشيخات العربية في الخليج (بنية مشيخية / عربية خاضعة للعثمانيين) .

اضافة الى نماذج عديدة اخرى صغيرة ومنتشرة على الاطراف العربية ، وفي بيئات مختلفة ، عاشت حياتها ضمن اطارات من السنن السلطوية المنعزلة او المستقلة او المتعايشة في علاقاتها مع العثمانيين . وقد تميّزت بتوارث تلك السنن حضرية كانت ام بدوية منذ العصور الوسطى . وبالرغم من التوتّر المستمرّ في اقتصادياتها وسوسيولوجياتها ، كونها تعرضت الى المزيد من المحن والكوارث الطبيعية (= فيضانات/ اوبئة/ مجاعات . .) الا انها كانت متخلصة كتلك التي خلقتها الحساسيات التاريخية التي عاشتها الدواخل العربية تحت حكم السيطرة العثمانية . أي بمعنى : انها كانت متخلصة من ازمات ومشاكل الاثنية التي خلقتها ممارسات النظم الاقطاعية العثمانية عسكريا واقتصاديا وبالتالي : تاريخيا . . فبقيت تتوارث النزعة العروبية بعيدا عن التورط ضمن اطر النظم العثمانية المختلفة ، في حين عاش اليمن معضلة صراع تاريخي طويل الامد ضد السيطرة العثمانية منذ القرن السادس عشر ، وانهمك اشراف مكة بالقضايا المحليّة للحج ، اضافة الى مشاكل عديدة تبرزها الطبقة والانقسام والسلطة . (التفاصيل التاريخية في الفصل السادس) .

اما بخصوص التوتّر الاقليمي وعلاقة الانفصام السياسية والسوسيولوجية والاقتصادية بينها وبين الدواخل «العربثمانية» في المجتمع العربي (٦٩) ، فقد حسمتها طبيعة العلاقة بينها بين السلطة العثمانية العليا ، فكان «التحالف» من نصيب اشراف مكة نظرا لارتباط قوة مصالحهم الدينية والتاريخية باغلب البيئات الاسلامية ، وابرزها «الاقاليم العثمانية» (٧٠) في حين كان «التهادن» مع العثمانيين من نصيب سلاطين البو سعيد في مسقط وزنجبار الذين كانت لهم مصالحهم البحرية الاقتصادية / الاستراتيجية على جانبي السواحل الافريقية والآسيوية وعلاقاتها مع العثمانيين ، وهذا ما كانوا قد ورثوه عن اسلافهم الائمة اليعاربة الذين حكموا عمان من قبلهم (٧١) . وقد بقي المغرب الاقصى مستقلا عن العثمانيين ، فاكتسب بذلك خصوصيته التاريخية في هذا المجال ،

رغم العلاقات السياسية المتبادلة على مستوى السفراء الدوبلوماسيين بين السلاطين العلويين / العرب والعثمانيين / الاتراك [٧٢] وعاش اليمن حالة صراع مزمن وشديد ضدّ العثمانيين ، وذلك لاسباب مذهبية واضحة [٧٣] ، ويتشابه اليمن هنا مع حالات الصراع التي عاشها جبل لبنان ضدّ العثمانيين مع اختلاف الاسباب ، اذ كانت اسباب لبنان اثنية في اغلب الاحوال .

ان عناصر التشابه والتجانس تميّز طبيعة بقايا النظام العربي القديم في ظواهره وبنيوياته التاريخية ولكن « .. ثمة تغييرات تحكم طبيعة دواخله . اذ لا يمكن قياس حالات عاشها «الاشراف» في مكة ، بالنظام السياسي المستقل الذي تطوّر تاريخيا بظل الهيئة العلوية «الشريفية» التي حكمت في اعقاب السعديين . وهـذا ينطبق ايضا على نظام «الائمة» في اليمن ، وهو نظام سياسي قديم ينتمي الى العصور القروسطية . ومن الغرابة بمكان ، ان نموذج النظام العربي الكلاسيكي بقي يتمتع بشرعيته وبممارسته سلطاته على الاطراف الجغرافية للمنطقة العربية ، في حين انه مات في الدواخل العربية منذ عهود طويلة . . . ومن الطريف جدا ان نجد مستحدثات هـذا «النظام» العربي متواجدة حتى هذا اليوم» [٧٤] .

ولعل من ابرز العلل التاريخية التي جعلته يعيش هذا الزمن الطويل في الاطراف العربية ، استناد معظم نماذجه على المرجعية الدينية التي اعتمد عليها كل نموذج عروبي ، فقد اعتمد اشراف مكة الهاشميين وسلاطين المغرب الفيلاليين على «الشرافية الدينية» . اما أئمة (= اشراف) اليمن فقد اعتمدوا «المذهب الزيدي ، في حين اعتمد سلاطين مسقط وزنجبار على صيغ «المذهبية الاباضية» . ولقد توسعت امتدادات كل من السلطنتين العلوية والالبوسعيدية خلال القرن الثامن عشر ، اقتصاديا وجغرافيا .. فقد عقدت العديد من المعاهدات التجارية بين المغرب ودول شمالي اوروبا [٧٥] ، في حين استلهم سلاطين مسقط وزنجبار الميراث الضخم للائمة اليعاربة في منتصف القرن الثامن عشر ، وغدت العاصمة مسقط اهم مرفأ دولي لعب دورا مهمّا في صراع البرتغاليين ومن ثم الهولنديين على المركز التجاري الذي تميز به الخليج العربي [٧٦] . وقد ولدت على سواحله الغربية بعض «المشيخات» العربية التي ارتبطت تاريخيا بالقوى الاقليمية المتنفّذة خلال القرن الثامن عشر [٧٧] .

٩ / التغيرات الجيوتاريخية للبنى الاقليمية :

لقد بدأ انفراج نظام اللامركزية الادارية واضحا بعد انهيار العثمانيين عسكريا امام جيوش التحالف الاوروبية اثر فشل الحصار العثماني الثاني لـ فيينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣ في عهد السلطان محمد الرابع (٧٨) . بدأت المشاكل الداخلية تترى في ردهات البلاط العثماني ، واجهزة الدولة خلال السنوات الاخيرة من القرن السابع عشر ، وهو القرن الذي شهد عهود سلاطين ضعاف جدا عدا عهد السلطان مراد الرابع ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م الذي اقترن اسمه بالاراضي العربية ايضا بعد اعادته السيطرة العثمانية على العراق ، وقد لقّب بـ «فاتح بغداد» بعد احتلال فارسي دام ٢٣ سنة . . وقد اعتمد سلاطين القرن السابع عشر على الصدور العظام في تسيير امور الدولة ، في حين سيعتمد سلاطين القرن الثامن عشر على «الوزراء» في الاقاليم وحكوماتها المحلية (٧٩) . . فمنذ بداية ذلك القرن ، بدأت السلطة المركزية العليا بانحسارها عن الحكم المباشر للاقاليم التي كانت قد تبلورت انساقها الاقتصادية منذ فترات طويلة (٨٠) ، فبدأت تنشأ وتتكون عدة انماط اقليمية ومحليّة وخصوصا في الولايات العربية ، لكي تغدوا سمة تاريخية واضحة في تضاعيف القرن الثامن عشر بكل ما حفلت به من انشطة سياسية واقتصادية . يقول عبد الله العروى : «طوال القرن الثامن عشر حصل تحوّل في المجتمع العربي الاسلامي ، اتّسع نطاق الدولة واضمحل نطاق اللا دولة . فضاق مجال الممارسة اللامشروطة اللاواعية . واتسع مجال الوعي بضرورة الحريّة المجرّدة المطلقة . . . كما تضعضعت الجماعات والعشائر اولا فيما يتعلق بتماسكها الداخلي ، وثانيا فيما يرجع الى نفوذها على السلطان والى قدرتها على حماية اعضائها . وضعف ميل الناس الى التصوف كمخرج امام الاستبداد الذي الحق صفة الاطلاق صفة الشمول» (٨١) .

من هنا نعلم ، بأن ثمّة تغيّرات واسعة النطاق قد حدثت داخل البنى الاقليمية العربية باتجاه بلورة تفكير مختلف عن السابق كثيرا خلال القرن المذكور (وهذا ما تناسى دراسته وتحليله وفهمه العديد من المؤرخين العرب) . . لقد حدثت العديد من التغيّرات في الانظمة الادارية والانشطة الاقتصادية والفعاليات الاجتماعية حتى حدوث تجديدات في ثقافات بعض المدن والحواضر العربية كالموصل وفاس ودمشق (٨٢) . حدث كلّ ذلك بعد ان وجدت معلولات جيوتاريخية في دواخل كل اقليم او ولاية اوحاضرة . .

معنى هذا : ان كل مجموعة بيئوية ستشترك مؤهلاتها في فرز نمط معين تختص به في التمايز اللامركزي عن الولايات العثمانية في اوروبا ، وذلك نتيجة تفاقم علل اقتصادية ، اذ كانت الامبراطورية تجتاز ازمة اقتصادية تجمعت عناصرها منذ زمن طويل . لا شك ان الادارة الفاسدة قد زادتها خطرا ، الا ان سببها الحقيقي كان خارجيا ، يعود الى توسع اوروبا في اقتصادياتها الجغرافية شرقا وغربا . اذ ان المراكز التجارية الاوربية التي تكوّنت في المحيط الهندي كانت قد فككت الخطوط والمسالك التجارية التقليدية بين الامبراطورية والعالم الخارجي في كل من آسيا واوروبا . وكان لاكتشاف امريكا تأثيراتهُ الاشدّ من ذلك ايضا ، اذ ادى الى تحوّل الذهب والفضة الى بلدان البحر المتوسط ، وبالتالي الى ارتفاع الاسعار ، مّما زعزع مالية الدولة ، واضرّ كثيرا بالفئات الاجتماعية المنتجة . ونتيجة لذلك ، فقد ازدادت الضرائب ، وتقهقرت الزراعة ، وهزلت الحرف ، وبدأت الهجرة من الارياف [٨٣] .

احالات وملاحظات

(1) D.E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earlest times to the end of the sixteenth Century.* Leidn & E.J. Brill, 1972.

(2) *Ibid.*, P. 103.

(٣) انظر آرائي الموسعة بهذا الخصوص في دراستي عن طبيعة السيطرة العثمانية على الاراضي العربية : سيّار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر ، ط١ ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٩ ،ص ٣٢٧ - ٣٩٠ .

(4) A. Drysdale and Blake, *The Middle East and North Africe,* Oxford, *1985, pp.12 - 49.*

(5) Albert Hourani, *The Ottoman Background of the Modern Middle* East, Univ. of Essex, 1969, pp. 2 - 26.

(لقد ترجمت المحاضرة اعلاه الى العربية ، ونشرت تحت عنوان : «الاسس العثمانية للشرق الاوسط الحديث» في مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٥ ، السنة ٢ ، بيروت ، كانون الثاني / يناير ١٩٨٠) .

(6) Michel Foucault, *L'Archeologie du Savoir*, Callimard, Paris, 1969, pp. 11-27, 60-89.

(7) Jacques Derrida, *De L'espirt : Hiedgger et sa quetion*, Ed. Galilee, Paris, 1987,pp.4-18.

(8) Halil Inalcik, "The Rise of the Ottoman Empire", in *The Cambridge History of Islam*, vol. I, Cambridge, 1970, p. 318. See also, P. Wittek, *The Rise of The Rise of The Ottoman Empire,* London, 1971, p.65.

(9) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: The Classical Age: 1300-1600*, New York & London, 1973, p. 59: see also, R. Mantran, *Histoire de al Turquie,* Press Univ. de France. 1975, p. 81.

(10) Okmer Lutfe "Kanunname" (= كتاب القوانين) *in islam Ansiklopedisi, No.* VI, pp. 187-192: see also, Stanford J. Shaw, "Archival Sources for Ottoman History: The Archives of Turkey" , *Journal of the American Oriental Society*, No. 80, 1960, pp. 6-11.

(١١) سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص١٤٣ - ١٤٩ .

(12)Kemal Karpat (ed.), *The Ottoman State and its Place in World History,* Leiden & E.J. Brill, 1974, p. 23.

(13) Halil Inalcik, "Ottoman Methods of Conquest", *Studia Islamica*, II, Paris, 1954: Or see, Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: Conquest, Organization and Economy (Collected Studies)*. Variorum reprints, London, 1978,pp 104-192.

(14) Perry Anderson, *Lineages of the Absolutist State*, London, 1977, P. 81.

(15) Kemal H. Karpat. "The Stages of Ottoman History: A Structural Comparative Approach" in K.H. Karpat. (ed.), *op. cit.*, pp. 79-89.

(١٦) احمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثماني ، ط١ ، بيروت / القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص١١٢ .

(١٧) خلدون النقيب ، «بناء المجتمع العربي : بعض الفروض البحثيّة» ، مجلة المستقبل العربي ، السنة ٨ ، العدد ٧٩ (ايلول / سبتمبر ١٩٨٥) ، ص٣٦ .

(١٨) عبد الله العروي ، مفهوم الدولة ، ط٣ ، بيروت / الدار البيضاء ، ١٩٨٤ ، ص ١٢٩ - ١٤١ .

(١٩) سيّار الجميل ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢٤ .

(20) P. Charanis, "The Strife Among the Palaeologi and the Ottoman Turks 1370-1420", *Byzantion*, No. 16, 1942-3, p. 111.

وقد حلّل المؤرخ التركي اسماعيل حقّي اوزن جارجلي طبيعة تشكيلات الادارة المركزية والبحرية في الدولة العثمانية ، ومن الاهمية دراسة كتابه المهم :

Ismail Hakki Ozuncarsili, *Osmanli Devletinin Merkez ve Bahriye Teskilati*, Ankara, 1948, ss. 58-119.

(21) Edson L. Clark, *Turkey*, New York, 1898, p. 116.

(٢٢) هناك معلومات تاريخية موسّعة في ثنايا «تراجم» العديد من سلاطين الدولة العثمانية في الانسكلوبيديا الاسلامية / التركية ، واهمها هي :

- M. Tayyip Gokbilgin, "Orhan", *Islam Ansiklopedisi*, No. 9, (1962), ss. 399-408.
- I.H.Uzuncarsili," Murad I", *ibid.*. No. 8, (1960), ss. 587-598.
- H. Inalcik, "Mehmed II", *ibid.*, VII / 506-535.
- S. Altindag, "Selim I" *ibid.*, X/ 423-434.
- T. Gokbilgin, "Suleyman I", *ibid.*, XI / 99-155.

(٢٣) الديوان (= Divan) هو مجلس الدولة الاعلى ، ويدعى ايضا بـ : "ديوان افنديسي" ويتزعمه امين عام او حاكم عام برتبة وزير ، انظر :

Stanford J. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*,

vol. 1 (= *Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808)*, Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1978, p./ 122, 332.

(24) Halil Inalcik, "The Ottoman Economic Mind and Aspects of the Ottoman Economy", in *Studies in the Economic History of the Middle East*, ed. by M.A. Cook, Oxford Univ. Press, London, 1970, pp. 217-218.

(٢٥) من اجل تفاصيل تاريخية عن الاساليب الادارية التنظيمية العثمانية ، انظر

H.A.R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West*, vol. 1 : *Islamdic Society in the Eighteenth Century*, 2 Parts, London & New York, 1950-7, pp. 56-146.

(26) Nicoara Beldiceanu, *Code de Lois Coutumieres de Mehmed II. Kitab-i Qavanin-i Urfiyye-i Osmani*, Paris, 1967, p. 42.

(٢٧) سيّار الجميل ، «الحصار العثماني الثاني لـ فينّا عاصمةالهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣م» ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ١٦ ، المجلد ٤ ، جامعة الكويت ، خريف ١٩٨٤ .

(٢٨) هذا ما ذكره المؤرخ عبد الله العروي في الحوار الذي اجرته معه مجلة *Lamalif* العدد ٦٤ ، يوليوز ١٩٧٤ . وقد ترجم الى العربية ونشرته مجلة بيت الحكمة المغربية ، العدد ١ ، السنة ١ ، ابريل ١٩٨٦ ، ص ١٦٨ .

(29) Andre Miquel, *La Geographie humaine de Monde Musulman Jusqu'au milieu du 11 siecle*, Mouton & Paris, 1973.

(30) C. Max Kortepeter, *Ottoman Imperialism During the Reformation: Europe and the Caucasus*, New York & London, 1972.

(31) O.L. Barkan, *XV ve XVI-inci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda zirai ekonominin hukuke ve mali esaslari I,kanunlar*, Istanbul, 1943, ss. 36-47.

(32) Cf. Robert Mantran, *L'Empire Ottoman et tale Commerce a Siatiqul*, Paris, 1961, p. 105.

(٣٣) للمزيد من التفاصيل التاريخية عن فترة بقاء سليمان القانوني في بغداد ، انظر :

Von hammer-Purgstall,J., Geschichte der Osanischen Reiches, Band 3, Wien, 1828, p. 143.

(34) S.H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925, p. 18.

(35) Halil Inalcik, "Suleiman the Lawgiver and Ottoman Law ", in *Archivum Ottomanicum* I., The Hague, 1969 , p. 105: see also, E.S.Creasy, *History of the Ottoman Turks*, London,1878; and Lord Kinross, *The Ottoman Centuries*, London, 1977.

(36) J. von Hammer - Purgstall, *Loc. cit.*: and cf. E. Tyan, *Histoire de L'organisation Judiciaire en pays d'Islam*, Leiden, 1960, p. 520.

(37) For details; see Omer Lutfi Barkan, "Timar" , *Islam Ansiklopedisi*, XII / 287-9; see also, Robert Mantran et J. Sauvaget, *Reglements fiscaux ottomans*, Beirut, 1951, p. 59.

(٣٨) عن سوء استخدامات نظام «الالتزام» فيما بعد عهد سليمان القانوني ، انظر :

Sayyar K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A.H.= 1514 / A.D. - 1811 / 1812 A.D.)*, Ph.D. Thesis, 3 vols., vol. 1 (=Introduction and Notes), St. Andrews Univ., Scotland, 1983, p. 118.

(39) *Ibid.*, vol. 2 (=Text), p. 5: and cf. vol. 3 (=Apparatus Criticus). pp. 10-21.

(٤٠) سيّار الجميل ، «دولة السلطنة العثمانية واشكالية الخلافة» ، دراسات عربية ، العدد ٤ ، السنة ٢٣ ، شباط / فبراير ١٩٨٧ ، ص٥٦ - ٦٤ . وعن المؤسسة الدينية في الدولة العثمانية (= الافتاء) راجع تحليلات المؤرخ ريب :

R.C. Repp, *The Mufti of Istanbul,* Oxford Univ,. London, 1986, pp. 197-272.

(41) S.J. Shaw, *op. cit.*, vol. L, p. 103.

(42) *Loc. cit.*

(٤٣) هذا ما اكّده العديد من المؤرخين المختصّين الذين درسوا اغلب الكيانات الاقليمية / العربية خلال العهود العثمانية والمتأخرة ، مثل ، كتابات ، لونكريك (عن العراق) ، وسوفاجيية (عن بلاد الشام) ، وفيليب حتّى (عنّ لبنان) ، وب ، هولت (عن السودان) ، وررودلفو ميكاكي (عن طرابلس الغرب) ، وكارل براون (عن تونس) ، وستانفورد شو ودانيال كريسيليوس (عن مصر) ، ومحمد عدنان البخيت (عن فلسطين) وجون وولف (عن الجزائر) ، وجون واتربوري (عن المغرب الاقصى) ، وروبرت اولسن وبرسي كيمب وسيّار الجميل (عن الموصل) ، وكارل بابير (عن دمشق) . . . وغيرهم .

(٤٤) سيّار الجميل ، «الحصار العثماني الثاني لـ فينّا . .» المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤٥) ان ابرز مؤرخ عالج تلك المشاكل التاريخية هو روبرت اولسن ، انظر :

R.W. Olson, *The Siege of Mosul and Ottoman - Persian Relations 1718-1743*, Indiana Univ., Indiana, 1975, pp. 31-06.

(64) S.J. Shaw and Ezil Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol, 2: *Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey 1808-1975*, Cambridge Univ. Press, 1978, pp. 273-289.

(٤٧) التفاصيل عند : عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية : دراسة في الهويّة والوعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٤٢-٢٤٣ .

(٤٨) من المحبّذ مراجعة تحقيقات عمر لطفي برقان ، وقراءة ما كتبه هيث لورى عن هذه «التنظيمات» ، انظر :

Omer Lutfi Barkan (f.n. No. 10 and 31 above), *XV ve XVI* pp. 29-90: see also, Heath Lowry, "The Ottoman Liva Kanunnames Contained in the Defter-i Hakani" *The Journal of Ottoman Studies*, No. II, Istanbul, 1981, pp. 43-74.

(49) D.E.Pitcher, *op. cit.*, pp. 95-104: and cf. Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, London, 1971, p. 56.

(٥٠) سيّار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث ، سبق ذكره ، ص ٣٦٩ .

(51) A.H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent*, Cambridge, 1913, p. 42.

(52) Perry Anderson, *op. cit.*, pp. 36-59.

(53) Arnold J. Toynbee, *A Study of History,* Abridgement of vols. I-IV by A.C. Somervell, Oxford Univ. Press, London, 194, p. 125.

وانظر « العثمانيون في التفسير التوينبي للتاريخ» «في كتابي : العثمانيون وتكوين العرب الحديث ، سبق ذكره ، ص٢٦٣ ـ ٢٩٨ .

(45) Cf. Andre Miquel, *op. cit.*, p. 77.

(٥٥) عن الممارسات والاساليب العثمانية في الغزو والحرب ، انظر :

Halil Inalcik, "Ottoman Methods of Conquest", *Studia Islamica*, No. II, Paris, 1954, pp. 104-129.

(٥٦) قارن ما كتبه ستانفورد شوعن «تركيب الحكومة والادارية العثمانية» ، واستفادتها من الانماط الاوروبية القديمة ، انظر :

Cf. S.J. Shaw, *op. cit.*, vol I, pp 22-27.

(57) Cf. H.A.R. Gibb and H. Bowen, *op. cit*., 2, Oxford, 1957, p. 50.

(58) For biographical datails; see. Cavid Baysun, "Ebussuud Efendi" , *Islam Ansiklopedisi*, N. IV, ss. 92-9

(٥٩) ان احدث من كتب عن ابي السعود افندي هو ر . ريب ، ففي كتابة «المفتي في اسطنبول» تحليلات ممتازة لمعلومات مستندة على مصادر وثيقة ، انظر :

R.C. Repp, *op. cit.*, pp. 272-295, (Quotation from pp. 303-4).

(٦٠) يقول المؤرخ احمد بن ابي الضياف : «بيد ان قانون سليمان القانوني لم يلبث ان ضعف ، ولم يزل في تأخر الى ان تلافي السلطان عبد المجيد ذلك في عام ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م» ، انظر كتابه : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، جـ١ ، تونس ، ١٩٦٣ ، ص٤٣ .

(٦١) راجع النتائج التي توصّلت اليها ثريّا فاروقي في بحثها الرصين المقارن بين بعض الولايات العربية والاناضولية من خلال دراستها للانتاجية والجغرافية الاقتصادية :

S. Faroqi," Textile Production in Rumeli and the Arab Provinces: Geograpgical Distribution and Internal Trade 1560-1650", *The Journal of Ottoman Studies*, No. L, 1980, pp. 61-83.

(62) Cf. Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 2(=Text), pp. 281-470, vol. 3 (= Apparatus Criticus) , pp. 765-1110; se also, Fendakli Silahdar, *Silahdar*

Tarihi, ed. by Ahmet Rafik, Istanbul, 1982, vol. 1, s. 741

(63) M. Kunt, *The Koprulu Years 1656-1661*, Ph.D. Thesis, Princeton Univ, 1972, pp. 21-92.

(64) S.J. Shaw, *op. cit.*, vol. 1, p. 241.

(٦٥) راجع التفاصيل التاريخية / البايوغرافية التي سجلها المحبّي كواحد من المؤرخين العرب ومعلوماته عن اغراق المجتمع العثماني (= التركي + العربي) بالطرق الصوفية وطقوسها التقليدية ، انظر : محمد امين بن فضل الله المحبّي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٨٦٨م .

(٦٦) من اشهر كتبهم التاريخية في الثقافة العربية ، هي :

ابـن ايّاس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، جـ ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

ابن زنبل الرمال ، تاريخ السلطان سليم خان .. مع قانصوه الغوري سلطان مصر (= فتح مصر) ، القاهرة ، ١٢٧٨هـ .

محمد امين المحبي ، المصدر السابق ، ٤ اجزاء (معطيات عديدة) .

قطب الدين النهروالي ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام (= اخبار مكة المشرفّة) ، جـ٣ ، تحقيق : فيردناند ويستنفلد ، نشر : خياط / بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥٩ - ٣٦٠ . محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٢٩١ هـ .

(٦٧) حول تطور التفكير السياسي في المجتمعات الاوروبية خلال الازمنة الحديثة ، انظر :

Jean Touchard (ed.), *Histoire des Idees Poletiques*, Presses Universitaites de France, Paris, 1963, pp. 115-290.

(٦٨) سيّار الجميل ، العثمانيون ... ، ص ١٩٣-١٩٤ .

(٦٩) حول تفسير مصطلح «العربثمانية» ، انظر : المرجع نفسه ، ص ٢٨-٣٢ .

(٧٠) هناك اشارات تاريخية تؤكد بأن اشراف مكة قد خرجوا عن طور التحالف مع العثمانيين لاكثر من مرّة ، ففي سنة ١٧٠٠م استطاع شريف مكة كحاكم للحجاز ان يدفع بقوى السلطان ويحجمها ويدفعها عن مرافئ البحر الاحمر الى مسافة تبعد حتّى مصوّع وقنفده ، انظر ما كتبه المؤرخ پيرى وجماعته :

V.C. Perry and Others, *A History of the Ottoman Empire to 1730*, ed. by M.A. Cook, Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1976, p. 180.

(71) L. Lockhart, "The Menace of Muscat and its Consequences in the Late

17th and 18th Centuries", *Journal of Asiatic Review,* No. 42, 1946, p. 368.

وانظر: عائشة السيّار، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا، بيروت، ١٩٧٥.

(٧٢) عبد الهادي التازي، "السياسة الخارجية للمملكة المغربية ازاء العثمانيين"، ملف بعنوان: تحيّة وفاء وتقدير للاستاذ روبارت منتران، تحرير، عبد الجليل التميمي، زغوان / تونس، ١٩٨٨، ص ٧٣ - ٧٨.

(٧٣) راجع: القاضي حسين بن احمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولّى ملك اليمن ملك وامام، القاهرة، ١٩٣٩، وقارن ما كتبهُ بورى:

G.W. Bury, *Arabia Infelix or the Turks in Yemen*, London, 1915, pp. 30-9.

(٧٤) سيّار الجميل، العثمانيون . . .، سبق ذكره، ص ٢٠٢ - ٣٠٢.

(75) C.E. Bosworth, *The Islamic Dynasties*, Edinburgh Univ. Press, 1980, p. 40.

(76) R. Said- Ruete, "Die Al-Bu-Said Dynastie in Arabien und Ostafrika", *Der Islam*, No XX. 1932, pp. 240-2.

(77) J.G.Lorimer, *Gazetter of the Persian Gulf, I (Historical Part).* IB, Holand, 1970, p. 239.

(78) S.J. Shaw, *Op. cit.*, vol. I, pp. 217-240: see also A.N. Kurat and J.S. Bromley, "The Retreat of the Turks, 1683-1730" in *A History of the Ottoman Empire to 1730*, ed. by M.A. Cook (mentioned above), pp. 178-219.

(79) For historical results: see Metin Kunt, *The Sultan's Servants: Trans formantion of Provincial A dministration, 1550-1650*, New York, 1983, pp. 12-56, 121-140.

(80) Cf. V.J. Parry, "The Period of Murad IV, 1617-48", and A.N. Kurat, "The Reign of Mehmed IV, 1648-87" in *A History of the Ottoman Empire to 1730*, ed. by M.A. Cook, (mentioed Above), pp. 133-177.

(٨١) عبد الله العروي، مفهوم الحرّية، ط٣، بيروت / الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص ٢٩.

(٨٢) سيّار الجميل "تحليل كتاب نشر المثاني لمحمد القادري تحقيق نورمان سيكار"، المجلة التاريخية المغربية، العددان ٣٤ - ٣٥، تونس، ديسمبر ١٩٨٤، ص ٢٢٣.

(83) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*, Oxford Univ, Press, London, 1967, p. 45.

(ترجم هذا الكتاب الى العربية من قبل كريم عزقول تحت عنوان: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، ط٣، (بيروت: دار النهار، ١٩٧٧، ص ٥٣).



الفصل الخامس

تفكيك بنية نظام اللامركزية العثمانية للولايات العربية وتبلور الانماط الاقليمية العربية



مقـــــدمة :

دعونا نتوقف عند تفكيك بنية النظام العثماني في اللامركزية الادارية للولايات العربية خلال القرن الثامن عشر . . وقد استخلصت بعض «الأنماط» الاقليمية المرتبطة بالجذور العثمانية . . تلك «الانماط» التي أفرزت اليوم المزيد من الرواسب والبقايا التاريخية والآثار الموروثة ليس فقط في مفاصل البنية العربية/ التاريخية المعاصرة فحسب ، بل فيما خلفته من «مركبات» في الذهنية والتفكير الراهن . . وهذا ما سنتوقف عنده ، في دراستنا المقارنة -أدناه- لتاريخية تلك «الأنماط» التي تشكل بحد ذاتها «ظاهرة» لم تألفها الحياة العربية قبل العهود العثمانية . . فما هي اذن تلك «الأنماط» ؟

١ - النمطية الأسروية :

تبلورت مادتها التاريخية ، وبنيتها السلطوية في أكثر المدن العربية التي نضجت على مهل خلال القرون المتأخرة كوسموبوليتانيا ، بفعل عوامل اقتصادية بحتة ، كان لها تأثيرها الاجتماعي على امتداد القرن السابع عشر . كانت تلك المدن : مراكز اقليمية قديمة ، وهي تتميز بأسواقها الدولية والاقليمية والمحلية (أنظر : مفاهيمها المقارنة أدناه) . فبرزت النمطية «الأسروية» في البيئةالعربية لتشكل خصوصية متفردة مقارنة ببيئات عالمي الأناضول واوروبا الشرقية . . برزت تلك «النمطية» في خضم العلاقة مع اقتصاد العالم بين الشمال والجنوب (= اوروبا / افريقيا) متكونة من ولايتي طرابلس الغرب وتونس (وهو مفهوم استخدمه بروديل)[١] ، متمثلا ذلك بالأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب التي حكمت للفترة ١٧١١-١٨٣٥ . والأسرة الحسينية في تونس التي حكمت للفترة ١٧٠٤-١٩٥٧م . أما في المشرق العربي ، فقد تبلورت هذه «النمطية» في خضم العلاقة مع مفهوم اقتصاد البازار بين الشرق والغرب (= اسيا / أوروبا) (وهو مفهوم استخدمه غـارتز)[٢] متمثلا ذلك في كل من ولايتي الموصل ودمشق . . لقد حكمت الأسرة الجليلية الموصل للفترة ١٧٢٦-١٨٣٤م ، وحكم آل العظم دمشق للفترة ١٧٢٤-١٧٩٠م .

إن المرجعية التجارية للأسروية المحلية الحاكمة في المدن والأقاليم المذكورة أعلاه ، قد أفادت جدا هذا «النمط» من الحكم ، وحددت مساراته وأعرافه وتقاليده ، في أبرز أربعة أقاليم عربية استراتيجية ، اشتهرت باقتصادياتها الأساسية ، وزراعاتها ، اضافة الى

تجاراتها الدولية . . وشكلت مواقعها على الخطوط والمسالك الاقتصادية الدور الأساسي الفعال في إرساء أسس من الاقتصاديات الاقليمية والمحلية التي تحكمت بها السلالات الحاكمة تلك وبكل قوة وتأثير [٣] . كان الجليليون وآل العظم كأسرتين أو سلالتين حاكمتين لأبرز اقليمين عربيين ميزتهما مواصفات مشتركة . ففي سنة ١٧٢٤م ، تسند ولاية دمشق الى اسماعيل باشا العظم[٤] ، وفي سنة ١٧٢٦م ، تسند ولاية الموصل الى اسماعيل باشا الجليلي [٥] ، لكي يتوارث الحكم العثماني اللامركزي أبناء كل من الأسرتين ، دون اندماجهما معا ، او ثمة علاقة قرابة / مصاهرة سياسية بين الطرفين . وقد احتكر آل العظم السلطة المحلية/ الاقليمية قرابة ٦٠ عاما ، في حين احتكرها آل الجليلي قرابة قرن كامل[٦] (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٢) .

دمشق والموصل : اقتصاد البازار

وقد أكدت كلا من الأسرتين / السلالتين على نسبهما العربي ، واعتبروا أنفسهم أولاد عرب وخصوصا من قبل معاصريهم وانتقل ذلك الى أحفادهم اليوم ، في حين أن أصولهم المسيحية/ المملوكية / التركية لم تزل تثير الشكوك الى حد يومنا هذا[٧] ويكاد يكون جليليو الموصل وآل عظم دمشق مشتركين في بناء قاعدة حكم سلطوي / اقتصادي متشابه في توارثه ومشاكله وعلاقاته الخارجية ، بحكم التشابه الواضح في استراتيجية الاقليمين اقتصادياً وعسكرياً . . وقد حسم «الولاة» عند كل من الأسرتين الكثير من المشاكل الاقليمية ، والمعضلات الاقتصادية التي تعرضوا لها . . فاستطاعوا تأسيس بنية عثمانية/ محلية سلطوية من نوع خاص . . بنية كان لها اتصالات سوسيولوجية بفجوات المجتمعين ومفاصل شرائحهما المتعددة وعلى مختلف المستويات ، معتمدين في ذلك على بعض الأسر المحلية القديمة (المتعاطفة مع الأيديولوجية العثمانية) كالعمريين في الموصل والمراديين في دمشق[٨] . . كما تعاقدوا مع العديد من الأقليات ضد المناوئين ، وذلك من أجل تنمية العلاقات السلطوية من جانب ، وترتيب الأوضاع الطبقية في المجتمع من جانب آخر . ورغم حدوث بعض الانقسامات المحلية التي تطورت في أحيان كثيرة الى مواجهات وصدامات[٩] ، إلا أن الأسروية الحاكمة والمنتفعة والتجارية تبقى هي السائدة في الميدان المحلي ، وعلى الساحة الاقليمية .

أما بخصوص أوضاع الاقتصاديات المحلية ، فتكاد تكون كل من الموصل ودمشق ، صاحبتا أسواق كبرى ازدحمت بعناصرها وعلاقاتها التجارية ، وقد توضحت بثلاثة

أصناف : ١-أسواق دولية ٢ - أسواق اقليمية ٣ - أسواق محلية . يتعامل التجار الكبار في الأسواق الدولية بين القارات ، ويتعامل تجار الأقاليم في الأسواق الاقليمية مع بضاعة الاقاليم المتجاورة في منطقة الشرق الأوسط . أما الأسواق المحلية ، فيتعامل معها سكان الضواحي والأرياف مع مركز الاقليم الذي يستقطب الحركةالاقتصادية (الانتاجية الزراعية خصوصا) لرقعة الاقليم[١٠] . وقد استقطبتا كل من الموصل ودمشق اقتصاديات المشرق العربي خلال القرن الثامن عشر كونهما مركزين لاقليمين عريقين : بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام . وقد استمر تأثيرهما الاقتصادي الشرق ـ اوسطي لـ «بازار العالم» حتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م عندما انهار ذلك «التأثير» البارز في اقتصاديات العالم كي تستحوذه مصر لأول مرة بعد تاريخ طويل . لقد استحوذت الأسروية الحاكمة على تلك «الأسواق» وتسلحت بسلطتين : ادارية أمنية واقتصادية اجتماعية .

إن دراسة مقارنة للأوضاع الاقتصادية لتاريخ المشرق العربي خلال القرن الثامن عشر ، ستوضح لنا -دون شك- كم استقطبت أسواق الموصل ودمشق منتجات الاقاليم الأخرى : زراعية كانت أم حرفية ، بل واشتهرت كونها من مراكز التصنيع الحرفي ، اذ تواجدت فيها منذ تواريخ بعيدة ، تجمعات حرفية ونقابية واسعة النطاق ، وازدحمت بالمهن الشرقية الشهيرة[١١] . ان الموصل ودمشق قد اشتهرتا كنقطتي اتصال دولي أفقي بين الشرق والغرب . . وما كانت كل من الأسرتين الحاكمتين لتعيشان عمرهما الطويل ، لولا القاعدة الاقتصادية التي تركبتا عليها وهيمنتا على جميع مراكز القوى المحلية ، والتأثير الاقليمي واسع الأبعاد . . ولولا ولادة العديد من الأزمات الإثنية والطائفية لبقي آل العظم فترة أطول في الحكم[١٢] ، كما بقي آل الجليلي في حكم الموصل طويلاً .

أما عسكريا ، فان فصائل عديدة قد خدمت الأمن المحلي والاقليمي للأسروية الحاكمة في كل من الموصل ودمشق . فقد استطاع - مثلا - الجليليون وآل العظم ان يؤسسا الى جانب أفواج الانكشارية (= الاورطات) قطعات خاصة بهم ، انبثقت وتبلورت وتأسست على أيديهم ، فقد ظهر «الدلاتية» في الموصل ، وهم من الأكراد الذين وقفوا جنبا الى جنب مع اورطات الانكشارية وجماعات السباهية[١٤] .

ان الأحداث والوقائع والنشاطات والحركات الاجتماعية ، تكاد تتشابه كثيرا بين هاتين الولايتين إثر تمتعهما بالنمطية الأسروية المحلية الحاكمة ، وكذلك في المجهودات الثقافية والواقع التعليمي والمدارس ونمط المعيشة والحياة اليومية . . والأساليب الاجتماعية

والعادات والتقاليد المتوارثة . . ان ثمـة تشابه كبير بـين ما كتبه البديري الحـلاق عن «حوادث دمشق» وما كتبه ياسين الخطيب العمري عن «حوادث الموصـل» خلال القرن الثامن عشر .

إن أسروية آل العظم وآل الجليلي ، هي نظام بنيوي شرقي متميز بخدماته العثمانية باتجاه الامبراطورية أولا ، وبخدماته الاقليمية / المحلية باتجاه سوريا والعراق ثانيا . وقد ثبت «النظام» نظراً لتحقيقه الأغراض الأمنية ، والمكاسب والمصالح الاقتصادية . . فقد رعى باشوات دمشق إمارة نظام «الحج» أمنيا واقتصاديا ، في حين رعى باشوات الموصل نظام المواصلات أمنيا وجمركيا ، بحكم استراتيجية كل من الولايتين ، وكان مردودهما الاقتصادي كبيرا ، مما ساعد على التركز الاقليمي مع تراكم الثروات للأسروية المحلية . وكثيرا ما كانت الدولة العثمانية تنصب أعضاء من الأسرتين كـ «ولاة» في أقاليم أخرى عربية أم أناضولية ، كما وكانت تكلفهم بالقضاء على حركات التمرد المحلية والعشائرية والاقليمية والقبلية والاثنية . . رغم الفوارق في طبيعة العلاقة بين الطرفين من جانب ، وبينهما وبين الباب العالي من جانب آخر .

إن آل العظم كثيرا ما انتهت حياة ولاتهم بالنفي والقتل أو مصادرة الأملاك والأموال ، في حين شغل الانقسام العائلي : الأسرة الجليلية بالموصل على مدى زمني طويل ، وخصوصا بعد فشل حصار نادرشاه للموصل عام ١٧٤٣م ، وبعد وفاة بطل الدفاع المجيد عن الموصل الوزير الحاج حسين باشا الجليلي[١٥] ، أما من جانب المواصفات المشتركة ، فقد كانت الدولة تستخدم الحيلة ، وتوفير الأسباب السياسية من أجل القضاء على ولاة دمشق والموصل ، وذلك عندما ترى تحسناً في «ولاية» ما ترجع الى نقل «الوالي» الى مكان آخر ، وهذا ما كانت تفعله مع الجليليين ، أو تقضي عليه بعد نقله مثلما فعلت مع آل العظم ، كي لا يمكن للأسروية « العربية» ان تستمر أو تبني لها أي كيان قد تتبلور عنه سياسة مخالفة أو مأسسة مؤدلجة تنبثق عنها «دولة» ، وهذا ما حصل بعدئذ عند مصر محمد علي باشا .

وهكذا ، نجد بأن ليس هناك استمرار متعاقب في الادارة المحلية اللامركزية ، فكثيرا ما جاء ولاة أجانب ليقضوا شهورا في حكم هذه «الولاية» او تلك ، ثم ينقلون او يقتلون بفعل الانتفاضات الشعبية ، او بفعل أزمات مختلفة يدير خيوطها رجال الأسروية المحلية الذين كانوا يتمتعون بتحالفت واسعة النطاق مع مراكز القوى وبتعاطف جماهيري كبير[١٦] وهناك ملاحظة تاريخية جديرة بالتأمل ، ذلك ان الحصار الرهيب الذي تعرضت

له الموصل عام ١٧٤٣م على يد نادرشاه (كأبرز حدث تاريخي في تاريخ المشرق العربي خلال القرن الثامن عشر) ، لم نلحظ اشتراك فعلي او رمزي لدمشق في دفاعات الموصل الكبرى ، وقد فعل ذلك الوزير حسين باشا القازوقجي والي حلب بعد تعيينه من قبل السلطان محمود الاول ١٧٣٠-١٧٥٤م محافظا للموصل الى جانب واليها الوزير الحاج حسين باشا الجليلي ابان المحنة التاريخية [١٧] ومن خلال دراسة ما كان يكمن وراء الأحداث التاريخية والتمكن في عمق سايكلوجية الولاة بين الأسرتين ، لم نجد أي تعاطف بينهما نتيجة تضارب المصالح وتشابكها . . ولكن ثمة تشابه في الاحداث والمعالجات نظراً لاشتراك مجموعة الولايات الكبرى في المشرق العربي ببيئة موحدة جغرافيا وسكانيا وثقافياً ، وأقصد : دمشق والرقة وحلب والموصل وتجمعهم اقليميا «بادية الجزيرة الفراتية» ، فكثيراً ما حدثت اعتداءات بدوية وقبلية على القوافل التجارية وركبان الحج وعلى المراعي والمناطق الزراعية . . الخ ، اضافة الى الصراعات التي فجرتها المصالح الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية الصعبة ، اضافة الى السياسات التي اتبعتها الأسر المحلية الحاكمة [١٨] .

نمط الأسروية المغاربية / العثمانية :

أما النمطية الأسروية في كل من تونس وطرابلس الغرب ، فهي أقدم عهدا من أسروية المشرق العربي ، فقد تمثلت منذ القرن السابع عشر بهيمنة الأسرة المرادية على حكم تونس . ويمكننا ان توضح المراحل التاريخية التي تركب منها تاريخ تونس العثمانية ، التي اجتازت اربع مراحل مهمة ، هي :

١ - عهد الباشوات للفترة ١٥٧٤-١٥٩٠ (١٦سنة) .

٢ - عهد الدايات للفترة ١٥٩١-١٦٤٠م (٤٩سنة) .

٣ - عهد الأسرة المرادية للفترة ١٦٥٩-١٧٠٥م (٤٦ سنة) .

٤ - عهد الأسرة الحسينية للفتر ١٧٠٥-١٩٥٧م (٢٥٢ سنة) .

معنى هذا ، ان المؤسسة السياسية الحسينية في تونس قد بنيت على قاعدة تاريخية تراكمية مكينة ، كي تعيش عمرا طويلا تجاوز القرنين ونصف القرن ليس مقارنة بالعهود التي سبقتها بتونس فقط ، وانما مقارنة بتواريخ وأعمار حكومات عثمانية / اقليمية - محلية سواء كان ذلك في الأقاليم العربية ام الاناضولية ام الاوروبية . وعلى هذا

الأساس ، فان لتونس خصوصية عثمانية في تاريخ العرب الحديث ، كونها امتلكت خصائص عديدة لم يظفر بمثلها غيرها من الأقاليم العربية ، فقد تطور نظام الحكم فيها من عسكري/ نخبوي الى ملكي/ سلالي عندما تولت الاسرة المرادية حكم تونس خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ، والتي بدأت بعد نيل مراد باي الكورسيكي مرسوما عثمانيا جعل المنصب وراثيا في أسرته عام ١٦١٢م/ ١٠٢١هـ . وقد استفاد المراديون كثيرا من المواريث الحفصية في الشؤون الاقتصادية بعد صراع عنيف مع الفئات التي زاحمتهم الحكم المحلي ، واستخدم المراديون قصر باردو الذي عاش فيه الملوك الحفصيون . . وقد انتهت الأسرة المرادية من خلال الفتنة العائلية والانقسام بين أولاد الباي مراد[١٩] ، لكي يأتي الحسينيون من البايات الجدد على أيدي الجزائريين ، وذلك بعد انتخاب العلماء والأعيان آغا الجند حسين بن علي بن تركي بايا على تونس يوم ١٠ تموز / يوليو ١٧٠٥ . ، وقد نجح الباي الجديد في اخراج الجزائريين من بلاده ، وحصوله على مرسوم بجعل منصبه وراثيا في أسرته[٢٠] . . وقد حكم تسعة عشر بايا حسينيا تونس لمدة قرنين ونصف القرن حتى يوم ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٧ ، ويكاد يؤلف حكم الأسرتين المرادية والحسينية قرابة ٣٠٠ سنة من العمر التاريخي ، والتوارث السلالي/ المحلي في الدولة العثمانية ، وقد نتجت عنه افرازات بنيوية أثرت في تكوين تونس السياسي المعاصر اضافة الى مشروعها في التحديث المبكر ، وقد أكسبها ذلك شخصية حضارية وخصوصية تاريخية واضحة .

لقد شكل بقاء الأسرة الحسينية هذا العهد التاريخي الطويل وفي خضم قرنين ونصف القرن من الزمن الصعب الذي عانت « المنطقة» خلاله من تحديات خطيرة . . . شكل «ظاهرة تاريخية» في تاريخ الدولة العثمانية ، ولكن هذه «الظاهرة» ما كانت بغريبة عن تاريخ العرب ، فقد عرف العرب العشرات من السلالات الحاكمة ، وتكاد هذه «الظاهرة» لا تشكل شيئا لديهم مقارنة بالبنية الأسطورية لأشراف مكة الذين دامت ظاهرتهم التاريخية مئات السنين ولم تزل تحيا حتى يومنا هذا . ان الذي يهمنا من الأسروية الحسينية [٢٢] مقارنتها ببقية الأنظمة المحلية/الاقليمية في الأقاليم العربية خلال العهد العثماني ، فهي أطول عهد إداري لامركزي/ عثماني متميز ، ثم أكتسب له شخصيته الوطنية بعد الانهيار العثماني ، وبقي كعهد سياسي في ظل الحماية حتى اعلان النظام الجمهوري الجديد والغاء نظام البايات الذي كان قد افتقد قاعدته

الايديولوجية / العثمانية ، وبقي مستمرا بالاعتماد على بنيته الاقليمية ، وعلى صمود التوانسة امام مجموعة التحديات حتى عام ١٩٥٧ ، أي في ظل الحماية الفرنسية خلال أيام النضال الطويلة . . وانصهرت مجموعة الأقليات والجاليات في البودقة التونسية الوطنية خلال القرن العشرين .

لقد كانت الجاليات التركية والألبانية التي زرعها العثمانيون في تونس ، قد انغلقت على نفسها ، مستحوذة على سلطات اقليمية ، ادارية واقتصادية ، ثم بدأت بشكل تدريجي وخاص مع البايات الحسينيين [٢٣] ، تتحصل على نوع من الانفتاح تجاه المجتمع التونسي الذي تميز بشخصيته الاقتصادية [٢٤] ، وخصوصا بعد أن تبنت الأسرة الحسينية نظام الادارة الحفصية ، وكذلك عادات وتقاليد الحفصيين . وكانت اللغة العربية هي لغة الادارة والتعامل والعلاقات الدولية (وهذا ما وجدناه ايضا في دراستنا لطبيعة نظام وتقاليد ولاية الموصل الجليلية) . أما نظام الجيش ، فقد تغير ، وأسندت بعض المناصب الى بعض الأسر التونسية . ولقد اكتملت تونس بشخصيتها الدولية في عهد الحسينيين ، اذ رسمت خلاله حدود تونس الاقليمية بشكل نهائي ، كما وكان لها خلال العهد نفسه : عقد معاهدات مع دول أخرى دون المرور بالمركزية العثمانية ، وغدا لها أسطولها الخاص وعلاقاتها التجارية الخاصة . . اذ بقيت علاقة النظام الحسيني بالنظام العثماني علاقة لا مركزية لها روحها التاريخي [٢٥] .

لقد ترسخ نظام الحكم الأسروي الحسيني في تونس رغم الانقسام الذي عاشته الأسرة وأثره المرحلي على انقسام البلاد . . وكان لذلك تأثيره وامتداده البنيوي لمراحل تاريخية متقادمة . ويعتبر الباي حمودة باشا ١٧٨٣-١٨١٤م من أشهر البايات التوانسة الذين حكموا الايالة فترة طويلة ، وتميز حكمه بالقوة وصراع القوى الخارجية [٢٦] . ففي سنة ١٧٨٤-١٧٨٥م ، تقوم حرب ضد البندقية بسبب استئجار التجار التوانسة لسفن خرجت بهم الى مالطة ، وهناك يلقى القبض عليهم وتحرق بضاعتهم ، فيطالب حمودة باشا من البندقية تعويض التجار ، فردت البندقية برمي موانىء سوسة ، وحلق الواد بأسطولها ، وفي عام ١٧٨٥م رضيت البندقية بدفع الغرامة . . وفي هذه الفترة استعيدت نهائيا ،جزيرة جربة من حاكم طرابلس الغرب . ويستغل حمودة باشا انتفاضة الانكشارية عام ١٨١١م على الباي بعد اعتصامها بقلعة القصبة ، لأنه كان يهدف الى ابعادهم عن السلطة . واستطاع أن يقضي على الانشقاق العسكري ، باغتنامه الفرصة

لالغاء النظام الانكشاري ، ويكون جيشه الجديد المتألف من قسمين : جيش الخازنية وجيش المزارقية . أما دوليا ، فقد كانت له علاقات دولية طيبة مع فرنسا والدانمارك (٢٧) .

وأستطيع القول ، بأن هذا الباي هو المؤسس الحقيقي للاقليمية التونسية الحديثة ، التي انبثقت بشكل منظم ومؤسس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وانه دون شك قد تأثر بأحداث الثورة الفرنسية وأفكارها التي عاصرها عهده التاريخي المخضرم بين قرنين فانبثقت خلاله المعالم السياسية وبرزت الشخصية الدولية التونسية أسوة ببقية التكوينات الادارية اللامركزية في الأقاليم العربية . ونخلص بالقول ، ان نهج الأسروية الحسينية قد مورس في تونس بفعالية بالغة ، والذي خدمته عناصر جغرافية اقتصادية ، ويعتبر عهد حمودة باشا هو أبرز عهد تأثر بمؤسسات النظام الحفصي من طرف ، وبالنظم العصرية الاوروبية من طرف آخر . . مستمداً شرعيته التاريخية من أسس النظام العثماني . لقد ترافق عهد الباي حمودة باشا بعهد السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م ابو التحديث العثماني ، وقد مثل حمودة باشا أهمية بالغة في التطورات الاقتصادية التونسية ، ومباشرته إقامة توازن داخلي بين الدولتية والاقليمية ، وبين العربية ومختلف المجالات . . وانعاشه للاقتصاديات التونسية ، واصلاحه للموانىء ، وتأمينه للأسعار والأسواق والانتاجيات (٢٨) . .الخ

وكان للايالة التونسية تأثيرها البالغ على طرابلس الغرب التي تأسست فيها أسرة حاكمة عرفت بالأسرة القرمانلية . التي نجحت في حكم الايالة من خلال أبنائها الستة على مدى قرن وربع القرن للفترة ١٧١١-١٨٣٥م ، فقد استطاع أحد الجنود الأناضوليين ، الاستيلاء على الحكم فيها ، واسمه أحمد بن يوسف بن مصطفى في ٢٩ تموز / يوليو ١٧١١م ، أي بعد ست سنوات من استيلاء حسين بن علي على الحكم في تونس ، وقد قضى احمد على معارضيه بقسوة حتى تمكن من تأسيس حكمه . وقد انقسمت الأسرة القرمانلية على نفسها أيضا كمؤسسة حاكمة لاقليم تنوعت اقتصادياته ومسالكه ومنافذه الخارجية .·. كان حكم الأسرة القرمانلية أضعف قليلا من الحكم الحسيني بتونس ، فكثيرا ما تدّخل الحسينيون لحل المشاكل المستعصية التي عاشتها طرابلس الغرب عندما كانت علاقتها مع الباب العالي علاقة اسمية والتي انتهت لصالح المركزية العثمانية إثر الحملة البحرية التي قادها نجيب باشا وبتوجيه من السلطان محمود الثاني ، فتمت السيطرة على ميناء طرابلس الغرب سنة ١٨٣٥م وانتهى عهد الأسرة القرمانلية هناك (٢٩) .

لقد نجحت تونس العثمانية وحدها على يد الحسينيين في الحصول على أبرز الامتيازات اللامركزية التي ساعدتها فيما بعد على نيل اقتصادها وبنائه ، واستقلاله ، إلا أن ذلك لم يمنحها قدرة الانفصال عن العثمانيين رسميا واعلان الاستقلال الوطني ، وخصوصا خلال القرن التاسع عشر الذي عانى المغرب العربي خلاله من الامتدادات الاستعمارية والنفوذ الأوروبي والتحديات الجديدة ، فكان على تونس أن ترتب اوضاعها الاقتصادية والسياسية على ضوء تلك التحديات . . وفي نفس الوقت ، لم تخضع الايالة التونسية لاجراءات المركزية العثمانية التي طبقت على غيرها من الولايات العربية خلال القرن التاسع عشر .

٢ - النمطية المملوكية :

بكوات مصر :

ان «المملوكية» كمصطلح دلالي ومضمون تاريخي ، قد طبعت نظام الحكم العثماني العام . وهو نظام اقطاعي استخدم «المماليك» منذ فجر ولادته في تضاعيف القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلاديين[٣٠] ، ولكن النمطية المملوكية قد تمفصلت تاريخيا في دولة المماليك بمصر وسوريا بفرعيها : المماليك البحرية ١٢٥٠-١٣٩٠ ، والمماليك البرجية ١٣٨٢-١٥١٧م . وقد عاشت القاهرة كأشهر عاصمة تاريخية لتلك الدولة القوية عدة قرون [٣١] ، ممتلكة حكومة سلطانية ذات دفاعات باهرة أمام امتدادات المغول التتار ، وقد حافظت دولة المماليك على نظام الخلافة العباسية (كقوة روحية) في ظلها منذ سقوط بغداد عام ١٢٥٨م/٦٥٦ هـ[٣٢] .

لقد استخدمت الدولة العثمانية «المماليك» في نظام حكمها سواء كان ذلك في المركز أم الأقاليم ، واستطاعت أن تقضي على الدولة المملوكية اثر سيطرتها على سوريا ومصر خلال خريف وشتاء ١٥١٦-١٥١٧م ، وعلى يد السلطان سليم الأول الذي أمّن بسيطرته على الدواخل العربية ، العديد من استراتيجيات الوطن العربي ، وقد استفاد كثيرا من البنية المملوكية في مصر وميراثها التاريخي باستخدامه بقايا المماليك في ادارة مصر العثمانية ، وذلك بتنصيبه خاير بيك حاكما لمصر ، وجان بردي الغزالي حاكما على الشام[٣٣] . ولكنه قضى على رمز الخلافة العربية الممثلة بالخليفة المتوكل العباسي الذي كان يمثل الرمز الروحي للمسلمين .

بقيت النمطية المملوكية سارية المفعول في مصر منذ السيطرة العثمانية عام ١٥١٧م حتى غزو نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م ، أي على امتداد ثلاثة قرون كاملة . وقد وصل استبداد المماليك بالوالي العثماني الى حد إبقائه ممثلاً رمزياً للسلطان العثماني على مدى تاريخ طويل ، علماً بأن الامتداد المملوكي بقي ساري المفعول في مصر فقط ، أما سوريا ، فقد حكمها العثمانيون حكماً مباشراً ضمن أطر مختلفة من السيطرة سواء كان ذلك بأسلوب المركزية أم اللامركزية(٣٤) .

إن ما يهمنا ضمن مجال هذا البحث ، هو معرفة طبيعة النمطية المملوكية لحكم مصر التي تناوب فريقان من المماليك على السلطة اللامركزية/العثمانية فيها ، هما : ١ - الفقاريون وشعارهم أبيض . ٢ - القاسميون وعلمهم أحمر ، أي أنها كانت نمطية إقليمية منقسمة على نفسها أيضاً ضمن إطار الحكم المحلي في ولاية مصر(٣٥) . . فقاد ذلك كله الى أن يبقى المماليك محتفظين بالسلطات الإقليمية من خلال الصراع الداخلي مع الأوجاق والباشا . ولقد بلغت بها التحديات الداخلية حد الانقسام على نفسها . . وقد استبد الفقاريون بعد سنة ١٧٠٧م/١١١٩هـ لمدة ثماني سنوات ، ثم يعود الوفاق ثانية . تم للفقارية أخيرا ، القضاء على الفئات القاسمية نهائيا عام ١٧٣٠م/١١٤٣هـ(٣٦) ، وقد عانى أهالي مصر كثيراً من قسوة الحياة المعيشية وسطوة الضرائب ، نتيجة للرشوة والطلبة والمحسوبيات(٣٧) . . وكرد فعل تاريخي للكشاف المماليك الذين انقسموا على العهد العثماني الى قسمين متمفصلين في الحياة المصرية/العثمانية وعلى مدى زمني طويل : فقاريون وقاسميون ، ثم فرزت على مهل فئة البكوات المماليك خلال القرن الثامن عشر .

دعونا نوضح على جانب من الرؤية المعرفية-المقارنة ، كيفية نضوج نظام اللامركزية في إدارة مصر خلال القرن الثامن عشر ، خلافا لما ردّده العديد من المؤرخين ، بأن ذلك «النظام» قد وجد في مصر لأول مرة مع تولي محمد علي باشا عند مطلع القرن التاسع عشر ، لقد وجد العديد من الزعماء الذين أطلق عليهم لقب «شيخ البلد» في بقية الإيالات العثمانية-المغاربية : طرابلس الغرب وتونس والجزائر . كان في مصر قد امتد نفوذه ، واتسعت صلاحياته السلطوية نحو الريف ، بحكم مرجعيته المملوكية في مصر . وقد برز مملوك يوناني الأصل عرف باسم قابض الغمام أو الشيطان علي بيك الذي سيتزعم المماليك من خلال منصبه «شيخ البلد» لفترة ليست بالقصيرة ١٧٥٨-١٧٧٢م ،

استطاع خلالها أن يهيمن على المقاليد الأمنية ، فتتوقف الاعتداءات القبلية ، وقد تجاوز كثيراً بطموحاته امكانيات مصر البكوية(٣٨)

لقد عزل الوالي العثماني ، ومنع وصول الولاة الى مصر ، ونصّب نفسه قائمقاماً للولاية ، وأصدر نقوداً تحمل اسمه واسم السلطان . . وقد أشارت بعض الوثائق الرسمية الى اتخاذه لقب «عزيز مصر»(٣٩) ، ولهذا «اللقب» أكثر من دلالة ضمنية توضح طبيعة العلاقة بين مصر المملوكية والدولة العثمانية . . أما من الناحية التاريخية ، فقد أرسل علي بيك الكبير حملة عسكرية الى الحجاز ، لكي تفرض مرشحه شريفاً على مكة ، ثم حالف الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا ، لكي تهزم قواتهما المشتركة الجيش العثماني ثم تدخل دمشق ، ولكنها تنسحب لأسباب غامضة(٤٠) . إن خلافاً قد نشب بينه وبين مملوكه قائد الحملة محمد أبو الذهب الذي يجبر سيده علي بيك للفرار الى عكا بعد نزاع داخلي . . وقد كانت تلك هي بداية النهاية التاريخية لحكم «عزيز مصر» ، ورغم تحالفه مع الروس ومع ظاهر العمر بغرض التنسيق وترتيب العودة الى القاهرة ، إلا أنه هزم وجرح وأسر ومات في ظروف غامضة(٤١) .

وعلى الرغم من مواصلة بكوات مصر المماليك الحكم بعد علي بيك الكبير ، وحياة مصر في خضم صراعات داخلية وخارجية ، حتى قدوم بونابرت ، إلا أن حكم علي بيك الكبير يعد ظاهرة تاريخية في التفرد اللامركزي وصولا الى حلم الاستقلال عن العثمانيين ، وذلك ما لم يتم ، علما بأن تلك «الظاهرة» قد سبقت ظاهرة محمد علي باشا بنصف قرن . . معنى هذا : ان اللامركزية العثمانية في مصر قد ولدتها الصراعات الداخلية التي عاشتها أزمة الحكم العثماني فيها .

لقد أدى تفسخ المماليك ونزاعاتهم في مصر الى تنامي القوى الشعبية وجمهرة فئات الحرفيين وطائفة المشائخ ، وخصوصا مشايخ الأزهر ، فانعزل المماليك الذين زجرهم أقطاب المجتمع . ينبؤنا الجبرتي أن الشيخ الحفناوي صرخ في المماليك قائلا : « . . . خربتم البلاد والأقاليم وعلى أي شيء هذا الحال وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد(٤٢) . .» .

هكذا ، ساعدت الانقسامات المملوكية في ظل انتعاش الادارة اللامركزية العثمانية الى تبلور تراكيب اجتماعية قوية في بنية المجتمع المصري ، وقفت طائفة «المشائخ» على

رأسها بعد أن تقوى نفوذها الاقتصادي إثر عزلة المماليك ، «ولم يأت آخر القرن الثامن عشر حتى كانت كراهية الحكم التي أصبحت تعمّ أهالي مصر قاطبة . . [٤٣]» .

باشوات العراق :

وتختلف النمطية المملوكية في القاهرة كثيراً عن تلك التي تبلورت ببغداد التي انفصل أمر الباشوات المماليك فيها ، ببروزهم فجأة كي يحكموا ولاية بغداد ، ويؤثروا فيما بعد في سياسة العراق الاقليمية . . أولئك الذين تجمعوا في بيت الوالي الشهير حسن باشا ، والي بغداد ١٧٠٤-١٧٢٣م ، ومؤسس نظام المماليك ، الذين تسلموا السلطة من خلال المصاهرة السياسية مع بيت حسن باشا الذي عاش أزمة الصراع الخارجي ضد ايران[٤٤] ، ومن ثم اعتماد السلطنة العثمانية عليهم في إبعاد المخاطر المتعددة التي كان يعيشها العراق مع أطراف عديدة ، وقد اندمج كل من الاثنين في المجتمع العراقي .

فكيف جرى ذلك؟

لقد تهيأ للعراق خلال القرن الثامن عشر ، أكثر من وال قوي قدير لكي يعالج مشاكله التاريخية المستفحلة ، فكان حسن باشا الذي نصّبه العثمانيون والياً على بغداد عام ١٧٠٤م ، وكان حاكماً مجرباً وخبيراً ، وتولى ولده أحمد باشا الحكم من بعده ، وكان وزيراً خطيراً ، فأرسى الاثنان بناء أول حكومة بغدادية قوية ، وقاما بجلب المماليك من قوقاسيا وجورجيا ، وبدءا بتدريبهم وتثقيفهم ، ليشكلوا خلال القرن الثامن عشر ، طبقة عسكرية وادارية حاكمة في بغداد[٤٥] . وقد تمكنت بصورة طبيعية من الاستحواذ على الحكم الذي دام أكثر من ٨٠ سنة ، عاش العراق عصراً أكثر استقرارا ، مذ بدأت صفحة تاريخية جديدة من حياته الحديثة . . لقد استمر حكم المماليك الكوله مند للعراق للفترة ١٧٤٩-١٨٣١م[٤٦] ، وبذلك اقترب مماليك العراق من حيث التنظيم من مماليك مصر[٤٧] .

عانى العراق من مشكلتين أساسيتين في تاريخه الحديث : أولاهما تتمثل بالمشكلة العشائرية ، أما الثانية ، فتمثل بمشكلة الصراع مع إيران . فاستطاع حسن باشا من تكوين جيش جديد بعد تدهور فصائل الانكشارية وعبثها وفسادها . . أما الجيش الجديد ، فقد كونه من «المماليك» الذين رباهم تربية عسكرية وادارية عراقية خاصة ، فامتلكوا قدرات

نافذة في صنع القرار الاداري والعسكري[٤٨] . وقد وصل أحدهم وهو سليمان باشا ابو ليله الى حكم ولاية بغداد بعد وفاة واليها الوزير احمد باشا بن حسن باشا سنة ١٧٤٧م ، وكان سليمان باشا هو كتخداه احمد باشا وصهره ، فاستطاع ان يرسخ هيمنته ، ويؤسس البنية المملوكية في العراق ، بعد أن وجد المماليك عونا واستحسانا من قبل أبناء العراق الذين فضلوهم على الأتراك ، نظراً لاندماجهم الاجتماعي وعدم شعور المماليك بالاغتراب . . وفي عهد خليفته عمر باشا ١٧٦٤-١٧٧٥م ، تميز العراق بظاهرتين تاريخيتين : الأولى غزو ايران ١٧٧٥-١٧٧٦م ، والثانية : تبلور المصالح البريطانية خلال القرن الثامن عشر[٤٩] .

اشتهر والي بغداد سليمان باشا الكبير ١٧٨٠-١٨٠٢م ، بسبب مجهوداته ضد العدوان الايراني على البصرة ، وقضائه على تمردات العشائر ، ثم رده للهجمات الوهابية/النجدية على العراق . وقد لقي تأييداً عراقياً ، وارتفعت مكانة العراق الدولية[٥٠] . . ثم حكم بعده سليمان باشا الصغير ١٨٠٨-١٨١٠م إثر باشوية شاغرة وأوضاع مضطربة ، وحكم ضعيف لـ علي باشا ١٨٠٢-١٨٠٨[٥١] . لقد ازداد النفوذ الفرنسي والتدخل البريطاني خلال باشوية الصغير[٥٢] ، وعندما عزل ، انقسم المماليك انقساماً شديداً ، وعاشت بغداد صراعاً داخلياً برزت عنه شخصية سياسية مؤثرة في توجه الأحداث . . لقد ظهر داود باشا الذي زاحم منافسيه ، وتسلم الحكم في بغداد ودام عهده للفترة ١٨١٧-١٨٣١م[٥٣] ، فورث مشاكل لا تحصى ، أبرزها : العشائر في تمرداتهم ، الانكليز في تزايد نفوذهم . . كما واجه أيضاً غزواً فارسياً للعراق بين ١٨٢٠-١٨٢٢[٥٤] ، فأخضع العشائر الثائرة ، وأوقف الخطر الإيراني الحربي بنجاحه دبلوماسياً بعقد معاهدة أرضروم الأولى مع إيران في ٢٨ تموز/يوليو ١٨٢٣م[٥٥] .

أما الانكليز ، فكان لداود باشا جولات واسعة من الصدام السياسي والاقتصادي بحكم إدارته اللامركزية القوية التي تعبر حصيلة التجربة المملوكية لمماليك الكوله مند في بغداد ، والذين كانت لهم مواقفهم إزاء الصراع الخارجي[٥٦] ، لقد اصطدم داود باشا مع الانكليز الذين أرادوا ادخال العراق ضمن منطقة النفوذ البريطاني وتحت السيادة البريطانية في الخليج العربي التي حصلت عليها من خلال حملاتها وفرضها المعاهدات مع العديد من المشيخات العربية . وقد ازدادت أهمية العراق الجنوبي (بغداد/البصرة) استراتيجيا منذ قيام الفرنسيين بغزو مصر عام ١٧٩٨م .

لقد حاول داود باشا محاصرة النفوذ البريطاني ، ولكن بريطانيا حاصرت العراق تجاريا ،فتكبّد خسائر كبرى[٥٧] ، اذ كانت التجارة الدولية (=الهندية/البريطانية) أبرز ممول لخزينة بغداد ، فتراجع داود باشا عن مواقفه ووقع اتفاقية مع الانكليز الذين وجدوا فيها موطىء قدم لهم تمهيدا نحو الاحتلال الذي حققته بريطانيا على العراق خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م . لقد قدم داود باشا محاولات إصلاحية بارزة في مجالات عديدة بالتعاون مع الانكليز ، ولكن مشروعه لم يكتمل ، نظراً لإعادة الدولة العثمانية نظام حكم المركزية/الادارية لأقاليمها وولاياتها إبان عهد السلطان محمود الثاني ، فقد عاد الحكم العثماني المباشر في ١٤ أيلول/سبتمبر ١٨٣١م كي تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العراق الحديث .

لقد كان لباشوات العراق من المماليك الكيرليميين (=الأرقاء البيض) حالات عسكرية أوليغارية أقل درجة من الأنماط التي وجدت في كل من الجزائر وبلاد الشام وبعض أقاليم الأناضول (أنظر : النمطية الأوليغارية أدناه) . إن استقلالية باشوات العراق المماليك عن السلطان من حيث الجوهر قد اختلفت من الناحية الفعلية عن الحالات التي عاشها مماليك مصر حتى عام ١٨٠٥م ، اذ كانت مصر قد غدت صنيعة لهم ، واعتبرت نموذجا للتفتت الإقطاعي والفوضى الاقتصادية الداخلية[٥٨] . وقد وجدنا من خلال مقارنة الظواهر التاريخية ، بأن انقسامات عديدة قد حدثت في البنية المملوكية العراقية ، اذ عاشت بغداد مؤامرات عديدة في قصر الوالي الذي يربي المملوك ليجعله بمقام ولده ثم يزوجه ابنته أو أخته ، ويثق به ، فيسلم له أكثر أموره ، ثم لا يلبث «المملوك» حتّى يتآمر على سيده فيقتله . وقد تكررت هذه الحالات مرات عديدة . . وكان هناك أيضا الصراع السياسي/الباشوي بين الأقاليم الشمالية (=الموصل + السليمانية) وبين إقليم بغداد ، ناهيك عن الصراع بين بغداد والعشائر في الجنوب . يضاف الى ذلك كله : الاعتداءات الإيرانية المزمنة واستفحال الصدامات النجدية/الوهابية ، والتدخلات البريطانية السافرة[٥٩] .

٣ - النمطية الأوليغارية :

الأساليب الأوليغارية :

تعتبر هذه «النمطية» من أكثر الحالات في تاريخية العرب الحديث ، توترا في

العلاقات الادارية والاجتماعية بفعل الأجهزة العسكرية/السلطوية المسيطرة على مرافق الحياة ومداخلاتها ، ثم الأنظمة الاقطاعية القوية لتلك «الأجهزة» التي فرضت نفسها على الميدان الاداري البيروقراطي بصورة خاصة . . والتي خلقت حالات انفصام انثروبولوجية وسوسيولوجية وثقافية أكبر بين الأهالي والسلطات العسكرية (=الأوجاقات) . إن أبرز العوامل التي ساعدت على تبلور ذلك : تداعيات نظام الحكم العثماني في القرن الثامن عشر ، والتي استندت ايديولوجياً على «حالات اربع» تمثلت بـ : الاعتراف بالسلطة العليا للسلطان العثماني ، والأرثوذكسية الدينية ، وفكرة أولوية المسلمين على المسيحيين ، وعلى أولوية الصلة الدينية بين الأهالي على الصلة الإثنية أو صلات أخرى[٦٠] .

وهناك عوامل أخرى انبثقت منذ القرن الثامن عشر كي تتبلور حالات متعددة لهذه النمطية الأوليغارية في البيئات المتنوعة العربية وينضجها القرن الثامن عشر إثر الضعف الذي حاق بالبنية العثمانية العليا[٦١] ، نجد باختصار : تألب الجماعات والقوى المحلية من العسكر العثماني والأعيان والملتزمين والأغوات . .الخ للدفاع عن «مصالح» محلية جديدة لها ، فتشكلت تحالفات متنوعة بينهم وبين الملاك والتجار وحتى بعض الصنوف الحرفية[٦٢] . بمعنى حدوث ائتلافات لم تكن موجودة ومتميزة فيما سبق بين الطبقات العليا في المجتمع وبين القوى العسكرية العثمانية ، وولادة ممارسات سلطوية تستند في حياتها على النظام العثماني ، بل وولادة «كيانات» اقليمية لا تعمل لصالح السكان وعموم الجماهير ، بل وانسحقت فئات متنوعة من الشعب تحت وطأة التسلطية والتعسف والظلم العسكري (الأغواتي) والتقلص في الحرفية الصنائعية والتجارات المحلية والصغرى وعدم توفر العمل نتيجة للعسكرة ، ثم ازدياد القحط والأوبئة[٦٣] . . وهجمات القرصنة في العديد من القسمات العربية ، رافقها البروز التدريجي لدور الهجرات السكانية والبدوية في قسمات أخرى[٦٥] . ونتيجة لذلك كله ، كان لا بد أن يبرز العديد من الرجالات الطغاة الأوليغاريين في أنحاد عديدة من البيئة العربية .

هكذا ، ازدادت استقلالية الحكام العسكريين/الاقطاعيين مع ترهل وتراخي المجتمع العربي من جانب ، ومع احتدام وقوة الأزمة البنيوية للنظام العسكري العثماني . وازدادات فاعلية الحكم الأوليغاري المطلق لمن تمتعوا بالسلطة العسكرية النافذة[٦٦] ، وطبقوا سياسة

اغتصابية ، وانتهجوا «اللامركزية الادارية» في التسلط الاقليمي القوي ، في وقت كانوا يعارضون بل ويخالفون في بعض الأحيان : سياسة البلاط المركزية للأساليب الأوليغارية خلال القرن الثامن عشر ، سيجد دون شك ، أن بعضها قد انتهجته بصورة مباشرة أو غير مباشرة ،بأنظمة إدارية عديدة[٦٧] تنتمي الى النمطية الأسروية أو النمطية المملوكية ، أوحتى النمطية الإثنية سواء كان ذلك في أقاليم المشرق أم أقاليم المغرب العربيين .

دعونا نتوقف أدناه عند أبرز النماذج القوية للنمطية الأوليغارية التي تمتّعت بها بعض «الأقاليم العربية» ، وسنركز على الجزائر وفلسطين وديار بكر . . .

دايات الجزائر وزعامات بلاد الشام :

لقد ازداد نفوذ الحكم الاقليمي المطلق وفاعلية النمطية الأوليغارية بقوة في إيالة الجزائر التي تمتعت بنظام عسكري اقترب كثيراً من النظام «المعاصر» لـ«الجمهورية العسكرية»[٦٨] . لقد كانت الإيالة الجزائرية قد أخطرت منذ عام ١٧١١م أن تنتخب حكامها العسكريين من خلال ثلاث مؤسسات كان لها جذورها التاريخية/العثمانية في البنيةالجزائرية : ١ - الديوان . ٢ - الأوجاق . ٣ - طائفة الرياس[٦٩] . فالدايات الأوليغاريون في الجزائر ، كانوا يمثلون على امتداد قرن كامل أو يزيد ، ولاة منتخبين من قبل القوى العسكرية المهيمنة على شؤون البلاد ، والتي تتألف من الطبقة الأرستقراطية/العسكرية والبحرية[٧٠] .. وتتوضح الجوانب الأوليغارية لدى هؤلاء الحكام أكثر من الحالات الأوليغارية التي تمتع بها المماليك الكوله منذ في كل من بغداد والبصرة ، والذين طغت عندهم النمطية المملوكية في بناء المصالح البيروقراطية والتجارية أكثر بكثير من المصالح العسكرية والبحرية (=القرصنة) لدى الدايات في الجزائر .

لقد وجدت النمطية الأوليغارية/ الجزائرية مرجعيتها التاريخية في المأسسة الاقليمية وبناء الخصوصية البحرية/المتوسطية على يد خير الدين + عروج (=عهد باربروسا) خلال النصف الأول من القرن ١٦ ، مروراً بثلاث مراحل تاريخية مهمة :

١ - مرحلة البايلراي ١٥٤٦-١٥٨٧م .

٢ - مرحلة الباشوات ١٥٨٧-١٦٥٩م .

٣ - مرحلة الدايات ١٦٧١-١٨٣٠م .

أما كيف تبلورت النمطية الأوليغارية للحكم العثماني اللامركزي؟

عند مطلع القرن الثامن عشر، غدا مصطلح (الداي)[٧٢] يمثل شخصية «دولية» تجسدها الإيالة الجزائرية، ومنح حق التوقيع على المعاهدات مع الدول الأوروبية بحريّة مطلقة، وكذلك منح حق الحصول على الموارد المالية بصرامة بعد تطور عمليات القرصنة البحرية التي غدت تمثل نسقا تاريخيا معروفا ضمن حالة الصراع المزمن ضد الهجمات الأوروبية التي خططت لافتراس المغرب العربي الكبير على امتداد القرون المتأخرة. أي كجزء من امتداد الصراع التاريخي بين أوروبا والعالم الاسلامي(الحروب الصليبية).

وماذا أيضا ؟

كان الدايات الأوليغاريون ينتخبون بمعرفة ضباط الجيش من خلال مجلس الأوجاق (الحربي). وقد تولى الحكم على التعاقب ثلاثون دايا للفترة ١٦٧١-١٨٣٠م، وقد قام الكثيرون منهم باغتيال أسلافهم، لكي تتم الصور التقليدية للانتخابات الرئاسية، اذ يتقدم المرشّح للحكم للمبايعة، ويقوم بممارسة سلطته التي كان قد خلق قاعدتها، فلم تكن هناك شروط مرعية للمنصب كالكفاءة والأصالة والحسب حسب الأعراف التي عرفتها النمطية الأسروية، أو الأصول التي تعارف عليها النظام التاريخي العربي. وتعد سنة ١٧١١م، حدّاً فاصلاً بين عهدين متنوعين خلال مرحلة الدايات، وذلك اثر اغتيال الباشا بكداش، فتدخلت قوى العاصمة استانبول لكي تثبت طريقة التولية والعزل. وغدت الجزائر إيالة تتمتع بشؤون السيادة الاقليمية تحت المظلة العثمانيةالتي تجلها وتقـــدرها[٧٣]. وغدت للداي مكانة سلطوية/سياسية من خلال ميراثه الاوليغاري الاقليمي أولا، وبسبب لامركزيته الادارية/ العثمانية ثانيا.. فهو الذي ينتخب وزراءه، ويولي «باياته» على الأقاليم، وله حق التفاوض مع الأجانب والقناصل إضافة الى قرار الحرب والسلم.. وقد طوّرت شكليات وبروتوكولات وأعراف في الدبلوماسية الاقليمية، اضافة الى اقتصاديات الإيالة والجيش والبحر وقد انتهى حكم الدايات على يد فرنسا التي احتلت الجزائر العثمانية عام ١٨٣٠[٧٤].

ونجد في المشرق العربي، أكثر من ظاهرة أوليغارية، كان من أبرزها، تلك التي تمثلت بشخصيتين أوليغاريتين عسكريتين تواصلتا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر

في أجزاء من بلاد الشام، هما: ظاهر العمر في عكا التي احتلها عام ١٧٤٩م، وقد انتعش الاقتصاد في عهده كثيراً [٧٥] .. وحاول أن يستقل بإمارته عن السلطة المركزية العثمانية، وقتل غيلة عام ١٧٧٥ [٧٦]، لينتقل الحكم الى أحمد باشا الجزار لكي تبدأ صفحة اوليغارية جديدة في حياة العرب خلال القرن المذكور.

لقد استطاع ظاهر العمر أن يرسّخ حكمه في صفد مستغلا حالة الصراع المزمن بين العثمانيين والدروز، كي يمتد بنفوذه الى صيدا سنة ١٧٣٣م، ثم يافا وحيفا والرملة ونابلس عام ١٧٣٥م، ثم صفد عام ١٧٣٩م .. بواسطة الشحنات القوية للعلاقات الاقتصادية مع التجار الفرنسيين، اتخذ ميناء عكا مقراً له سنة ١٧٤٦م، في حين رسخ علاقات ودية اقليمية مع آل العظم بدمشق. .وتحالف مع علي بيك الكبير والي مصر، لمواجهة مؤامرات والي حلب وأمير الدروز وطرابلس الشام والتي كان يقود خيوطها عثمان باشا الصادق والي دمشق [٧٧] لقد قادت الظروف والتحالفات الاقليمية، الدولة العثمانية الى القضاء على أوليغارية ظاهر العمر بواسطة مملوكها المخلص احمد باشا الجزار الذي حاصر عكا .. وبقي ظاهر العمر يقاوم طويلاً حتى ضعف بعد انهيار قواته الخاصة، وحاول الهرب، فقبض عليه وقتل عام ١٧٧٥م [٧٨]، بعد أن بنى دولة اقليمية بارزة كانت لها سلطويتها الأوليغارية المسيطرة على المرافق الاقتصادية والاجتماعية في أجزاء عديدة من فلسطين .. وهي «دولة» ذي كيان سياسي اقليمي زادت حياتها على ربع قرن من تاريخ العرب الحديث.

نعم، على أعقاب دولة ظاهر العمر، ولدت سلطوية أوليغارية جديدة شكلها احمد باشا الجزار الذي اختلف المؤرخون في معرفة سبب تلقبه بذلك اللقب (=الجزار)، ولكنهم عرفوا أصله كمملوك ربّاهُ علي بيك الكبير، ثم بيع في القسطنطينية بعد هروبه من مصر [٧٩] . ولا بد أن يكون لقبه هو «صفة» قد غلبت على صاحبها (=الموصوف) في يوم من الأيام بسبب قسوته وغدره وساديته. نصّب على باشوية صيدا، واتخذ عكا عاصمة له بعد ذلك عام ١٧٧٥م. وقد اختلف في حكمه الاقليمي عن غيره من الباشوات، لتكريسه النفوذ العثماني في بداية الأمر، ثم بدأ بممارسة سلطوية أوليغارية لامركزية، بعدما اطمأن له الباب العالي، وكرّس قسوته في معاملة الأهالي، فتوطد حكمه على باشوية صيدا ربع قرن آخر من التاريخ الاقليمي لبلاد الشام، وللفترة ١٧٧٥-١٨٠٤ [٨٠] .

إن سياسة الجزار التعسفية في فرض ضرائب ثقيلة والتزامات صعبة .. قد أنتجت

ردود فعل متباينة لدى السكان في بلاد الشام ، منها : ثورة الفلاحين في دمشق التي أخمدها . وهناك ثورة ١٧٨٩م في لبنان والتي استطاع القضاء عليها أيضا . ويحدثنا المؤرخ ميخائيل الدمشقي عن الفرح الذي غمر الناس عندما عزل الجزار ، فقاموا بتزيين الشوارع ، وإشعال الشموع[٨١] . لقد تحكم الجزار في لبنان ، وتسلط اقليميا ومحليا على الشهابيين[٨٢] الذين كانوا يمثلون نمطية من نوع آخر في الحكم . . ولكن؟ كان حصار عكا ، هو أبرز حدث تاريخي في أوليغارية احمد باشا الجزار ، متمثلا ذلك بصده الشديد لحملة نابليون بونابرت على بلاد الشام بعد تقدمه اليها من مصر واستيلائه على العريش وغزة ويافا وحيفا دون مقاومة ، ولكنه فشل في اقتحام عكا التي دافع الجزار عنها باستماتة بعد حصارها الشديد ، وانتصر الجزار باسم العثمانيين ، فعاد نابليون الى مصر خائراً منهزماً بعد تكبده خسائر جسيمة[٨٣] . لقد توفي احمد باشا الجزار سنة ١٨٠٤م ، فأدت وفاته الى «أزمة حكم» عالجتها الدولة العثمانية من خلال إعادة حكم نظام المركزية الادارية العثمانية المباشر[٨٤] .

لقد مرت أغلب السياسات الاوليغارية في الولايات العثمانية من خلال الأوجاقات والمجالس العسكرية والقوناغات ومراكز تجمع القيادات الانكشارية أو السباهية أو قيادات صنوف أخرى متنوعة من العساكر الاقليميين والمحليين سواء كانوا نظاميين أم شراذم مرتزقة ، ساعدت جميعها على حلول الانقسامات الاجتماعية إثر الصراعات العسكرية والادارية المريرة . وقد تفاقمت آلية العمل الاوليغاري على مدى عقود القرن السابع عشر لتصل الى «الحالة» التي سجلتها نماذج القرن الثامن عشر ، وخصوصا بعد تحول «الأوجاقات» لممارسة سياسات متنوعة بعد ممارستها العمل العسكري فقط . . اذ غدت القياسات العسكرية والجندية «أقل ما شغل جنود الأوجاقات» على حد تعبير المؤرخ محمد شفيق غربال[٨٥] . أما طبيعة الاجراءات الحربية التي طبقها دايات الجزائر في البحر ، واحمد باشا الجزار في عكا وعبد الله باشا جته جي في ديار بكر وغيرهم ، فقد كانت اجراءات وقائية ضد القرصنة البرية والبحرية المتعددة على أطراف الوطن العربي . . دون إجراء أية تحالفات مع الغزاة كما حدث في أطراف أخرى منه . . . السؤال الآن : كيف تفاقمت آلية العمل الاوليغاري؟

يقول المؤرخ خليل ايناجيك : «شهدت الفترة الواقعة بين ١٥٩٣-١٦٠٦م ، تغييرات في البنية العسكرية والاجتماعية والسياسية للامبراطورية التي سمحت أجهزتها العليا

للعناصر المحلية من الأتراك بالانتساب الى القوات الانكشارية[٨٦] التي كانت مقتصرة على الفئات الأوروبية اليافعة .. وكانت غالبية القوى العسكرية المحلية من فلاحي الأناضول الذين سيعرفون فيما بعد بـ«السكبان» وقد نظمهم وجمعهم العديد من الولاة المحليين ، في تشكيلات عرفت بـ«البلوكات»[٨٧] . وانضم الآلاف من السكبان المتشردين الى الحركة الجلالية التي اكتسحت الأناضول مستغلة المظالم الاجتماعية .. وكان لسلسلة أحداث التمرد واسع النطاق تأثيره على الأقاليم العربية المجاورة كبلاد الشام التي انتشر السكبان فيها ، وكانت لثنائيتهم الطائفية : الأعراف والعهود والمواثيق والعلوفات (=الرواتب) والبيارق . وكان من أبرز الأدوار التي اضطلعوا بها : «تكوين جيوش الزعامات المحلية» (=الاوليغارية)[٨٨] . أما إيالة الجزائر ، فقد كان لفئات الجيش التركي تأثير كبير في بلورة النسق الاوليغاري حتى عام ١٨٣٠م .

٤ – النمطية الإثنية (= التحزبات العرقية) :

أ ـ النظـــــام

ان نظام الاثنيات (=العصبيات العرقية) قديم في تاريخ العرب ، وخصوصا في منطقة المشرق العربي .. وان أنساقه الأنثروبولوجية في الانقسامية ، انما تمتد الى أحقاب التواريخ القروسطية ، مذ تفجر التعصب بين القيسية واليمانية مثلا . وقد تلونت صفحات من تواريخ المنطقة وانثروبولوجياتها بالمزيد من «العصبيات» والقبائل والبطون والأفخاذ .. ثم المزيد من البيوتات والأسر التي غدت أقواها صاحبة تكوينات سياسية متعددة .. ويبدو للمؤرخ أن الأمة العربية هي أبرز أمة في تاريخ البشرية ، اهتمت وحافظت ودرست وتفاخرت .. بالأصول والأنساب والأعراق منذ مئات السنين .

يقول المؤرخ أحمد عزت عبد الكريم : « التعصب بين قيس ويمن قديم في التاريخ الاسلامي ... وقد استمر قائما في سورية – وفي لبنان خاصة – بعد الفتح العثماني . وهذا التعصب كما انحدر حتى القرن الثامن عشر أصبح لا يمت الى أصول (جنسية) أو (قومية) بقدر ما يرجع الى خصومات (أسرية) ، وقد اصطنعت القيسية لها علما خاصا أحمر اللون وشارته قرنفلة حمراء ، بينما اتخذت اليمنية علماً أبيض اللون شارته زهرة خشخاش بيضاء . كان كل من رجال الحزبين يتعارفون بعبارات خاصة ويحيون أعلامهم بألفاظ اصطلحوا عليها[٨٩] .

هذا أنموذج واحد بارز من عشرات النماذج التي تؤلف أنساق هذه «النمطية» التي تمتاز بالتنوع والتعددية ، ولكنها أضرت بالمصالح التاريخية للأمة العربية على امتداد قرون عديدة ، وفي ظل حكومات ودويلات ودول متنوعة ، تلك التي ولدت وعاشت على الأرض العربية خلال العصور الوسطى . ما يهمنا - في هذه البحث - التعرف على طبيعة هذه «النمطية» في البيئة العربية خلال العهد العثماني ؟

أقول : لقد تركزت التحزّبات العرقية في أطراف البيئات العربية دون دواخلها التي كنت قد وصفتها بـ«التوابع» في دراستي عن طبيعة السيطرة العثمانية للوطن العربية[٩٠] . بمعنى : ان التعمق قليلا في الجغرافية التاريخية لـ «تكوين العرب الحديث» سيوضح جلياً بأن «العصبيات» قد تركزت على الأطراف (=التوابع) والتي بيناها سلفا ، وهي : لبنان / كردستان العراق والأناضول / نجد / حضرموت / الجزر العربية / السودان الغربي والجنوبي / الصحارى المغاربية / البوادي والتخوم العربية . . . . وبيئات عربية تابعة أخرى كانت الأثنيات فيها قد تنامت على مدى أحقاب طويلة من السنين .

كانت العلاقة مع العثمانيين في طبيعتها على شكل من التحدي او الرفض او على شكل غير مباشر من اللامركزية بمضامين محلية/ عصبية ، باعتبار ان التشكيلات الاجتماعية تنظمها حكومات قبلية او أسرية أو عصبية أو عشائرية منذ القدم[٩١] . وهذا ما نجده دوما في المناطق الجغرافية الصعبة ، كأن تكون مناطق بعيدة ومنقطعة : صحراوية أو جبلية أو بحرية أو استوائية لم تصلها المركزية العثمانية في يوم من الأيام وبأي شكل من الأشكال . وان تبعيتها السياسية كانت لأقرب المدن والعواصم الاقليمية (= الحواضر العربية الكبرى) كحلب والموصل ودمشق وبيروت ومكة والبصرة وطرابلس الغرب وتونس ووهران وغيرها . وكثيرا ما عاشت هذه الحواضر المدنية حالات صراع عسكري ونزاعات مستمرة مع توابعها من أجل الهيمنة السياسية والمصالح الاقتصادية .

ب ـ الانقسام والتنوع

كان الاحساس بالانتماء قبليا/ عشائرياً أو عصبيا/ متوارثا أو أقلياتيا/ محافظا في مجموعات منعزلة . وتعتمد الفئات الاثنية في مواردها وحياتها المعيشية على الري والزراعة أو الرعي والقنص والصيد البحري . أما البدو فيعتمدون الرعي والكلأ او السلب والسطو على القوافل التجارية وركبان الحج (وهو نوع من تحدي سلطة المركزية العثمانية وتجارات الأقاليم المتنوعة) . ولذلك كله : كان هناك ثمة أحاسيس قوية بنوع من الوحدة

المتوارثة[٩٢] داخل البنية الاثنية (=الوحدة العصبية / القبيلة / العشيرة) ، ساعدت على بقائها واستمرارها في التمرد على العثمانيين دوما ، والارادة في الانفصال عن بطشهم الضرائبي أو البيروقراطي/ الاداري المتواجد في مراكز الأقاليم . . كما ساعدت من ناحية أخرى : تلك الانقسامية في المجتمع العربي على إبقائه يتوارث حالة الفصل بين البداوة والحضارة [٩٣] . بين الريف والمدينة ، مما أسهم في إعاقة التبلور القومي / العربي باتجاه العثمانيين وحكمهم المتنوع والمتعدد الأشكال زمنا طويلا .

ولم تجد تلك «الاثنيات» المتنوعة ، أي نوع من الاطمئنان تجاه الحكومات المحلية والاقليمية العثمانية ذات العلاقة اللامركزية ، فكانت تحدياتها بمثابة درء للمشاكل والخوف معا . . اذ لم تكن السلطات العثمانية تقدم لها إلا مطالب مستمرة بدفع الضرائب والمنح والاتاوات . ونظرا لتذبذب العلاقة والسيطرة على تلك المناطق من التوابع والأطراف ، فقد كانت البنيات الاثنية تتبادل الخدمات والمصالح والحماية مع بعضها البعض الآخر ، بدلا من الاعتماد على أية حكومة اقليمية او محلية عثمانية . . او ان تدخل في صراعات مع بعضها البعض الآخر نتيجة للتعارض الواسع في المصالح ، فتقوم تحالفات ضد تحالفت أخرى ضمن بيئة معينة ، وقد تتوسع الى حرب أهلية قاسية تستفيد منها الاستراتيجية العثمانية[٩٤] .

وتوارثت العصبيات الاثنية مبدأ الدفاع عن النفس والحصون ومراكز التجمعات ، وحتّى عن حكوماتها القبلية / الاثنية التي تنوعت ، واعتبرت جميعها في حالة تمرد ، او تضاد او تحد مع العثمانيين . ولقد كانت هناك « الاتحادات» العشائرية او القبلية التي امتازت بأنظمتها وأعرافها (التي تحتاج الى دراسات تاريخية عربية رصينة مقارنة على طرفي الأمة : المشرق والمغرب العربيين)[٩٥] . أما الروح الاثنية ، فهي عميقة الجذور بسبب التبلور التاريخي انثروبولوجياً وسوسيولوجيا ، والذي أوصلها الى اوضاعها التي عاشتها خلال القرون المتأخرة بعد أحقاب من المواجهة مع الدول السلطانية القوية والغريبة ، وآخرها « الدولةالعثمانية» ، أو في مواجهة الدول الأوروبية وقواها الاستعمارية فيما بعد أي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وكثيرا ما كانت الظروف الطبيعية تساعد الى جانب الواقع التاريخي في تعزيز تلك الروح الاثنية ، والالتصاق بالأرض عند الجماهير . . في حين لعبت «قياداتها» ادواراً مشينة إثر تحالفاتها المتكررة مع القوى الاجنبية ، ففقدت الأمة الكثير من مصالحها الاقليمية في العديد من المواطن الاستراتيجية العربية [٩٦] .

لقد اعتمدت الحكومات الاثنية خلال القرون المتأخرة على الاقتصاديات المتوطنة البسيطة القائمة على الملكيات الجماعية للأرض أو المياه أو النباتات الطبيعية (= في الجبال) ، او الواحات والمسالك التجارية (= في الصحراء) . وسادت الروح التعاونية في أغلب تلك البنى الاثنية بتوزيع المحاصيل بالتساوي ، او المساعدة الجماعية للفقراء والمعوزين ، أو الانفاقات العامة على الدفاعات والحصون . . هكذا ، نعلم من خلال المقارنة بأن مثل هذا «النظام» الاجتماعي قد استخدم على كلا الجانبين من الأرض العربية : المشرق والمغرب العربيين ، اذ يتشابه النظام الاجتماعي لعشائر جنوبي العراق كثيرا مع النظام الاجتماعي الذي كان ولم يزل مستخدما في جنوبي الجزائر مثلا (التطبيق الميداني : قارن مجتمع مدينة العمارة / الأهوار في جنوبي العراق مع مجتمع مدينة غردايه الاثني المنعزل في جنوبي الجزائر) ، علما بأن هناك العشرات من الأمثلة في البرهنة على ما نقدمه من قياسات ، وأغلبها لم يزل حيا يعيش في جنبات عريضة من البيئة العربية الشاسعة . اذن ، فان «النظام العشائري المستند الى هيكل اقتصادي عميق الجذور (من الملكية الجماعية واقتصاد الكفاف) والذي حافظت عليه الظروف الموضوعية السائدة (الحكومة الفاسدة الضعيفة وانعدام الأمن) قد ولّد قيما وعلائق اجتماعية معينة بين أعضائه الذين كانت تشدّهم ببعضهم روابط الدم والتعصب والشريعة والقوانين والأخلاق العشائرية المتعارف عليها»[٩٧] .

لقد حدث هذا كله لدى العصبيات العشائرية العربية في جنوبي العراق وجنوبي تونس والجزائر . . ولكن البنية الاثنية لا تخلو من الانقسامات الاجتماعية والقبلية والبيئية ، ولم تخل أيضا من الصراعات الداخلية في بيئات اثنية مثل : لبنان واليمن وغيرهما ، فلقد شهد القرن الثامن عشر ، خصومات أسرية / اثنية كثيرا ما تطورت مستفحلة لتغدو على شكل حروب أهلية لم تفد في معالجتها الا القوة المسلحة لفضّ النزاعات المحلية ، خصوصا اذا علمنا بأن تطورات عديدة قد لحقت باقتصاديات بعض المدن العربية ، ساعدت على ازدياد حجم المشاكل والأزمات التي حكمت العلاقات المتذبذبة بين ثلاثة أصناف هيكلية في المجتمع العربي الكبير : مدنية مدينية / ريفية زراعية / بدوية رعوية [٩٨] وكان لكل صنف طبيعة خاصة في علاقته بالسلطات اللامركزية العثمانية إبان عصر التبلور والتكوين (= القرن الثامن عشر) .

لنتساءل عن كيفية حدوث ذلك ؟ لقد أطلقت الدولة العثمانية لمعظم الفئات الاثنية

في البيئة العربية ، زمام التحرك والتسلط معا في إطار المناطق الجغرافية التي تشكل حدودها الاقليمية واقطاعاتها المحلية «مَواطِنْ» خاصة بها . ومن خلال تفحص المؤرخ ، نجد بأن هذا الطابع قد تركز كثيرا في بلاد الشام التي تعج بتشكيلاتها الاثنية المتنوعة (٩٩) ، والتي كانت قد خضعت خلال العصور الوسطى الى ظاهرة الاقطاع اللاتيني ، ومن ثم على النحو الذي نقله الصليبيون من بلادهم الى «الامارات» التي كونوها في المشرق (١٠٠) . وقد نتفق مع هذا الرأي بقدر ما نختلف معه ، ذلك أن منطقة « الهلال الخصيب» قد خضعت لنماذج عديدة من «الحكومات» و «السياسات» ، ونظرا لكونها (منطقة) مركزية حقيقية للعالم القديم والوسيط ، فقد كانت بيئة جامعة التقت فيها العديد من الشعوب ، وانصهرت على أرضها مختلف الانظمة والأعراف . . كما وانها كانت المركز الحقيقي لتطور آليات الخلافة العربية على عهد كل من الأمويين والعباسيين .

ان عشرات النماذج التاريخية تستوقفنا في خضم دراستنا لهذه النمطية الاثنية في البيئة العربية خلال القرن الثامن عشر ، فمن المعنيين والشهابيين في لبنان ، وامارة الشيعة المتاولة في بعلبك والتي حكمتها عائلة حرفوش ١٥٩١-١٨٦٦م ، الى الدروز وصراعاتهم في الجبال ، الى آل مره في حوران ، الى آل علي في المرج وغوطة دمشق وغيرهم في الشام الى آل السعدون وآل الشاوي في العراق ، الى البهدانيين في العمادية ، الى البابانيين في شهرزور بشمالي العراق . . الى هجرة «العتوب» نحو سواحل الخليج العربي وتأسيس «مشيخات» تابعة . الى آل الرشيد في نجد ، الى الفونج في السودان الى بني هلال في صحراء تونس ، الى حكومة توات في صحراء الجزائر وغيرها كثير(١٠١) .

دعونا نتوقف قليلا عند أبرز بيئة عربية تنوعت فيها النمطية الاثنية ، والتي ساهمت في تبلور مشاكلها التاريخية على مدى خمسة قرن : (جبل لبنان كنموذج أولوي) .

يمكننا القول بأن جبل لبنان يمثل منذ القرن السادس عشر خصوصية في التوارث السلطوي المكين والمطبوع بهذه «النمطية» . خصوصية لم تتميز بها أية بقعة عربية أخرى ، اذ كان أبرز حدث في حياة لبنان الحديث : انتقال أجهزة الحكم من المعنيين الى أسرة الشهابيين ، فقد بقي الأمير احمد المعني متفردا بالامارة حتى سنة ١٦٩٧م ، وبوفاته طويت صفحة حكم الأمراء المعنيين الذين حكموا قرابة قرنين ١٥١٦-١٦٩٧م ، «حافلين بالمآسي لأهل لبنان»(١٠٢) . فاختار الأعيان ابن اخته خلفا له ، وهو الأمير بشير حسين الشهابي أمير راشيا ، غير أن الأمير حسين بن فخر الدين كان لا يزال في الأستانة ، فتمكن من حمل السلطان العثماني على تولية الأمير حيدر ابن الأمير موسى شهاب

كونه حفيد الأمير أحمد المعني لابنته . . وكان الأمير حيدر لا يزال قاصرا فتقلد الأمير بشير زمام الولاية ريثما يبلغ الأمير القاصر سن الرشد . . وبذلك تم انتقال ولاية آل معن الى الشهابيين الذين حكموا لبنان للفترة ١٦٩٧-١٨٤٢م(١٠٣) . فالتوارث التاريخي لنماذج هذه النمطية ، يكاد يكون توارث بنى كاملة من العصبيات الحاكمة ، فاذا كان الشهابيون قد ورثوا المعنيين في حكم لبنان ، فقد ورث العلويون حكم المغرب الأقصى بعد السعديين خلال القرن السابع عشر .

هكذا نعلم ، بأن جبل لبنان قد سجّل حالة تاريخية خاصة ومتجذرة ، رغم التمتع بنظام اداري ، وقد تفاقم المزيد من الأسباب الرئيسية لعقم العلاقة اللبنانية - العثمانية منتجة مشاكل تاريخية لا تحصى ، ومؤثرة على الهياكل الاجتماعية المتنوعة . وتخبطت الادارة العثمانية المركزية لجبل لبنان خلال القرن التاسع عشر نتيجة للعلاقات الاثنية المتوترة وتصاعد الولاء الطائفي في عهد الامارة ١٥١٦-١٨٤١م(١٠٤) ، اذ كانت كل من الاثنية والطائفية قد نضجتا على مهل : انقسام ثنائي في التحزّب الاثني بين القيسية واليمانية ، افاد كثيراً في هيمنة المقاطعجية حتى سنة ١٧١١م ، ثم استمرار ثنائية الانقسام في التحزب الاثني بين اليزبكية والجنبلاطية حتى سنة ١٨٤١م .

انها تفاعلات اجتماعية مريرة مهّدت لتكوين أرضية ساخنة برزت فوقها قوى سياسية واقتصادية ، وتحركت عليها عناصر متنوعة ورثت جملة الرواسب والبقايا التاريخية خلال القرن التاسع عشر(١٠٥) ، بعد المزيد من التحولات الداخلية والتدخلات الخارجية والامتيازات الأجنبية والادارة العثمانية المركزية . . قادت جميعها الى تأسس «الطائفية» سياسيا وتعميق الانقسامات ايديولوجيا خلال القرن العشرين . كان لبنان بحاجة الى العديد من «القطائع التاريخية» خلال تحولات القرن الثامن عشر نحو تشكيل جديد يؤثر على البنى العربية القريبة ذات الأنماط الأخرى يقود الى تأسس عربي ضد العثمانيين . . وهذا ما لم يحدث!

استنتاجات معرفية :

١ - التمايز التاريخي للتكوين العربي الحديث :

ثمة استنتاجات معرفية خرجنا بها في بحثنا عن طبيعة الحياة اللامركزية -العثمانية للأقاليم العربية خلال القرن الثامن عشر ، ذلك اننا استحصلنا على صورة موضحة للتمايز

التاريخي للبنية الاقليمية المتنوعة التي عاشها الوطن العربي إبان القرن المذكور . وهي بنية أساسية في تكوين العرب الحديث ، اذ تعتبر جذراً حقيقيا لما تفرع عنه من أنساق ورواسب وبنى وبقايا في الحياة العربية على مدى القرنين المتأخرين . . ولما يزل العرب يعانون معضلات ومشاكل عديدة مرتبطة بجذور الماضي العثماني الذي عاشه الآباء والأجداد في أقاليمهم ذات الأنماط المختلفة . لقد كان القرن الثامن عشر ، هو عصر الاقليمية – العربية وتطورها مذ بدأت وانتهت عناصرها التاريخية في فترات متقاربة . . دعونا نتأمل قليلا في الجدولة* التاريخية للاقليمية العربية خلال القرن المذكور أدناه :

البنية	الاقليم	العهد	النمطية	العمر الزمني
أشراف مكة	الحجاز	٦٢٩–١٩٢٥م	عربي شريفي/قداسي (أميري)	١٢٩٦ سنة
الأئمة الزيديون	اليمن	٨٦٠–١٩٦٢م	إمامي/مذهبي عربي	١١٠٢ سنة
العلويون	المغرب	١٦٨٥حتى اليوم	شريفي/ سلاطيني عربي	٣٠٥ سنة
الشهابيون **	لبنان	١٦٩٧–١٨٤١م	اثني/عثماني (أميري)	١٤٤ سنة
الحسينيون	تونس	١٧٠٤–١٩٥٧م	أسروي/عثماني (باشوي)	٢٥٢ سنة
مماليك بغداد	العراق	١٧٠٣–١٨٣٠م	مملوكي/عثماني (باشوي)	١٢٧ سنة
القرمانليون	طرابلس الغرب	١٧١١–١٨٣٥م	أسروي/عثماني (باشوي)	١٢٤ سنة
الدايات	الجزائر	١٧١١–١٨٣٠م	أوليغاري/عثماني (باشوي)	١٢٩ سنة
آل العظم	سورية	١٧٢٤–١٨١٧م***	اسروي/عثماني (باشوي)	٩٣ سنة
الجليليون	الموصل	١٧٢٦–١٨٣٦م	اسروي/عثماني (باشوي)	١١٢ سنة
ظاهر العمر	فلسطين	١٧٣٣–١٧٧٥م	أوليغاري/عثماني (باشوي)	٧١ سنة
أحمد الجزار	فلسطين	١٧٧٥–١٨٠٤م	أوليغاري/عثماني (باشوي)	٧١ سنة
البوسعيد	عمان	١٧٤٤حتى اليوم	مذهبي/سلاطيني عربي	٢٤٦ سنة
مماليك القاهرة	مصر	١٧٥٨–١٧٩٨م	مملوكي/عثماني (بكوي)	٤٠ سنة

* نظمت هذه الجدولة التاريخية على أساس التقادم الزمني لأعمار العناصر أعلاه .

** الشهابيون في لبنان (١٤٤ سنة) هم امتداد تاريخي/ اثني للمعنيين الذين حكموا لبنان (١٨١ سنة) للفترة ١٥١٦–١٦٩٧م ، وعليه وجب التنويه .

*** لقد أنتهى حكم آل العظم في دمشق سنة ١٧٩٠م ، ولكن ذيوله بقيت مستمرة حتى لتاريخ أطول من السنة أعلاه .

٢ - تبلور الاقليمية العربية :

نستنتج أيضا ، بأن القرن الثامن عشر ، هو عصر «الاقليمية العربية» في خضم اللامركزية العثمانية . نظراً للأنماط البنيوية التي تميز بها الوطن العربي (كما هو موضح في الجدول أعلاه) . . في حين سيغدو القرن التاسع عشر هو عصر «الاصلاحية العربية» في خضم المركزية العثمانية ، نظرا للعمليات (التحديثية) العديدة ، والحركات الاصلاحية العربية التي تميز بها منذ عهد محمد علي باشا في مصر ، وما حدث في الدواخل والأطراف العربية من تطورات (وهذا ما سنبحثه ايبستمولوجيا في بحث قادم) . . أما الذي عايشناه في القرن العشرين ، فهو عصر الكيانات السياسية المعاصرة (= الدول الجديدة) ضمن الأطر الوطنية أو القومية التي نادت بها ، أو تعيشها ، أو التي تحلم من أجلها . . لقد وجدت هذه «الكيانات» شرعيتها التاريخية في عصر «الاقليمية العربية» بعيدا عن التورط الاستعماري/ الأوروبي . وعليه فان مرجعيتها الحقيقية تنتمي الى تنوع الأنماط التاريخية العثمانية : الأسروية/ الاثنية/ المملوكية/ الأوليغارية . . اضافة الى بقايا النظام العربي القديم (=الحضري + البدوي) كالسلطنة والملكية والامـــارة والمشيخة والامامة . . . الخ . (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٦) .

لقد خرجت الكيانات السياسية (= الدول) بثلاثة أصناف :

١ - دول مركبة : كالعراق والجزائر والسعودية وليبيا . . . والامارات .

٢ - دول مجزأة : كسوريا واليمن والأردن . . . والمشيخات .

٣ - دول اقليمية : كتونس والمغرب ولبنان وعمان ومصر ومملكة الحجاز . . . والسودان .

السؤال الآن : ماذا نقصد بمصطلحات كـ «التركيب» و « التجزئة» و «الأقلمة» ؟

التركيب : مجموعة من الأقاليم (= ولايات/ بايلكات) تتصل بها العديد من الواحات والصحارى والدساكر والأطراف .أما « التجزئة» فهي بلاد متّصلة وموحدة عبر العصور استطاعت « الأقلمة» الادارية أو الهيمنة الأجنبية أن تفصلها الى أجزاء متعددة . أما «الأقلمة» : فهي حالة مستمرة من التعايش التاريخي ينبثق عنها «كيان» متميز نظراً لأهمية «الاقليم» استراتيجيا .

هكذا ، فان الذي درسناه أعلاه ، يمثل تأصيل تاريخي لنشوء وتكوين الدولة العربية

المعاصرة مشرقا ومغربا ، وخصوصا : التكوينات الاقليمية في القرن الثامن عشر التي تدارسنا أنساق بنيوياتها التاريخية ، كي تغدو مع مرور القرن التاسع عشر ، تشكيلات سياسية بدأتها مصر على يد محمد علي باشا . يقول عبد العزيز نوار : «فكانت هذه الشكيلات السياسية بمثابة البدايات الأولى لتكوين الدول العربية الحالية . واذا كان القرن الثامن عشر قد شهد تلك البدايات فان القرن التاسع عشر شهد ظهور بعض الوحدات السياسية العربية بشكل يكاد يقارب الى حد كبير ما أصبحت عليه الآن »[١٠٦] . فلقد تجسدت تلك التشكيلات الادارية على هيئة تكوينات سياسية .. ولتغدو على شكل كيانات «ملكية» بمباركة الغرب .. كي نجد وقد انبثقت على الخارطة العربية خلال النصف الاول من القرن العشرين : المملكة المصرية / مملكة الحجاز / المملكة العربية السعودية / المملكة التونسية / المملكة المغربية/ المملكة اليمنية / المملكة العراقية / المملكة الليبية المتحدة / المملكة الأردنية الهاشمية .. كبقايا جديدة لرواسب قديمة من تاريخ نظام اداري عثماني او تاريخ نظام عربي سلطاني او شريفي او إمامي .. قبل بدء تحوّلات بعض الأنظمة خلال النصف الثاني من هذا القرن .

وماذ ا ايضا ؟

٣ ـ الزعامات العثمانية ورواسب المركبات السكولاستيكية :

لقد برزت خلال القرن الثامن عشر ، العديد من الزعامات الاقليمية في الولايات العربية ، استطاعت ان تقدم خدمات كبرى ليس بالنسبة للأقاليم التي تزعمتها ، بل للدولة العثمانية التي تبلورت في كنفها . وقد أثرت تلك «الزعامات» في البنية الاقليمية - العربية على مدى زمن طويل من العهود التاريخية التي أعقبتها .. وتنوعت طبيعة حكم كل زعامة اقليمية حسب البيئة الجغرافية والارتباط الاداري العثماني ، وقد غلبت عليها المواصفات الدكتاتورية والاستبداد المحلي ، والسيطرة على الاقطاعات الكبرى ، والتصرف بالقوى الاجتماعية ووفرة ... اقتصاديات الأقاليم الغنية .. واتصفت غالبية الزعامات بالقيادة العسكرية الماهرة ... وقد بزّت الزعامة التونسية (= حموده باشا) غيرها من الزعامات ، بمحاولاته لتأسيس نموذج من «دولة» حديثة .... في حين امتاز مولاي رشيد كزعامة مغربية/ عربية غير عثمانية باقامة علاقات اقتصادية قوية للمغرب الأقصى مع أوروبا من خلال البحر المتوسط (علما بأن المغرب الأقصى كان دولة سلطانية/ عربية ،

ولم يكن اقليما ضمن اطار دولة سلطانية/عثمانية) . أما الحاج حسين باشا الجليلي ، فيعتبر بطل دفاع مدينة الموصل ضد حصار نادرشاه لها عام ١٧٤٣م ، واندحار الأخير وجيشه أمام أسوارها بعد معارك طاحنة . . أما أحمد باشا الجزار ، فهو بطل دفاع عكا ضد حصار بونابرت لها عام ١٧٩٩م الذي فشل فشلا ذريعا امام أسوارها . . أما علي بيك الكبير ، فهو الذي ارتفع بمستوى ولاية مصر من «بكوية» منقسمة على نفسها من خلال صراع المماليك (=الفقارية × القاسمية) الى اقليم استراتيجي له أهميته البالغة دوليا ، دفع اوروبا الغربية للصراع عليه ، وعندما تسلم محمد علي باشا ولاية مصر ، وجدها مؤهلة لكي تغدو قاعدة لتكوين كيان سياسي حديث .

أما الوزير احمد باشا بن حسن باشا والي بغداد ، فهو فاتح همدان ، وذاعت شهرته الحربية ، وسياساته الاقليمية ، ومفاوضاته مع ايران . . وقد تأسس في بيته الذي ورثه عن ابيه حسن باشا ، نسق من الزعامات المملوكية الشهيرة في العراق . . وهناك زعامات بلاد الشام كظاهر العمر وسعد الله باشا العظم وزعامات آل جانبولاد والشهابيين ، وهناك ايضا : دايات الجزائر وعملياتهم البحرية القوية . . اضافة الى الزعامات القبلية/ المحلية الخ . ان المؤرخ عبد الكريم رافق يطلق على «الزعامات» تسمية «الطغاة» (١٠٨) . لقد ورثت تلك «الزعامات» الطاغية طغيانها على «زعامات» أخرى أتى بها القرن التاسع عشر في مختلف الأقاليم العربية (١٠٩) ، أمثال : محمد علي باشا في مصر ، وداود باشا في بغداد ، والداي حسين باشا في الجزائر ومحمد باشا اينجه البيرقدار في الموصل وغيرهم . . وهكذا ، بالنسبة الى «زعامات» ولدت في الوطن العربي خلال النصف الاول من القرن العشرين ، وقد ورثت تلك «المركبات» وحملت رواسبها طويلا في الممارسات المتنوعة في الحياة المعاصرة . فكيف كان ذلك ؟

ان الدولة العثمانية كسلطنة اقطاعية ذات نمط استبدادي ، لا بد أن النظم والكيانات السياسية التي انبثقت عنها قد ورثت تراكيبها السكولاستيكية بعد الانهيار والسقوط ، ولا شكّ أن ميراثها كان ولم يزل ينطوي على رصيد كبير من آليات وتراكيب ومفاهيم وأعراف قديمة ، وهو يصطدم على مدى قرنين بالأنظمة والمفاهيم والآليات الحديثة التي أنتجها العالم المتمدن في التمايز والتجريبية والدمقرطة والروح الجماعية .

٤ - التأخر عن تحولات أوروبا الحديثة :

عندما كانت أوروبا تتشكل بنياتها القومية من خلال بروز الدولة الحديثة خلال القرن الثامن عشر كان الوطن العربي يتشكل اقليميا في ظل انحسار السلطة المركزية العثمانية عن العديد من الولايات ، فبرزت أنماط ادارية/ عثمانية متعددة ومتنوعة ، ولكنها اختلفت عن الأنماط القديمة التي عرفها العرب قبل العثمانيين . كانت الاطر السياسية الأوروبية تنبثق في كيانات جديدة ، وأفكار مؤدلجة جديدة ، تنادي بالحد من استفحال الاقطاع وسلطة الكنيسة . . بعد أن عاشت مرحلة زمنية عريضة من القطائع التاريخية منذ عهد مارتن لوثر وكالفن وغيرهما . ومرت اوروبا بالصراعات الدينية كي تترشح الذهنية من الرواسب التاريخية المكينة ، وقد خرجت في نهاية القرن الثامن عشر على العالم بأنماط قومية كالذي شهدته بعد اندلاع الثورة الإفرنسية عام ١٧٨٩م . بدأت الدول القومية الأوروبية بالتحرك للاستحواذ على أجزاء كبرى من العالم ، أي : تكريس فاضح للظاهرة الاستعمارية الكولينيالية . .

كان الوطن العربي عصرذاك ينوء تحت وطأة رواسب تاريخية معقدة ، شغلت طيات الذهنية الاسلامية مراحل طويلة من التاريخ ولما تزل متأججة ومتفاقمة . . متمثلة بأطر سكونية صوفية ، وبممارسات طقوسية عقيمة ، وعلاقات انتاجية تقليدية . . كي تتبلور بيروقراطيات عثمانية : محلية واقليمية لامركزية ضمن سلطويات عسكرية/ اقطاعية قاسية ، او زعامات أوليغارية متنفذة ، أو هيئات إثنية/ عصبية . . . الخ بقيت جميعها تدافع يوما بعد آخر عن الأوضاع الاجتماعية السائدة ، وعن حدودها الجغرافية الاقليمية ، وعن مصالحها الاقتصادية المتوارثة .

وفي عصر الأنوار الأوروبي ، نمت الأفكار السياسية الحديثة في القرن الثامن عشر ، والتي ارتبطت تماما بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية في ظل التفوق الفرنسي ، وعندما انتهى عصر العقائد بالثورة الفرنسية ، وتحقق الحلم الأوروبي بولادة وعي أوروبي تحديثي في تراكيب المجتمع والذهنية معا ، بدأت الدولة العثمانية تحلم بـ «الاصلاحات الخيرية» بعد وأد أفكار التغيير والتحديث التي كان قد أذاعها السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م وكانت «الاصلاحات» العثمانية قد أنتجت أو أعادت انتاج التجربة الادارية في حكم المركزية العثمانية ، فقد رأت السياسة العثمانية بأن اعادة انتاج تلك

«التجربة» من جديد ، كفيل بالوصول الى أقصى ما يمكن للدولة التوصل اليه . . كان ذلك جزءا من «العثمنة» كأيديولوجية لم تستقم مع طبيعة العصر الذي كان قد تجاوز عصر الامبراطوريات الكلاسيكية حسب مبادىء «الفكر السياسي الحر» ، ولكن القادة الأتراك في الدولة العثمانية لم يدركوا حجم التحولات في السياسة والتفكير والتغيير والأسس الجديدة [١١٠]. لقد كرست الدولة العثمانية من خلال إعادة نظام المركزية ، تكريس أنموذج « الاستبدادية الشرعية » كتلك التي نادى بها كوسنيه – Qesney – .

ولكن ماذا عن العرب ؟

يقول فهمي جدعان : «ان العرب كانوا ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، يعانون ضروبا من البلاء على أيدي رجال الاقطاع ، ويقاسون الشقاء بسبب مشاحناتهم الداخلية ضد الباشوات فكانت الانقسامات الداخلية والأنظمة القبلية والاقطاع والتنافس بين العائلات التي كانت تتولى الحكم فضلا عن الفردية المتطرفة ، من أسباب التفرقة والضعف [١١١]» كل هذا صحيح ، ولكنني لا أظن بأنّ الأحوال العربية قد تحسنت في ظل إعادة المركزية !

٥ – البنية التاريخية العربية وتحولات التاريخ :

لقد استطعنا ان نتبين بوضوح : كيف كانت « البنى التاريخية مرئية ويمكن قياسها» على حد تعبير المؤرخ فرناند بروديل . . [١١٢] فماذا نستنتج من خلال المنهجية الرؤيوية لبنيوية التاريخ العربي الحديث ؟

لقد كانت الأنماط الاقليمية/ العثمانية ، بمثابة بنى تاريخية مرئية ذات قياسات مشتركة ، أو متعددة ومتنوعة خلال عصر واحد ، وخصوصا تلك التي جسدتها لامركزية الادارة العثمانية طوال عقود القرن الثامن عشر . . أي حتى انكسار الحياة الثنائية (= العربية + العثمانية) والتي كنت قد أطلقت عليها مصطلح « العرب – عثمانية»[١١٣] . . اذ حدث «الانكسار» في البداية التي سجلها القرن التاسع عشر ، في حين سجل مطلع القرن العشرين ظاهرة «انقطاع» . . ولم تزل الحياة الاقليمية العربية ، تبحث حتى يومنا هذا عن حالة « قطيعة » تامة مع رواسب مركبة للماضوية العثمانية وبقاياها ، اذ ربما سيسجلها مطلع القرن القادم (= القرن ٢١)

كيف نفسر ذلك ايبستمولوجياً ؟

١ - من خلال «القطيعة» ، سيتخلص المجتمع العربي وتراكيبه ودوله وطبقاته وذهنياته المتنوعة التي ترسبت فيه خلال القرن العشرين ، يتخلص من الوهن الحضاري والترهل التاريخي ، اذ سيتحرر المجتمع كاملا من الرواسب والمركبات والبقايا . . وستبنى «أنساق» جديدة بعد تفتت البنى العتيقة التي لم تزل حقائقها مستترة وفعالة في المسارب الاجتماعية والتراكيب الذهنية !

٢ - أما «الانقطاع» الذي عاشه ابناء القرن العشرين ، او تمثيل حالة «انقطاع» فقد أبرزته ظاهرة «الثورة العربية» التي ابتدأت فعليا بأحداث الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م في المشرق العربي . اذ انقطع العرب من خلاله في مفهومهم التاريخي عن السيادة العثمانية من خلال «أقلمة» الحجاز وسوريا بنشوء كيانين سياسيين حديثي النشأة ، وهما : (=مملكة الحجاز + الحكومة العربية في دمشق) ووصولا الى تأسيس دولة عربية واحدة ، ونظام اجتماعي عربي موحد . . وهذا ما لم يتحقق حتى يومنا هذا !

٣ - أما «الانكسار» التاريخي ، فتمثله حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م ، كفاتحة تاريخية جديدة في الحياة والتفكير العربيين من جانب ، وتكريس للأقلمة المصرية التي تصاعد تأثيرها على يد واليها محمد علي باشا الذي ساهم منذ عام ١٨٠٥م ، ببناء دولة عصرية جديدة ، وعلى نسق اقليمي / عثماني من جانب آخر . . ثم توالي «الانكسار» كظاهرة تاريخية جسدها القرن التاسع عشر ، متمثلة بسقوط الجزائر بيد الفرنسيين عام ١٨٣٠م ، واحتلال بريطانيا لعدن عام ١٨٣٩ . . . ورغم اختلاف طبيعة الحملتين الفرنسيتين على كل من مصر والجزائر اختلافا سياسيا واستراتيجيا في النتائج لا في المسببات ، ورغم أن مصر كانت مستقطبة لأهداف مؤقتة للوقوف أمام بريطانيا ، في حين نظمت الحملة على الجزائر ، بالشكل الذي أبقاها مستوطنة فرنسية على مدى قرن وربع القرن من الزمن . . إلا أن الحملة الفرنسية على مصر بزعامة بونابرت ١٧٩٨-١٨٠١م قد ساهمت مساهمة تاريخية فعالة في تكوين البنية المصرية الحديثة على يد محمد علي باشا بعد تبلورها اقليميا على يد علي بيك الكبير في القرن الثامن عشر . وقد تلاحقت «الانكسارات» للبنى الاقليمية العربية التي رسمت على يد العثمانيين خلال القرن المذكور ، وعلى مراحل متعددة من عصرالاصلاحية والمركزية العثمانية (= القرن ١٩) . ان

هذا كله يدعونا للتأمل قليلا ، ولنتساءل : ماذا لو برزت حالة «القطيعة» في المجتمع العربي منذ عهد الثورة الفرنسية ؟ (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٥) .

٦ - نحو تشكيل تاريخ جديد :

ونتلمس أيضا من خلال دراستنا التاريخية للحالات اللامركزية الادارية العثمانية المقارنة في الأقاليم العربية خلال القرن الثامن عشر ، انها قد ورثت جملة من المفاهيم والأعراف والتقاليد على مدى قرن كامل من الزمن الحديث ، أي حتى انفجار الحرب العالمية الأولى والانهيارالعثماني . . ذلك أن زعامات اقليمية عديدة في الولايات العربية ستشغل مهام خطيرة ومتنوعة ليس في بناء حكومة لامركزية/ عثمانية فحسب خلال القرن التاسع عشر ، بل في بناء جوانب مهمة من الاصلاحية والتحديث . . وكان من أبرز تلك «الزعامات» : محمد علي باشا في مصر ، وداود باشا في العراق ، وخير الدين باشا في تونس وشكيب أفندي في لبنان وغيرهم . . في حين ستبدأ الحركات الاصلاحية الدينية/ العربية في بناء نماذج أخرى من المفاهيم المتعارضة التي أرادت إصلاح الدنيا من خلال إصلاح الدين . . لقد انبثقت تلك «الحركات» على أيدي زعامات عربية دينية ، مثل : محمد بن عبد الوهاب في نجد ، ومحمد بن علي السنوسي في المغرب العربي ، ومحمد المهدي في السودان ، ومحمد بن علي الشوكاني في اليمن وغيرهم .

وماذا بخصوص فكرة «اللامركزية» الادارية العثمانية عند العرب المحدثين ؟

أقول : لقد بقيت فكرة اللامركزية الادارية العثمانية سارية المفعول حتى بعد تطبيق القوانين التنظيمية التي أقرت المركزية الادارية في الدولة العثمانية ، اثر صدور التنظيمات العثمانية (= خطي شريف كولخانه) عام ١٨٣٩م . وعندما اشتدت وطأة الادارة المركزية العثمانية على يد الأتراك الاتحاديين بعد انقلاب عام ١٩٠٨ . ، وعليه فقد «اتفق الزهراوي مع رفيق العظم اتفاقا تاماً في القول بأن «اللامركزية الادارية» هي خير حل للمسألة العربية . ولم يكن «مؤتمر باريس» الذي ترأسه عبد الحميد الزهراوي نفسه إلا تجسيدا للمطالب التي أعلن عنها بيان «حزب اللامركزية الادارية العثماني» الذي صاغه رفيق العظم »[١١٤] في عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م . لقد طالب مؤتمر باريس الاتحاديين

باصلاح بلاد العرب اصلاحا اجتماعيا وسياسيا على أساس من الادارة اللامركزية يفرضه «هذا العصر عصرالتنازع الشديد في ميدان الحياة»(١١٥) وان «أفضل شكل من أشكال الحكومات هو الدستوري ، وأفضل أشكال الدستوري هو اللامركزية»(١١٦) .

يقول عبد العزيز الدوري : «اتضح اتجاه الاصلاح نحو اللامركزية وخطوطها عام ١٩١١ ، وجاء انشاء حزب الحرية والائتلاف معززا لهذا الاتجاه . . وكان انشاء حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة (أواخر ١٩١٢) ، من قبل مجموعة من الجالية السورية ، أول تنظيم علني في هذا الاتجاه . ومع أن الحزب عثماني في برنامجه الا أن هيأته وعضويته عربية (سورية) ، كما أنه يعبر عن الخط العربي العام للاصلاح في هذا الفترة . وعلى ضرورة الادارة اللامركزية التي يتمتع فيها العرب بحقوقهم كاملة في الدولـــة العثمانية» (١١٧) .

يمكننا أن نقول ، بأن رد الفعل العربي قد أتى بصرختين ، تمثلت الأولى بتأسيس حزب اللامركزية الادارية العثماني والجمعيات الاصلاحية العربية نتيجة لتأثير السياسة التركية المركزية للاتحاديين والائتلافيين ، في حين تمثلت الثانية بعقد المؤتمر العربي الأول في باريس نتيجة لصدور قانون الولايات عام ١٩١٣م الذي أنكرته الحركة الاصلاحية . . وكانت الفجوة قد اتسعت كثيرا بين العرب والأتراك ، واندلعت الحرب العظمى لتضع حدا تاريخيا فصلا بين الاثنين وتشكيل تاريخ جديد !!

إحالات وملاحظات

(1) C. F. Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, 2 vols., London, 1972-3.

(2) For details;' see Robert Brenner, "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe", *Past and Present*, fev. 1976, p.55.

(٣) أنظر : سيار الجميل « الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤م» ، ملف أعمال المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العثمانية بعنوان : **الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني** ، ٣ أجزاء ، ج١/٢ ، تحرير وتقديم : عبد الجليل التميمي ، زغوان ، ١٩٨٨ ، ص ٢٢٩-٢٧٩ .

(٤) ان ابرز دراسة تاريخية عن ولاية دمشق العثمانية في القرن ١٨ ، هي أطروحة كارل باربير :

Karl Barber, *Ottoman Rule in Damascus 1708-1758*, Ph. D. Thesis, Princeton, 1981.

(وهناك الدراسات التاريخية المتميزة عن عثمانيات بلاد الشام لعبد الكريم رافق ومحمد عدنان البخيت والباحثين الذين درسوا على ايديهما) .

(٥) عن التاريخ المحلي للجليليين ، راجع أطروحة : عماد عبد السلام رؤوف ، **الموصل في العهد العثماني** : فترة الحكم المحلي ١١٣٩-١٢٤٩هـ/ ١٧٢٦-١٨٣٤م ، النجف ، ١٩٧٥ .

(٦) من المهم دراسة ومقارنة أطروحة برسي كيمب وأطروحة سيار الجميل المتخصصتين :

Percy Kemp, *Mosul and Mosuli Historians of the Jalili ERA 1726-1834*, D. Phil. Thesis, Oxford Univ., 1980; see also, Sayyar K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'ather al-Madeya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A. H. = 1514/1515 A. D. - 1811/1812 A. D.)*, Ph. D. Thesis, 3 vols., vol. I (=Introduction and Notes), St. Andrews Univ., Scotland, 1983, pp. 33-111.

(٧) سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٧٣ ، ومذكرات دومنيكو لنزا ، **الموصل في الجيل الثامن عشر** ، ترجمة : روفائيل بيداويد ، الموصل ، ١٩٥٣ ، ص١٨ ، وقارن تعليق : احمد عزت عبد الكريم ، **دراسات في تاريخ العرب الحديث** ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٨٩ .

(٨) انظر ما كتبه المؤرخ الموصلي ياسين الخطيب العمري في العديد من مخطوطاته وتراجمه عن العمريين في الموصل ، منها كتابه : **منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء** ، تحقيق : سعيد الديوه جي ، الموصل ، ١٩٥٥ . وقارن معلومات محمد خليل المرادي ، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩١هـ (أعيد نشره ببغداد عام ١٩٧٢) .

(٩) من المهم دراسة أخبار دمشق عند : أحمد البديري الحلاق الدمشقي ، حوادث دمشق

اليومية ١١٥٤- ١١٧٥هـ/ ١٧٤١-١٧٦٢م ، نقحه الشيخ محمد سعيد القاسمي ، تحقيق : أحمد عزت عبد الكريم ، من مطبوعات الجامعة المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ومقارنتها مع ياسين الخطيب العمري ، (زبدة) الآثار الجلية في الحوادث الأرضية ، انتخاب : داود الجلبي ، تحقيق : عماد ع رؤوف ، النجف ، ١٩٧٤ .

(١٠) أنظر : سيار الجميل ، «الحياة الاقتصادية ..» ،المصدر السابق ، ج١/٢ ، ص ٢٥٩-٢٦٠ . وراجع : محمد اديب آل تقي الدين الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق ، ج١ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٥٣ ، وقارن ما كتبه عبد الكريم رافق حول العلاقات الاقتصادية التي ربطت دمشق بأطرافها خلال القرن ١٨ ، انظر :

A.- K. Rafeq, "Economic Relation between Damascus and Dependent Countryside, 1743-1771" in *The Islamic Middle East, 700-1900,* ed. by A. Udovitch, Princeton, 1981, pp. 653-685.

(11) Cf. Nicola Ziadeh, *Urban Life in Syria under the early Mamluks,* Beirut, 1953, pp. 61-84, p. 50, 78-81; and cf. R. Olson, *op. cit.*, p. 36; and S. K. Al-Jamil, op. cit., vol. I, p. 127, 142.

(١٢) لقد عالج هذا الموضوع العديد من المؤرخين ، منهم : أحمد عزت عبد الكريم ، وصلاح الدين المنجد ، وعبد الكريم رافق وكارل باربير وغيرهم ، نقلا عن المؤرخ الدمشقي احمد البديري الحلاق (انظر اعلاه ، م رقم ٩) .

(13) For historical details; see A. -K. Rafeq, "The Local Forces in Syria in the Seventeenth and Eighteenth Centuries ", in *War Technology and Society in the Middle East,* ed. by N.J. Parry and M. E. Yapp, Oxford Univ. Press, London, 1975, pp. 277-307.

(14) R. Olson, *op. cit.*, pp. 101-163.

(١٥) أنظر تفاصيل قصة الحصار عند : سيار الجميل ، حصار الموصل : الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه ، الموصل ، ١٩٩٠ . ومن أبرز الوثائق الرسمية ما نشر من تقارير في : سالنامه ولاية الموصل ، رقم ٢ ، ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م .

(١٦) من المفيد جدا دراسة ما كتبه العديد من المؤرخين القدماء كالمحبي والبديري والمرادي والعمري والطباخ .. وتدقيق ما كتبه محمد بن جمعة في رسالته المهمة ، «الباشات والقضاة» التي حققها صلاح الدين المنجد في بحثه الموسوم : «ولاة دمشق في العهد العثماني» ، دمشق ١٩٤٩ .

(١٧) التفاصيل عند محمد أمين الخطيب العمري ، منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء ، جزءان ، تحقيق : سعيد الديوه جي ، ج١ ، الموصل ، ١٩٦٧ ، ص١٥٢ .

(18) See about the historical philosophy of this case in : S. S. Schilcher, *Families in Politics,* Stutthart, 1985, p. 138.

(19) Ch. Roger Dessort, *Histiore de la ville de Tunis*, Tunis, 1926, p. 59.

(20) Pierre Grandchamp, "arabe genealogique de la famille hassinite 1705-1936", *Revue Tunisienne*, 1936, p. 475; see also, M. H. Cherif, *Pouvoir et societe dans la Tunisie de Husayn Bin Ali, 1705-1740*, 2 tomes, Tunis, 1984, et 1986, pp. 87-115.

(21) Cf. Mohamed Salah Mzali, *L 'Herdite dans la dynastie Husseinite* (evolution et nelation); maison tunisienne de L'Edition, 1969, p. 11.

(٢٢) راجع التفاصيل التاريخية عند المؤرخ احمد بن أبي الضياف في كتابه المشهور : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ط١ ، تونس ، ١٩٦٣ .

(23) For historical analysis; see Leon Carl Brown, *The Tunisia of Ahmad Bey*, Princeton, 1974, pp. 5-48.

(24) Monamed El-Aziz Bin Achour, *Categories de la Societe Tunisoise dans la Deuxieme Moitie du XIX eme Siecle*, Institut National D'Archeologie et D'Art-Tunis, 1989, p/ 139, 215, 217, 223.

(هذه الأطروحة المتميزة بتقديم المشرف عليها المؤرخ دومانيك شيفاليه) .

(25) Loc. cit.

(وانظر : رشاد الامام «سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا» في المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٦ ، تونس ، تموز/ يوليو ١٩٧٦) .

(٢٦) أبو الضياف ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ . وانظر : محمد ابن الخوجه ، الوزراء الصدور بالمملكة التونسية ، الروزنامة التونسية ، ج١ ، تونس ، ١٩٠٢ .

(27) Rpbert Mantran, "L'evolution des relations entre la Tunisie et l'empire ottoman du 16 au 19 siecle" *Cahiers du Tunisie*, 2 et 3 trim. 1959, pp. 319 et 55.

(٢٨) للتفاصيل التاريخية ، أنظر :

Taoufik Bachrouch, *Les elites tunisiennes du pouvoir et de la devotion. Contribution al 'etude des groupes sociaux dominants (1782-1881)*, these de doctorate es-lettres, Paris IV, 1981; see also, T. Bachrouch, *Formation sociale barbaresque et pouvoir a'Tunis au XVIIe Siecle*, Tunis, 1977.

(٢٩) قارن معطيات ما كتبه ابو عبد الله محمد بن خليل غلبون ، تاريخ طرابلس الغرب المسمى : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، عني بتحقيقه : الطاهر الزاوي ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ . وانظر ايضا : احمد النائب الانصاري ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، جزءان ، الاستانة ، ١٨٩٩م . مع رودلفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ، ترجمة : طه فوزي (تحت اشرف محمد شفيق غربال) ، القاهرة ، ١٩٦١ ، وانظر شروحات احمد صدقي الدجاني ، أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، طرابلس ، ١٩٦٨ .

(٣٠) سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٢٨٣ .

(31) G. Wiet, "L'Egypt arabe de la conquete ottoman 642-1517", in G. Hanotaux (ed.) , *Histiore de la nation egyptienne*, Paris, 1931-1940.

(32) J. Souvaget, "Noms et surnoms de Mamlouks ", *in Journal Asiatique,* No. CCXXXVIII, Paris, 1950, pp. 31-58.

(٣٣) التفاصيل عند : ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ج٣ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، وراجع : ابن زنبل الرمال ، فتح مصر ، القاهرة ، ١٢٧٨ هـ .

(٣٤) انظر تحليلات عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨) ، ط٢ ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٢-١٧٠ .

(٣٥) تفصيلات مختصة عند : عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠-٢٥ . وراجع أطروحة شو :

Stanford J. Shaw, *Ottoman Egypt in the 18th Century,* Harvard Univ., 1962, pp. 66-116.

(٣٦) من الأهمية البالغة ، مراجعة تحليلات ونتائج المستشرق هولت :

P. M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922,* Cornell, Univ., 1966, pp. 71-101

(٣٧) لقد أوضحت التواريخ القديمة تفاصيل موسعة عن الانقسامات الاجتماعية والمآسي الاقتصادية في مصر ، انظر : احمد شلبي عبد الغني ، التاريخ العيني :«اوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات» ، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ . وانظر : محمد بن ابي السرور البكري الصديقي ، كشف الكربة في رفع الطلبه ، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ، المجلد ٢٣ ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

(٣٨) ان أحدث من عالج مفهوم «بعث دولة مملوكية ذات أساس مصري» من المؤرخين ، هو دانيال كريسيليوس في كتابه الممتاز : جذور مصر الحديثة ، ترجمة وتعليق : عبد الوهاب بكر ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٩٥-٢١١ .

(٣٩) محمد رفعت رمضان ، علي بك الكبير ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

(٤٠) ليلى عبد اللطيف ، الادارة في مصر في العصرالعثماني ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، (انظر المقدمة وسرديات الفصل الثالث ثم النتائج) .

(٤١) هناك تحليلات رصينة للاقتصاديات المصرية على عهد الادارة المملوكية أوضحها :

Stanford J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798*, Princeton, New Jercy, 1962, pp. 71-143.

(٤٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج٢ ، بولاق ، ١٨٧٩-١٨٨٠م ، ص ٣٢٤ .

(٤٣) ما قاله ذوقان قرقوط في كتابه : تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥-١٩٣٦ ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٦٢ ، وانظر ما كتبه كل من : محمود الشرقاوي ، مصر في القرن الثامن عشر (: دراسة في تاريخ الجبرتي) ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١٢٠ . وتوسع فيما طرحه : صبحي وحيدة ، في أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٢٥-١٢٦ .

(٤٤) من أشمل وأوضح (رغم بعض الأخطاء التاريخية) مما كتب بالانكليزية حول هذا الموضوع الحيوي في تاريخ العراق هو كتاب لونكريك ، أنظر :

S. H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925, pp. 123-7, 129-132.

(قام جعفر خياط بترجمة هذا الكتاب الى العربية بعنوان : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، وقد علق عليه : مصطفى جواد ، ط٣ ، بغداد ، ١٩٦٢) .

(٤٥) من الكتب العامة والمختصة في تاريخ ولاية بغداد ، انظر :

احمد الصوفي ، المماليك في العراق ، الموصل ، ١٩٥٢ .

علاء نورس ، حكم المماليك في العراق ، ١٧٥٠-١٨٣١ ، بغداد ، ١٩٧٥ .

علي شاكر علي ، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠م : دراسة في أحواله السياسية ، ط١ ، نينوى ، ١٩٨٤ .

(٤٦) التفاصيل عن تواريخ قديمة لبغداد خلال القرون المتأخرة ، انظر :

سليمان فائق ، تاريخ المماليك (الكوله مند) ، ترجمه عن التركية : محمد نجيب الارمنازي ، بغداد ، ١٩٦٦ ، وكتابه الآخر : تاريخ بغداد (مرآة الزوراء في تاريخ الوزراء) ترجمه عن التركية : موسى كاظم نورس ، بغداد ، ١٩٦٢ . وانظر : محمد ثريا ، سجلي عثماني او تذكرة مشاهير العثمانيين ، ج١ ، اسطنبول ، ١٣٠٨هـ/ ج٣ ، اسطنبول ، ١٣١١هـ .

(٤٧) عبد الكريم غرايبه ، تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٥٦ ،

(48) Details in Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 2*(=Text)* p. 437; vol. 3*(=Apparatus Criticus)*, pp. 1039-1040; see also, S. H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 187-220.

(٤٩) عن تواريخ حسن باشا وولده احمد باشا وتأسيس بنية المماليك ببغداد ، انظر : عبد الرحمن السويدي ، حديقة الزوراء في سيرة الوزراء : تاريخ بغداد ، تحقيق صفاء خلوصي ، بغداد ، ١٩٦١/ رسول حاوي الكركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء ، ترجمة : موسى كاظم نورس ، بيروت ، د .ت . / عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٤ ، بغداد ، ١٩٤٩ ، ص ٢٧٤ .

(٥٠) تفصيلات نادرة عن طبيعة العلاقات العراقية-النجدية/الوهابية ، أنظر :

Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 2(=Text). p. 466,475,477; vol. 3(= Appartus Criticus), pp. 1101-2, 1120-3-4, 1174.

ويصف علاء نورس عهد سليمان باشا الكبير بالعصر الذهبي لحكومة المماليك في العراق . . ويقول : «فقد كانت مجهوداته في سبيل تثبيت قدم المماليك في العراق هي التي جعلت

حكمهم يمتد حتى عهد داود باشا . .» ، انظر : علاء نورس ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(51) S. H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 172-6.

(٥٢) زكي صالح ، موجز تاريخ العراق : منشأ النفوذ البريطاني في بلاد ما بين النهرين ، ط١ ، بغداد ، ١٩٤٩ ، ص ١٠٥-١ . ويراجع ما كتبه عباس العزاوي ، المصدر السابق ، ج٦ ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ٢٨٢ .

(٥٣) أمين بن حسن المدني ، «خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ١١٨٨-١٢٤٢هـ» وهو مختصر كتاب : مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود لمؤلفه : عثمان بن سند البصري الوائلي ، القاهرة ، ١٣٧١هـ .

(٥٤) بخصوص نظام ادارة داود باشا ، انظر الوثائق التي نشرها : يوسف عز الدين ، داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٣٨-٥٦ ، ٦٢-٧٥ .

(55) Cf. S. H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 238-249.

(٥٦) من المفيد مراجعة ما كتبه : عبد العزيز نوار ، داود باشا والي بغداد ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٢-١٩٠ ، وكتابه الآخر : تاريخ العرب المعاصر : مصر والعراق ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦٠-٣٦٨ . وانظر ايضا الاختصارات التي كتبها : عبد الكريم غرايبه ، المرجع السابق ، ص ١١٨-١٢٠ .

(57) C.f C. J. Rich, *Narrative of a Residence in Koordistan*, vol, 2, London, 1836, p. 76.

(٥٨) قارن : ز . أ . ليفين ، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث : (لبنان وسوريا ومصر) ، ترجمة عن الروسية : بشير السباعي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠ ، م ١٧ .

(٥٩) عن طبيعة العلاقات الداخلية بين المماليك ، ينظر في المصادر التاريخية المحلية القديمة ، وخصوصا عند سليمان فائق والكركوكلي والسويدي وابن سند البصري . . ولا بد من الاشارة الى جملة «الحوادث» التي سجلها ياسين الخطيب العمري في كتابه : غاية المرام في تاريخ بغداد دار السلام ، نشرته دار البصري ، بغداد ، ١٩٦٧ . وعن طبيعة العلاقات الخارجية للمماليك والبنية الاثنية لهم ، فمن الأهمية مراجعة المقدمات التاريخية التي كتبها حنا بطاطو في كتابه ، انظر وقارن :

Hanna Batoto, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq*, Princeton Univ. Press, Princeton, 1987, pp. 56-103.

(60) Albert Hourani, "The Changing Face of the Fertil Crescent in the XVIII Century", *Studia*, Larosse, Paris, 1957.

(٦١) سيار الجميل ، العثمانيون . . ، ص ١٨٧ .

(62) Charles Philip Issawi (ed.), *The Economic History of the Middle East 1800-1914*, Chicago Univ. Press, Chicago, 1975, p. 121.

(63) Cf. Sayyar K. Al-Jamil, op. cit., vol. 1, pp. 141-2.

(٦٤) تفاصيل تاريخية حول هذا الموضوع ، انظر : احمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة

بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢ ، الجزائر ، ١٩٧٦ ، وقارن ما كتبه جون وولف حول القرصنة والقرصنة المضادة :

J. B. Wolf, *The Barbary Coast : Algeria under the Turks 1500-1830*, U.S.A., 1969, pp. 49-103.

(65) See, Y. Ozkaya, *Osmanli Imparatorlugu 'nda Ayanlik*, Ankara, 1977; see also, D. R. Sada, *Urban Notalbes in the Ottoman Empire : the "Ayan"*, Ph. D. Thesis, Rutgers Univ., 1969, p. 23.

(٦٦) حول هذا الجانب من الادارة العسكرية وأساليبها المتنوعة ، انظر مقالة اناجيك :

Halil Inalcik, "Centralization and Decentralization in Ottoman Administration", *Studies in 18th Century Islamic History*, ed. by T. Naff and R. Owen, Carbondale, 1977, p. 48.

(٦٧) للمزيد من التحليلات التاريخية التي كتبها البرت حوراني ، انظر :

Albert Hourani, "Ottoman Reform and the Politics of Notables" reproduced in his book : *The Emergence of the Modern Middle East*, Oxford, 1981, pp. 12-67.

(٦٨) سيار الجميل ، العثمانيون . . ، ص ٤٤١-٤٦٤ .

(69) Moulaud Gaid, *L'Algerie sous les Turcs*, Alger, 1974, pp. 187-8.

(70) Charles-Andre Julien, *Histoire de l'Afreque du Nord : Tunisie, Algerie, Maroc, de la conquete arabe a 1830*, Paris, 1964, p. 211.

(٧١) قارن : ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ : العهد العثماني ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ١٤ . مع ما كتبه قديما دي غرامونت بالافرنسية :

Cf. H. D. De Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination Turque*, Paris, 187, pp. 29-49.

(٧٢) انظر : «حول الداي وحكومته الجزائرية . .» (= الفصل العاشر) من كتاب : حمدان ابن عثمان خوجه ، المرآة ، تقديم وتعريب وتحقيق : محمد العربي الزبيري ، ط٢ ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٥-١٤٢ .

(73) E. Mainz, "Les Juifs d'Alger sous la domination turque", *Journal Asiatique*, 1952, p. 208.

(وانظر المجهودات العلمية المختلفة التي كرسها المؤرخ عبد الجليل التميمي في كتاباته عن تاريخ الجزائر العثمانية ، اضافة الى المعلومات الجديدة التي كشف عنها وثائقيا) .

(٧٤) من الأهمية مراجعة ما كتبه العديد من المؤرخين الجزائريين القدماء ، أمثال : ابن المفتي وابن سحنون الراشدي وابن ميمون الجزائري وحمدان خوجه ومحمد الكاتب والورتلاني والشريف الزهار (نقيب أشراف الجزائر) الذي حقق وقدّم لمذكراته ، احمد توفيق المدني ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

(75) P. M. Holt, *op. cit.*, pp. 131-2; see also, H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West,* vol. 1 :*Islamic Society in the Eighteenth Century,* Part 1, London & New York, 1950, pp. 222-232.

(76) Cf. S. Tekindog, "Cazzar Ahmed Pasa " in *Islam Ansiklopedesi,* 3/239; See also, A.L. Tibawi, *A Modern History of Syria*, Edinburgh, 1969, p. 140; (cf. also A. -K. Rafeq in his article about "The Local Forces .." f.n. 13 above).

(77) Fr. Charles-Roux, *Les Echelles de Syria et Palastine au XVIIIIE Siecle,* (Librairie orientaliste Paul Geuthner), Paris, 1928, p. 140.

(78) Cf. Engin D. Akarli, "Provincial Magnates in Ottoman Bilad Al-Sham and Egypt, 1740-1840", *in Les vie sociale dans les provinces arabes a Lepaque ottomane*, Et. par Abdeljelil Temimi, tome 3, Zaghouan/ Tunis, 1988, pp. 46-7; see also, vol. 1(*=Empire of hte Gazis),* Cambridge Univ. press, Cambridge, 1977, p. 295.

(٧٩) قارن ما كتبه عبد الكريم رافق في : العرب والعثمانيون : ١٥١٦-١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، بما كتبه عبد الوهاب بكر عن «احمد باشا الجزار : رؤية جديدة » المجلة التاريخية المغربية للعهد الحديث والمعاصر ، العدد ٢٩ ، السنة ١٠ ، يوليو ١٩٨٣ .

(٨٠) من أجل التوسع في «نظامنامه مصر» لأحمد باشا الجزار ، أنظر تحليلات ستانفورد شو :
Stanford J. Shaw, *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century,* Harvard Univ., 1962 (ed. and Tran. The Nizamname-i Misir of Ahmed Pasha).

أما الكتابات العربية القديمة ، فلا بد من دراسة ما كتبه : الجبرتي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٣٠ ، وانظر : الأمير حيدر احمد الشهابي ، تاريخ احمد باشا الجزار ، نشره ووضع مقدمته وحواشيه وفهارسه : الأب انطونيوس شبلي اللبناني والأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي ، مكتبة انطوان ، لبنان ، ١٩٥٥ .

(٨١) نقلا عن كتاب : محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤ ، القاهرة ، د . ت . ، ص ١٥٦ . وانظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٧٠ .

(٨٢) فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢ ، ترجمة : كمال اليازجي ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٣٣٧-٣٤٠ .

(٨٣) عبد الوهاب بكر،الدولة العثمانية ومصر (سبق ذكره) ، ص ١١٠-١٥١ . وانظر : عمر عبد العزيز عمر ، المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢١٠ .

(٨٤) تاريخ جودت «ترتيب جديد» ، ج٤ ، اسطنبول ، ١٣٠٢هـ ، ص١١١ ، وقارنه بمعلومات الجبرتي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٨٤-٩٠ .

(٨٥) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١ (المقالة الأولى) ، ترتيب

الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسنين افندي ـ احد افندية الروزنامة ـ، القاهرة، د. ت. ، ص١٢ .

(86) Halil Inalcik, "The Socio-Political Effects of the diffusion of fire-arms in the Middle East", *in War Technology and Socieyt in the Middle East*, ed. by J.V. Parry and M.E. Yapp, London, 1975, p. 200.

(٨٧) من المفيد مراجعة أطروحة نوفان رجا الحمود : العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ط١، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٧-١٨٤ . (وهي رسالة ماجستير في الأصل تحت إشراف الاستاذ محمد عدنان البخيت) .

(٨٨) من أبرز الجيوش المحلية : جيش علي باشا جانبولاد / وجيش يوسف باشا سيفا/ وجيش بني الحرفوش/ وجيش الأمير فخر الدين المعني الثاني وجيوش زعامات أخرى .

أنظر : المرجع نفسه أعلاه ، ص ١٥٥-١٨٤ . ومن الأهمية البالغة دراسة ما كتبه العديد من المؤرخين القدماء ، أمثال : الغزي والمحبي ، والبوريني ، والدويهي والعرضي والشهابي والشدياق ، والخالدي الصفدي وغيرهم .

(٨٩) احمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، م رقم ١ .

(٩٠) راجع ما كتبته عن «جغرافية التوسع العثماني» في كتابي : «العثمانيون ...» سبق ذكره ، ص ٣٨٢-٣٨٥ (وتفحص الدايكرام التاريخي المرفق به ، ص ٣٨٦) .

(٩١) لقد عجت رقعة الوطن العربي وعلى امتداد التاريخ الحديث بنماذج عديدة من الاثنيات (= العصبيات العرقية) التي تحتاج اليوم الى شتى صنوف الدراسات والمعالجات الوثائقية الحديثة تاريخيا وانثربولوجيا وسوسيولوجيا من خلال مناهج متنوعة . وكان من ابرز بقايا تلك «العصبيات» العربية الأصيلة والأقلياتية المتآخية ، أو المختلطة المستعربة على سبيل المثال لا الحصر : أشراف مكة في الحجاز/ آل السعدون وآل شبيب وأفراسياب في البصرة وجنوبي العراق/ آل الشاوي وآل الكيلاني وآل جميل زاده في بغداد ووسط العراق / آل الجليلي في الموصل/ آل بابان والسوران والبهدينان واليزيدية في كردستان شمال العراق/ آل العظم في دمشق/ آل الجيار في السلمية بين الرقة وحلب/ آل حمادة في طرابلس/ بنو زياد وبنو نجاح في زبيد وبنو يعفر في شبام باليمن/ الصليحيون في صنعاء/ آل جانبولاد في بلاد الشام ولبنان/ الأمير الحارثي بن طرباس في جبل عجلون/ ابن فروخ في نابلس/ الأمير احمد بن رضوان في غزة/ آل مره في حوران / آل علي في المرج وغوطة دمشق/ بنو عساف في كسروان/ الارسلانيون من بني تنوخ في الشويفات قرب بيروت/ المعنيون في اقليم الشوف/ الشهابيون في وادي التيم/ المتاولة من بني الحرفوش في جهات جبيل وبقاع لبنان/ النصيرية في أرياف الساحل وشمالي طرابلس الشام/ الاسماعيلية في المصياف والحصن/ أسرة طرباي في اللجون/ آل مسلط الملحم في اقليم الجزيرة الفراتية/ بنوسيفا في عكار/ الزيادنة في الجليل/ الدروز في لبنان وفلسطين/ شمر في نجد / آل الرشيد في حايل شمالي نجد/ بنو خالد في الكويت / آل سعود في العيينة بنجد/ المشعشعيون في عربستان/ القواسم والعتوب على سواحل الخليج العربي/ اليعاربة والالبو سعيد في مسقط وزنجبار/ اليافعيون والكثيريون

والعبدليون والعولقيون في حضرموت وجنوبي اليمن/ الزيديون وآل حميد الدين في صنعاء وتعز/ شيوخ الهوّارة وابن جيب في صعيد مصر والوجه البحري / عربان البحيرة في مصر/ أسرة محمد علي في القاهرة (مؤخرا)/ والفونج في السودان/ البرقاوية في برقه/ القرمانليون في طرابلس الغرب / المراديون والحسينيون في تونس/ بنو هلال في صحراء تونس/ زواوه بين تونس والجزائر / القبائل الكبرى والصغرى في الهضاب الجزائرية العليا/ الشاوية في شرق الجزائر / توات والأباضية في جنوبي الجزائر/ الامازيغ في نجاد المغرب والريف/ السعديون والعلويون في المغرب الأقصى .... وغيرهم .

(٩٢) من المهم مراجعة كتاب عبد العزيز الدوري ، **التكوين التاريخي للأمة العربية : دراسة في الهوية والوعي** ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٦٢-٦٣ .

(93) Cf. Danial Bates and Amal Rassam, *People and Cultures of the Middle East* (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1983). p. 101, 120.

(٩٤) من الأهمية العلمية والأيديولوجية ، مراجعة ما كتبه البرت حوراني عن «الأقليات» في الوطن العربي ، انظر :

Albert H. Hourani, *Minorities in the Arab World*, Oxford, 1947, pp. 5-12, 61-36.

ومقارنة أفكاره بآراء سمير أمين عن الأمة العربية وطبيعة التنوع والتاريخ ، انظر :

Samir Amine, *la nation arabe*, Paris, 1977, pp.. 29-87.

(ومن الجدير بالتنويه : عدم الاعتماد على الآراء التي كتبها برنارد لويس وأمثاله بخصوص الأقليات في الوطن العربي واستنتاجاتهم في تجزئته وانقساميته لا في تنوعه وشموليته التي أوضحها العديد من الباحثين والمؤرخين المنصفين) .

(٩٥) أقصد دراسات في التاريخ الاجتماعي – العربي للحقبات المتأخرة من تكوين العرب الحديث ، وكنا نأمل لو توسع حليم بركات في بحثه عن «السمات العامة» في مقدمته لدراسة المجتمع العربي ، ومدى تنوع « المجتمعات العربية» (= الفصل الأول) من كتابه القيّم : **المجتمع العربي المعاصر : بحث استطلاعي اجتماعي** ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ١٤-٢١ . علما بأن دراسات عربية متخصصة ورصينة في التاريخ الاجتماعي العربي الحديث قد صدرت خلال العقدين الماضيين (بعد كتابات علي الوردي في طبيعة المجتمع العراقي وتاريخه) وخصوصا تلك التي كتبها : وجيه كوثراني ومسعود ضاهر (لبنان) / وعدنان البخيت (الاردن وفلسطين) / سعد الدين ابراهيم وعبد العظيم رمضان (مصر) / وعماد الجواهري وكمال مظهر (العراق) / وتوفيق بشروش وعبد الوهاب بوحديبه (تونس) / وعبد القادر جغلول وفانا كولونا (الجزائر) وعبد الله العروي (المغرب) وغيرهم .

(٩٦) سيار الجميل ، **العثمانيون** .. (سبق ذكره) ، ص ١٨٩-١٩٢ .

(٩٧) وميض نظمي ، **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق** ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٣٨ .

(٩٨) حليم بركات ، المرجع السابق ، ص ٦٣-١٠٩ ، وانظر ايضا : زهير حطب ، تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ١٤٠-١٥٦ .

(٩٩) راجع كتابات عبد الكريم رافق بهذا الخصوص ، وانظر الدراسة المتخصصة لاقتصاديات فلسطين الحديثة عند : عماد الجواهري ، الأوضاع الاقطاعية في فلسطين في العصر الحديث : تقويم لآثارها الاجتماعية والسياسية ، بغداد ١٩٨٣ .

(١٠٠) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(١٠١) من أجل التعرف على أمثلة أخرى من العصبيات العربية والأقليات الاثنية ، راجع أعلاه م رقم ٩١ .

(١٠٢) عبد الكريم غرايبة ، المرجع السابق ، ص ٢٥٢ . وانظر : محمد انيس ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(١٠٣) الأمير حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين : الغرر الحسان في أخبار الزمان ، بيروت ، ١٩٣٠-١٩٣٣ ، وانظر : احمد الخالدي الصفدي ، لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني ، حققه ، أسد رستم والمعلوف ، بيروت ، ١٩٦٩ ، وراجع ما كتبه الأب لويس المعلوف ، تاريخ حوادث الام ولبنان ١١٩٧-١٢٥٧هـ / ١٧٨٢-١٨٤١م ، بيروت ، ١٩١٣ .

(١٠٤) أنظر الآراء الجديدة التي كتبها كمال سليمان الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٧ (وراجع الأفكار التي يطرحها العديد من المؤرخين اللبنانيين المحدثين مثل : عبد الرحيم ابو حسين وخالد زيادة ، وسمير صيقلي وعصام خليفة ووجيه كوثراني وبطرس لبكي ومسعود ضاهر . .) .

(١٠٥) من أجل فهم تاريخي / تحديثي للعديد من التفاعلات الخطيرة في تكوين لبنان الحديث ، انظر تحليلات واستنتاجات دوميناك شيفالية :

Dominique Chevallier, *La Societe du Mont-Liban a l epoque de la revolution industrielle en Europe*, Paris, 1971, pp. 61-8.

(١٠٦) عبد العزيز نوار ، تاريخ العرب المعاصر (سبق ذكره) ، ص ٣٨ .

(١٠٧) سعد الدين ابراهيم ، «مصادر الشرعية في أنظمة الحكم العربية» ، الفصل الثامن من ملف ندوة : أزمة الديمقراطية في الوطن العربي ، لمجموعة من المفكرين العرب ، حرره ونشره مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ، ١٩٨٤ ، ص ٤١٥ .

(١٠٨) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون . . . ، ص ٣٣٠- ٣٨٤ .

(109) Albert Hourani, "Ottoman Reform and the politics of Notables", in: W.R. Polk and R.L. Chambers (ed.), *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Ninteenth Century*, Chicago Univ. Press, Chicago, 1968, pp. 41-68.

(١١٠) راجع كتيب خالد زيادة حول هذا «الموضوع» الذي اكتشفه العثمانيون متأخرين وهو : اكتشاف التقدم الأوروبي : دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن

الثامن عشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٣١-٤٤ .

(١١١) فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٠٠ (معتمدا على : زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية-التركية ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٢) .

(112) Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, vol., 1, London & New York, p. 9.

(١١٣) حول استخدامي لهذا «المصطلح» وتفسيره ، انظر : سيار الجميل ، العثمانيون ... ، (سبق ذكره) ، ص ٢٨ .

(١١٤) فهمي جدعان ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

(١١٥) وجيه كوثراني ، وثائق المؤتمر العربي الاول ١٩١٣ : كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به : الدولة العثمانية وظروف نشأة الحركة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١١٣-١١٤ .

(١١٦) انظر : بيان حزب اللامركزية الادارية العثماني ، المنار ، المجلد ١٦ ، ج٣ ، ١٢٩١هـ / ١٩١٣ ، ص ٢٢٦-٢٢٩ .

(١١٧) عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص ٢٤١-٢٤٢ .

الفصل السادس

أشراف مكة في العهد العثماني
أعرق بنية سلالية في التاريخ



البيئة الجغرافية :

يعد الحجاز من أعرق البيئات العربية ، ويمتد على الطرف الغربي من شبه الجزيرة العربية ، مكتسبا عراقته بوجود الكعبة المقدسة ومقام النبي ابراهيم (ع) وانبعاث الرسالة الاسلامية في مكة التي تقع في وادٍ غير ذي زرع وتحتضنها الجبال وقد غدت قبلة للمسلمين ، وكانت مركزاً حيوياً في تاريخ الاقتصاديات العربية ، اذ كان لها شأن كبير في التجارة القديمة فهي حلقة وصل بين بادية الشام وصحراء الجزيرة وجبال عسير وبلاد اليمن السعيد . ومعنى الحجاز هو : «المانع» أي : جبال السراط التي تفصل تهامة على امتداد البحر الأحمر عن الهضاب الداخلية لبادية نجد . . او انه «المانع» المرتفع المتصل بين بلاد الشام شمالا وبلاد اليمن جنوبا(١) .

يتألف الحجاز من عدة مناطق محاذية بعضها للبعض الآخر ، تنتشر بينها المسالك والأودية ، وهي :

١ - المنطقة الساحلية المحاذية لشواطيء البحر الأحمر .

٢ - المنطقة الجبلية العالية التي تنخفض تدريجيا حتى خط مكة - جدة .

٣ - المنطقة النجدية الواقعة بين الجبال .

٤ - الأخدود الرئيسي الذي يتكون من الجرمة والعويرص وخيبر .

ويعد وسط الحجاز منطقة حيوية بالنسبة لتطور تاريخ صدر الاسلام وجذوره ، وتقع فيه أشهر المدن المهمة : مكة والمدينة والطائف وجدة التي اختلف سكانها في جملة مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية عن أبناء القبائل العربية المنتشرة في تلك الأجزاء من شبه الجزيرة العربية(٢) .

عراقة «الأشراف» ومكانتهم التاريخية :

لقد تحصنت «قريش» العربية العريقة في مكة لأجيال طويلة ، والتي بدأت منها أعرق سلالة في التاريخ ، مثّلها «الشرفاء» الذين كانت لهم ايضا قداستهم سواء من خلال هوية الانتساب الأسري للرسول محمد (ص) أو هوية الانتماء العربي الهاشمي ، فعدّ الأشراف الهاشميون ، سادة السادات في المجتمع العربي الاسلامي على مرّ العصور ، وغدوا طبقة أرستقراطية في المجتمع الحجازي أولا والعربي ثانيا ، نظرا لكسبهم المصالح

المتنوعة ومحافظتهم على الأولويات الدينية والاجتماعية ، فضلا عن سيطرتهم الزمنية على الادارة المركزية للقبائل العربية[٣] . . ناهيكم عن الايرادات الضخمة التي كانت مكة تستحصلها على مرّ التاريخ ، وتأتي ايرادات «الحج» في مقدمتها .

وحظي أشراف مكة بمكانة سامية من لدن زعماء وقادة الدول الاسلامية قاطبة باعتبارهم من نسل ابنة الرسول ﷺ فاطمة الزهراء وزوجها الامام علي بن أبي طالب (رض) . إن كلا من «الأشراف» و «السادة» يمثّلون بنية سلالية قوية راسخة في التاريخ العربي الاسلامي ، وقد تطور أمرهم لكي يمثّلوا جملة من التنظيمات التي وقفت على رأسها «نقابة الأشراف» في العهد العثماني .

إن مصطلح «الشريف» في مدلوله اللغوي بالعربية هو «السمو والعلو» والجمع «شرفاء» و «أشراف» . أما في مضمونه التاريخي ، فقد أطلق مصطلح «الشرافة» على ذوي المكانة الاجتماعية العربية المرموقة الذين يؤكدون نسبهم الشريف عن «السلالة المنبثقة لكل من ولدي فاطمة وعلي (رض) الإمامين : الحسن والحسين ، فأطلق لقب «الشريف» على الذين انحدروا من الامام الحسن ، وأطلق لقب «السيد» و «السادة» على الذين انحدروا من الامام الحسين[٤] . وبوجه عام ، فان لقب «الأشراف» قد أطلق على المنسوبين الى آل البيت ، بل وحتى على المنحدرين من هاشم جد الرسول (ص) ايضا . . ومن أشهر سلاسل الأنساب الحاكمة العربية اليوم : اشراف مكة ومنهم : هاشميو العراق والأردن ، وهناك سلاطين المغرب الأقصى وأئمة اليمن الذين ينتمون أصلا الى الحسن المثنى بن الامام الحسن السبط بن الامام علي (رض) .

أشراف مكة : الطبقات الأسرية (=العتر الشريفة)

كانت مكة عاصمة للحجاز حتى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م : امارة تابعة لبغداد العباسية وكان يقودها بصورة شبه مستقلة الأولاد الامام علي المرتضى حتى لما بعد سنة ٣٤٥ هـ/٩٥١م وهي السنة التي أعيد فيها الحجر الأسود الى موضعه بعد أخذه الى البحرين من قبل القرامطة عند احتلالهم مكة . ولقد انقسمت البنية الشرافية فيها الى أربع طبقات أسرية على مدى تاريخها الطويل ، ودعيت بـ «العتر الشريفة» . . اذ تولت إمارة مكة واليمامة أسرة الإمام الحسن لمدة (٩٩) سنة اعتبارا من سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م متمثلة بأولاء

أخيضر الذين سكنوا اليمامة أولا ثم في مكة ، وكان أولهم اسماعيل ابن أخيضر هو من الجيل الخامس من أبناء الإمام الحسن(٥) .

أخذت الطبقة الثانية زمام الإمارة في مكة وتمثّلتها أسرة بني موسى بن عبد الله المحصّن بن الحسن المثنّى ، ودام حكمها مدة (١٠٣) سنة ، اذ حكموا للفترة ٣٥٠-٤٥٣هـ/٩٦١-١٠٦١م ، وكان آخر الموسويين هو تاج المعالي الشريف محمد شكر ابو الفتوح الذي مات دون خلف سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ، فانتقلت الامارة الى أسرة الهواشم(٦) ، العترة الشريفة الثالثة ، وكان أولهم الشريف ابو هاشم محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله ، وتولى الامارة بعد ست سنوات من وفاة ابو الفتوح ، كان قد سيطر خلالها على الامارة كل من بملوك ابو الفتوح ومن بعده الشريف محمد بن ابي فاتك حتى تولاها ابو هاشم ، فبقي الشرفاء الهواشم فيها مدة (١٣٥) سنة ، أي حتى سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م تولاها (١٣) أميرا هاشميا كان آخرهم هو الأمير مكثر بن عيسى الذي انتقلت الامارة منه الى القتاديين(٧) .

ان آل قتادة هم الطبقة (=العترة الشريفة) الرابعة قد حكموا مكة حوالي سبعة قرون ونصف القرن ، وكانوا يتبعون الدولة الأيوبية ومن ثم الدولة المملوكية في مصر . وقد شهدت امارتهم صراعا داخليا عنيفا نتيجة انقسامات حادة فيما بينهم . ومؤسس هذه الطبقة الشريفية هو ابو عزيز قتادة الذي عرف بشجاعتهِ وبأسه ولجاحه في ترسيخ كيان طبقته الأسروية . وهو : قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد الساير بن موسى بن عبد الله المحصن بن الحسن المثنّى بن الامام الحسن السبط ابن الامام علي بن أبي طالب (رض)(٨) بقي القتاديون يحكمون الحجاز تحت ظل الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين . . اذ كانوا وسيلة أساسية لكسب المشروعية الدينية والنفوذ السياسي والاحترام الاجتماعي في العالم الاسلامي قاطبة(٩) . لقد بقي القتاديون في الامارة للفترة ٥٩٨-١٣٢٤هـ/١٢٠٩-١٩٢٥م على الرغم من الانقسامات والتحديات الداخلية والاضطرابات ، وقد انتهى دورهم السياسي والديني في الحجاز على أيدي السعوديين في القرن العشرين .

أشراف مكة وتطور العلاقات التاريخية :

لقد اهتمت أغلب الدول الاسلامية بآل البيت ، اذ تطور الاهتمام والعمل بلقب «الشرافة» وسلالتها البنيوية كثيرا في القرن الرابع الهجري في زمن العباسيين مع خصوصية «نقابة الأنساب» لآل أبي طالب (=الطالبيون) وآل العباس (=العباسيون) وغدا في زمن الفاطميين أكثر خصاصة كي ينشطر نسب اولاد الامام الحسن (=الأشراف) عن نسب أولاد الإمام الحسين (=السادة) كما ويطلق لقب «السيد» على الطالبيين والعلويين ثم يغدو أكثر شمولا فيما بعد[١٠] . . في حين يبقى لقب «الأشراف» محدّداً في السلالة والنسب وملتئما على نفسه في الزمان والمكان العربيين .

بقي أشراف مكة منكمشين على أنفسهم ابان عهود حكم طبقاتهم الثلاث الاولى التي عمرت حوالي (٣٣٧) سنة مقارنة بحكم الطبقة الرابعة (=القتاديون) التي استمرت متواصلة معمرة لأكثر من سبعة قرون شهدت خلالها مختلف الدول والعهود والظروف والعلاقات التاريخية ، وقد تطورت مكانتهم السياسية كثيرا في القرون المتأخرة على عهد العثمانيون . علما بأن أمراء مكة وشرفائها لم يستقلوا تماما في حكمهم ، بل وقعوا تحت نفوذ الدول والحكومات التي عاشت في مصر اولا ، اذ كانوا يرتبطون بهم ارتباطا مباشرا او رمزيا بذكر أسماء حكام تلك الدول في الخطبة [١١] .

إبان حكم أبو عزيز قتادة لمكة ، غدا الأيوبيون حكاما لمصر وسورية واليمن ، فكان ان اعترفوا بالادارة الذاتية الشريفية لمكة والمدينة . وأعقبهم المماليك الذين ساروا على منوال سابقيهم ، كما واعترف العثمانيون بامارة القتاديين في الحجاز ، وقد جاء ذلك نظرا لمشروعية نسبهم وقدسيته أولا وبسبب أداء فريضة الحج لمكة ثانيا . .

العثمانيون وأشراف مكة :

نخلص من التدقيق في بعض المصادر التاريخية التركية القديمة[١٢] بأن العثمانيين قد اهتموا بـ «الأشراف» كثيرا منذ عهد مبكر ، اذ يرجع ذلك الى أكثر من مائة سنة على سيطرة الدولة العثمانية على الحجاز عام ١٥١٧م ، فقد اهتم السلطان بايزيد الأول (=يلدرم) ١٣٨٩-١٤٠٢م كثيرا بـ «نقابة الأشراف» والتي تطورت صلاحياتها في عهد السلطان مراد الثاني ١٤٢١-١٤٥١م[١٣] . وماذا ايضا؟

تجمع أغلب الأدبيات التاريخية والبايوغرافية ، ان البلاط العثماني ، وبعد ان فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، فقد امتلك سمعة كبرى في العالم الاسلامي ، وكان ينظر الى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة نظرة احترام وامتياز . هكذا ، أرسل السلطان محمد الفاتح ١٤٥١-١٤٨١م رسولا هو العالم الحاج محمد الزيتوني ليحمل بشرى الفتح مع رسالة وهدية الى أمير مكة الذي اغتبط وقرأ «الرسالة» على الناس أمام الكعبة ، كما وزع الأموال المرسلة وقدرها (٢٠٠٠) قطعة ذهبية (=آلتون) عدا ما أرسله السلطان من مال الغنائم (٧٠٠٠) قطعة ذهبية لتوزيعها على السادة والنقباء والفقراء والخدم في مكة والمدينة طالبا الدعوات الصالحات[١٤] من أشراف مكة التابعين للادارة المملوكية في مصر ، وقد أرسل الفاتح رسالة الى السلطان المملوكي يعلمه بالأمر ، «وكان المسؤولون العثمانيون والمماليك يتمتعون بعلاقات طيبة ان لم تكن جيدة . . وقد ميّز ولا شك هذه العلاقات خلال العقدين اللذين سبقا فتح القسطنطينية [١٥] .

ان الذي يشد الانتباه في تلك المراسلات تاريخيا ، انها المرة الأولى التي يوجه فيها زعيم دولة كبرى وسلطان عثماني رسالة الى مسؤول عربي هو شريف مكة والمدينة في عام ١٤٥٣م ، والأهم من ذلك ، انها حررت بالعربية وبأسلوب أدبي رائع ، وهي رسالة تترجم بدقة حجم الاهتمام ليس بشرافة الحرمين الشريفين فحسب ، وانما ايضا ببقية الفئات العربية من شيوخ وفقهاء وعلماء ونظار وخدم وفقراء[١٦] . لقد وصف الفاتح في رسالته شريف مكة بـ «أمير المسلمين وولي المؤمنين» و «سلطان بيت الله» و «علاء الملة والدين» وهي صفات تمنح عادة الى أعلى سلطة دينية في العالم الاسلامي[١٧] . وقد قام شريف مكة بتحرير رد رسالة للسلطان محمد الفاتح ملؤها الاجلال اوالتكريم والتعظيم ، وأطرى على القسطنطينية وضواحيها ، وأعلمه بتوزيع الهدايا والنهائل ، ولم يذكر شريف مكة في رسالته الجوابية سلطان مصر اينال ولو لمرة واحدة[١٨] .

لم يقتصر مثل هذا «التطور» على السلطان الفاتح ، فقد استمر التعاطف العثماني قويا على عهد خلفائه من السلاطين العثمانيين . يحدثنا المؤرخ النهروالي عن بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢م ، انه كان يحب أهل الحرمين الشريفين ، ويحسن اليهم احسانا كثيرا ، ورتب لهم «الصرفي كل عام» وكان يرسل كل عام أربعة آلاف ديناراً ذهبا لكي يتناصفه فقهاء مكة والمدينة[١٩] .

السلاطين العثمانيون وارسالهم لـ (الصرة) الى مكة والمدينة :

إن «الصرة» (=كيس المال) تقليد عثماني من قبل السلاطين يؤكد طبيعة العلاقات بين الطرفين : العثماني/ الشرافي والتي كان يسودها الاحترام والتجلة قبل امتدادات العثمانيين على البلاد العربية . لقد أبدى السلاطين الأتراك كل الرعاية للسادة والأشراف الذين وفدوا الى عاصمتهم ، واهتموا براحتهم ومعاشهم مانحين إياهم «البراءات» (التي تعني : المذكرة أو المنشور مفردا) ، كما اتبع السلطان مراد الثاني العادة في توزيع الاعطيات السنوية لسلالة الرسول (ص) والمقدرة بمبلغ (١٠٠٠) فلوري سنويا (الفلوري : عملة جنوة الايطالية الذهبية) .

كان السلطان بايزيد الأول (=يلدرم) أول من أرسل الأعطيات الذهبية المسماة بـ «الصرة/ Surra » الى مكة والمدينة ، ثم تبعه السلطان مراد الثاني الذي أرسل الصرة وخصص ايرادات قرى منطقة بالق حصار Balik Hisari وقفا لمكة[٢٠] كما أرسل محمد الفاتح الصرة بعد فتحه للقسطنطينية ، وأعقبه بايزيد الثاني الذي أرسل صرة تناصفتها مكة والمدينة . . أما السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م ، فقد أرسل صرة تبلغ ضعف صرة والده ، وأرسل عداها وبعد دخوله مصر مبلغا قدره (٥٠٠) دوكا (الدوكا : عملة مدينة البندقية الايطالية الذهبية) لكلّ من الشرفاء فضلاً عن (٦) سكة (= قرش ذهبي خالص) لكلٌ من بقية المشايخ و (٣) دوكا لكل من أعيان المدينة ، ودوكا واحدة لكل من الفقراء خارج مكّة فردا فردا . . فضلا عن كمية من الحبوب لسكان مكة والمدينة . وقد نصّب أول «أمين صرّة» Surre emini سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧م، وهو الأمير مصلح الدين وبمعيته اثنين من القضاة ،[٢١] وقد أصبح ارسال الصرة بعد ذلك سنويا من قبل العثمانيين تقليدا محترما ، وأسماها أهل الحرمين الشريفين بـ «الصدقات الرومية»[٢٢] .

ولم تكن أوقاف الصرة منحصرة عند العثمانيين فحسب ، بل كانت تطبق ايضا من قبل دولة المماليك في مصر وسوريا والتي كانت ترسلها الى مكة سنويا ، فلما جاء العثمانيون وأزالوا حكم المماليك وسيطروا على بلاد الشام ومصر ، فقد طبقوا الأعراف والمراسيم المملوكية في ارسال الصرة ، وأضافوا الى مقدارها ، اذ زاد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م مقدار الصرة الخاصة والمرسلة الى مكة من مصر . . وقد كانت مصر تحتفظ منذ العهود المملوكية بأوقاف معينة من قرى ، أو مناطق موقوفة للحرمين

الشريفين في مصر ، والتي يطلق عليها بـ «خاصكية عتيق» وقرى الدشيشة[٢٣] . وهناك أيضا : الجزية المأخوذة من غير المسلمين ، والتي خصصت منذ عهد السلطان سليمان القانوني لأهالي الحرمين الشريفين[٢٤] .

هكذا ، نجد بأن «أشراف مكة» كانوا أقوى فئة اجتماعية عليا أكرمها البلاط العثماني وأجلها كثيرا في الدولة العثمانية وعلى امتداد عهود طويلة ، كما واستفاد الأشراف كثيرا في تدعيم قوتهم المحلية والقبلية في الحجاز . . كما ستتوضح أمامنا الصورة في أدناه .

أشراف مكة في القرن السادس عشر :

الامتدادات العثمانية وترسيخ حكم «الشرافة» اللامركزية :

بعد استيلاء السلطان سليم الأول على بلاد الشام بعد معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م ، ثم استيلاؤه على مصر بعد معركة الريدانية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، وصله اعتراف أشراف مكة به مبكرا سلطانا على البلاد العربية ، فقد قام أمير مكة عصرذاك الشريف بركات الأول بن محمد (بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن ابي نمي محمد بن حسن بن علي بن قتاده) بارسال ابنه الشريف محمد ابو نمي ، وكان يبلغ عمره (١٢) سنة الى مصر حاملا معه مفاتيح مكة المكرمة ومجموعة هدايا ليقدمها الى السلطان سليم الاول اعترافا بقبول سيادته على العرب[٢٥] . ويذكر صاحب «خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام» بأن هذا الاعتراف السلمي جاء نتيجة اشارة تلقاها الأشراف من قاضي مكة السابق صلاح الدين ابن ابي المسعود الذي كان معتقلا في مصر وقد أطلق سراحه سليم الاول . . وأفادت رسالته بأن السلطان كان ينوي ارسال قوة عسكرية لضم الحجاز[٢٦] .

استقبل الشريف ابو نمي ووفده في القاهرة استقبالا حسنا وأكرمت وفادته ضمن مراسيم عالية المستوى[٢٧] . . . «ففي جمادى الآخرة ٩٢٣هـ وفي يوم الأحد خامس عشر ، (حضر) الى الأبواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة المكرمة وسبب حضوره انه حضر ليهنيء ابن عثمان بمملكة مصر»[٢٨] . . وقد عاد الشريف ابو نمي رفقة هدايا ومخصصات ومنشور الامارة الى والده الشريف بركات الذي توفي سنة

٩٣١هـ/١٥٢٥م فتولى ابنه الامارة من بعده بمرسوم من السلطان وعمره (٢٠) سنة[٢٩]، فكان اداريا جيدا يتمتع برأي سديد ومقدرة حربية وجسارة وشجاعة ، فاستقرت أمور الحجاز في عهده ، وعلى الأخص اشتراكه مع الحامية العثمانية التي تولاها والي جده على رأس قواته البدوية ومهاجمتهما للبرتغاليين الذين تعرضوا لمدينة جدة ، وقد أجبرت القوات البرتغالية على الانسحاب فتعزز موقف الشريف ابو نمي كثيرا لدى الدولة العثمانية[٣٠].

وفي عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م ، حل الخلاف بينه وبين أمير الحاج الذي قدم شكواه الى الدولة ، فكان ان صدر فرمان بتأثير والي مصر أقر فيه عزل ابو نمي عن الامارة ، فأعلن تمرده مستعينا بانتفاضة بدوية عربية وقد التحمت الجماهير المكية معه نظرا لولائها ومحبتها له ، فرضخ البلاط العثماني لطلبها ، فأعاد ابو نمي مجددا الى إمارته بموجب فرمان مؤرخ في ٩٥٩هـ/١٥٥١-١٥٥٢م ، ولكن ما لبث ابو نمي إلا أن استقال عن منصبه سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٣م مقترحا تنصيب ابنه الشريف احمد مكانه ، فاستجيب لطلبه[٣١] . ولكن توفي الشريف أحمد في السنة ذاتها ، فنصب بدله أخوه الشريف حسن أميرا ، وبقي أبوه الشريف ابو نمي يحتل مكانة مرموقة ونفوذا كبيرا . . وقد وقع خلاف كبير بين قيادة الأشراف العربية والحامية العسكرية العثمانية بقيادة بيري ريس[٣٢] ، وعبثا حاول ابو نمي وابنه حسن عزله فقد أرسلا الى العاصمة استانبول مبعوثا لهذا الغرض هو الشيخ قطب الدين المكي . . ولكن؟

لم يفد ذلك كله أمام خطط السلطان القانوني الذي لم يضعف النفوذ العسكري العثماني في المنطقة أمام رغبات الأشراف ، وقد كانت مهددة من قبل البرتغاليين ، وقد عرف عن بيري ريس انه كان من المع القواد العثمانيين ومن أشهر قراصنة البحر وامهرهم . وعليه ، فقد نصّب فيما بعد قائدا للأسطول العثماني في البحر الأحمر والمحيط الهندي[٣٣] ، وعلى الرغم من استمرار امارة الشريف حسن طويلا ، فقد كان ابوه ابو نمي يدير سياسة الامارة ، وكان قد بلغ من الكبر عتيّا ، اذ توفي في عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م بعد حكم طويل جدا أرسيت خلاله علاقات لامركزية وطيدة وثقى بين الأشراف والعثمانيين في القرن السادس عشر ، عدت قاعدة لتاريخ مشترك بين الطرفين في القرون التالية .

وقد استفاد ابنه الشريف حسن من تجربة ابيه السياسية والاجتماعية الخصبة ، فاعتمد هو الآخر على أولاده ، اذ عاونه ابنه الشريف مسعود الذي توفي ، فكان الشريف ابو طالب نائبا اولا والشريف عبد المطلب نائبا ثانيا وبموافقة الجهات العثمانية العليا . وتوفي

الشريف حسن في ١٠١٠هـ/١٦٠١م عند أطراف نجد حين كان يحارب هناك[٣٤] .

لقد كانت تجربة أشراف مكة إبان القرن السادس عشر زاخرة بالاستقرار السياسي والاحترام المتبادل مع العثمانيين ، كما وترسخ حكمهم المحلي ومكانتهم الاقليمية من خلال نهج «اللامركزية» الذي كانت لهم فيه خطوات جادة وعلى يد ابرز شخصية شرافية عرفها ذلك القرن متمثلة بالشريف ابي نمي الذي استطاع أن يطور مفهوم القداسة الدينية وارومة السلالة الهاشمية الى نزعة سياسية مارس بها سلطته في الحجاز بعيدا عن المشاكل الداخلية والتعقيدات الأسرية التي ستتفاقم كثيرا إبان القرنين التاليين : السابع عشر والثامن عشر .

أشراف مكة في القرن السابع عشر :

١ / بدايات الانقسام :

نصّب الشريف ابو طالب أميرا ، وقد عرف بشجاعته وسداد رأيه ووقاره ، حكم لمدة سنتين ثم توفي في ١٠١٢هـ/١٦٠٣م بعد حياة قصيرة ، فبدأ التنافس بين الشرفاء كبيرا على منصب الامارة ، فلقد «أدى صراع الأشراف فيما بينهم على السلطة ، الى خلل في الجهاز الحكومي التابع لشرافتهم اولا ، قبل ان يكون متبوعا لجهاز الدولة العثمانية . . التي لم يكن يعنيها أمر ذلك الخلل الذي يقف الانقسام السلطوي-المحلي وراءه ، حتى وصول الحالة الى «خراب» شامل كي تنتبه لمعالجتها»[٣٥] .

خلّف الأمير حسن ايضا ولدين شريفين ، هما : ادريس وفهيد ، كان الاول قد استقر في استانبول بعد وفاة والده ، ثم نصب في الامارة بعد ابي طالب ، وقد أجبره الشرفاء في صفر ١٠١٣هـ/١٦٠٤م على مشاركة أخيه فهيد وابن أخيه محسن فيها بسبب قوة منافستهما له ، وقد أقر السلطان أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧م ذلك في منشوره ، ولكن الشريف ادريس أزاح فهيد وأبقى محسنا[٣٦] ، أما لماذا تمت إزاحة الشريف فهيد ؟

يخبرنا المؤرخ محمد أمين بن فضل الله المحبي في كتابه «خلاصة الأثر» ان فهيدا قد كثرت تجاوزاته مع جماعته الذين كانوا يقومون بأعمال الشغب . . . فأخرج فهيد من مكة ، فذهب مهاجرا الى مصر ثم استقر في استانبول أشهرا ، ثم توفي في سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م[٣٧] .

بقي الشريف محسن مشاركا عمه ادريس في الامارة حتى دب الخلاف بينهما نتيجة تجاوزات حملة الشريف ادريس على شرقي الجزيرة العربية ، فاتخذ الشرفاء والعلماء والفقهاء قرارا بعزله ، وأبلغت استانبول بذلك ، فأرسلت منشورا باسم «إمارة محسن» عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م فبقي فيها حتى عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م . . اذ جاء عزله نتيجة تأليب منافسيه عليه بقيادة الشريف احمد بن عبد المطلب الذي تلقى مساعداته من والي اليمن احمد باشا فاصطدم بالأمير محسن الذي أخفق في المقاومة فغادر نحو أطراف اليمن رفقة أتباعه ، ثم توفي في صنعاء[٣٨] .

تقلد الامارة بعده الشريف احمد بن عبد المطلب الذي وصف «بالفضل والذكاء ولكنه كان ظلوما غشوما ، استولى على أموال الناس[٣٩] ، ووقع كثير منهم تحت طائلة عقوباته القاسية ، فضلا عن مصادرته لأموال التجار . . وكان أمير الحاج قانصوه باشا هو القائد العثماني القوي قد بلغته أخبار سياسة احمد بن عبد المطلب ، فقدم الى مكة وقبض عليه ، وخنقه ، بعد فترة صعبة دامت سنة واربعة أشهر ، وكان ذلك في سنة ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م[٤٠] . ويبدو للمؤرخ أن مؤامرة عثمانية قد دبرت لأحمد بن عبد المطلب ، فقد نصب بعده الشريف مسعود بن ادريس في الامارة . . وكان الأخير حليفا للشريف احمد الذي انقلب عليه وخطط لاغتياله اذ عده منافسا له ، فهرب مسعود كي يتحالف مع أمير الحاج قانصوه الذي أطاح بالشريف احمد الذي ربما كان يعمل باتجاه مناوىء للعثمانيين ، فالمعروف عن العثمانيين انهم لا يتدخلون بسهولة في حسم الصراعات المحلية او الداخلية عند أشراف مكة .

يقترن اسم مسعود عام ١٠٣٩هـ/١٦٣٠م بهجمة السيول الجارفة التي انساحت نحو مكة بفعل غزارة الأمطار ، فانهدمت الكعبة ، وتلفت الكتب ومحتويات المسجد الحرام ، وسقطت البيوت والمحلات ، فكان ان تجرد الشريف مسعود مع فئات السكان لتنظيف المسجد الحرام . وقد أمر السلطان مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٠م بتعمير الكعبة في السنة التالية على الأحداث الصاخبة التي أسكتتها السيول ، فانشغل الناس بعد أن عانوا كثيرا من ثقل الأزمة السياسية الداخلية . . وتوفي مسعود في ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م بعد امارة عمرها سنة واحدة وثلاثة أشهر ، وقد كان معروفا بكرمه وشجاعته وحسن تصرفاته ورعايته للعلماء والأدباء[٤١] .

يبدو للمؤرخ من خلال فحص الأحداث ومقارنة الشخوص بأن بدايات القرن السابع عشر قد شهدت بذور الانقسام على السلطة ، «وكانت شرافة ادريس أفضل بكثير من شرافة أولئك الذين تلوه فيها : محسن واحمد بن عبد المطلب ، ولكن «الوزارة المحلية بمكة كثيرا ما كان يستفحل أمرها وخطرها من خلال الانقسام الأسري والتسلط البيروقراطي»[٤٢] .

٢ / الانقسام التاريخي للبنية الشرافية :

انقسم الشرفاء على أنفسهم اثر وفاة الشريف مسعود بن ادريس بين فئتين سياسيتين ، هما : شرفاء بنو عبد المطلب و شرفاء بنو محسن ، فقد ظهر في الحجاز سنة ١٤٠١م/١٦٣١م بعض الثوار الذين تابعهم نمي وأخوه من أبناء عبد المطلب . وقد ولي الامارة الشريف زيد بن محسن الذي دخل ضد الثوار في قتال ضار قابضا على الشريف نمي وأخيه اللذين صلبهما بعد عملية استفتائه العلماء في ذلك[٤٣] . وفي العام نفسه ، يدخل شرفاء مكة لأول مرة وتحت قيادة الشريف زيد في قتال ضد الجيش العثماني الذي قدم من اليمن ، فكان أن ذهب الشريف محمد بن عبدالله ضحية الحرب بين الطرفين بعد شرافة عمرها في الحكم المشترك مع زيد قرابة ستة أشهر[٤٤] .

لقد انخفضت جدا برودة العلاقة السياسية بين الأشراف والعثمانيين بعد انقضاء أكثر من قرن كامل على ذلك التتابع السلطوي لاستانبول . وتبلور ذلك كله نتيجة طبيعية للانقسام الحاد الذي حدث في البنية الشرافية/ السراتية التي يستحوذ عليها كبار أشراف مكة . . والذي جرّ الى صراع كبير بين ممثليها من أصحاب المطامح أو المطالبين بالسلطة والمنافع والمصالح . وكان من أبرز الأسباب الخارجية في ذلك : ان السلطة العثمانية المركزية قد أشركت في منصب «الامارة» كل من الشريفين نمي بن عبد المطلب وزيد بن محسن في الريع لا الخطبة . فما كان من زيد الا التحالف مع الحاكم (=الوالي) العثماني بمصر والذي يرسل له جيشا كي يقوده زيد وينهي سيطرة نمي بن عبد المطلب على جده كأبرز موقع استراتيجي / عربي في الحجاز اذ كان العثمانيون قد بعثوه اليه ليملكه . . وقد قبض على نمي واخيه وحملا الى مصر العثمانية فأعدما بعد إفتاء العلماء بذلك[٤٥] .

هكذا ، ارتبكت العلاقةالتاريخية بين العثمانيين والأشراف نتيجة للاحترابات التي كان سببها استفحال الانقسام ، ونضوج التناقضات الداخلية في البنية الشريفية من أجل

السلطة ، علما بأن ثمّة قوى سياسية شريفية كانت تعبر عن احتجاجاتها القوية للطموحات الفردية في التسلط ، وانتقاداتها المريرة للمناورات والمؤامرات الخفية . أما كيف تطورت الأوضاع المضطربة الى حين استقرارها على يد الشريف زيد بن محسن ؟

كان الشريف عبد الله بن حسن (وهوالجد الأكبر للشرفاء العبادلة الذين سيستمر ميراثهم السياسي حتى القرن العشرين) هو أكبر أفراد الأسرة الشريفية عمرا وأكثرهم احتراما ووقارا . . ولم يتورط في أعمال الصراع الأسروي على السلطة . وقد اتفق الجميع على ترشيحه اثر وفاة الشريف مسعود ، فوافقت الدولة على تنصيبه رسميا ، ولكنه تخلى عن الامارة بعد تسعة أشهر سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م لابنه محمد وللشريف زيد بن محسن فأقرت إمارتهما المشتركة ، ولم يلبث الشريف عبدالله حيا اذ توفي بعد أشهر قليلة من استقالته (٤٦) . فما هي تفصيلات ذلك ؟

الشريف زيد بن محسن : معاناة من أجل الاستقرار

تولى الاثنان امارة مكة : محمد بن عبدالله وزيد بن محسن في عهد مترع بالتحديات العربية – العثمانية . كان الزيديون في اليمن قد نجحوا في تحجيم سلطة الوالي العثماني هناك ، وقد سيطروا عام ١٦٣١م على المناطق الداخلية الصعبة في اليمن ، فانسحبت القوة العثمانية منها في طريقها الى مصر ، وبتشجيع من لدن الشرفاء الخصوم في مكة ومنهم نامي بن عبد المطلب ، أبلغت الأميرين محمد وزيد بدخول مكة فتخوفا مما قد تؤديه القوات العثمانية بالسكان من سلب ونهب فرفضا ذلك . . فاصطدم الجانبان في معركة خسر الشريف محمد بن عبد الله حياته فيها اثر اصابته بشظية طائشة ، وكان ذلك في شعبان ١٠٤١هـ/ آذار ١٦٣٢م ، أما الشريف زيد بن محسن فقد هرب ، فوجهت الامارة الى كل من نامي بن عبد المطلب وعبد العزيز بن ادريس شراكة(٤٧) بعد مضي سبعة أشهر فقط على شراكة محمد وزيد .

لقد شن الشريف نامي حملة على مدينة جدة فاحتلها بعد قتل واليها وقام بأعمال عنيفة . أما الشريف زيد ، فقد هرب نحو المدينة ومنها خاطب والي مصر خليل باشا يستعطفه المساعدة ، فأرسلت قوات مصرية نحو مكة وكان الشريف زيد في استقبالها وقد لبس خلعة الامارة المرسلة اليه ، وشارك بمعية مناصريه والقبائل البدوية المؤيدة له القوات المصرية بقيادة قاسم بيك في عملية تحرير مكة ، فدحر العصاة ، ثم دخل مكة فاتحا في ذي الحجة ١٠٤١هـ/ حزيران (يونيو) ١٦٣٢م ، ثم دخل محمل الحج المصري المرسل بمعية

الجيش(٤٨) ، فأصبح الشريف زيد أميرا على مكة ولكن لوحده هذه المرة . . وكان الشريف نامي قد هرب نحو قلعة تربه التي طوقتها تلك القوات ، وبعد مقاومة بسيطة ، استسلم نامي اثر معاناة شديدة من العطش في عز الصيف القائظ ، فاعتقل مع اخيه وجماعته فورخروجهم ، فصدرت فتوى باعدامه هو واخيه وكان ذلك في محرم ١٠٤٢هـ/آب (اغسطس) ١٦٣٢م(٤٩) . أما الشريف عبد العزيز شريك نامي ، فقد فر هاربا الى مدينة ينبع شمالا ومنها لجأ الى مصر التي توفي فيها مطعونا سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م(٥٠) .

استتبت الأمور في مكة وعاد الاستقرار اليها ، وبقي الشريف زيد بن محسن في الامارة اكثر من (٣٥) سنة ، أي حتى وفاته في محرم سنة ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م مؤسسا بذلك عائلة شريفية حاكمة استمرت في الامارة عهودا طويلة . وتمتع الرجل بخصال رفيعة المستوى وأخلاق عالية المدى كما وكان أميرا قديرا استقر الحجاز على عهده ، كثيرا واستتب الأمن والنظام والاستقرار في جميع المدن واثر ذلك على ازدهار حركة الحج والتجارة على الرغم من مهاجمة السيول مكة لأكثر من مرة (٥١) . ويبدو للمؤرخ ان السلطة العثمانية قد نجحت بالاشتراك مع الشريف زيد بن محسن ان تحسم الامور بفرض هيمنتها الشكليه ، كما وفاز زيد بعد معاناة الانقسام الطويلة ان يحل عقدة ذلك الصراع الأسري القديم ولكن لفترة مرحلية معينة . .

أشراف مكة : البنية الأسرية الثلاثية المتنافرة

ستعلمنا طبيعة الأحداث التاريخية في أدناه باشتراك ثلاث أسر رئيسية متنافرة في التنافس على الامارة في مكة ، وهي :

١ – أسرة ذوي زيد (او : الشرفاء الزيدية) .
٢ – أسرة آل بركات .
٣ – أسرة الشرفاء العبادلة (الذين سيعرفون فيما بعد باسم ذوي عون) .

السؤال الآن : ما هي طبيعة تاريخ الشرافة المكية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ؟

لقد حدث نزاع على الامارة بعد موت زيد بن محسن سنة ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م بين الشريفين سعد بن زيد وحمود بن عبد الله ، ودام صراعهما أعواما . وكانت الحكومة العثمانية ملتزمة للشريف سعد الذي لقب بـ «الشريف الأفضل» ، فكانت مناورات حمود

محاولات عبثية . وفي عام ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م عين الشريف احمد بن زيد (=اخو سعد) مشاركا له ، علما بأن سعدا كان يمتاز بجرأته وبقبضته على الأمور ونشاطه الذي لا يعرف الكلل ، ولم يكن لأخيه أي دور قيادي ، فما كان من سعد إلا أن احتل مدينة جدة واستولى على بضائع التجار وصادر «صرّة استانبول» وعارض الدولة العثمانية بشكل علني ، وعلى الأخص عندما كان حسن باشا والي جدة يزور مكة لتعمير الكعبة وتوزيع «الصرة» وأداء شعائر الحج ، فكان ان ذهب القائد العثماني رفقة (٢٠٠) رجل من قواته قتلى على يد الشريف سعد والبدو المتحالفين معه ، كما كانت القوات المصرية قد تشتتت في البراري فتدهور الأمن في الحجاز(٥٢) .

أصدرت الحكومة العثمانية أوامرها لصاري حسين باشا والي الشام لكي يكون سرداراً (=قائدا لجيوش الأقاليم) وليتوجه على رأس قواته العثمانية وبالتحاق قوة مصرية فضلا عن حجاج مصر والشام . وقد استخدم صاري حسين باشا محاولاته السلمية لتسوية الخلافات وفتح صفحة جديدة من العلاقات . . وعبثا حاول تهدئة مخاوف الشريف سعد الذي كان يشك بنوايا تلك المحاولات ، فلم تنفع أية هدنة او محاولة ، وعلى الرغم من محاولات سعد للمواجهة ، الا انه هرب اخيرا ، فعزل شريكه اخيه الشريف احمد ، ونصب الشريف بركات بن ابراهيم بن بركات بن ابي نمي أميراعلى مكة(٥٣) . . فانتقل الحكم من ذوي زيد الى آل بركات .

لقد جرى الاحتفال بذلك في ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م(٥٤) . وتوجه الشريف سعد وأخيه بعد عزلهما الى استانبول حيث صدر العفو عنه وخصصت لهما بعض الايرادات . وامتدت امارة الشريف بركات عشر سنوات وأشهرا حتى وفاته سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م ، وكان عهده خاليا من المشاكل ، واتصف الرجل بادارته الرصينة واخلاصه للدولة العثمانية ورعايته للشرفاء لكنه يختلف عن الشريف سعد في بعض امكانياته ، فقد كانت للأخير قدرات قيادية أكبر ، ونفوذ واسع على البدو ، كما كان أكثر استقلالا بشخصيته السياسية عن مصدر القرار العثماني . . وكان محترما جدا من قبل الدولة (٥٥) .

عهود المشاكل والتبدلات :

تولى الامارة بعد بركات ابنه الشريف سعيد الذي لم يكن على وفاق مع الشرفاء ، فعادت الخلافات الأسرية تحيا من جديد . وقد تبين مدى فشل سعيد في ادارة الأمور ،

فغادر مكة في ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م نحو مصر بعد تنصيب الشريف احمد بن زيد (فعاد ذوو زيد كرّة أخرى) الذي كان في ادرنه فاستدعاه السلطان محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧م ، وكان العثمانيون قد فشلوا فشلا ذريعا في حصارهم الثاني الذي فرضوه على فيينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣م ، وقد أوقعت بهم جيوش التحالف الأوروبي هزيمة منكرة [٥٦] . وتعد هذه «السنة» حدّا فاصلا في طبيعة السياسة العثمانية إزاء أقاليمها المتنوعة المختلفة . . دخل الشريف احمد بن زيد على السلطان فقام وصافحه بنفسه قائلا له : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» ثم جلس اليه وهو يقول : «ياشريف احمد الحجاز خراب أريدك أن تصلحه » . . فصدر الفرمان بتنصيبه وخلع عليه بامارة مكة التي وصلها وتمكن فيها حتى وفاته سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م [٥٧] ، دون أن ينجح في مهمته ، اذ كانت مشاكل الحجاز عميقة متجذّرة ليس على المستوى السياسي فحسب ، بل على مستويات الحياة الاجتماعية بشكل كبير .

بعد وفاة احمد بن زيد ، نصّب الشريف احمد بن غالب ، وكان طموحا متفردا بالسلطة فاستولى على الغلال و«الصرة» . وقد دفعته تخوفاته من الشرفاء المتذمرين ومن العثمانيين الى الهروب نحو اليمن متسللا ليلا ، فبادر الشرفاء لتنصيب الشريف محسن بن حسين اميرا بالوكالة . ولقد غادر احمد بن غالب اليمن نحو مصر ومنها نحو استانبول فاستقبله السلطان مصطفى الثاني ١٦٩٥-١٧٠٣م وأكرمه ولكنه توفي بعد شهر واحد فقط ودفن في استانبول عام ١١١١هـ/١٧٠٠م [٥٨] . وعلى المؤرخ أن يتساءل عن سر هروب هذا الرجل بعيدا هناك في الغربة ولمدة عشر سنوات في اليمن ومصر . . وبعد وصوله العاصمة العثمانية استانبول يموت بعد شهر واحد اثر مقابلته لسلطان الدولة ؟

أما الشريف محسن فقد كان قد عين أميراً سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م وهو ابن الشريف حسين بن زيد ، قضى في الامارة سنة واحدة حتى أزاحه الشريف سعيد بن سعد ذاك الذي كان الأشراف قد نصبوه أميراً بالوكالة بعد وفاة الشريف احمد بن زيد ثم اضطره الشريف احمد بن غالب الى الهرب نحو اليمن . . فدخل مكة هذ المرة على رأس قواته وأزاح الشريف محسن وتولاها بالقوة المسلحة ، فاضطرت الدولة قبول امارته تخوفا من هجمات البدو على قوافل الحجيج فضلا عن انشغال العثمانيين في حروبهم ، كما منحته الدولة رتبة الوزارة (=الباشوية) في ١١٠٣هـ/١٦٩١م [٥٩] .

كان سعيد بن سعد هو ابن الشريف الكبير الشهير سعد بن زيد ، وقد بقي في امارته هذه حوالي سنة واحدة ، ثم حكمها ولده الشريف سعد بن زيد للمرة الثانية ، ولكنه أعيد أميرا بعد استقالة والده في ١١١٤هـ/١٧٠٢م ، وبقي في منصبه حتى ١١١٦هـ/١٧٠٤م عندما رفضت الدولة المصادقة على تنصيبه . وعينت بدله الشريف عبد الكريم بن محمد (فعادت الامارة الى آل بركات) ، وقد قام الشريف الكبير سعد بن زيد بأخذ الامارة عنوة مرة أخرى ولكنه توفي بعد ايام ، فعاد الشريف سعيد ثالثة الى الامارة (وعاد ذوو زيد مرة أخرى) . كان عهد سعيد مليئا بالمشاكل والازمات والخلافات الاسرية / الشريفية فاضطرت الدولة الى عزله في ١١١٧هـ/١٧٠٥م وعينت له راتبا تقاعديا . . فعاد الشريف عبد الكريم بن محمد ثانية اميرا ، ولكن البلاط العثماني عاد فأصدر فرمانا في ١١٢٣هـ/١٧١١م نصب بموجبه الشريف سعيد بدل الشريف عبد الكريم وللمرة الرابعة (انتقلت الامارة بين آل زيد وآل بركات) ، فباشر عمله وبقي في منصبه حتى وفاته في ١١٢٩هـ/ ١٧١٦م . . فتولى ابنه الشريف عبد الله بن سعيد الامارة ، وقد عرف في بداية امارته بالاستقامة والاتفاق مع الشرفاء ، ولكنه عاد فتخلى عن مبادئه ، وساءت روابطه معهم ، وبسببها استقال بعد سنة واحدة وثلاثة أشهر ، وخرج متجها نحو اليمن ، فانتخب الشريف عبد المحسن بن احمد بن زيد اميرا بالوكالة ، ثم عيّن الشريف علي بن سعيد أميرا في ١١٣٠هـ/١٧١٨م وبموجب فرمان ، فلم يستحسنه الشرفاء ، فعزل بعد أشهر قليلة لصغر سنة وسوء أخلاقه وطمعه فحل بدله الشريف يحيى بن بركات باتفاق الشرفاء ١١٣١هـ/١٧١٩م[٦٠] .

هنا ، تبدأ تجربة تاريخية جديدة في الحياة العثمانية لاقليم الحجاز . . مع نضوج شخصية شريفية كان لها ثقلها السياسي والاداري في القرن الثامن عشر الذي تميز عربيا بانحسار السلطة العثمانية المركزية عن ادارات الأقاليم (=الادارات) العربية ، فتطورت خلاله شخصياتها التاريخية على نحو كبير . ثمة تساؤلات لا بد من البحث لها عن اجابات شافية فيما يخص طبيعة حكم مكة الشريفي ابان القرن السابع عشر ، والذي ازدحم كثيرا بالأحداث المريرة والتبدلات الصعبة والصراعات الأسرية التي تشكل جميعها مجموعة واسعة من التناقضات التي أضرت كثيرا بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحجاز[٦١]

. . ويبدو واضحا للمؤرخ مدى الهيمنة السياسية والنفوذ الاجتماعي-القبلي لذوي زيد في الحياة الحجازية خلال القرن المذكور ، ورفضهم مجيء أي شريف للحكم من الأسرتين الأخرتين : آل بركات والعبادلة . ويتوضح كم كان العبادلة زهادا في تقلد المناصب السياسية ، اذ كانت لهم مكانتهم الاجتماعية السامية في المجتمع المكي/ الحجازي . . ومن النتائج الأخرى المثيرة للتساؤل والتعجب : مدى التطويق العثماني للأمراء الأشراف من ذوي النزعة المستقلة . . فكثيرا ما عانى أولئك الأشراف من عنت السلطة العسكرية التركية او الولاة العثمانيين في مصر وبلاد الشام اضافة الى حالة الانقسام والنزاعات الأسرية المتفاقمة في القرن السابع عشر جعلت أمراء مكة في حالات من التخوفات والاضطرابات والقلق السياسي المستمر بحيث لم يجد بعضهم من وسيلة إلا الهروب ، وعلى الأخص نحو اليمن وقد لا يأمنون حتى على سمعتهم الشخصية بما يلصق بهم من تهم باطلة .

أشراف مكة في القرن الثامن عشر

قدرة الأمراء الجدد في ترصين الحياة السياسية وازدهار الاقتصاديات :

١ / الشريف يحيى بن بركات بن محمد

عاد آل بركات مرة أخرى الى حكم الامارة من جديد في خضم تاريخ عثماني مليء بالتحولات السياسية . وكان الشريف يحيى بن بركات بن محمد قد قضى زمنا طويلا في بلاد الشام عند نهايات القرن السابع عشر ، فشهد التطورات الحاصلة هناك ، وقد منحته الدولة العثمانية رتبة الوزارة (=الباشوية) ، وعينته أميرا للحاج الشامي ، لكنه لم ينجح في حماية الحجاج من هجمات البدو الرحل في العودة الى مواطنهم . لقد اتفق الشرفاء على تنصيب الشريف يحيى أميرا لمكة في عام ١١٣١هـ/١٧١٩م ، فأرسلت الدولة فرمانا اليه تمنحه الامارة مدى الحياة معتمدة عليه في الادارة وبشكل مستقل كما يقول النص الرسمي «بر وجه استقلال» لأجل تحقيق الأمل في الاصلاح على النحو الذي قام به بعض أسلافه من أمراء مكة المكرمة[٦٢] . هذه هي نقطة «التحول التاريخي» الذي لم يشهده الحجاز لوحده فحسب ، بل ما شهدته ايضا معظم الولايات العربية في بدايات القرن الثامن عشر ، وهي جزء من الاستراتيجية العثمانية ازاء تلك الولايات التي بدأت حياتها الادارية تتشكل على نحو جديد متخذة أسلوب الصيغ اللامركزية في إطار

العلاقة مع العثمانيين . . فكان هناك : آل العظم في دمشق وباشوات العراق من الوزراء والمماليك الكوله مند في بغداد ، والجليليون في الموصل والشهابيون في لبنان والحسينيون في تونس والقرمانليون في طرابلس الغرب والدايات في الجزائر(٦٣) . . . . .

بدأ الشريف يحيى سياسته باستحصال الايرادات المقررة للدولة (في الحجاز) لحسابه فوضع يده على «الصرة» السنوية . . فكثرت الشكايات ضده ، واتسع الخرق بينه وبين الشرفاء بأنفجار الصراع واندلاع معركة بين الطرفين في وادي مهنا خارج مكة ففشل يحيى وعزلته الدولة ليحل بدله الشريف مبارك أميرا في ١١٣٣هـ/١٧٢٠م فذهب يحيى الى المدينة ومنها الى مصر التي غادرها نحو استانبول عبر بلاد الشام ، وكان قد حاول استعادة امارة مكة لنفسه ، ولكن خابت مساعيه فاستقر زمنا في الشام ، ثم سافر الى استانبول وحظي بمقابلة السلطان احمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠م في حديقة الترسانة بواسطة الصدر الأعظم الداماد ابراهيم باشا فقدمت له الهدايا مع التقدير الكبير ، ولم تمنح الدولة من العطايا لأي أمير سابق قدر عطاياها اليه وكان الشريف يحيى قد عين متصرفا للقدس سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م وحصلت له الحظوة لدى والي الشام . . وقد عاد أميراً لمكة ثانية في نهاية المطاف الصعب(٦٤) .

وبسبب تاريخه المؤلم مع الشرفاء من ذوي زيد بشكل خاص ، فانه بدأ التحرك بحذر ، قد أصدرت الحكومة العثمانية فرمانا يقضي باقامة الشرفاء المعزولين في مصر او استانبول مع دفع مخصصات ورواتب لهم لأن وجودهم في مكة يسبب غلبة في المشاكل والازمات . وعاد الشريف يحيى يمارس السياسة الاولى التي اتبعها بأخذه للأموال واستحواذه على موارد التجار ، فأساء الى منصبه وبلاده ، ومن المحتمل ان صورة الشريف يحيى قد أسيء لها من قبل خصومه ، اذ تألب الشرفاء عليه مرة أخرى حتى عزل عن منصبه ، فعاد الشريف عبد الله بن سعيد أميرا لمكة للمرة الثانية في حين عاد الشريف يحيى الى الشام وبقي فيها حتى وفاته .

عاد آل زيد مرة أخرى الى الحكم اذ تمثل ذلك بامارة الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد في عام ١١٤٤هـ/١٧٣١م ، وكان رجلا عديم الخبرة قليل التجربة فساءت علاقاته مع الأشراف ، فعزل وعين بدله الشريف مسعود بن سعيد في ١١٤٥هـ/١٧٣٣م ، ثم تبعه الشريف محمد بن عبدالله ، ثم عاد مسعود ثانية في ١١٤٦هـ/ ١٧٣٤م لكي يبقى في الامارة أكثر من (١٨) سنة حتى وفاته .

لقد منح الشريف مسعود مبالغ مالية وأوقف العمل بمبدأ ارسال الهدايا نحو العاصمة استانبول . وقام بارسال مذكرة خطيرة الى الحكومة العثمانية في سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م نبه فيها السلطات الى وجود شخص من أهالي العيينه ، احدى قرى نجد يدعى (الشيخ) محمد بن عبد الوهاب يصدر اجتهادات مخالفة للمذاهب الأربعة (كذا) ، فردت الحكومة طالبة اقناع هذا الشخص بالعدول وزجره وتهديده لانقاذ الناس من الضلاله . . ويذكر ان هذا الشريف منع الدخان والقهاوي مقلّدا الدعوة التي عارضها ، وانه كان معاصراً لوالي دمشق الشهير اسعد باشا العظم وتوفي الشريف مسعود في ١١٦٥هـ/١٧٥٢م ، فرشح الشرفاء أخوه مساعد بن سعيد للامارة قبلت الحكومة ذلك وصادقت عليه(٦٥) .

٢/ الشريف مساعد بن سعيد ودور ولديه : سرور وغالب :

القوة والازدهار

تعد امارة الشريف مساعد لمكة من أبرز العهود السياسية الشريفية في القرن الثامن عشر . لقد انتفض عليه ابن اخيه الأمير السابق محمد بن عبد الله فاستطاع عمه مساعد التغلب عليه ومصالحته ، وقد أبلغ الحكومة العثمانية بتفاصيل الأحداث . وما كان حكم مساعد ليترسخ وتبقى أسرة ذوي زيد في السلطة لولا تلك القاعدة السياسية والاقتصادية التي بناها أخوه الشريف مسعود من قبله ، فبقي حكم هذه الأسرة ساري المفعول لعهود طويلة من الزمن ، اي حتى تضاعيف القرن التاسع عشر .

لقد بقي مساعد في امارته الاولى حتى نهاية ١١٧٢هـ/١٧٥٩م ، ولكنه عزل بسبب اضطراب علاقته ببعض التجار الذين حركوا ضده امير الحاج المصري ، فعين بدله اخوه الشريف جعفر ، فاضطر للتنازل بعد ان فوجيء بالأمر . . وكان له نفوذه بين البدو فضلا عن امتلاكه لقاعدة اجتماعية قوية ، ولم يتحمل مساعد ان يعزل بتلك الصورة ، فرفع «مذكرة» الى الحكومة العثمانية يبين فيها ولاؤه وتوضيح ما لفق ضده كما ذكر بأن أخيه جعفر قد تنازل له عن الامارة . وقد أرسل «المذكرة» عن طريق بغداد لا عن طريق الشام كيلا تقع بيد غريمه واليها عبد الله باشا الجته جي الوزير العثماني الشهير وبرفقتها محاضر مفتيّي المذاهب الأربعة بحقه(٦٦) .

وصلت « المذكرة» والمحاضر الى استانبول ، ونظرا لأهميتها ، فقد اجتمع السلطان مصطفى الثالث ١٧٥٧-١٧٧٤م مرتين مترأساً في السراي هيئة عليا تشكلت من الصدر

الأعظم وشيخ الاسلام في الدولة والنيشانجي (=السكرتير الخاص) وقاضي عسكر الاناضول وعسكر الروميللي ونقيب الأشراف وآغا الانكشارية والسكبان باشي (=رئيس الحرس السلطاني الخاص) ، فأقرت الهيئة اعطاء الحق للشريف مساعد [٦٧] ، ونقل والي الشام الوزير عبدالله باشا الجته جي الى حلب ومن ثم الى دياربكر ، علما بأن هذا الوزير الخطير كان يتمتع بمكانة بارزة في الدولة العثمانية نظرا لرجاحته وادارته وأخلاقه وثقافته العليا . . كما انه حظي باستقلالية في اتخاذ القرار ، وكانت له علاقاته الاقليمية الواسعة بالولاة العرب والأسر العربية الحاكمة في كل من بلاد الشام والعراق[٦٨] .

عاد الشريف مساعد الى امارته ١١٧٣هـ/١٧٦٠م بعد ان وصلت اليه الخلعة والمنشور ، فبدا مزهوا بالانتصار السياسي الذي حققه فتجاوز صلاحياته الى حد التمادي نظرا لعدم وجود اية معارضة داخلية ضده فضلا عن انشغال الدولة في حربها ضد روسيا . وعبثا حاول الشريف عبدالله بن حسين بن يحيى بن بركات (الذي كان يمثل جناح أسرة آل بركات) المقيم بمصر ان يحصل على الامارة ، فقد خذله مساعد في المعركة داخليا وخارجيا فهرب عائدا الى مصر . وتوفي الشريف مساعد في ١١٨٤هـ/١٧٧٠م بعد امارة أمدها (١٩) سنة وثلاثة أشهر[٦٩] .

٣ / الشريفان : سرور وغالب وتطور حكم الشرافة

لقد تم انتخاب الشريف احمد بن سعيد للامارة وبموافقة اخوته ومصادقة استانبول وعبثا حاول الشريف عبد الله بن حسين الذي تسلم الامارة بفرمان «مزور» البقاء في السلطة كونه هزم بواسطة قوة البدو بعد ورود المنشور العثماني وانكشاف الحقيقة . . وبعد تخلص الشريف احمد من الأزمة الاولى ، عاد ليتعامل مع ازمة اخرى ومنافس جديد له هو الشريف سرور ابن اخيه الشريف مساعد الذي ناضل من اجل الامارة ، اذ دخل في مواجهات عسكرية ، ونجح بدخول مكة في اواخر ١١٨٦هـ/يناير ١٧٧٣م وفرض سرور انتخاب نفسه اميرا وعمرهُ (١٨) سنة ، عارضا الأمر على استانبول فحصل على ما أراد ، لكنه لم يفرض ادارته على كامل تراب الحجاز ، اذ تفاقم النزاع الأهلي في داخل اسرة ذوي زيد ، فكان هناك ضد عمه (٢٥) صداما مسلحا ، وانتهى الأمر بأسر عمه وأبناء عمه في ١١٩٣هـ/١٧٧٩م فسجنهم الشريف سرور وآذاهم ، وبقي عمه الشريف احمد في سجنه حتى وفاتهِ سنة ١١٩٥هـ/١٧٨١م[٧٠] .

نجح الشريف سرور في فرض سلطته على البدو فأخضعهم ، وثار ضده معارضوه الذين قام بتأديبهم ، فعرف بادارته الحازمة ، واستتب الأمن والنظام في عهده ، وعلى الأخص محاربته لبني حرب وقبائل اخرى كانت تتعرض لقوافل الحجيج والتجارة ، فحاربهم الشريف سرور سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦م وشتت شملهم بقتله لثمانمائة رجل منهم ، وعاد منتصرا مزهوا بنفسه الى المدينة وصلى شكرا لله وصنع على باب الروضة النبوية الواح فضة كتب عليها : «هذا عمل السلطان سرور» . فأثارت هذه العبارة استياء السلطان سليم الثالث بعد تسلمه الحكم سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م فأرسل بقلعها وتبديل كلمة «السلطان» بـ «الشريف»(٧١) .

بقي الشريف سرور في الامارة وكان مكتسبا شعبية واسعة الأرجاء اذ اشتهر بعدله واحسانه وتوفي مرهقا في العام المذكور اعلاه بعد ان قضى (١٥) سنة في الامارة ، وقد بكاه الناس عند وفاته(٧٢) . وتولى أخوه الشريف عبد المعين الامارة من بعده اياما ، ثم غدا وكيلا لأخيه الشريف غالب بن مساعد الذي اختاره الناس اميرا ، فتولاها رسميا سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م ، ولكنه دخل صراعا حدا ضد الشرفاء الذين وقفوا ضده ، ثم انغمر في صراع طويل ضد ابن اخيه الشريف عبد الله بن سرور الذي كان في الثانية عشر من عمره والذي لاقى تشجيعا من منافسي غالب فوقعت معركة بين الطرفين داخل مكة استمرت اربعة ايام واستخدمت فيها البنادق والمدافع . . وقد تدخل الناس لحسم الصراع فوافق الطرفان على نقل القتال خارج مكة ، فكانت الهزيمة للشريف عبدالله الذي سار نحو الطائف مع مؤيديه واحتلوها(٧٣) . . ثم مشى عبد الله نحو مكة ثانية فدحره عمه الشريف غالب وأسره مع أخيه الشريف محمد . وقد عاملهما عمهما معاملة حسنة وعفى عنهما وخصص لهما راتباً . وقد علمت الحكومة العثمانية بالأحداث المريرة فقدمت نصائحها لكي تستقر الاوضاع وتضمن سلامة الحرمين الشريفين . وتخبرنا وثائق وزارة الداخلية العثمانية عن اهتمام السلطان سليم الثالث بالأحداث وارساله الفرمان الى الشريف غالب (٧٤) .

لقد أطلعتنا غزارة الأحداث التاريخيةالداخليةفي الحجاز ابان القرن الثامن عشر على حجم التطور السياسي الذي لحق بشرافة مكة وامارتها مقارنة بما كان عليه حالها في القرن السابع عشر . ولعل أبرز ظاهرة ملفتة للنظر والتي حكمت طوق تلك «الاحداث» ، هي :

النزعة اللامركزية التي تميزت بها الادارة العثمانية ليس في الحجاز لوحده بل في معظم الاقاليم الاستراتيجية - العربية . ولقد وجدنا كم كان حجم السيطرة الأسرية لذوي زيد على مقاليد الأمور مقارنة بآل بركات من طرف وبالعبادلة من طرف آخر . . لقد هيمن الزيديون على مقاليد الامامة والشرافة نظير التعاون المطلق مع العثمانيين ، وعلى الرغم من بعض حالات الصراع والمنافسات داخل اطار الأسرة الزيدية ، إلا أن حجم التطور السياسي قد بلغ مداه على يد الشريف غالب الذي حكم أكثر من ربع قرن وفي فترة التخضرم بين قرنين الثامن عشر والتاسع عشر بكل ماشهدته الدولة العثمانية والمنطقة العربية عموما ومنطقة الجزيرة العربية خصوصا من أحداث مهمة جدا ، وعلى الأخص تلك التي حددت مصير البنية التاريخيةالشريفية بعد الحرب العالمية الأولى . أما من الناحيةالاجتماعية والاقتصادية ، فقد وجدنا حالة جديدة أخرى خلال القرن الثامن عشر ، تلك التي تتعلق بهيمنة الأمراء على الموارد واعمال الحج مقارنة بما كانت عليه في القرنين السابقين فضلا عن سيطرتهم على القبائل ، فأدى ذلك كله الى رضوخ الناس وتلبية حاجاتهم وخصوصا في عهود الشريف مساعد وولديه : سرور وغالب . .

نظام الحكم والتقاليد الشريفية العامة

كانت شؤون الحجاز تشغلها امارة مكة الممتدة سلطتها على المدينة وبقية المدن المحيطة بمنطقة الحرمين الشريفين ، فضلا عن ادارة القبائل المستقرة والمتنقلة . وكان العثمانيون يمارسون نفوذهم من خلال ما يرسله ولاة مصر اليهم من تقارير . ومنذ مطلع القرن الثامن عشر وحتى اكتمال مركزية والي مصر محمد علي باشا وتمرده في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م تمتع الأشراف بذاتية في الحكم المحلي على غرار بعض الولايات العربية الأخرى المهمة رغم ان جل المعاملات الادارية الخاصة بأمراء الحجاز كانت تنجز بواسطة مطالعات والي الشام ومكاتباته باعتباره «أميرا للحاج» بتكليف من لدن الحكومة المركزية(٧٥) .

كان أمير مكة ينصب بارادة سلطانية ولكن بعد انتخابه من قبل الأشراف وبناء على توصية من قاضي مكة وتقارير ولاة مصر والشام وجدة ،وذلك عند شغور المنصب بسبب الوفاة او العجز او العزل او الاستقالة(٧٦) . . وكان تأثير ولاة مصر قويا في شؤون مكة وتوابعها في الطور العثماني الاول (=القرن ١٦) ، ثم قوى مركز ولاة جدة في القرن السابع

عشر . اما ولاة الشام ، فكان تأثيرهم فعالاً في الطور العثماني الثاني (=القرن ١٨) في الشرافة والامارة . ولقد نتج ذلك التأثير لكل من مصر والشام على مكة بفعل عامل امارة الحج المختصرة بتسيير ركبي الحج الشامي والمصري نحو مكة .

كانت الحكومة العثمانية بدراسة التقارير المختصة بشأن تنصيب الشرافة/ الامارة ، وترجح واحد من اثنين او اكثر في حالة عدم حصول الاتفاق ، وذلك لحسم الخلافات . كانت تعطي الاولوية لعملية «الانتخاب» بين الأشراف انفسهم ، ونظرا لحالة التنافر وتفاقم الانقسامات على السلطة ، فكثيرا ما يبدل الأمراء في عهود قصيرة . . فزاد ذلك من حدّة الصراعات والمصادمات المسلّحة ، فتعيش مكة حالة اضطرابات مريرة وعلى الأخص عندما كانت السلطة المركزية في استانبول منشغلة في حروبها الخارجية عن مكة في شؤونها الداخلية . . ناهيكم عن الدور المؤذي الذي مارسه ولاة جدة وأساليب بعضهم في الرشوة ونزع الثقة وكتابة التقارير الجائرة(٧٧) .

أما وثيقة «البراءة» اوالتي يطلق عليها «منشور الامارة» فانها ترسل من قبل البلاط العثماني مضمنة التعيين وتحديد وظائف الأمير الجديد ومهامه فضلا عن بعض الوصايا ، ولكنها تزدحم بالأختام والطغراء والوان الاطناب والتفصيل وايات التبجيل والتعظيم والتشريف . . مستمرة هكذا حتى النهاية . وكانت المناشير جميعها تخط بالديواني وتكتب بأسلوب موحد على ورق سلطاني ، وتُزخرف برقائق الذهب والمواد الثمينة من قبل الكاغتجي باشي (=رئيس الوراقين) ، وتوضع بمعيتها الكتب السلطانية الهمايونية داخل أكياس من أطلس الساتان الأخضر ويعلق عليها كرة ذهبية وتغطى بغطاء ثم ترسل الى شريف مكة بيد موظف من الخدمة الداخلية (الاندرون) (=الذي يعمل في قصر السلطان) ويدعى بـ «آغا القفطان» . وكان الوزراء يرسلون الى أمير مكة معطف مبطن بالفرو السمور مع غطاء للرأس ويرسل بعضهم الآخر سيفا او خنجرا .

يلاحظ المؤرخ التركي اسماعيل حقي اوزن جارجلي بأن العثمانيين كانوا يرسلون رسائلهم الى أشراف مكة في أكياس خضراء ، فاللون الأخضر هو علامة الأشراف الأولى المتميزة في العهد العثماني . وقد ألغي العمل بارسال الفراء السمور الى امراء مكة في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م نتيجة لتطبيق نظام الاصلاحيةالعثمانية الجديد بتغيير الملابس القديمة ، فبدأ العثمانيون يرسلون لهم الجبّة

الخضراء الزمردية وياقتها مطرزة بخيوط الذهب او الفضة ومزينة حواشيها باللؤلؤ . . واستمر ارسال ذلك مكررا حتى الأدوار الأخيرة من حياة الدولة العثمانية(٧٨) .

كان الأمير يستقبل بمكة المنشور والخلعة ويقوم بتقبيلهما ويحتفظ بهما لديه . وعندما يتم تكليف شريف مكة بالامارة وتسلم منصبه ، فان ذلك يعلن في المدن بواسطة المنادين وتطلق (١٩) قذيفة مدفع بعد قراءة المنشور في الحرم الشريف على الأشراف والعلماء وغيرهم . وتتم عملية البيعة للأمير الجديد من قبل الأشراف والشيوخ وغيرهم ، وكانت الطبول تقرع عصر كل يوم ، وطبقا للقانون ، فقد كان اسم الأمير يذكر بعد اسم السلطان في الخطبة(٧٩) . وكانت مرتبة أمراء مكة أعلى من مرتبة الوزراء بمرتبة واحدة(٨٠) .

وكان هناك من أشراف مكة من يقيم في العاصمة استانبول او قريبا منها بفعل الخلافات والمشاحنات المحلية او بفعل التقرب من مركز السلطان والصدارة . وعندما توجه الامارة لأحدهم ، فانه يمثل امام السلطان حيث توجه اليه امارة مكة شفويا ثم يرسل الى مكة . وتتم عملية الاستقبال في البلاط العثماني بوقوف السلطان على قدميه عند حضور امير مكة وشريفهااحتراما وتجلّة لجده الرسول (ص) كما يفصح عن ذلك السلطان نفسه ، ويقوم بتلاوة الدعوات وذكر الصلوات(٨١) . ويقوم السلطان نفسه بتحديد المخصصات والرواتب لامراء مكة وأشرافها(٨٢) .

أبقى العثمانيون لأشراف مكة نفوذهم الديني كما كان عليه في العهود المملوكية ، وأطلقوا صلاحياتهم في ترتيب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية . أما مسألة حفظ الأمن والنظام فكان من واجب قوة عسكرية تتناوب سنويا من مصر الى الحجاز . ويبدو لنا من خلال المقارنة ، ان هذا «الأسلوب» الخاص يختلف عن بقية الأساليب التي طبقتها الدولة في بقية الولايات العربية الأخرى . . ان ادارة الحجاز تقترب كثيرا من نمط «الادارات النيابية» الذي تواجد في بعض الايالات الاوروبية ، اي أقاليم الروميللي مثل مجرستان (=هنغاريا) مع الفارق في النظرة التاريخية وعامل القدسية الاسلامية التي يتمتع الحجاز بها . ولم يكن امراء مكة براغبين في تحديد صلاحياتهم المطلقة ، وقد نجح السلطان سليمان القانوني في وضع أسس ادارية بحتة تحدد مهامهم ونطاق عملهم . . ومع ذلك كله ، فان الأشراف واتباعهم من القبائل البدوية كانوا يديرون بلادهم غير مقيدين

الى حد كبير بالقوانين العثمانية . . ولكن لم تضر بهم كثيرا في حياتهم السياسية والاجتماعية الا انقساماتهم ومنافساتهم!

أشراف مكة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين

التحديات الخارجية والتحولات الجديدة :

١ / العلاقات مع الوهابيين :

تعد الحركة الوهابية التي ظهرت على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في اقليم نجد من أخطر ما واجههُ الأشراف في مكة على امتداد تاريخهم الطويل ، وقد انبثقت عن تلك الحركة «دولة سعودية» تراوحت حياتها بين المد والجزر إبان القرن التاسع عشر[٨٣] ، ولكنها استطاعت ان تتوسع من خلال تحالفتها في بدايات القرن العشرين ، وتشكّل لها امتدادات واسعة من شبه الجزيرة العربية ، وستكون نهاية تاريخ أشراف مكة الطويل على يد تلك «الدولة» . فما هي جذور العلاقات بين الطرفين ؟

بدأ السعوديون في عهد امارة الشريف غالب بالتوجه غربا نحو الحجاز بعد تطور حركتهم وكثرة مؤيديهم واتساع ممتلكاتهم . وبدأ زعيمهم عبد العزيز بن محمد بن سعود ١٧٦٥-١٨٠٣م يهدد أمير مكة . . فعرض الشريف غالب خطورة الأوضاع على السلطة العثمانية طالبا المساعدة كونه غير قادر على مواجهة الزحف السعودي ومخاطره ، خصوصا وان السعوديين كانوا يحققون نجاحاتهم المستمرة لخططهم بكل هدوء وتؤدة اذ وقع أكثر من خمسين صداما مسلحا بين قوات الشريف غالب وقوات الأمير ابن سعود مستغرقة (١٥) سنة ، للفترة ١٢٠٥ -١٢٢٠هـ/١٧٩٠-١٨٠٥م[٨٤] إلا أن الدولة العثمانية كانت تعاني من صعوبات خارجية وداخلية متعددة ، فضلا عن مخاطر بونابرت في احتلاله لمصر[٨٥] .

وعليه ، فقد اضطر الشريف غالب الى عقد الصلح مع الأمير عبد العزيز بن سعود سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، ولكن الحرب عادت واستؤنفت من جديد بين الطرفين ، بعد قيام ابن سعود بتأليب قبائل الحجاز ضد حكم الأشراف ، علما بأنه فشل في اختراق الحجاز واحتلال مكة رغم ما أرسله من قوات لهذا الغرض ، ولكنه نجح في دخولها عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م ، وكان الشريف غالب قد غادرها نحو جدة رفقة عائلته تاركا فيها وكيله أخوه الشريف عبد المعين الذي لم يستطع التصدي فدعا بن سعود الى دخولها سلما حقنا للدماء . . وكانت قد ذهبت مخاطبات الشريف وصيحاته سدى[٨٦] .

ولكــن ؟

وبعد مدة من الزمن ، سار الشريف غالب مع متصرف جدة شريف باشا سوية الى مكة وبمعاونة أخيه في الداخل تمكن من ضرب الوهابيين ، وتشتيت شملهم مستردا مكة . . وهرب ابن سعود الذي ما لبث ان جمع قواته وفرض الحصار ثانية على مكة ، وقد صمدت طويلا ولكنها استسلمت لابن سعود أخيرا . . فاحتلها وفرض قراءة المذهب (الوهابي) في الحرم الشريف ، ونزل في بيت الشريف غالب ، وقد أبقاه في الامارة تابعا لأوامره . . فبقي في منصبه حتى استرداد مكة وأطرافها من قبل والي مصر الشهير محمد علي باشا الذي كان قد طلب منه السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) سنة ١٨١١م القضاء على السعوديين ، وقد استمرت العمليات الحربية حتى عام ١٨١٨م بثلاث حملات عسكرية كانت الأولى بقيادة ابنه طوسون بيك ١٨١١-١٨١٣م ، والثانية بقيادته ١٨١٣-١٨١٥م ، والثالثة بقيادة (ابنه) الأكبر ابراهيم باشا ١٨١٦-١٨١٨م[٨٧] .

٢ / أشراف مكة ومحمد علي باشا :

لقد جاء اهتمام محمد علي باشا بالأحداث المتفاقمة والتطورات الخطيرة في شبه الجزيرة العربية والمتمثلة بالتهديدات (الوهابية) السعودية للحجاز . . نتيجة واضحة لعراقة العلاقات التاريخية التي ربطت كلا من مصر والحجاز . ولقد وجه محمد علي باشا انتقادا لاذعا للشريف غالب كونه لم يظهر حماسة تذكر او تعبئة تنظر لرد السعوديين ، فعزله في ١٢٢٨هـ/١٨١٣ . وأرسله الى مصر ، وجاءت موافقة البلاط العثماني على ما أراده محمد علي باشا بشأن الشريف غالب ، وقد نقل بعد ذلك من مصر الى سلانيك وخصصت له الدولة راتبا شهريا له ولعائلته قدره (٧٥٠٠) قرشاً ، وبقي في سلانيك حتى توفي فيها سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م ، ومدة إمارته (٢٦) سنة ، واعتقد بأن نقله من مصر الى سلانيك والذي جاء بارادة سلطانية كان خوفا عليه من محمد علي باشا .

غدا الحجاز كله بعد عزل الشريف غالب تحت نفوذ والي مصر القوي محمد علي باشا ولأكثر من (٢٥) سنة ، ولم يكن أمراء مكة سوى منفذين لارادته فخسرت الدولة العثمانية سلطتها الفعلية في الحجاز ، اذ أخذ محمد علي باشا يعيّن قواد الحامية العسكرية . ولقد عين الشريف يحيى بن سرور أميرا على مكة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م من قبل محمد علي باشا الذي اعتمده كثيرا نظرا لبساطته وطيبته بدل أخيه الشريف عبدالله

الذي كان مفعما بالنشاط والمشاكسة والذي بدأ يثير المشاكل لتولي الامارة كما كان قد أثارها في عهد عمه الشريف غالب ، وكانت له مناوراته العديدة دون اي نجاح يذكر . وقد أظهرت الحكومة العثمانية عطفها على الشريف يحيى فانهالت عليه الأموال ، ولكنه عزل نتيجة حادثة قتله لأحد الشرفاء(٨٨) .

وعبثا حاول الشريف عبد المطلب بن غالب تولي الامارة ، اذ وجد والي مصر محمد علي باشا ان الأفضل للمنصب هو الشريف محمد بن عون وهو من فرع الشرفاء العبادلة الذي كان يقيم في مصر ، فأعلنه أميرا على مكة ، فقام مع القوات المصرية بتصفية جيوب التمرّدات التي أعلنها عبد المطلب المتحالف مع الشريف يحيي وقوات البدو في الطائف (والأخير هو ابن الشريف سرور) ، ولكنهما هربا الى عسير ، وقد التجأ الشريف يحيى آخر المطاف الى والي مصر سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م واستقرّ هناك وتوفي فيها وكانت مدة إمارته (١٤) سنة ، في حين عاد عبد المطلب الى مكة وتفادى محاولة محمد علي باشا لاغتياله بهربه الى استانبول عن طريق بغداد وبواسطة واليها داود باشا ، وعبثا حاول الشريف عبد المطلب تسليمه مخلفات والده وأمواله وأوقافه من قبل محمد علي باشا والتي سلمها الى الأمير الجديد الشريف محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبدالله بن حسين بن عبدالله (الجد الاكبر للعبادلة) . وقد عبر الوالي الكبير محمد علي باشا بهذا الاجراء المهم عن حسن تقدير للأمور ، وان الوضع السياسي الجديد لا يقدر عليه الا الشرفاء العبادلة الذين غمطت حقوقهم في الحكم على مدى عشرات السنين باحتكار ذوي زيد للمواقع القيادية في الشرافة والإمامة . ويبدو للمؤرخ بأن قناعة راسخة قد ولدت لدى محمد علي باشا ذلك ان الاختراق الوهابي ما كان ليكون لمكة وشرفائها لولا احتكار ذوو زيد للامارة واستبدادهم واقتتالهم على السلطة مع ازدياد حدة الانقسامات مما قاد الى ضعف شأن الحجاز كثيرا امام التحديات .

٣ / الشريف محمد عون : عودة العبادلة

أسندت اليه الإمارة بمنشور مؤرخ في ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م وهو أحد أحفاد الجد الأكبر الشريف عبدالله بن حسن بن ابي نمي محمد بن الشريف بركات بن محمد بركات بن حسن بن عجلان . وكان الشريف عبدالله بن حسن – كما مر بنا أعلاه – قد تولى الامارة سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م ، ونسبة الى اسمه أطلق على الفرع من أولاده وأحفاده الشرفاء

بـ«العبادلة»[٨٩] . وكان شرفاء ذوي عون من المنافســين لشرفاء ذوي زيد نظــرا لغمطهم حقوقهم السياسية والاجتماعية على مدى زمني طويل يقرب من حوالي قرنين كاملين .

لقد بقي الشريف محمد بن عون في الامارة مدة (٢٥) سنة معاصرا بذلك حكم الوالي محمد علي باشا في مصر ، اذ عزل في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م بعد وفاة محمد علي باشا بمدة ، فسافر هو وولديه عبدالله وعلي الى استانبول ، وكانت الدولة قد عينت في منصبه الخصم القديم الشريف عبد المطلب بن غالب ، ولكنه عزل لمخالفته الدولة وفشله في سياسته المستبدة . . وعاد الشريف محمد بن عون الى منصبه ثانية في ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م سعيا لتحقيق أماني الدولة في فرض الأمن والنظام ، ولكنه توفي في ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م[٩٠] .

كان محمد بن عون أميرا ذكيا مدبرا ، وحاكما قديرا أرضى الناس في ادارته وحسن تصرفاته ، وزاوج في صدقه واخلاصه لكل من الدولة العثمانية من طرف ، ولوالي مصر محمد علي باشا من طرف آخر بارضائه للطرفين . وعليه ، فان الرجل قد أرسى دعائم جديدة في سياسة الأشراف العبادلة للحجاز ، وقد سار أبناؤه وأحفاده على نفس منواله وخططه السليمة في إبقاء إمارة مكة بأيديهم ، ومات وهو في السبعين من العمر . أما أولاده ، فهم : عبدالله وعلي وحسين وعون الرفيق وسلطان وعبدالاله أصبحوا جميعهم أمراء لمكة عدا علي وسلطان . وقد غدا عليا شخصية عربية مرموقة لدى الدولة العثمانية بحيازته مرتبة الوزارة ، وأصبح عضوا في مجلس شورى الدولة وتوفي في استانبول عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م وهو في ريعان الشباب[٩١] .

تولى الامارة بعد وفاة الشريف محمد بن عون ابنه الأكبر الشريف عبدالله باشا وبقي فيها أكثر من (١٩) سنة حتّى وفاته في ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م ، وكان رجلا عالما مولعا بالمناظرات العلمية ، وكان مثقفا في علوم التفسير والفقه والحديث والأدب ، وهو أول شريف يحصل على درجة «وزير» . وفي عهده ، أصبحت عسير لواء ، أي «سنجقا» يرتبط بالدولة . وقد خلفه في الامارة أخوه حسين باشا بن محمد عون الذي كان قد تولى مناصب عدة في الدولة العثمانية ، اذ كلف بعضوية مجلس شورى الدولة (Danistay) والمجلس الوزراء (= مجلس الوكلاء) ، ثم عين في مناصب أخرى حتّى تنصيبه أميرا على مكة التي تولاها ثلاث سنوات . وقد اغتيل أثناء دخوله جدة في ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م وكان

في الأربعين من عمره ، وقد اتهم بالاتصال مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية(٩٢) .

هكذا ، ونتيجة لذلك ، فقد أخرج السلطان عبد الحميد الثاني منصب الامارة من آل عون واسنادها الى الشريف عبدالمطلب بن غالب وهو من ذوي زيد . . وكان حتى ذلك الوقت حيا يرزق في استانبول وقد تجاوز عمره المائة سنة ، بقي طوال تلك السنوات يحلم برجوع منصب الامارة اليه والى آل بيته حتّى تحقق حلمه اثر مصرع الشريف حسين باشا ، وبقي في امارة مكة قرابة سنتين حتى عزل عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م وتوفي في عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م ، وكان عبدالمطلب حتى ذلك الوقت رجلا طموحا شجاعا عصبي المزاج مستبدا في رأيه صلب الارادة فلم ينسجم مع أبناء قومه في مكة ولم يوفق في إدارته لمكة مرتين تولى فيهما منصب الامارة(٩٣) . . وكان قد خلف ولدا واحدا اسمه جابر منح درجة «الباشوية» وقد خلف الشريف جابر باشا الشريف علي حيدر باشا الذي سيتقلد منصب «الامارة» بصورة اسمية بعد الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى . . ويعد الشريف علي حيدر باشا هو آخر شريف لمكة من ذوي زيد .

لقد تولى مكة بعد وفاة الشريف عبد المطّلب بن غالب عام ١٨٨٧م ، الشريف عون الرفيق باشا بن محمد عون والذي لم يثر أية متاعب ، اذ كان منسجما مع الوالي العثماني احمد راتب ، وقد انتهت امارته بوفاته في ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م . فولي الامارة من بعده الشريف علي باشا بن عبد الله باشا في ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م بعد اختلاف الشريف عبدالاله باشا مع الوالي المذكور الذي نصب في الامارة اثر اعلان المشروطية الثانية في ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م ، لكنه توفي فجأة في العاصمة استانبول ، وكان مميزا بجديته واستقامته وصداقته للدولة العثمانية(٩٤) . لقد كان المناخ السياسي العربي والعثماني مهيأ لمجيء شخصية شريفية تاريخية تستطيع تغيير الحياة العربية بفك ارتباطها مع العثمانيين وستشغل الناس على مدى القرن العشرين تلك هي شخصية الشريف حسين بن علي .

٤ / الشريف الحسين بن علي :

الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ :

يعتبر الشريف حسين بن علي أبرز شخصية شريفية في تاريخ أشراف الحجاز على الاطلاق . كما ويعتبر أحد أبرز الرياديين السياسيين العرب في القرن العشرين نظرا لبطولته في إثراء التكوين القومي العربي المعاصر ، ومكانة مشروعه العربي الذي ولد في

خضم الحرب العالمية الأولى، وخروجه كشريف او امير لمكة من عنق الزجاجة التي كان العثمانيون قد أحكموا طوقها على مدى أحقاب من الزمن الصعب.. وما كانت شخصية الشريف حسين لتنضج لولا توفر الظروف التاريخية في مطلع القرن العشرين. ولقد شغل اسم الشريف حسين بن علي الناس كثيرا بين السلب والايجاب، وطالما كتب عنه وعن طبيعة علاقته السياسية بمعزل عن ظروفه ومستقبل مشروعه القومي الذي أجهض قبل تحقيقه ولاقى صاحبه من أجله المآسي والأحزان.

ولد الشريف حسين في ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م في أسرة الشرفاء العبادلة، وهو حفيد الشريف محمد بن عون. كان والده الشريف علي باشا عضوا في «مجلس والاي» بدرجة بكلربكي (= أمير اللواء) روميللي. اما ولده الشريف حسين، فقد كان عضوا في مجلس شورى الدولة بدرجة وزير.. وكان الرجل قد تثقّف بثقافة تركية واسعة، أهلّتهُ للخوض في ميادين سياسية عديدة، وهو خطيب مفوه، وكاتب حاذق[٩٥].. أنجب أربعة أبناء، أسهموا فيما بعد، وبشكل استراتيجي كبير في التكوين السياسي لشؤون العرب في التاريخ المعاصر مع أبنائهم وأحفادهم. وأبناؤه هم: الملك علي ملك الحجاز، والملك عبد الله ملك المملكة الأردنيةالهاشمية، والملك فيصل الأول ملك المملكة العراقية، والأمير زيد الذي أسندت اليه مناصب دبلوماسية متعددة وكان يحمل رتباً عسكرية عليا.. وكانوا جميعهم قد تثقفوا بثقافة قوية[٩٦]، وأثروا بشكل كبير في مجمل الأحداث التاريخية العربية في النصف الأول من القرن العشرين.

كان الشريف حسين بن علي قد اكتسب سمعة رفيعة في العاصمة استانبول، ولما سمع بوفاة عمه الشريف عبدالله سارع بطلب منطب «الامارة» في الحجاز لنفسه. وكتب يقول في رسالته للبلاط العثماني: «بالنظر لوفاة عمي الشريف عبدالله بن محمد «أمير مكة» التي تلت خلع ابن عمي الشريف علي بن عبدالله، فقد خلا كرسي الامارة، ولما كنت أكبر أفراد الأسرة الهاشمية سنا، ولي حق الأولوية في منصب آبائي وأجدادي، أرجو أن أطلب من جلالة السلطان التكرم بمنحي حقوقي التي يعرفها جلالته، بالاضافة الى ما يعرفه عني من ولاء وصداقة[٩٧]..» وبعد يومين، استدعاه السلطان عبد الحميد الثاني الى قصره، وبارك له منصبه، ومنحه وسام الافتخار، وصادق على فرمان تنصيبه «شريفا أكبر» لمكة... كما نال الشريف حسين قسطا كبيرا من الامتيازات. وعاد برفقة

عائلته الى الحجاز عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، واستقبل هناك استقبالا حارا من قبل أشراف مكة . . ومن قبل الجماهير الحجازية قاطبة ، وكان الرجل في السادسة والخمسين من العمر[٩٨] .

كان الحجاز يعيش في حالة صعبة رفقة تمردات القبائل . . فتميزت شرافة الأمير الحسين بن علي بالقوة السياسية والحركة الدينامية على مختلفة الأصعدة على الرغم من تزمته في عدة قضايا ، لكنه كان ينظر الى مستقبله وأبنائه بمنظار عربي . وقد خيب الأتراك آمالهم فيه ، اذ كان قد بدأ منذ الأيام الأولى على تعزيز نزوعه وطموحاته ، فقد نصب بهدف تقوية نفوذ الأتراك على العرب على يد الاتحاديين وفي مرحلة حرجة من تاريخ المنطقة جمعاء . ولكنه بدأ تجربة مضادة للسياسة التركية اذ قوى علاقاته مع العرب في بلاد الشام ، ووقف حجر عثرة أمام مشروع سكة حديد الحجاز الذي كان يرى فيه تهديدا صارخا لمركزه السياسي والمصالح العربية . وربما كان موقفه ذاك ، يعود الى خططه السرية في اعلان الحرب على العثمانيين الأتراك ، ونواياه الأولى في فصل العرب عن الأتراك . . وهذا هو الذي أوضحته الأيام الأولى من الحرب العالمية الأولى[٩٩] .

لا بد من القول بأن «مشروعية الاستقلال» العربية عن الأتراك العثمانيين ، بعيدة في أسبقياتها التاريخية عن شبكة التورط الاستعماري . . واندلعت الحرب العالمية الأولى ، انهالت الوعود على الشريف حسين الذي كان يمتلك مشروعا قوميا استراتيجيا في الوحدة العربية وبناء الأمة ، فوقف ضد الدولة العثمانية بعد أن فرض سيطرته أولا على مكة ، فانسحب والي الحجاز وقائده غالب باشا نحو الطائف وقاوم قليلا ثم استسلم مع قوته البالغ عددها (٢٠٠٠) رجلا الى الشريف عبدالله بن الشريف الحسين . . ثم استهدفت العملية المدينة المنورة التي دافع عنها الاتراك وصمدوا لمدة سنتين ونصف امام القوات العربية التي كان يتولى قيادتها الشريف فيصل بن الحسين[١٠٠] .

وكان انفجار الحرب العالمية الأولى وانحياز الدولة العثمانية الى جانب الألمان ، في حين كان العالم الاسلامي يرى التمسك بسياسة الحياد نظرا لضعفه ولكيلا ينسحق بين شقي رحى الطرفين المتحاربين . وكانت سياسة الاتحاديين تزداد يوما بعد آخر نقمة وكراهية ضد القوميات الأخرى المتآخية في إطار الدولة وقد تبلورت النقمة على سياسة بعض الولاة القاسية في الولايات العربية بتشكيل لعدة جمعيات عربية قومية وعلى

الأخص في بلاد الشام ، وكان الأمير فيصل بن الحسين عضو الارتباط بين والده وبين تلك الجمعيات . . في حين كان الأمير عبدالله قائدا للدبلوماسية العربية بين والده ومصر ، وكانت النتائج التاريخية المصيرية الأخيرة تقضي باشتعال الثورة العربية من الحجاز ضد الأتراك بقيادة الشريف حسين بن علي باعتباره قطب المشروعية السياسية العربية ، ولكن مقابل وعود باعتراف بريطانيا باستقلال العرب وتأسيس دولتهم العربية الكبرى(١٠١) .

لقد أعلن الشريف حسين ثورته العربية باطلاقته الرصاصة الأولى في يوم ١٢ حزيران/يونيو ١٩١٦م الموافق لـ ٩ شعبان ١٣٣٤هـ تنفيذا لقولته الشهيرة :«وإلا فان الدماء سوف تستثير الدماء» التي أطلقها بعد الحوادث المأساوية المتمثلة ببطش جمال باشا السفاح وشنقه للأحرار من القوميين العرب . . وعلى أثر اعلان «الثورة» صدر قرار عثماني بعزل الشريف حسين ونصب بدلهُ الشريف علي حيدر باشا الذي كان وكيلا للرئيس الأول لمجلس الأعيان في البرلمان العثماني بدرجة «وزير» ، لكنه لم يستطع تسلم منصبه الجديد بحكم مشروعية السلطة الجديدة للشريف حسين الذي نصب ملكا على البلاد العربية(١٠٢) .

لقد نجحت الثورة بعد امتدادها ، واتساع رقعتها ، ودخول عناصر ايجابية عليها ، ولم ينفع تصدى الأتراك وجيشهم المتقهقر ، نظرا للتخطيط المنظم للجيش العربي الذي وقف على ألويته عدد من كبار القادة والضباط العراقيين الملتحقين بالثورة تحت ريادة فيصل الذي دخل دمشق فاتحاً ومحررا في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٨م ، وبتحرير حلب في ٢٦ منه ١٩١٨ ، وانتهت سلسلة المعارك الدامية كي تبدأ صفحة جديدة في تاريخ العرب الحديث(١٠٣) .

أما الشريف حسين ، فقد أعلن ملكا على الحجاز في ١٣٣٦هـ/١٩١٨م(١٠٤) بعد أن خابت مراميه في تحقيق حلمه التاريخي وأمانيه القومية بتوحيد الأمة العربية وعدم ايفاء الانكليز بوعودهم التي قطعوها ، علما بأن الشريف حسين لن يعقد أو يوقع أية معاهدة سياسية معهم ، في حين اتفقوا مع عبد العزيز بن سعود الزعيم السعودي على توقيع معاهدة «العقير» في آب ١٩٢٠ ، وفشلت المساعي البريطانية لتحسين العلاقات الحجازية النجدية(١٠٥) ، وزاد من تدهور الموقف بين دولة نجد ومملكة الحجاز قيام العرشين الهاشميين في العراق وشرقي الأردن اذ وجد ابن سعود نفسه محاطا بالعروش الهاشمية(١٠٦) . .

ونتيجة لتصلب آراء الملك حسين بن علي المبدئية المعبرة عن ارادته السياسية الحرة المستقلة ، فقد تدهورت العلاقات البريطانية الحجازية .

لقد أذكيت عوامل داخلية وخارجية لنشوب الحرب الحجازية-النجدية على مدى السنتين ١٩٢٤-١٩٢٥ . ونجح السعوديون في دخول الطائف وهزيمة الأشراف عام ١٩٢٤م ، فتخلى الملك حسين عن الحكم لابنه الكبير الشريف علي . . ولم يفد الدفاع امام هجمات السعوديين بالاستيلاء على مكة ، فانسحب الملك حسين الى العقبة ، بينما انسحب الشريف علي من مكة نحو جدة ، ودخلت القوات النجدية مكة في ٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٢٤م ، كما سلمت المدينة المنورة الى السعوديين في كانون الأول ١٩٢٥ بعد حصار طويل ، وقد أجبر الشريف (الملك) علي على التنازل عن الحجاز ، ونودي بالأمير عبد العزيز آل السعود في عام ١٩٢٦م في مكة ملكا على الحجاز ونجد[١٠٧] .

أما الشريف حسين ، فقد نقل الى قبرص فعاش ما تبقى من عمره زاهدا ليست له إلا مبادؤه التي ناضل من أجلها ، ثم عاد الى عند ابنه الملك عبدالله في عمان بعد اشتداد مرضه ، فتوفي فيها ليلة ٣/٤ حزيران/ يونيو ١٩٣١ ، ودفن عند قبة الصخرة بالقدس[١٠٨] ، فاختتمت صفحة تاريخية ناصعة في تاريخ العرب المعاصر . . كما وقفلت بموته حياة تلك «الشرافة» الأسطورية في تاريخ العرب وعلى مدى قرون طويلة .

استنتاجات تاريخية :

يشكل أشراف مكة دعامة أساسية في بنية النظام التاريخي العربي الوسيط والحديث والمعاصر ، باعتبارهم أقدم سلالة عربية أصيلة بقيت تحكم الحرمين الشريفين لأكثر من ثلاثة عشر قرنا . هكذا ، فان قيمتها التاريخية تعد ثروة عربية قومية لم يتوفر عليها أي شعب من شعوب الأرض قاطبة ليس من الناحية الدينية حسب ، بل صلة نسبها وعملية استمراره حتى اليوم التي تعد أعجوبة أسطورية لم يدركها كثير من المؤرخين والعلماء ، وحبذا لو أجريت دراسات متباينة عن طبيعة هذه «البنية» الشريفية وعلاقاتها وتراكيبها التاريخية .

ان الدرس الذي يعلمنا البحث اياه : تطور الفاعلية السياسية لأشراف مكة في العهد العثماني الذي استمر قرابة أربعة قرون ١٥١٧-١٩١٦م/ ٩٢٣-١٣٣٤هـ بلغ عدد من تسلم منصب الامارة خلالها هو (٤٧) من الشرفاء . وقد كانت طبيعة العلاقات

الشريفية-العثمانية تتحدد بين الولاء المطلق للدولة والتمرد الخفي عليها . وسرعان ما كانت الدولة تعالج ممارسة البعض لصلاحياته المطلقة بالعزل سلميا أو بالقوة حربيا . . وكثيرا ما وجدنا الأشراف يعلنون عن احتجاجات صارخة داخل بنية النظام المتوارث ، وكثيرا ما نرى البعض يتخذ من العاصمة استانبول مركزا حقيقيا او مستقرا نهائيا لهم .

تكمن خصوصية أشراف مكة بالتعاقب والتوارث والامتداد ببروز الطبقات الشريفية (= العتر الشريفة) على امتداد التاريخ فكان هناك : الحسنيون الأوائل والموسويون ، السليمانيون والهاشميون والقتاديون . وقد حكم القتاديون للفترة ١٢٠٩-١٩٢٥م ، أي : (٧١٦) سنة والذين انتهى فعلهم الديني والسياسي في الجزيرة العربية على أيدي السعوديين . ولا بد لنا أن نذكر بأن الفعل السياسي للأشراف في مكة قد تطور على أيدي القتاديين الذين كبرت سمعتهم وغدوا يمثلون حالة من الاستقلال الذاتي في اطار السلطنة العثمانية وتنامي دورهم التاريخي كونهم مؤسسة مؤثرة في الحياة المحلية والعربية ، اذ كانوا يتمتعون بمكانة جديرة عند السلطان العثماني مستفيدين من سلسلة ذلك الانتماء المتوارث الذي اكتسب صفة القداسة لدى البلاط العثماني ، فكانت المصالح مشتركة بين الطرفين بل ومتبادلة حتى نهاية حياة الدولة .

ان من أبرز الظواهر التاريخية التي حكمت حياة أشراف مكة في العهد العثماني هي : الانقسام والطبقة والسلطة التي توزعتها ثلاث أسر عريقة تنتسب الى القتاديين ، وهي : آل بركات ، وآل زيد ، والعبادلة . . ويبدو لنا من خلال الفحص المقارن للعلاقات والأحداث والشخوص ، ان آل زيد قد فاقوا الآخرين بكثرة العدد وتولي المناصب والولاء المطلق للعثمانيين . . في حين تميز آل بركات والعبادلة بقلة أعدادهم وأنهم أكثر استقلالا عن العثمانيين في اتخاذ القرارات وتنفيذ المسؤوليات العربية والاعتماد على القبائل العربية . . فضلا عن كونهم الأقل تسلطا ومناصبا .

أما علاقات الأشراف بالأقاليم العربية فأولاها كانت مع مصر بحكم عوامل الجغرافية التاريخية ، ثم بلاد الشام ثانيا بسبب عوامل دينية (الحج أساسا) واقتصادية . . واليمن ثالثا بسبب عوامل تاريخية وسياسية وقبلية والعراق رابعا بسبب ظروف استثنائية للاتصال مع استانبول .

الاحالات والملاحظات

(١) أنظر تفاصيل جغرافية الحجاز في :

D.G. Hogarth, *Hejaz Before World War I : A Hand book,* Cambridge, 1978, pp. 3-12.

وراجع ما كتبه خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (: الحجاز وصف ورحلات) ، طبعة باريس ، ١٨٩٣م .

(٢) راجع المعلومات المركزة في :

Encyclopedis De L'Islam, Ist ed., Tome III, pp. 373-4.

(٣) التفاصيل في : السيد أحمد بن زيني دحلان ، تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ ، ص ٥٧ . . فضلا عن كتب الأنساب .

(٤) من أفضل الكتب الحديثة التي صدرت عن تاريخ أشراف مكة حتى يومنا هذا وباللغة التركية ، هو :

Ismail Hakki Uzuncarsili, Mekke-i *Mukerreme Emirleri,* Tuuk Tarih Kurumu Baski, Ankara, 1972.

وسنعول عليه وعلى ترجمته العربية كثيرا ، انظر : اسماعيل حقي اوزن جارشلي ، أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني ، ترجمة : د . خليل علي مراد ، البصرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٩-٢٤ .

(٥) من المفيد جدا مراجعة التركيب السلالي لاشراف مكة في :

زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، قدمه الى العربية : د . زكي محمد حسن وجماعته ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧-٣٥ .

(٦) اوزن جارشلي ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ، م رقم ١ .

(٧) التفاصيل في : السيد احمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، (القاهرة : طبعة الجمالية ، ١٣٠٥ هـ/١٨٨٧-١٨٨٨م) ، ص ١٦-٢٩ .

(٨) أنظر : سيار الجميل ، «أشراف مكة : الطبقة والانقسام والسلطة في الظل العثماني» في كتابه : العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر ، ط١ ، (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٩) ، ص ٤٧١-٤٧٢ .

(٩) من أبرز ما كتب بالانجليزية عن أشراف مكة ، أنظر :

Gerald De Gaury, *Rulers of Mecca,* London, 1951, p. 29.

وراجع فيه المعلومات المركزة التي كتبها جيرالد دي غوري فضلا عن أشجار النسب التي رسمها وتضمنها كتابه أعلاه وقد أسعفتنا كثيرا في كتابة البحث .

(١٠) أنظر ملاحظات المؤرخ فيليب حتي :

Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed., London, 1980, p. 440, f.n. 8.

(١١) راجع ما كتبه محمد جارالله بن أمين بن ظهيرة في كتاب : «الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف» المنشور في :

F. Wustenfeld, (ed.), *Die Chroniken der Stadt Mekka*, vol. ii, Leipzig, 1859, pp. 342-3.

(١٢) من المهم جدا مراجعة المصادر التركية القديمة ، ومنها : فذلكة كاتب جلبي ، وتاريخ نعيما وتاريخ سلحدار وتاريخ راشد وتاريخ صبحي وتاريخ واصف ، وتاريخ جودت .. فضلا عن مصنفات جودت الوثائقية .

(١٣) راجع التفاصيل في تاريخ فون هامر بورجشتال :

Von Hammer-Purgstall, *Geschichte der Osmanischen Reichers*, Band 2 (1453-1530), Wien, 1828, p. 402.

(١٤) أنظر : فريدون بيك ، منشآت السلاطين ، ج١ ، استانبول ، ١٢٧٨ هـ/١٨٧٠م ، ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(١٥) د . عبد الجليل التميمي ، «العلاقات العربية العثمانية بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م» ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العددان ١/٢ ، سيرمدي (تونس) ، جانفي/ يناير ١٩٩٠ ، ص ٤٤ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص٥٠ .

(١٧) انظر نص الرسالة في المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

(١٨) انظر نص الرسالة الجوابية في المصدر نفسه ، ص ٥٩-٦٠ .

(١٩) راجع ما كتبه الشيخ قطب الدين المكي النهروالي في كتابه : كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام : أخبار مكة المشرفة ، تحقيق : فردناند ويستنفلد ، ج٣ ، خياط/ بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٣٦١ .

(٢٠) اوزن جارشلي ، المصدر السابق ، ص ٢٥ (نقلا عن عاشق باشا زاده ، ص ١٩٦) .

(٢١) راجع ما كتبه سعد الدين خوجه في كتابه القديم : تاج التواريخ ، ج٢ ، استانبول ، ١٨٦٣م ، ص ٣٧١ .

(٢٢) قارن المعلومات في كتاب فون هامر : (Von Hammer, *op. cit.*, 2/403)

(٢٣) اوزن جارشلي ، المصدر السابق ، ص ٢٧-٢٨ (نقلا عن تاريخ راشد) .

(٢٤) محمد ظلي بن درويش ، أولياء جلبي سياحتنامه سي ج١ ، استانبول ، ١٣١٤ هـ ، ص ١٦١ .

(٢٥) راجع مقالة المستشرق G. Rentz التي كتبها عن « Barakat » في :
Encyclopedia De L'Islam, 2nd ed., Tome I, p. 1064.

وانظر ايضا عن تاريخ مكة في الانسكلوبيديا التركية :
Islam Ansikolpedisi, cilt 4, Istanbul in progress, s. 148

(٢٦) ابن زيني دحلان ، خلاصة الكلام . . . ، ص ٥٩ .

(٢٧) سيار الجميل ، العثمانيون . . ، ص ٤٦٩ .

(٢٨) ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ج٥ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٨٦ .

(٢٩) فريدون بيك ، منشآت السلاطين ، ج١ ، ص ٤٣٩ .

(٣٠) سعد الدين خوجه ، تاج التواريخ ، ج٢ ، ص ٢٧١ .

(٣١) فريدون بيك ، منشآت السلاطين ، ج١ ، ص ٤٤٦ .

(٣٢) أنظر التفاصيل التاريخية عنه في :
Afet Inan, *Turk Amir Ali Piri Reis in Hayat ve Eserleri*, Istanbul, 1954, pp. 106-7.

(٣٣) أنظر معلومات واسعة عنه في :

(٣٤) راجع : ابن زيني دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ٥٥ وما بعدها . وقارن مع : اوزن جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٣٥) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٤٧٣ .

(٣٦) النهروالي ، كتاب الاعلام . . . ، ٣٦١ .

(٣٧) محمد امين بن فضل الله المحبي ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ج٣ ، القاهرة ، ١٨٦٨ ، ص ٢٨٨ .

(٣٨) اوزن جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٣٩) ثمة معلومات واضحة عن اقتصاديات مكة في العهد العثماني ، انظر :
Sayyar K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A. H. = 1514/1515 A. D. - 1811/1812 A. D.)*, 3 vols., Ph.D. Thesis, St. Andrews Univ., Scotland, 1983, vol. 2 (= Text), p. 176.

(٤٠) سيار الجميل ، العثمانيون . . ، ص ٤٧٤ .

(٤١) Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 2, p. 184.

(٤٢) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ٤٧٣ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٤٧٤ (نقلا عن مخطوط الدر المكنون . .) .

(٤٤) Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 2, p. 184.

(٤٥) اوزن جـارشلي ، المصـدر السـابق ، ص ١١٢-١١٣ . ومن الأهمـية ، مـراجعـة : تاريخ نعـيمـا وخلاصة الأثر للمحبي والدر المكنون للعمري .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٤٧) كاتب جلبي ، فذلكة تاريخ ، استانبول ، ١٢٨٦-١٢٨٧ هـ/ ١٨٥٧-١٨٥٨م ، ج٢ ، ص ١٤٧ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ، ن» .

(٤٩) مصطفى نعيما ، تاريخ نعيما ، استانبول ، ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٣-١٨٦٤م ، ج٣ ، ص ١٥٣ .

(٥٠) النهروالي ، كتاب الاعلام ، ج٣ ، ص ١٩٢ .

(٥١) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٢٧٥ .

(٥٢) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١١٦ . (أما لقب «الشريف الأفضل» فقد ورد في تاريخ سلحدار لمؤرخه فندقلي محمد آغا ، تحقيق : أحمد رافق ، استانبول ، ١٩٢٨ ، ج١ ، ص ٥٧٧) .

(٥٣) جارشلي ، أعلاه ، ص ١١٧ .

(٥٤) راجع تفاصيل الاحتفال في : أولياء جلبي ، سياحتنا مه سي ، ج ٩ ، ص ٦٧٨ .

(٥٥) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١١٥-١٢١ .

(٥٦) للاستزادة ، انظر : سيار الجميل ، «الحصار العثماني الثاني لفيينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عـام ١٦٨٣م» ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ١٦ ، المجلد ٤ ، جامعة الكويت ، خريف ١٩٨٤ .

(٥٧) التفاصيل التاريخية في : Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, 2/ 306

(٥٨) تاريخ سلحدار ، ج٢ ، ص ٥٣٠ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ن ، ج ، ن ، ص .

(٦٠) ابن زيني دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ٧٦ وما بعدها .

(٦١) راجع عن الأوضاع الاقتصادية المريرة للحجاز في : سيار الجميل ، العثمـانيون ، ص ٤٧٨ (نقلا عن أطروحته أعلاه) .

(٦٢) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ (نقلا عن وثيقة نامه دفتري ، الرقم ٦ ، ص ٤٥٢) .

(٦٣) راجع تحليلات ومقارنات ذلك في : سيار الجميل ، «الادارة العثمـانية اللامركزية ونظامها في

الولايات العربية : دراسة مقارنة للأنماط الاقليمية في تاريخ الوطن العربي الحديث خلال القرن ١٨» ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد ٥-٦ ، سيرمدي/ تونس ، فيفري/شباط ١٩٩٢ ، ص ١٦٨،١٣٤ .

٦٤) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ ، (نقلا عن راشد تاريخي ، ٥/٣٠٤-٣٠٥) .

٦٥) المصدر نفسه ، ص «ن» (بالاعتماد على الوثائق العثمانية) .

٦٦) ابن زيني دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ١٩٠ وما بعدها . وقارن : أحمد واصف ، محاسن الأثر (=تاريخ واصف) ، استانبول ، ١٢١٩ هـ ، ج٢ ، ص ١٠٩-١١١ .

٦٧) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١٤٣ م رقم ٩٦ (اعتمادا على أرشيف رئاسة الوزراء - وثائق الداخلية ، رقم ٥٨١) .

٦٨) راجع ما كتبه عنه علي أميري في تذكرة شعراء آمد ، مطبعة آمدي ، استانبول ، ١٣٢٧ هـ ، ص ٩٢ .

٦٩) تاريخ واصف ، ج٢ ، ص ١١٠ .

٧٠) ابن زيني دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

٧١) أنظر التفاصيل في : Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, 2/ 455

٧٢) لقد كتب عنه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه الشهير : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج٢ ، المطبعة الأميرية بمصر ، ١٣٢٤ هـ ، ص ٩٣ . أما المؤرخ الافرنسي ديديه ، فقد لقب الشريف سرور بـ «ريشيليو الحجاز» وقرنه بـ «لويس الرابع عشر» ، انظر :

Ch. Didier, *Sejollir chez la hrand Cherif de la Mecque*, Paris, 1856, p. 113.

٧٣) ما كتبه احمد جودت ، تاريخ جودت ، ج ٥ ، استانبول ، ١٣٠٢هـ ، ص ٣٦ .

٧٤) (نقلا عن وثائق الداخلية العثمانية التي قام احمد جودت نفسه بتصنيفها) .
(BOA, C. Kahiliye, No. 3263).

٧٥) معلومات موسعة عن نظام « الحج» العثماني وايراداته وتأثيره على الادارة الشريفية ، تجدها في مخطوطة محمد أمين «منازل حج شريف» (بالتركية التي تحترز عليها مكتبة السلطان عبد العزيز في متحف طوب قابي باستانبول والمؤرخة في ١١٧٦ هـ) . وانظر مقارنا كتاب متميز لـ :

H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *The Islamic Society and The West*, part II, Oxford, 1957, p. 103.

٧٦) لقد شرح عبدالله بن محمد بن عبد الشكور المكي (ت ١٢٥٧ هـ) تفاصيل ذلك في

مخطوطته ، « تاريخ أشراف وأمراء مكة» التي يحترز عليها ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى في مكة المكرمة ، برقم ١٢١ وتاريخ ١٣٧١ هـ/ تراجم .

(٧٧) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٧٨) المحبي ، خلاصة الأثر ، ج٤ ، ص ٤٤٨ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٤٤٨ .

(٨٠) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ، م رقم ٣ .

(٨١) التفاصيل في الدر المكنون ، انظر : Sayyar K. Al-Jamil, loc. cit.

(٨٢) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ٣٧-٣٩ .

(٨٣) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦ ، جامعة الموصل ، ١٩٩١ ، ص ١٢٠-١٢٧ .

(٨٤) عن الحرب بين الشريف غالب والوهابيين ، انظر : ابن زيني دحلان ، خلاصة الكلام ،ص ٢٩١ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩٩ . وانظر : تاريخ جودت ، ج٦ ، ص ٣٥٣ .

(٨٦) احمد عاصم عينتابلي ، تاريخ عاصم ، استانبول ، د . ت . ،ج١ ، ص ٣٠٥-٣٠٧ .

(٨٧) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ، ص ٢٧١-٢٧٥ .

(٨٨) جارشلي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ . (مع متابعتي لفرامين العزل في وثيقة :

BOA, H.H. NO. 27462 : ووثيقة BOA, NHD. No. 10/16).

(٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ . وانظر : المعلومات الوثائقية في رسالة محمد علي الى وكيله في استانبول حول تعيين محمد بن عون شريفاً جديداً لمكة بعد عزل الشريف يحيى بن سرور في الوثيقة (المرقمة BOA, H.H., 27473)

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ١٦٦-١٦٧ .

(٩٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨-١٧٩ .

(٩٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٤-١٧٥ . وراجع وثيقة (المعروض المشترك لوالي الحجاز احمد راتب باشا وامير مكة الشريف عبد المطلب حول احوال الحجاز المؤرخ في ١١ محرم ١٢٩٨هـ/ ٣ كانون الاول ١٨٨١م الى مقام الباب العالي) BOA, Yee 31/995/03/88 . وانظر توصية والي الحجاز عثمان باشا بعزل الشريف عبد المطلب ، وتعيين الشريف عبد الله في الوثيقة المرقمة

BOA, Yee 31/74/103/88

وانظر معلومات تاريخية جديدة حول السلطان عبد الحميد الثاني والعرب والاشراف والحج الشامي والركب والصرّة العثمانية ، والاحتفالات الواسعة في مدينة دمشق ومحطة قدم - شريف القريبة منها . . عن مخطوط رحلة قام بها سليمان شفيق بن علي كمالي (سويله مز اوغلي) وكتبها بالعثمانية بعنوان : حجاز سياحتنا مه سي ، (مخطوط تحترز علي نسخة مصورة منه ، المكتبة الهاشمية بجامعة آل البيت / الأردن) .

(٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٠-١٨١ ، وانظر مقارنا المزيد من التحليلات في :

Saleh M. Al-Amr, *The Hijaz under Ottoman Rule 1869-1914 : Ottoman Vali, the Sharif of Mecca and the Growth of British influence,* Riyad Univ. Publications, 1978, p. 49.

(٩٥) التفاصيل في : المذكرات التي كتبها : الملك عبد الله بن الحسين : الآثار الكاملة للملك عبد الله ابن الحسين ، (بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٩) ، ط٢ ، ص ٢٣-٤٥ .

(٩٦) راجع ما كتبه جيمس موريس عن الملوك الهاشميين في :

James Morris, *The Hashemite Kings*, London, 1959.

(٩٧) الملك عبد الله ، الآثار الكاملة ، ص ٤٧ . وانظر :

C. Ernest Dawn, *The Amir of Mecca Al-Husayn ibn Ali and the Origin of the Arab Revolt,* American Philosophical Society, CIV, 1960, p. 29.

وانظر : سيار الجميل ، العثمانيون ، ص ٨٦ .

(٩٨) الملك عبد الله ، الآثار الكاملة ، ص ٥٤,٥٥,٦٠ ، ٦٢ . وانظر :

B. Abu Manneh, "Sultan Abdulhamid II and the Sharifs of mecca", *Asian and African Studies*, No. (9), 1973, pp. 1 - 21.

(٩٩) Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East,* London, 1981, p. 207.

(١٠٠) B. Syed Ali El-Edroos, *The Hashemite Arab Army, 1908-1979* : An *Appreciation and Analysis of Military of operations*, Amman, 1980, p. 198.

(١٠١) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ، ٤٥٨-٤٦٠ .

(١٠٢) سيار الجميل ، العثمانيون . . . ، ص ٤٩٠ .

(١٠٣) راجع تفاصيل الثورة العربية الكبرى وبيوغرافيات رجالاتها في :

أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٤ . واحمد قدري ، مذكراتي عن

الثورة العربية الكبرى ، دمشق ، ١٩٥٦ . وسليمان موسى ، الثورة العربيةالكبرى : الحرب في الحجاز ١٩١٦-١٩١٨ ، عمان ، ١٩٨٩ .

(١٠٤) انظر مقارنا : طالب محمد وهيم ، مملكة الحجاز ١٩١٦-١٩٢٥ : دراسة في الأوضاع السياسية ، البصرة ، ١٩٨٢ . ايضا : هنادي يوسف غوانمة ، المملكةالهاشمية الحجازية ، ط ١ ، عمان / الاردن ، ١٩٨٩ ، ص ١٣٩-١٤٣ ، وانظر الملاحق المهمة التي أفردتها المؤلفة في نهاية كتابها .

(١٠٥) C. E. Vickery, "Arabia and the Hejaz" in *Journal of Royal Central Asian Society,* vol. X, part 1, 1923, p. 53.

(١٠٦) Cf. James Morris, *op. cit.*, p. 87.

(١٠٧) سيار الجميل ، العثمانيون ، ص ٤٩٠ .

(١٠٨) Zein N. Zein, *The Struggle for Arab Independence,* Beirut 1960.

وأخيراً ، للمزيد من الاطلاع ، انظر :

عارف عبد الغني ، تاريخ امراء مكة المكرمة من ٨ هـ - ١٣٤٤ هـ ، ط ١ ، (دمشق : دار البشائر ، ١٩٩٢) .

الفصل السابع

العراق والتكوين الاقليمي للخليج العربي خلال العهد العثماني

(التوازن - السيادة - الشرعية)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - مقاربات موضوعية : الشرعية التاريخية والتمايز بين «الدواخل» و«الأطراف»

١ / كانت مناطق الخليج العربي الغربية قد اكتسبت عثمانيا منذ منتصف القرن السادس عشر . وكرّست قانونيا ضمن الممتلكات العثمانية من خلال تنظيمات «قانونامه لر» العثمانية[١] للسلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م ، اذ دخل «العراق الجنوبي في طاعته دون أي مقاومة تذكر ، اذ تعاقبت السيطرة العثمانية على البصرة والقطيف ثم البحرين[٢] أثناء وجود القانوني في بغداد للفترة ١٥٣٤/١٢/٣٠-١٥٣٥/٥/٣١م[٣] . معنى هذا : أن الشرعية التاريخية لم تتولد على يد والي العراق مدحت باشا عام ١٨٧١م ، بل هي ملتحمة جغرافيا قبل أن يصل العثمانيون المنطقة أصلا . وان تاريخية الالتحام موجودة منذ تأسيس نظام الشرق[٤] . عليه ، فيجب التنويه والتنبيه معاً الى أن لواحق العراق الجنوبية لم تولد على يد مدحت باشا ، بل تمتد الى عمق تاريخي كبير باعتراف جميع الأحداث التاريخية/الاقليمية الموثقة .

٢ / علينا ان نوضح تأثير التمايز الجيوتاريخي بين «الدواخل» و«الأطراف» العربية ، كمصطلحين يستخدمان في أدبيات الجغرافية التاريخية . فقد اكتسبت الدواخل العربية من قبل العثمانيين ، في حين تتابع سقوط الأطراف بأيديهم دون مقاومة تذكر أبدا[٥] . إن الدواخل العربية تمتد في البيئات الاقليمية العريقة والمأهولة بالسكان كالعراق ومصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وبلدان المغرب العربي (وكلها مناطق سهلية وزراعية غنية باقتصادياتها الأساسية) . أما الأطراف ، فهي التي تشكلها الجبال الصعبة والفيافي القفار والسواحل الجرداء) . . وعادة ما تكون الأطراف تابعة للدواخل التي تمتلك ميراثا تاريخيا قديما من حقوق التصرف بها ، وفرض الشرعية عليها ، كما هو الحال في الصحراء الكبرى ، والمناطق الاستوائية ، وقفار وسواحل شبه الجزيرة العربية . . . الخ .

٣ / ان السواحل الغربية المطلة على الخليج العربي شمالا ، لم تتمتع خلال العهد العثماني بأي نفوذ سياسي فعّال ، اذ كانت تدين بالولاء لمركزية الحكومة العثمانية وكانت تضم العديد من الوكلاء والقناصل الأجانب . وكان الوكلاء يقومون في كثير

من الأحـيـان بدور القناصل ، وخـصـوصـا لتسـهـيل الأمـور التـجـارية لبـلادهم . ان الوكالات الأجنبية التي تركزت في البصرة كانت ذات أعمال سياسية ايضا ، اذ اعتبرت بمثابة سفارات أو قنصليات او مقيميات . . عملت جميعها على تكريس النفوذ البريطاني يوما بعد آخر على حساب السناجق والأجزاء التي كانت تفرض البصرة سيادتها عليها»[٦] .

٤ / لقد تدارسنا في بحوث سابقة لنا ، قواعد الشرعية التاريخية التي امتلكتها أغلب الكيانات السياسية/ الوطنية المعاصرة[٧] في الدواخل العربية ، تلك «القواعد» التي امتدت الى النصف الاول من القرن السادس عشر ، ومن ثم تضاعيف القرن الثامن عشر ، وانبثاق الأنماط الاقليمية من خلال نظام الادارةالعثمانية اللامركزية . ان ذلك كله من اهم وأخطر المعالجات التاريخية والفكرية لتكوين العرب الحديث ، وقد وجدنا بأن تطور مفهوم «الدولة العصرية» قد جرى بفاعلية وتقدمية في البيئات العربية الكلاسيكية بادارتها العثمانية او بحكوماتها القبلية والمشيخية والامامية ، كونها لم تمتلك اية شرعيات جيوتاريخية نظرا لفقدانها عناصر تكوين الدولة الوطنية المعاصرة . ان هذه المسألة تحتاج الى إكثر من بحث مقارن بالعربية في تاريخ تصور «الدولة» ومفهومها المعاصر بين المجتمعات الحضرية والبيئات القبلية في الوطن العربي خلال التاريخ الحديث والمعاصر .

٥ / تشير الوثائق البريطانية -بشكل خاص- عن أوضاع «الشرعية» السياسية في شبه الجزيرة العربية ، بأن معظم شيوخ أقاليمها وأمرائها ، كانوا يلقبون دوما بلقب «حاكم» كما هو الحال عند آل الرشيد وآل السعود . . اذ كانوا يطلقون على أنفسهم «حكام حائل» و «حكام نجد» . وكان ابن سعود لا يرغب ان يلقب بلقب «أمير» أو «شيخ» ، باعتبار ان هاتين التسميتين كانتا تستخدمان للسلطة على مدينة او بلدة[٨] . مقارنة بما وجدناه من خلال دراستنا لبعض الوثائق التاريخية[٩] منذ زمن بعيد ، والتي كرست عن أوضاع المشيخات الخليجية ، اي : الشياخة القبلية على قبيلة تنتشر في منطقة معينة ، او امارة على بلدة او مدينة صغيرة ، او جزيرة صغيرة ، او اقطاعات شياخية متحدة .

٦ / لقد اهتم العديد من الزعماء والسياسيين والمؤرخين بمسألة تاريخ السيادة العراقية ،

ومشكلة الكويت التاريخية ، وبحثوا في إطارها وأحداثها المنحصرة عند نهاية القرن التاسع عشر ، دون كشفهم عن طبيعة تلك السيادة والشرعية الجيوتاريخية التي عرفتها ولاية البصرة رفقة ملحقاتها وأطرافها منذ منتصف القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين . . ومن الأهمية بمكان دراسة ما كتبه ديكسون Dickson من تقارير كان يرسلها تباعا الى وزارة الخارجية البريطانية(١٠) . . يشير فيها الى طبيعة العلاقات الجذرية بين العراق والكويت . ان اسم ديكسون يقترن باسم فيلبي Philby اذ ان كلا منهما قد خدم مصالح بريطانيا الاستعمارية (١١) من موقعه ، أولهما في الكويت وثانيهما في نجد ، وقد نجحا في مهامهما الخطيرة ، وخصوصا في «إبعاد شبح الهيمنة العراقية» على حدّ تعبير ديكسون(١٢) .

ان هذه «الدراسة» تكشف عن بعض المعلومات ، وتحلل بعض الجوانب ، وتقارن بعض المواصفات . . وتخرج باستنتاجات مهمة بخصوص الشؤون ذات العلاقة : الشرعية التاريخية والسيادة السياسية على وجه التحديد .

٢ - العراق وامتداد السيطرة العثمانية :

التحولات التاريخية في القرن السادس عشر

لقد شهدت بدايات القرن السادس عشر ، تفاقم المصالح الاقتصادية بين أوروبا والشرق ، فتعاظمت أهمية العراق الاستراتيجية ، نظرا لما تمتع به من منافذ حية عبر حدوده الجبلية الشرقية ،والتي تمتد منها المسالك التجارية -البرية عبر سهوله وبراريه لتصل بالبحر المتوسط ، ثم هناك خطوط النقل النهرية -العمودية ، والتي تقوم على جوانبها أهم المراكز الحضرية والمدن الاقتصادية - القديمة . وكانت المطالب العثمانية للأراضي العربية كبيرة في تحريضها من قبل السلاطين الأقوياء ، ولعمليات السيطرة على الخطوط الداخلية ضد القوى الملاحية الغربية ، عبر مسالك الشرق ومراكزه الاستراتيجية ، وأهمها : الأساطيل البرتغالية وتحكمها بمنافذ البحر والخليج العربيين ، اضافة الى المحيط الهندي(١٣) .

لقد قلبت تلك «البدايات» موازين قوى العراق ،لتنقله مع لواحقه وأطرافه من عراق العصر الوسيط ، الى كيان جيو - تاريخي يختلف في مواصفاته عما كان عليه في السابق ، اذ رسمت لأول مرة حدوده الاقليمية على عهد السلطان سليمان القانوني ،

الذي اعتنى بالعراق عناية فائقة ، اذ بقي فيه قرابة ستة أشهر (=نصف السنة الاول من عام ١٥٣٥م) مطبقا استراتيجية سياسية قوية ، وايديولوجية تنظيمية اقتصادية كانتا تخدمان المصالح العثمانية من خلال ما سنّه من قوانين ادارية ، وأعراف إقطاعية ، وأنظمة مركزية في طبيعة العلاقات بين الأقاليم والسلطة العليا(١٤) .

لقد تحصل العراق على وحدته السياسية المترابطة منذ العقود الأولى من القرن السادس عشر من خلال مراكز قواه الاقليمية عصرذاك ، في كل من بغداد والموصل شمالا ضد ايران الصفوية ، وفي كل من البصرة والخليج العربي ضد البرتغاليين . . وخصوصا بعد أن نظمت ادارة العراق ومرافقه الاقتصادية العديدة ضمن تطبيق نظام الشرق المعروف الذي أوجده القانوني نفسه . وعليه ، فقد ظهرت ولاية بغداد المترامية الأطراف في قلب العراق ، وبرزت ولاية الموصل مستقطبة رأسه الجبلي الأعلى ، وامتدت ولاية البصرة جنوبا محكمة طوق استراتيجه البحري من خلال شط العرب والخليج العربي ، وما يحيط بهما من تخوم عربية(١٥) .

كانت بغداد مصدرا للتحرك العثماني نحو جنوبي العراق والسواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية في منتصف القرن السادس عشر(١٦) ، اذ كانت امتدادات تلك السواحل تتصل بمركزية البصرة جغرافيا منذ تأسيسها كمدينة عسكرية من المدن العربية . وكان العثمانيون يهدفون الى إقامة توازن بين سيطرتهم على مصر ولواحقها على عهد سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م ، وبين سيطرتهم على العراق ولواحقه على عهد سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م . أي بمعنى : اقامة توازن استراتيجي لقوتهم في البحار الشرقية ، سواء كان ذلك في البحر الأحمر باتجاه مصر ، او في الخليج العربي باتجاه العراق . ومن هنا ، يكون العثمانيون قد شكلوا جناحين قويين ضد القوى البرتغالية ، كأحد أبرز العوامل في كسب الشرعية التاريخية .

أما من الناحية الاقتصادية ، فان امتدادات جنوبي العراق والاحساء تكفل للقوى العثمانية ، الامدادات التموينية القادمة من البصرة «فالاحساء بالنسبة للعثمانيين يشكل مستودعا تموينيا سريعا في منطقة الخليج ، ويكونوا بذل قد جسدوا الوجود العثماني في مناطق الخليج ، ممتدا من باب الشمالي عند جنوب البصرة والكويت الى باب الجنوبي عند مضيق هرمز»(١٧) . ولم يقتصر الأمر على الصادرات والواردات من المنطقة واليها ،

بل يشكل العراق البري والنهري مع لواحقه البحرية في الخليج العربي منطقة مستطيلة متنوعة الاتجاهات لترانسيت العالم القديم ، فهي رقعة تتوسط قلب آسيا وأوروبا وافريقيا[١٨] ، وقد قلت أهميتها بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م[١٩] .

في عام ١٥٢٩م ، أراد سليمان القانوني كسر الحواجز لاختراق اوروبا من خلال الحصار لمدينة فيينا عاصمة الهابسبورك النمساوية[٢٠] . في السنة نفسها ، بدأ تدخل القوى البرتغالية في أمور البصرة للمرة الأولى بهدف كسر الحواجز لاختراق الشرق الأوسط . وكانت البصرة قد غدت عصرذاك بيد راشد بن مغامس الذي استولى عليها من خلال تبعيته لشاه ايران الصفوي[٢١] . وفي السنة نفسها ، أرسل البرتغاليون حملة الى البحرين ، سادت بعدها فترة ترقب مشوب بالحذر للقوى الامبراطورية التي امتدت شيئا فشيئا نحو المشرق العربي (=البحرية / البرتغالية + البرية / العثمانية) ، والقوى الاقليمية والمحلية (=الايرانية + العراقية) . وقد التفت السلطان العثماني ، لكي يعالج القضايا الخطيرة التي أثارتها مطامع ايران الصفوية[٢٢] .

كانت الأوضاع في المشرق العربي وبحاره وخلجانه قد شغلت تفكير سليمان القانوني من خلال مركزية بغداد التي استطاع ان يدخلا سلما ، فاعتبرت مركزا لتحركاته في العراق الذي قضى فيه حوالي ستة أشهر ، رتب خلالها شؤونه الاقليمية[٢٣] ، وتسلم خضوع راشد بن مغامس الذي أرسل برفقة ابنه مانع مفاتيح البصر . وقد تعهد في رسائلة للسلطان تقديم فروض الطاعة والولاء باسمه وباسم كافة القبائل العربية المنتشرة في تلك البلاد . . وأعلن ابن مغامس توبته عن تبعيته التي كان يؤديها الشاه الصفوي فيما مضى من الزمن [٢٤] .

لقد وصل الامتداد العثماني نحو الاحساء والقطيف والبحرين[٢٥] ، اذ «كانت البصرة في شمال الخليج -العربي- تشكل قاعدة استراتيجية مهمة لامتداد النفوذ العثماني في الاحساء ومناطق الخليج الأخرى . وصارت البصرة مركزا لحماية النفوذ العثماني في الاحساء فيما بعد . وشكلت مركزا لضرب القبائل البدوية الخارجة عن السلطة في المنطقة[٢٦] كما ان البصرة قد غدت مركز تجمع وصناعة السفن التي استفاد منها العثمانيون كثيرا في الدفاع عن الخليج العربي من الأخطار الأوروبية[٢٧] . . في حين استفاد منها أبناء الخليج أنفسهم في عمليات الصيد والتجارة والتنقل[٢٨] .

٣ - إقليما البصرة والإحساء

١/٣ التحديد الجغرافي : الامتداد بين البر والنهر والبحر

دخل العثمانيون القطيف ، أي دخلوا القسم الشمالي من الاحساء عام ٩٥٧ هـ/١٥٥٠م ، بعد أن تمكن العثمانيون من دخول بغداد عام ٩٤١ هـ/١٥٣٤م . وركزوا جل نفوذهم في البصرة وجنوبي العراق عام ٩٥٣ هـ/١٥٤٦م(٢٩) . ان وصول اليد العثمانية القوية الى القطيف كان قد تم عن طريق ولاية البصرة برا ، ولم يتم من خلال البحار الجنوبية ، اذ تعتبر القطيف هي القسم الشمالي من الاحساء الذي استند في شرعيته العثمانية على قوى جنوبي العراق ، وليس على جنوبي او جنوب - شرق الجزيرة العربية . . ومن خلال القطيف ، امتد العثمانيون نحو الهفوف : القسم الجنوبي من الاحساء . هكذا ، فقد «كانت ولاية البصرة العثمانية تشكل السند الأساسي في حماية الوجود العثماني في الاحساء»(٣٠) .

السؤال الآن : هل من تحديد جغرافي للاقليمين : البصرة والاحساء ؟

يمكننا معرفة امتداد ولاية البصرة في جنوبي العراق ، أي جنوبي ولاية بغداد الواسعة ، وحيث تعتبر البصرة رأس الخليج العربي (= البحر) ، تعتبر الموصل رأس العراق العربي (= النهر) . أما بغداد ، فهي مركز الأقاليم القوية في المشرق العربي (= البر) . أما الإحساء كتحديد جغرافي واداري في آن واحد ، فهو : اقليم يمتد على الشريط الساحلي الغربي للخليج العربي ، ويقع «من جنوبي الكويت حتى قطر وحدود عُمان وصحراء الجافورة شرقا ، والى أرض الصمان غربا» بتأشير دليل لوريمر - J.J.Lorimer (٣١) ، وقد حدد المؤرخ الأنصاري الاحسائي تحديدا مقاربا ايضا(٣٢) ، كما وحدد اقليم الاحساء (= الحسا في الأدبيات المحلية والعثمانية) ايضا في التنظيمات العثمانية بين الكويت وقطر(٣٣) . لقد امتد الحكم العثماني في سنجق الحسا على مدى مرحلتين عثمانيتين مباشرتين : الاولى منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف عام٩٥٧ هـ/١٥٥٠م(٣٤) . أما الثانية : امتدادهم في منطقة الهفوف عام ٩٦٣ هـ/١٥٥٥م(٣٥) . أما الجزء الجنوبي ، فقد تم جلاءهم عنه بعد سيطرة الخوالد عليه عام ١٠٨٠ هـ/١٦٦٩م(٣٦) . أي على يد آل حميد من بني خالد الذين استولوا على السلطة وانحسروا باقليمهم التابع لامركزيا وبركائز غير مباشرة للعثمانيين .

ان هذا كله يدعونا قليلا الى التأمل التاريخي في طبيعة العلاقات الادارية العثمانية التي نشأت بعد تنظيمات ولاية البصرة .

٣ /٢ تنظيمات البصرة من خلال تطبيقات «قانونامه لر» :

ان ما يهمنا بعد معرفتنا لطبيعة الأوضاع السياسية ، تلك التنظيمات الادارية التي احتوت عليها لائحة «قانونامه لر» المختصة بالبصرة . وهي المدينة الاستراتيجية التي غدت مركز ايالة بايلربايلك – Beylerbeylik – ، وقد نصب راشد بن مغامس حاكما عليها بعد تقديمه الولاء للعثمانيين الذين لم يزل نظامهم حتى ذلك الوقت يتبع الأساليب اللامركزية في الادارة والتي مارسها السلطان سليم الأول خلال ١٥١٦-١٥١٧م في البلاد العربية . وأعقب ابن مغامس في الحكم ابنه مانع الذي تنازل الى ابن عمه يحيى الذي حاول عدم الرضوخ للأوامر العثمانية . فقرر إياس باشا بايلرباي بغداد ، تجريد حملة عثمانية للاستيلاء على البصرة وملحقاتها ، فدخلها العثمانيون عسكريا في = ٢١ شوال ٩٥٢ هـ/ ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤٦م[٣٧] .

هكذا ، وقعت البصرة وملحقاتها تحت الحكم العسكري/ العثماني بالاكتساب بعد ان كانت قد سقطت رقعة اقليم الحسا بالتتابع [٣٨] ، (ويذكر المؤرخ التركي صالح اوزبران نقلا عن أرشيف مانوئيل دي ليما) ، بأن الأتراك العثمانيين قد استحوذوا على اقليم الحسا مباشرة بعد استيلائهم على البصرة[٣٩] . وامتد العثمانيون نحو القطيف . . وتعتبر تلك الحركات العسكرية/العثمانية جزءا من خطة كبرى للسلطان سليمان القانوني في مواجهة الوجود البرتغالي وضد أساطيلة القوية في منطقة الخليج العربي[٤٠] اضافة الى تكريس النفوذ العثماني من خلال السيطرة العثمانية-الفعلية عبر أخطر منطقة استراتيجية في جنوبي الامبراطورية العثمانية اولا وجنوبي العراق ثانيا . . تمهيدا لتطبيق التقسيمات الادارية الجديدة من خلال تنظيمات الدولة .

لقد غدت البصرة بعدا اكتسابها الفعلي من قبل العثمانيين ، واكتساب أقوى ملحقاتها الجغرافية عام ١٥٤٦م ، إحدى أبرز ايالات الدولة العثمانية ، فقد نجح العثمانيون لأول مرة في تنظيمها الاداري بعد مرور قرابة تسعة قرون على التنظيم الاداري القديم الذي مارسه العرب في صدر الاسلام والعهود العربية الاولى . . فوضع العثمانيون

قاعدة أساسية وثابتة لنظام «ايالة» – Eyalet – استراتيجية وقوية تجمع عناصر البر والنهر والبحر التي قلما تجتمع إلا في المدن والحواضر المهمة في جغرافية العالم ، فهي من المدن النادرة على الأرض[41] .

لقد أقر على هذا الأساس ، اعتبار كل من الاقليمين : البصرة والاحساء يخضعان لنظام «السالیانه لر» – Salyaneli – ، وليس إخضاعهما لنظام «التيمار–Temar» الذي عرفته ايالات عثمانية أخرى . وقد تألفت إيالة البصرة من عدة سناجق (= ألوية) كل سنجق يديره سنجق بيك – Sancak beg – وكان البايلرباي نفسه على رأس سنجق البصرة ، وكان يدعى بـ سنجق باشا – Pasha Sancagi – . لقد تألفت البصرة من سبعة عشر سنجقا (حسبما كشف عنه المؤرخ روبرت منتران من معلومات نادرة عن دائرة أرشيف الدولة في اسطنبول نقلا عن قانونامه البصرة لسنة ١٥٧٤-١٥٧٥م)[42] .

أما الاحساء ، فلم يتواجد فيها اقطاعات من نوع زعامات او تيمار او خاص ، ولكن ضرائبها كانت تجبى بواسطة نظام الالتزام ، وتعاقب على حكمه العديد من الباشوات الأتراك الذين كانوا يستمدون سلطتهم من بغداد والبصرة ، كما وتواجدت في سنجق الاحساء عدة حاميات عسكرية/ عثمانية[43] . ان كل هذه الاجراءات – حسب رأينا – تدحض مقولة لونكريك ومن شاركه وتبعه من المؤرخين بـ « الحكم الاسمي العثماني للاحساء»[44] .

٣/٣ العلاقات الاقتصادية والانثروبولوجية والادارية بين الاقليمين خلال القرن ١٧

لقد اعتمد اقليم الاحساء على ولاية البصرة اعتمادا أساسيا من الناحية الاقتصادية ، نظرا لثراء الولاية ، وتعدد أسواقها الكبرى ، وارتباط المسالك التجارية – العالمية بها براً وبحرا ونهرا . . اما من الناحية الادارية ، فقد توثقت علاقة سنجق الحسا بولاية البصرة بأسلوب غير مباشر ، على غرار بقية الحكومات الأخرى والقبائل التي كانت ترتبط بالبصرة اقتصاديا ، وبسناجقها انثروبولوجيا ، وعلى الأخص القبائل المنتشرة في سنجق المنتفك[45] . . وعندما تطور نظام الحكم عند الباشوات المماليك في بغداد خلال القرن الثامن عشر ، اتسعت مسؤولية بغداد سياسيا على الأقاليم العراقية كافة سواء البرية منها ام البحرية ، وخصوصا بعد تبلور النمطية الأسروية/ المحلية في حكم الأقاليم ، فكان هناك الجليليون في الموصل ، والبابانيون في شهرزور ، والخوالد في

الحسا . . لقد خدمت استراتيجية البصرة الاقتصادية جميع الأقاليم العراقية كأبرز منفذ بحري ونهري في المشرق العربي ، ولم يقتصر ذلك على حقبة تاريخية معينة ، بل شكلت استراتيجية البصرة الجغرافية ، أهمية بارزة في ترتيب اقتصاديات العالم خلال التاريخ الحديث . . اي حتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، فقد أثر ذلك الحدث التاريخي على تاريخ الاقتصاد العراقي/ الخليجي العربي حتى استكشاف البترول في النصف الاول من القرن العشرين .

أما في القرن السابع عشر ، فقد كان للبصرة تأثير بالغ على ترتيب الأوضاع السياسية في الخليج العربي الذي توسع فيه النفوذ الهولندي وأعقبه النفوذ البلجيكي . وعليه ، فقد استطاعت البصرة وبغداد ان تحافظا على جغرافية الاحساء ، اذ «سار توسع أسرة أفراسياب (الحاكمة للبصرة) في اتجاه الاحساء ، حتى أصبحت الاحساء تابعة للبصرة ، ولذلك عندما أعيدت البصرة الى حكم السلطان المباشر بعد طرد أسرة أفراسياب منها سنة ١٦٦٨م ، أصبحت بغداد مسيطرة ايضا على امور الاحساء وان كان حكمها غالباً مسنداً لبني خالد »(٤٦) .

ويحدثنا تافرنييه – Tavernier – في رحلته المهمة والنادرة (المطبوعة عام ١٦٨٤) عن طبيعة العلاقات الاقتصادية وذاك الذي كانت البصرة قد استحوذته على استراتيجية الخليج العربي لمدة تقترب من اربعة قرون ، حتى أطلق عليه تسمية «خليج البصرة» ، وقد امتلكت مساحات شاسعة على سواحله ، ساعدتها في تنظيم تجارة العالم والبازار الشرقي(٤٧) ان الرحالة تافرنييه ، يخبرنا في كتاباته القديمة والموثقة : كم كان حجم البصرة الاقليمي قد توسع خلال القرن السابع عشر . . في حين غدت المدينة تعاني كثيرا في اقتصادياتها وخصوصا انها كابدت كثيرا من قبل سكان الاقليم الصحراويين الذين يأوون الى البصرة ليستفادوا من نخيلها ، اذ يقتاتون على تمورها على امتداد السنة . كما وانهم يفيدوا من تجارتها الدولية والاقليمية وخصوصا الأقمشة والتوابل(٤٨) .

لقد استطاع الانكليز من خلال عدائهم للهولنديين وتحالفهم مع العرب خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ،ان يقهروا النفوذ البرتغالي نهائيا ، بعد ان كان نفوذهم كبيرا في مطلع القرن المذكور ، حتى وصل تأثيرهم الأيديولوجي الى البصرة التي أسسوا فيها كنيسة برتغالية فيها بعد سنة ١٦٢٢م . وقد بلغ التنافس التجاري درجة كبيرة

بين الانكليز والبرتغاليين والهولنديين(٤٩) . فانعكس ذلك على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مدينة البصرة ، كما ان الوضع السياسي فيها قد بدأ يتعقد كثيرا نظرا للمداخلات السكانية والأقلياتية إثر التناقضات الاقتصادية التي فجرتها التنافسات الدولية بين القوى الأوروبية كما يوضحها أكثر من رحالة ومؤرخ(٥٠) . .

وكان اقليم الاحساء قد غدا سنجقا عثمانيا رسميا . وان امارة البصرة الافراسيابية التي فقدت شخصيتها السياسية بأفول رجالاتها الأمراء من الحكام الاقليميين في خضم الأحداث التاريخية التي شهدتها المدينة في القرن السابع عشر ، ولكن بقيت أسواقها التجارية مزدهرة ، ومسيطرة على اقتصاديات البحار العربية ، فكان ذلك بمثابة الاحتياطي المخفي لابقاء حالة التوازن الاقليمي بين البر والبحر . . يقول غودينهو ، وهو أحد الرحالة البرتغاليين في وصف البصرة عام ١٦٦٣م / ١٠٧٤ هـ بأنها «أعظم سوق تجارية في هذه البحار»(٥١) .

لقد امتد تاريخ افراسياب في البصرة لغاية عام ١٦٦٨م ، لكي يستعيد الأتراك نفوذهم المباشر على اقليمي البصرة والاحساء (أي : اقامة نوع من التوازن الاقليمي بين الأجنحة الاستراتيجية بين الطرفين) ، أما قوة الخوالد في الاحساء ، فقد استأثروا بالسلطة الفعلية مع الاحتفاظ بعلاقات من التبعية الأسمية للسلطة العثمانية الاقليمية في بغداد طوال النصف الاول من القرن السابع عشر . اي ان الخوالد بقوا في حكم الاحساء حتى سنة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣م ، أي أن حكمهم دام أكثر من قرن وربع القرن ، وهي نفس الفترة التي تغطي العهد الاول للعثمانيين في حكم الاحساء .

اذن ، نستنتج بأن البصرة كرأس للخليج العربي قد امتلكت علاقات متنوعة لم تقتصر على الجوانب الادارية ، فحسب ، بل كانت مركز استقطاب اقتصادي ساعدها مع توالي الايام لكي تغدو مدينة كوسموبوليتانية من الطراز الاول . . وقد أضفت عليها دوافع اخرى في بنائها الاستراتيجي ، كان أبرزها : التنوع الانثروبولوجي التي امتازت به منذ صدر الاسلام ، ذلك التنوع الذي ساعدها كثيرا في تنظيم العمليات الاقتصادية والتفاعلات المركزية على الأطراف المتعددة سواء كان ذلك في سنجقية المنتفك ام سنجقية الاحساء ، ام سهوب عربستان ، ام مناطق الأهوار ، ام فيافي نجد ، ام بساتين الحويزة ، ام شواطىء دجلة والفرات . .ام الجزر المتناثرة في بحر خليجها العربي .

٤ - تبلور البنية الخليجية / العربية خلال القرن الثامن عشر

٤ /١ النزعة القبلية والنزعة الحضرية :

ارتباطات الأطراف بالدواخل العربية

خلال الأحقاب المتأخرة ، تقوقعت ثلاث بنيات تاريخية عريقة في ثلاث بيئات قديمة في شبه الجزيرة العربية ، تختلف في جغرافياتها الاقليمية والمناخية والطبيعية/ الجبلية عن صحاريها وبواديها ونجودها ومفازاتها . . فكان هناك «أشراف مكة» في الحجاز ، والأئمة الزيدية في اليمن (اضافة الى السلالات الحاكمة في توابع اليمن كحضرموت وعدن) والأئمة الاباضية في مسقط وزنجبار . هذه البنيات الأساسية الثلاث مع لواحقها : تشكل عراقة تاريخية كتلك التي تمتعت بها أقاليم أخرى سواء في العراق ام مصر ام بلاد الشام ام بلدان المغرب العربي . وتمتاز جميعها بالنزعة الحضرية التي تطورت من خلال المدن المتنوعة والاقتصاديات المتعددة والأساليب الكوسموبوليتانية ، وخصوصا في مدن عربية مهمة كالبصرة وبيروت والاسكندرية وعدن وتونس والمرسى الكبير والدار البيضاء . .

أما النزعة القبلية/ العربية وتشكيلاتها المحلية والتقليدية المنتشرة في الأراضي العربية ، فانها تقوم اساسا ومنذ القدم على المقومات العصبية والعشائرية ، وعلى بساطة الأعراف والتقاليد . . كما وتعتمد في اقتصادياتها على الرعي او الهجرة او الصيد . . وفي الأحوال السيئة على الهيمنة والاستحواذات . أما السواحل الغربية للخليج العربي فانها تعتمد في اقتصادياتها على صيد اللؤلؤ منذ القدم ، وان المجتمعات التي عرفت الاستيطان في تلك السواحل ، فانها اعتمدت التجارة والصيد من قبل السكان الأصليين الذين عرفتهم مدن الخليج العربي من خلال استقرارهم في المدن(٥٣) ، وكانت لهم أسهامات بارزة في التجارة الاقليمية ، والنضال من أجل درأ أخطار الاستعمار الاوروبي منذ القرون السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ، وخصوصا ضد الهيمنة البرتغالية/ البحرية ، وضد السيطرة البريطانية/ البرية (٥٤) .

معنى هذا : ان لسواحل الخليج العربي كأطراف ، ارتباطات جذرية بالمركز الاقليمي (= الدواخل) في خضم السيطرة العثمانية ، وقبل هجرة «العتوب» الذين لم يكشف

التاريخ بوضوح : كيف جاؤوا وبدأوا بتشكيلاتهم القبلية/ الشياخية ؟ «مما يجعلنا غير قادرين على تحديد مسارهم على وجه الدقة كما أننا لا نتمكن من تحديد سنة هجرتهم بشكل قاطع . وهذا ما يضعنا نحن الذين نحاول التأريخ للكويت بوضع مخجل ومحرج أمام عجزنا عن تحديد أوليات تاريخنا القريب» . - على حد تعبير د . ميمونة خليفة الصباح -(٥٥) .

٤ /٢ العتوب : ماهيتهم التاريخية :

دعونا الآن : نستكشف ماهية «العتوب» التاريخية ؟

العتب : مصطلح فعل معناه : الاكثار من الترحال من مكان الى آخر(٥٦) . وقد أطلق مصطلح «العتوب» على الجماعات المرتحلة من منطقة الهدار في هضبة نجد وهي الموطن الأصلي(٥٧) ، اذ صادفهم قحط شديد ، فسبب ذلك ، هجرتهم نحو البحر - برأي المؤرخ ابو حاكمة(٥٨) - واعتقد بأن هجرتهم لم تكن نحو البحر ، بل كان البحر وسيلة لهم للوصول الى المناطق الخضراء من أراضي الشمال بحثا عن التوطن والحياة(٥٩) . وكان العتوب ، يؤلفون تحالفا من الأنساب المتباينة حسب مقولة المؤرخ القديم ابن سند البصري(٦٠) . ولم يستطع المؤرخون تحديد السنة او الزمن الذي انطلقت فيه هجرة العتب ، ولكن أقرب تاريخ لهجرتهم هو العقد التاسع من القرن الحادي عشر الهجري/ العقد الثامن من القرن السابع عشر الميلادي(٦١) .

كيف يتم تفسير ذلك تأريخيا ؟

إن حدوث هذا كله قد جرى اثر الضعف السياسي والعسكري الذي لحق بالدولة العثمانية ، اثر اندحار جيوشها المتنوعة أمام جيوش قوى التحالف الأوروبية عام ١٦٨٣م(٦٢) ، وانحسار دفاعاتها الأوروبية غربا ، واستراتيجياتها القوية في العراق والخليج العربي شرقا . وقد افتقدت البصرة كمنفذ اقتصادي قوي ، مكانتها الاقليمية مذ انهار حكم آل افراسياب الذين حكموا اقليم البصرة حقبة تقدر بثلاثة أرباع القرن ، أي للفترة ١٥٩٦-١٦٦٨م(٦٣) . اذن ، فقد بدأت هجرة العتب الى أطراف العراق مذ أصاب الانحلال السياسي والاقتصادي اقليم البصرة ، وما كان ليحدث ذلك كله مثلا بعد انحسار استراتيجية الدولة العثمانية في الجنوب ، عند البحار العربية التي دافع العثمانيون عنها منذ منتصف القرن السادس عشر ، وعلى مدى قرن كامل .

لقد برزت امارة «الخوالد» العربية الاقليمية في الاحساء سنة ١٦٦٩م ، أي بعد عدة شهور من انهيار قوة آل افراسياب في اقليم البصرة سنة ١٦٦٨م . وقد دامت امارة «الخوالد» حتى عام ١٧٩٢م . . أي حتى العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، وقد انهارت بفعل الضربات السعودية من هضبة نجد الغربية(٦٤) ، اذ لم تأت الضربة من الشمال ، وكان بنو خالد يمتدون في سيطرتهم على سواحل الخليج العربي (= الاحساء) والذين احتضنوا العتوب المهاجرين ورعوهم في كل الأماكن التي انتشروا فيها ، أو حلوا واستقروا بها من اقليمهم الواسع(٦٥) . وما ان حلت سنة ١٧٩٣م حتى غدت الاحساء الواسعة «امارة سعودية يحكمها امير من غير أهلها» - على حد تعبير عبد الكريم غرايبه - ، وتدعى اليوم بـ «المنطقة الشرقية» من المملكة العربية السعودية . . بعد أن استطاعت امارة آل السعود المنطلقة من الدرعية ان تضم امارة حائل في الشمال وتقهر حكامها من آل الرشيد(٦٧) ، وتضم الحجاز وعسير ولواحقهما والقضاء على أشراف مكة وحكام الأقاليم الأخرى .

لقد انقسم اقليم الاحساء لأول مرة ، وفصل رأسه في الأعلى عن جسمه الاقليمي الذي مزقته هجمات العتوب «ولاول مرة في تاريخ الاحساء منذ صدر الاسلام تخضع الاحساء لحكام قادمين من الغرب» ، واستقر كل من آل الصباح في البصرة ثم في القرين (= الكويت) ، وآل خليفة في الزبارة القطرية ، ومن ثم في البحرين سنة ١٧٨٣م . وتشير كل المعلومات التاريخية التي حصلنا عليها ، «انهم هجروا نجد الى قطر ثم تركوها عام ١٦٧٦م واستقروا مع عائلات أخرى هي آل خليفة والزايد والجلاهمة قرب شط العرب بالمكان المسمى اليوم ام قصر وهناك عملوا بالبحر ، وكان ذلك العمل آنذاك من الأعمال المألوفة والسائدة في خليج البصرة(٦٨) .

٤ / ٣ البصرة : رواسب السيادة الاقليمية وتركيز الاقتصاديات

إن أبرز الدوافع الاقتصادية وراء هجرة العتوب : انتشار الأسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ في أماكن متعددة كالبحرين وقطر . . ثم المنتجات الزراعية في اقليم البصرة (٦٩) . وهناك أسباب أخرى ، اذ كان العتوب وراء حدوث مشاكل امنية واجتماعية متعدّدة ، فكان استفحال اساليبهم سبباً وراء تهجيرهم من قطر التي أمروا بمغادرتها بواسطة البحر(٧٠) نحو الشمال حيث يقع جريان المياه العذبة ، وتنتشر الأراضي الغنية بمحاصيلها الزراعية وخيراتها المتنوعة .

لقد ركب العتوب البحر، واخترقوا الخليج العربي شمالا حتى نزلوا الخراق قرب الفاو عند البصرة، ولما لم تطب لهم طبيعة الحياة المدينية/ الحضرية تحولوا نحو الصّبية (شمال شرقي الكويت على بعد ١٦ ميلا) ، وقد لاحقتهم السلطات العثمانية نتيجة لاثارة القلاقل والاضطرابات الأمنية . . فاضطروا الى الهجرة جنوبا ، كي يحتضنهم الخوالد ، ويسمحوا لهم بالاستقرار هناك بعد أن منحوهم اقطاعات من الأراضي التي بدأوا يستحوذون على مساحات شاسعة منها بحكم توطنهم[٧١] الذي نشأ - كما أشرنا أعلاه - بسبب وجود عاملين أساسيين :

١ - ضعف الاستراتيجية العثمانية بعد انحسار مركزيتها الادارية القوية على الأقاليم المهمة (= وخصوصا العربية) في الدولة .

٢ - ضعف السياسة الاقليمية لولاية البصرة في جنوبي العراق ، وتأثير ذلك على مجمل اقتصادياتها الوفيرة .

السؤال الآن : كيف حدث ذلك كله ؟ دعونا نتعمق قليلا في التفاصيل . . وعلى ضوء ما تطرحه بعض الوثائق الخطيرة التي كتبها والي البصرة الى الباب العالي وفيها يوضح أوضاع الخليج العربي السياسية . . لقد تأثرت اقتصاديات البصرة نتيجة لتزايد النفوذ الشياخي/ القبلي ، اذ يشير علي باشا والي البصرة بأن التجار وأصحاب السفن يخافون ان يذهبوا الى البصرة خشية من سبع او ثماني عشائر من العتوب والهولة والخليفيات تقيم حول بندر الكونك وبندر فريحه ، فمن رأي منهم سفينة أخذها غصبا . . وقد وقع صراع بين العتوب والخليفيات من طرف ، وبين الهولة من طرف آخر بسبب الفتنة التي زرعها الأعجام ، فاتفق العتوب والخليفيات للذهاب الى البصرة طمعا في حماية الدولة العثمانية ، فجاؤوا كلهم الى البصرة وكانوا نحو ألفي أسرة[٧٢] .

وكتب والي البصرة الى السلطان العثماني مصطفى الثاني ١٦٩٥-١٧٠٣م (وهو من السلاطين الضعاف) قائلا : «جاء العتوب والخليفيات ومَن معهم من العشائر الأخرى . . . يريدون أن يسكنوا البصرة . . فسنعين لهم المكان ، وكان لهم نحو مائة وخمسين مركبا (= سفينة) ، وعلى كل مركب مدفعان او ثلاثة مدافع ، وعلى كل مركب ثلاثون أو أربعون رجلا مقاتلا مسلحا ببندقية وببعض أدوات الصيد . .»

ويتخوف الوالي منهم كثيرا ويخشى على الجند العثماني منهم قائلا بأنه : «اذ لم

نصلح بينهم لا يمكن أن يأتي الأتراك الى البصرة ، لأن في مجيء الأتراك سيصير ضرر على عسكر العثمانيين»[٧٣] .

لقد كتبت هذه الوثيقة عام ١٧٠١م/١١١٣هـ ، وعلينا ان ندرك كم كانت قوتهم كبيرة يخشى منها الأتراك لما سوف تسببه من أضرار . . ويوحي لنا هذا كله حجم تصرفاتهم كقوة يحسب لمتطلباتها وحاجاتها ، وخصوصا الاقتصادية منها ، حسابات عديدة . . وربما خشي الوالي على البصرة واقتصادياتها منهم . ولم تصلنا أية معلومات عن المكان الذي خصصته الحكومة العثمانية لسكناهم ، وسيكون ذلك على سواحل البحر حتماً نظرا لكثرة سفنهم وتمرسهم في ركوب البحر . . هكذا ، فانهم قد تركوا البصرة نحو الكويت كي يتخذوها موطنا لهم ، وان ذلك قد جاء بدون شك برسم السياسة العثمانية دفعا لهم بابعادهم من المدينة الى أحد المناطق الساحلية وهذا ما أراده العتوب الذين وجدوا في البصرة ملاذا للعيش المريح والرخاء الدائم لهم تحت حكم الأتراك العثمانيين كبديل عن قطر التي كانت بيد الأعجام - كما وجدنا ذلك من خلال دراستنا للوثيقة العثمانية - . معنى هذا : ان استقرارهم قد بدأ في الكويت بين عامي ١٧٠٠-١٧٠١م تحت إشراف العثمانيين وعلى الأراضي التي كانت تابعة لهم ـ وليس كما ذكر عبد العزيز الرشيد بأن الدولة العثمانية قد ابعدتهم عن الاقامة في أراضيها[٧٤] ، انها أبعدتهم عن مركز مدينة البصرة وليس عن أراضيها ، نظرا لما تسببه لو بقيت في المدينة من مشاكل لا تحصى ، فقد وطنتهم في إحدى قصباتها الاقليمية !! وقد ذكرت بعض المصادر المحلية بأن تلك الجماعات القبلية كانت تمارس ضروب من العمليات المضادة المسلحة ، مما دعا الدولة العثمانية ان تجليهم عن مدينة البصرة[٧٥] . . ومما يدحض مقولة المؤرخ المذكور بأن «الكويت لم تكن جزءا من أراضي الدولة العثمانية»[٧٦] ، وثيقة عثمانية أخرى مؤرخة في عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م موجهة الى متصرف سنجق الكويت[٧٧] . نستنتج اذن ، بأن توطين العتوب في الكويت قد جاء على يد العثمانيين وليس من خلال ما توارد خطأً : منحة الخوالد للعتوب ، اذ انني اعتقد بأن ليس من المعقول أبداً ان يكون بنو خالد على وفاق قبلي واجتماعي مع العتوب حتى وان اشتركوا معهم سياسيا في فتح القطيف ؟ او ان الخوالد قد وافقوا على توطينهم بمباركة العثمانيين أصحاب الشأن . . ولنا أن نقول ايضا ، بأن العتوب قد اكتسبوا شرعية توطنهم البكر بواسطة العثمانيين .

تقول د . ميمونة الصباح : « فمن الثابت ان العتوب عند نزولهم الكويت واستقرارهم بها أرادوا العيش في وطنهم الجديد بأمان ، فذهب الشيخ صباح الاول (وهو المؤسس الأول للكويت وللأسرة الحاكمة) على رأس وفد الى والي بغداد يقدم الولاء للدولة العثمانية ويرجوها ان تتركهم يعيشون مطمئنين في بلدهم على ان يركنوا للسلام ولا يعتدوا على أحد ، فوافق الوالي بعد مشاورات مع الباب العالي بشرط أن تخضع الكويت (خضوعا اسميا) للدولة العثمانية . . وقد قبل الشيخ صباح الأول هذه الشروط . .»(٧٨)

٤ /٤ ماذا نستنتج ؟

إن أبرز ما يمكن التوقف عنده ، تبلور نمطية جديدة من «الشياخات القبلية» جاءت مترافقة على حساب ضعف السياسة الاقليمية لولاية البصرة اولا ، ومن خلال ضعف الاستراتيجية العثمانية وانحسار مركزيتها . . فكان ان فتح المجال على مصراعيه لتشكيل إدارات محلية ، وحكومات لامركزية في العديد من الولايات العربية . وكان من نصيب سواحل الخليج العربي : ولادة نمطية متشابهة من الشياخات القبلية في كل من الكويت والبحرين وقطر عند مطلع القرن الثامن عشر(٧٩) بعد استقرار الأوضاع اللامركزية على حساب التجزؤ الخليجي وضعف ولاية البصرة ولواحقها الاقليمية شيئا فشيئا الى ما آلت اليه أوضاعها السياسية في القرن العشرين . . كما واستطاع الامتداد والتوسع السعودي أن يبتلع الاحساء . . في حين أخذ العتوب يبتلعون أماكن أخرى ، فقد استطاعوا - مثلا - «ان يضموا جزيرة فيلكا التي كانت مستقلة عن الكويت اداريا»(٨٠) .

هكذا ، كان انقسام المنطقة الاستراتيجية في الخليج العربي ، كجزء من حالة انقسام أكبر ، وتجزؤ أوسع للوطن العربي خلال القرن التاسع عشر . وقد ساهم الاستعمار البريطاني بصورة خاصة ، مساهمة فعالة في تكريس التجزؤ والانقسام والانكسار ، أمام ضعف القوى العثمانية ، وعجز المجتمع العربي في التصدي وعن المجابهة الحقيقية لتصحيح تاريخه العربي وتقويم مساره الطبيعي .

أما بخصوص الشرعية والحقوق التاريخية ، فيكفي ان نستمع الى ما كتبه المؤرخ ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدري البغدادي الذي كتب عام ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م قائلا : «هذا وان الكويت . . . فهي منها - البصرة - مسيرة ستة وعشرين ساعة وقد امتلأت اليوم من التجار النجادة المسافرين الى الهند وصارت محل التجارة الوفيه ،

وفيها خلق كثير وسفن بحرية كثيرة . . ولا يزالون يترددون على البصرة ولبعضهم أملاك في البصرة وكلهم من أهل السنة والجماعة . .»(٨١) .

٥ - التكوين التاريخي الخليجي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

١/٥ الشياخات القبليــة الخليجيــة

والنمطيات الاقليمية (= العربية + العثمانية)

لقد كان الوطن العربي خلال القرن الثامن عشر ، قد شهد تبلورات و تشكيلات بنيوية تمأسست أولوياتها في وحدات كيانية سياسية عربية خلال القرن التاسع عشر بشكل يجعلها أسسا قوية تستند اليها مرجعيات الدول الأساسية العربية اليوم . وفي حين غدت المناطق الجبلية الى جانب البلاد النهرية بيئات صالحة لنشوء الكيانات المنفصلة ، كانت الصحارى الغربية بيئات خامدة وفاقدة لعناصر بناء الدول والكيانات المندمجة مع الدواخل العربية . هكذا ، نجد بأن أجزاء شاسعة من الصحارى الكبرى والغربية أدمجت مع كل من إيالة الجزائر وتونس والمغرب وطرابلس الغرب ومصر . . في حين برزت في أجزاء من شبه الجزيرة العربية ، عدة كيانات غدت لها جذورها التاريخية الممتدة في حياة المجتمع العربي . . فكيف كان ذلك ؟

لقد أفرغت الجزيرة العربية من محتواها السياسي ووحدتها الجيوتاريخية التي انطلق بها الاسلام ، منذ انتقال كرسي الخلافة العربية من مكة والمدينة الى دمشق ومنها الى بغداد . . فكان بنو أمية وبنو العباس قد أهملوا أمر شبه الجزيرة العربية نظرا لعدم كفاءتها في صنع التاريخ السياسي والتبلور الاقليمي . . ما دام العرب قد انطلقوا في صنع مؤسساتهم الحضارية ، وتكوين مجتمعهم الزاهر في كل من بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وبلاد وادي النيل . . وبلاد المغرب العربي . وعلى هذا الأساس ترسخ النظام التاريخي / العربي المؤسس على البنية الحضرية والوحدات الاجتماعية المدينية وفي أعرق البيئات الحضارية في الأرض .

فماذ نرى اذن من خلال المقارنة التاريخية ؟

ان نماذج الحكومات القبلية (= المشيخات الخليجية) لم تكن جزءا من بقايا ذلك النظام التاريخي / العربي القديم والوسيط الذي عرفه الحجاز (= الشرافة الدينية /

الهاشمية) ، او اليمن (= الامامة المذهبية الزيدية) ، او مسقط وزنجبار (= السلطنة البحرية / الاباضية) ، او المغرب الأقصى (= الشرافة السلطانية العلوية) . . . الخ ، كما انها لم تكن جزءا من أنماط التاريخ العثماني-اللامركزي الحديث الذي عرفته الموصل (= الجليليون) ، ودمشق (= آل العظم) ، وتونس (= الحسينيون) ، وطرابلس الغرب (= القرامانليون) . او النمطية المملوكية في كل من القاهرة (= البكوات المماليك) ، وبغداد (= الباشوات المماليك) . او النمطية الاوليغارية في كل من إيالة الجزائر (= الدايات الجمهوريين) ، وزعامات فلسطين (= ظاهر العمر + احمد باشا الجزار) . او النمطية الاثنية في بلاد الأطراف كالسودان (= الفونج) ، أو حضرموت (= الكثيريون) ، او لبنان (=الشهابيون) ، او شهرزور (= البابانيون) . . الخ[٨٢] .

أما في هضبة نجد ومنطقة الخليج العربي ، في القرن الثامن عشر ، فقد امتلك الشرعية التاريخية كل من آل الرشيد في حائل ، وبنو خالد في الاحساء . . اما المشيخات القبلية التي ولدت في أواسط القرن المذكور على سواحل الخليج العربي ، فقد أنتجتها هجرة العتب القبلية . وقد انتشر «العتوب» في اقليم الاحساء وعلى تلك السواحل الاستراتيجية اقتصاديا ، متخذين منها مرجعية سياسية واقتصادية لوجودهم منذ النصف الاول من القرن المذكور . ويمكنني أن أحدد ثلاثة عوامل تاريخية أساسية في وجود كيانات الشياخة القبلية على سواحل الخليج العربي ، واستمرار حياتها هذا العمر الزمني الطويل بتحولها من تجمعات قبلية الى كيانات سياسية :

١ - عصر الأقلمة العثمانية العربية خلال القرن الثامن عشر الذي قاد اليه انحسار السلطة المركزية العثمانية عن حكم اقاليمها القوية والمهمة والغنية . . كي تعتمد على زعامات واوجاقات في الدواخل العربية ، وعلى اثنيات اقلياتية ومشيخات قبلية في الأطراف العربية ، وكانت مشيخة آل الصباح في الكويت إحدى تلك النماذج .

٢ - عصر الاستعمار الكولينالي / البريطاني خلال القرن التاسع عشر الذي ترسخ وجوده في منطقة الخليج العربي منذ القرن الثامن عشر ، ووصل الى أوج تفوقه خلال العهد الفيكتوري ، حتى غدت بعض المشيخات القبلية تعتمد أساسيا في وجودها وحياتها على وكالاته وشركاته واقتصادياته وبحريته وضباطه !! بل التوسع من خلاله على حساب الدواخل العربية كمنطقة حائل واقليم الحجاز وبلاد العراق . وقد تصدى

لهذا العصر كل من داود باشا ومدحت باشا ، وكانا من أبرز حكام العراق ، بل من أقدر الرجال الأقوياء في الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر .

٣ - عصر النفط العربي خلال القرن العشرين الذي اعتمد في عوامل انتاجه وعناصره على الخبرات والآليات والشركات والأدوار الخطيرة في المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا . . وهو العصر الذي زرعت فيه «اسرائيل» كأخطر كيان عنصري في قلب الوطن العربي . ان العقد الأخير من هذا القرن سيحدد دون ادنى شك نقطة ضرورة الوعي بولادة نظام عصر قادم . . نظام سيقوم لا محالة بتحديد اطار عصر سياسي جديد في المنطقة العربية .

نستنتج من وراء هذا كله ، بأن الشياخات القبلية / الخليجية شكلت «نمطية» خاصة في تاريخ معين ومحدد ولكنها نمطية مختلفة جدا عن الأنماط العربية والعثمانية الأخرى التي عرفتها بقية البيئات العربية . لقد أفرزت هجرة العتوب واصطدامهم بالعثمانيين بعد اتصالهم بالبحر : استقرار جماعات العتوب في اقليمي البصرة والاحساء ضمن مراكز استراتيجية في جغرافية التوطن التاريخي . . وقد ولد عن فروعها الثلاثة كيانات مشيخية ثلاثة ، هي : الكويت والبحرين وقطر اثر تحالفات مع قوى اقليمية عربية ودولية ، وبدأت تلك الكيانات تعمل على التفاعل مع نفوذ العراق الاقتصادي في منطقة الخليج العربي . . كما وعملت على وأد النفوذ المحلي للأسروية الاحسائية القديمة كالخوالد مثلا الذين ذابوا اثر ابتعادهم عن المسرح السياسي وخصوصا اثر التدخلات الاستعمارية البريطانية في المنطقة .

٥ / ٢ داود باشا ومدحت باشا :

ظاهرتان عراقيتان مؤثرتان في الاستراتيجية الاقليمية

لقد تحقق الارتباط العضوي بين العراق وعمقه الاستراتيجي في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر عند ابرز ظاهرتين تاريخيتين أساسيتين في حياة العراق الحديث . . وكلتاهما وقفتا تصدان امتدادات النفوذ الكولينيالي/البريطاني نحو العراق الذي كانت خطوطه الاستراتيجية البرية والنهرية والبحرية عصرذاك ، تمثل المصالح الاقتصادية العليا للعالم . وكان هناك ثمة توازن في الأجنحة - كما سنرى - بين كل من العراق ومصر ، اذ دائما ما دخلت مصر الميدان كسبب غير مباشر في تفاعلات التاريخ

على مدى قرنين كاملين من الزمن المتأخر ، فقد عاصر محمد علي باشا في مصر حكم داود باشا في العراق خلال النصف الاول من القرن الماضي ، وعاصرالخديوي اسماعيل في مصر مدحت باشا والي العراق خلال النصف الثاني منه . . وكان الاربعة من الحكام الأقوياء الذين عرفهم تاريخ العرب الحديث . هكذا ، سنرى بأن امتداد مصر على يد ابراهيم باشا نحو الخليج العربي كان سبباً مباشرا وراء اندفاع عراق داود باشا لحماية توازنه الاقليمي المؤثر . . وسنرى أيضا ، بأن فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م على يد الخديوي اسماعيل كان سببا غير مباشر وراء امتدادات جيش العراق على يد مدحت باشا نحو الاحساء لتأمين توازن العراق الاقتصادي حيال استراتيجية مصر الجديدة .

ظاهرتان مؤثرتان فعلا . . انهما واليا العراق : داود باشا ومدحت باشا ، أما داود باشا ، الرجل القوي ، فقد قدر «أهمية الاحساء وأهمية ارتباطها بالعراق»[٨٣] باعتبار ان «سهل الاحساء امتداد لسهل العراق وتابع له»[٨٤] ، كما «وقدر داود ايضا خطورة وجود قوات باشا عثماني آخر قوى ترابط على مقربة منه وفي أراض كانت تحت سيطرة بغداد طيلة القرنين الماضيين»[٨٥] . لقد تفجرت الأزمة اثر الامتداد الحربي لقوات ابراهيم باشا المصرية والتي اخترقت هضبة نجد بعد قضائها على استفحال شأن الوهابيين[٨٦] ، ومضت نحو اقليم الاحساء سنة ١٨١٧م ، وقامت بالاستيلاء عليه[٨٧] ، فكان ان تبلور التحالف قويا ووشيجا بين الخوالد وقبائل المنتفك (الاحساء + البصرة) الذين قاموا بعقد شراكة سياسية مع والي بغداد داود باشا ، فسارت قواتهما المشتركة لاعادة اقليم الاحساء ودون عناء الى العراق من القبضة المصرية سنة ١٨١٧م[٨٨] ، ولقد كانت حملة ابراهيم باشا قد برزت بعد أشهر من انعقاد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م الذي انطلق منه نظام تاريخي جديد لأوروبا والمناطق الاستراتيجية من العالم ، وتزايد النفوذ البريطاني في البحار الشرقية ، ومنها البحار العربية ومنافذها .

اننا نرى بأن داود باشا ومدحت باشا قد استمدا قوتهما وتطلعاتهما لتحقيق ذلك الارتباط العضوي بين البر والنهر والبحر ، اي تحقيق حلم الاندماج وتوازن الأجنحة من خلال المواقف التي اشتهرت بها زعامات المنتفك من آل السعدون الذين تأرجحوا بين الولاء والثورة وخصوصا في محاولتهم الجريئة للقضاء على النفوذ السعودي في الاحساء . . اضافة الى فرار قبائل شمر من السعوديين . . اضافة الى الدوافع السايكلوجية التي خلفتها عمليات الغزو الشهيرة ضد الأراضي العراقية [٨٩] .

أما ظاهرة مدحت باشا والي العراق ١٨٦٩-١٨٧٢م ، فقد استطاعت قواته باشتراك قوات شيخ الكويت من استعادة اقليم الاحساء بعد سيطرة الدولة السعودية الثانية عليه ، وذلك في ١٢٨٨هـ/١٨٧١م . وقد بقي نفوذ بغداد ساري المفعول هناك حتى استردها عبد العزيز آل السعود عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م بالاتفاق والتحالف مع الانكليز . فكيف كان ذلك؟

نفذ شيخ الكويت أوامر مدحت باشا بالمشاركة في الحملة على الاحساء ، فحشد قواته بسرعة ، وأمر أسطوله بالانضمام الى الحملة ادراكا منه بأن البريطانيين خطر يهدد الأمن في المنطقة ويهدد مستقبلها(٩٠) . لقد أرسلت الحملة باسم السلطان عبد الحميد الثاني ، وسقطت الاحساء باليد العثمانية على الرغم من صرخات بريطانيا(٩١) ، اذ أرسلت بتحذيرات لمدحت باشا بواسطة مسؤولها السياسي في البحرين ، عله يتراجع عن خططه التوسعية في الخليج ، لأن هذا يعكر صفو السلام في المنطقة(٩٢) . ولم تكن بريطانيا جادة في استخدام القوة عندما عجزت الانذارات ، فلجأت الى كل من حاكمي مسقط والبحرين ، وبواسطتهما بدأت تساعد القوة المحلية للأمير سعود بن فيصل . . فشجع ذلك مدحت باشا على تنفيذ خططه في مناطق الخليج العربي ، اي : في مناطق جوار العراق الاقليمية ، حتى اقترح على شيخ البحرين تأسيس قاعدة عسكرية عراقية فيها ضد الأمير سعود بن فيصل ، وقد رفض شيخ البحرين التعاون مع مدحت باشا بعد ان قام الأول باستشارة المقيم البريطاني في البحرين(٩٣) .

لقد نجح مدحت باشا في تطبيق بنود التنظيمات العثمانية / الادارية حتى ولو تطلب الأمر استخدام القوة العسكرية ، لذا كان الحكم العثماني في منطقة الخليج قد اتسم بطابعه العسكري المميز ، وخصوصا عندما أعاد مدحت باشا سنجق الاحساء الى حظيرة الدولة العثمانية اداريا والى هيمنته اقليميا بعد تحريره من سيطرة الدولة السعودية الثانية . . وكان قد أصدر في شهر نيسان سنة ١٨٧٠م ، فرمانا يقضي باعلان الكويت قضاء تابعا لولاية البصرة ، وبتنصيب الشيخ عبدالله الصباح قائمقاما على الكويت ، يتبع في ادارته والي البصرة ، ويعتمد في مرتبه على خزينة البصرة(٩٤) . لذا كان عليه ان ينفذ الأوامر ، ، فبعد دخول العثمانيين الى الاحساء ، أرسل قائدها حملة بقيادة شيخ الكويت ، وقد وصلت هذه الحملة في شهر تموز/ يوليو عام ١٨٧١م بقيادة الشيخ عبدالله

الصباح الذي كان يحمل الرايات العثمانية . وفي شهر يناير / كانون الثاني ١٨٧٢م ، وصلت القوة العثمانية الى الدوحة تحت قيادة شيخ الكويت ، وتحولت قطر الى قائمقامية تتبع لواء الاحساء (= سنجق) الذي يحكمه « متصرف » يرجع في أموره الى والي البصرة [٩٥] . وفي عام ١٨٧٣م ، تم سحب القوات النظامية العثمانية التي كانت مرابطة في مدينة الدوحة ، وتم ابدالها بثلاثين رجلا من القوات العسكرية . . وبقيت حتى عام ١٩١٣ ، يقول ديكسون Dickson بأن تنصيب مدحت باشا الرجل القوي في الدولة العثمانية واليا على العراق ، كان من أجل إطلاق يده في حرية وبسط نفوذ دولته في الاتجاه الذي يراه مناسبا للاستراتيجية العثمانية [٩٦] . (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٦) .

٥ / ٣ استنتاجات معرفية : نظرية توازن الأجنحة العربية

يعتبر كل من العهدين العثمانيين الأول والثاني لاقليم الاحساء من أبرز العهود المهمة والفعالة في تاريخية منطقة الخليج العربي . ففي العهد العثماني الأول : ركز العثمانيون منطلقين من البصرة على مقارعة قوى وامتدادات الهيمنة/ البرتغالية ، بسعي ودعم أبناء المنطقة ، اذ لم تستطع القوات العثمانية من صد الهجمات البرتغالية في البحار الشرقية ، لولا انطلاقها من العراق الذي يعتبر العمق الاستراتيجي للمناطق الممتدة حتى المحيط الهندي ، فهو حلقة الوصل (= مركز العالم القديم) بين الشرق والغرب . . بين البحار العربية : المتوسط والخليج ، فنجحت السياسة الحربية العثمانية للحد من قوة النفوذ البرتغالي في الخليج العربي بواسطة العراق .

أما خلال العهد العثماني الثاني ، فقد استطاعت القوات العثمانية ايضا من الامتداد نحو الاحساء الأجنبية ، وخصوصا بعد تفاقم حدة التوغل الاستعماري / البريطاني . . فغدت الاقليمية الخليجية تديرها خطط الادارة العراقية من خلال قدرتها السياسية ونفوذها الاقتصادي الفعال ضد الأطماع البريطانية منذ عهد داود باشا الذي وقف وحيدا في المنطقة أمام التدخلات الأجنبية في الخليج العربي وهو تحت المظلة العثمانية .

وتخبرنا الوثائق العثمانية حتى وقت قريب ، بأن سكان الخليج العربي كانوا يرفعون طلباتهم الأساسية وشكاويهم الى والي البصرة [٩٧] . . وكثيرا ما كانت الدولة ترضخ

لقبول مطالبهم حول الضرائب وتحسين الأحوال الاقتصادية(٩٨) . وان الدولة العثمانية كانت تهتم كثيرا بولاية البصرة ، ومنافذها الطبيعية في البر والنهر والبحر ، نظرا لما كانت تمتلكه من استراتيجيات جغرافية واقتصادية . . وان ذلك كله كفيل بالضرورة لحفظ الأمن الاقليمي في جنوبي العراق بمركزه وأطرافه . لقد جاء في منشور مدحت باشا ، ان دخوله الاحساء في ١٨ رجب ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م كان «لقمع البغي وقطاع الطرف واهل الفساد»(٩٩) . اضافة الى الروابط الاقتصادية والطبيعية والسكانية بين اقليمي البصرة والاحساء . . . (انظر : الملاحق ، شكل رقم ١) .

هكذا ، تبرز أمامنا واضحة جلية : «نظرية مهمة بالنسبة للاستراتيجية العثمانية في الجزيرة العربية ، وهي نظرية توازن الأجنحة بالنسبة للوجود العثماني والسيادة العثمانية في سواحل الجزيرة العربية : الغربية والشرقية والجنوبية . فتظل ولاية البصرة تشكل أهمية قصوى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة في الساحل الشرقي للجزيرة العربية ، كما هو الحال بالنسبة لولاية مصر فهي تشكل أهمية قصوى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة في السواحل الغربية للجزيرة العربية ، وكما هو الحال بالنسبة لليمن فهي تشكل أهمية كبرى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية»(١٠٠) .

إن أبرز ما يُعْلمنا هذا البحث به من استنتاجات : القيمة التاريخية للتوازن الاقليمي الذي عرفته منطقة الخليج العربي بين البصرة والاحساء ، ناهيك عن التوازن الاقليمي / العربي بين العراق ومصر ، وكان ذلك كله مدعاة لاكتساب «الشرعية التاريخية» واستقطاب السيادة من قبل «الدواخل» العربية على «الأطراف» (= التوابع) براً أو بحراً . . لقد كان العراق بإرثه التاريخي القريب ، وراء التكوين الاقليمي لمنطقة الخليج العربي التي تعتبر إحدى أبرز وأهم «الأطراف» الاستراتيجية/ العربية خلال العهد العثماني ، وعلى الرغم من الأخطاء التي أوقع مؤرخ العراق لونكريك نفسه فيها (باعتباره أول من كتب تاريخ العراق الحديث عام ١٩٢٥) ، إلا أنه أصاب جداً باطلاقه صفة «الأطراف على لواحق العراق الاقليمية التي وصفها ايضا بقوله : «توابعه المنعزلة وجيرانه الأقربين»(١٠١) ، ويقصد بها : لواحقه الجنوبية التي افتقدها قبيل الحرب العالمية الأولى .

ويخبرنا العديد من الرحالة والمؤرخين(١٠٢) كم أصاب العراق من أضرار سياسية/جغرافية واقتصادية/ حيوية من جراء هجمات القراصنة في البحر وغارات

النجديين في البر . . وفقد العراق المزيد من أطرافه وتوابعه نتيجة للركود الاقتصادي في ظروف قاسية ومتعددة . وغدت التكوينات الاقليمية الخليجية حجر الزاوية التي استندت بريطانيا عليها في مطلع القرن العشرين للتدخل في شؤون العراق الداخلية (= العثمانية)(١٠٣) ، واندلعت الحرب الأولى ، فكانت مدعاة تاريخية للاحتلال البريطاني السافر واختراق الأراضي العراقية ودامت مدة الاحتلال سنوات الحرب كاملة ، لكي يخرج بعد ذلك مؤسسا كيانه الوطني بعد افتقاد توازنه الاقليمي وسيادته العثمانية وشرعيته التاريخية في الدواخل والأطراف .

الاحالات والملاحظات

(1) Omar Lutfi Barkan, *XV ve XVI - inci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda Zirai ekonominin hukuki ve mali esaslari I, Kanunlar*, Istanbul, 1943, p. 41.

(2) Stephin Hemsley Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925, p. 23.

وانظر : سيار الجميل ، «استراتيجية العراق وأثرها في نشوء الصراع العثماني الايراني» ، آفــــاق عربية ، العدد ١٠ ، السنة ٦ ، حزيران ١٩٨١ .

(3) D. E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earliest times to the end of the sixteenth Century*, Leiden & E.J. Brill, 1972, p. 113.

(٤) حول معرفة تفاصيل «نظام الشرق» ، أنظر :

W.L. Wright, *Ottoman Statecraft*, Princeton, N.J., 1953, p. 96; see also, H.A.R. Gibb and Harold Bowen, *The Islamic Society and the West*, Part I, Oxford, 1950, p. 157; for historical details, see Omar Lutfi Barkan, "Timar" *in Islam Ansiklopedisi*, vol. XII, pp. 286-323.

(٥) أنظر آرائي الموسعة حول هذه النظرية : ســـيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العــــرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معــاصر ، ط١ ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٣٥٦ ، ٣٨٢ - ٣٨٦ .

(6) Details in *A Collection of Treaties : Engagements and Sanads Relation to India and Neighbouring Cuntries*, vol. 10, India, 1933, pp. 369-390.

(٧) أنظر التفاصيل عند : سيار الجميل ، «نظام الادارة العثمانية اللامركزية في القرن الثامن عشر : دراسة مقارنة للأنماط الاقليمية في تاريخ الوطن العربي الحديث» ، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية ، باشراف مركز (CERMDI) واللجنة (A.C.O.S) بتونس ، جانفي ١٩٩٠.

(8) Public Record Office, F.O. No. 371, vol. 3389, p. 485; see also f.O. No. 686, vol. 14, p. 109 Secret, on 28 January 1919.

(٩) أعني بالخصوص تلك الوثائق التي تحتفظ بها دائرة التسجيلات الخارجية/ البريطانية في لندن ، اضافة الى ما تحترز عليه مكتبة المتحف البريطاني في لندن من وثائق متنوعة . وهناك الوثائق

التاريخية المهمة التي استفاد منها لوريمر في كتابته لـ : «دليل الخليج» . أما الوثائق العثمانية ، فلم يستخدم منها حتى يومنا هذا الا القليل ، وهي الآن في طريقها الى الفهرسة . . وقد كنت قد استخدمت بعضها منذ سنوات ، فوجدت ان معلومات أساسية وقيمة تكمن فيها ، وخصوصا ما يتعلق بالتطورات التي حفل بها تاريخ العراق الحديث وعلاقاته الاقتصادية والجغرافية بأطرافه وجيرانه وبمنطقة الخليج العربي .

(10) Cf. H.R.B. Dickson, *Kuwait and her Neighbours*, London, 1956, p. 5.

(١١) راجع ما كتبه خيري حماد في كتابه : **أعمدة الاستعمار البريطاني في الوطن العربي (الحلقة الأولى)** : عبدالله فيلبي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

(١٢) الاعتماد على وثيقة دائرة الخارجية البريطانية المرقمة ٦٨٦ ، المجلد ١٨ ، وانظر ايضا :

H.R.B. Dickson, *op. cit.*, p. 118.

(١٣) للتوسع في هذه المعلومات ، انظر :

A.H. Lybyer, "The Ottoman Turkes and the Routes of Oriental Trade", in *The English Historical review*, No. CXX.- vol. XXX, October 1915 (ed. by Reginald L. Poole, London, 1915), pp. 577-9; see also, W.E.D. Allen, *Problems of Turkish Power in the Sixteenth Century,* London, 1963, p. 17.

(14) For details; see Sayyar K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A.H. = 1514/1515- 1811/1812 A.D.)*, Ph.D. Thesis, 3 vols., vol. 1 (= Indroduction and Notes), St. Andrews Univ., Scotland, 1983, p. 111.

(15) S.H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 2-7.

(16) Cf. Robert Mantran, "Baghdad a l'epoque Ottoman", *Arabica,* special vol., 1962, p. 78.

(١٧) عبد الفتاح ابو علية ، «العثمانيون وبنو خالد في الاحساء» ، **المجلة التاريخية المغربية** ، العددان ٢٩-٣٠ ، السنة ١٠ ، تونس ، يوليو ١٩٨٣ ، ص ٧٩ .

(١٨) من الأهمية : مراجعة الوثائق الجغرافية القديمة بخصوص عثمانيات العراق وأطرافه ، تلك التي تحتويها أرشيفات بعنوان :

(Stanford's Compendium of Geography and Travel); see, Augustus H. Keane, *Asia with Ethnological Appendix,* ed. by Sir Richard Temple, London, 1882, fol. 76.

(١٩) سيار الجميل : «الحياة الاقتصادية والاجتماعية في ولاية الموصل خلال العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤» ملف أعمال المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العثمانية تحت عنوان : الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، ج٢/١ ، جمع وتقديم وتحرير : عبد الجليل التميمي ، تونس / زغوان ، ١٩٨٨ .

(٢٠) سيار الجميل : العثمانيون وتكوين العرب الحديث (سبق ذكره) ، ص ٣٩٢

(21) Salih Ozbaran, "The Ottoman Truks and the Portuguese in the (persian) Gulf, 1534-1581", *Journal of Asian History*, vol. 6, No. 1972, p. 116.

(22) Stanford J. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. I (= Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808), Cambridge Univ. Press, Cambridge, 1978, p. 95, 99-100.

(23) Von Hammer - Purstall, J., *Geschichte der Osmanischen Reiches*, Band 3, Wien, 1828, pp. 142-3.

(٢٤) راجع التفاصيل التاريخية عند رستم باشا ، تواريخ آل عثمان ، مخطوط بالتركية تحترز عليه جامعة اسطنبول/ تركيا تحت رقم A 2438 الاوراق ٢٤ أ-٣٦ ب ، (بعض أوراقه تالفة) . ولقد استفاد من بعض معلومات هذا المخطوط -من قبلي- المستشرق الفرنسي روبرت منتران في مقالته الرصينة أدناه :

Robert Mantran, "Reglements fiscaux ottoman la province de Bassora (2 emoitie du XVI) in *Journal History of the Orient*, No. X. 1967, p. 210.

(٢٥) سيار الجميل : العثمانيون وتكوين العرب الحديث (سبق ذكره) ، ص ٣٦٨ .

(٢٦) عبد الفتاح ابو علية ، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، الرياض ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٣٤٧ .

(27) S. Ozbaran, *op. cit.*, p. 61.

(28) Details in John Jordan Lorimar, *Gazetter of the (Persian) Gulf*, I (Historical Part), IB, Holand, 1970, pp. 311-3.

(٢٩) أنظر : أحمد مصطفى أبو حاكمة ، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، ط١ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٤٤-٤٦ .

(٣٠) أبو علية ، دراسات في تاريخ ... (سبق ذكره) ، ص ٣٦١ .

(31) J.J. Lorimar, *op. cit.* (Geographical Part), vol. 2, Superintendent Government Printing, Calacutta / India, 1915, pp. 977-8.

(٣٢) محمد بن عبدالله بن عبد المحسن آل عبد القادر الأنصاري الاحسائي ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، ط١ ، الرياض ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، ص ٤ .

(33) Cf. G.S. Mandaville, "The Ottoman Province of Al-Hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *Journal of the American Oriental Society*, vol. 90, No. 3, July-Sept., 1970, pp. 486-512.

(34) *Loc. cit.*

للتوسع أنظر ما كتبه الشيخ عبد القادر الجزيري الحنبلي في مخطوطته : درر الفوائد المنظمة ، نسخة دار الكتب المصرية/ خزانة تيمور برقم ٨٢٦ ، الورقة ١٥٦ ب (بحوزتي أوراق مصورة من هذا المخطوط) .

(٣٥) الاحسائي ، المصدر السابق ، ص ١٢١-١٢٢ .

(٣٦) للتوسع في أحداث هذه الرحلة ، من الأهمية مراجعة ما كتبه : محمد بن عمر الفاخري ، الأخبار النجدية ، حققه وعلق عليه : عبدالله بن يوسف الشبل ، مطبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، د . ت .

(٣٧) للتفاصيل التاريخية ، أحيل القارىء الى ما كتبه رستم باشا في مذكراته ، المصدر السابق ، الأوراق ٢٠٤ب - ٢١٦أ .

(٣٨) من الممكن مراجعة مصطلحي «الاكتساب» (=السيطرة العسكرية بالقوة) ، و «التتابع» (=السيطرة بالولاء السلمي) . أنظر : سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث ، سبق ذكره ، ص ٣٥٦-٣٥٨ .

(39) Cf. Salih Ozbaran, *op. cit.*, p. 117.

(40) *Ibid.*, pp. 117-118.

(٤١) راجع وصف مدينة البصرة خلال التاريخ الحديث في : بصرة ولايتي سالنامه سي ، دفعة ٢ لسنة ١٣٠٩ ، ص ٢١ ، وقارن ما كتبه عنها : الكسندر آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة : هاشم صالح التكريتي ، البصرة ، ١٩٨٢ ، ص ٦- ٣٢ .

(42) Robert Mantran, *op. cit.* (=f.n. 24 above), pp. 260 - 5.

(٤٣) من المهم مراجعة ما كتبه المؤرخ ماندفيل عن اقليم (=ايالة) الحسا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، انظر :

G.S. Mandaville, *op. cit.*, p. 50.

وقارن : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٨ .
وتوسع فيما كتبه لوريمر ومحمود شكري الألوسي عن الاحساء خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، انظر :

J.J. Lorimar, *op. cit.*, (The Historical part), p. 249.

السيد محمود شكري الألوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق وتعليق : محمد بهجة الأثري ، ط٢ ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ ، ص٣٩ .

(44) S.H. Longrigg, *op. cit.*, p. 111, f.n. 2.

(45) H. Batato, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq*, Princeton Univ. Press, Princeton, 1978, p. 91.

وانظر : علاء نورس ، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠-١٨٣١ ، ط١ ، بغداد ، ١٩٧٥ .

(٤٦) عبد العزيز نوار ، داود باشا : والي بغداد ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٣ . نقلا عن :

(S.H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 103-111)

(47) John B. Tavernier, *The Six Travels of J.B. Tavernier. through Turkey and Persia to the Indies..*, London, 1684, p. 88.

(اعتمدت على أصل النسخة النادرة التي احترز على مصوراتها كاملة) .

(48) *Loc. cit.*

(49) S.H. Longrigg, *op. cit.*, pp. 106-107.

(٥٠) من أشهرهم : تافرنييه ودوفال .. ومن المهم مراجعة ما كتبه : ياسين الخطيب العمري ومرتضى أفندي نظمي زاده وفون هامر بورجشتال .. ودراسة ما كتبه م . د . ثيفنو في مذكراته .

(51) Quoted from S.H. Longrigg, *op. cit.*, p. 114.

(٥٢) أنظر : طارق الحمداني «علاقة العثمانيين وآل أفراسياب بالاحساء خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر» ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ٣٢ ، المجلد ٨ ، خريف ١٩٨٨ ، ص ١٨٥ .

(٥٣) أنظر التفاصيل عن تصنيف المدن : حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، بحث استطلاعي اجتماعي ، ط ٢ ، (مركز دراسات الوحدة العربية) ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٩١ .

(٥٤) أحيل القارىء الى أبرز من اختص ببعض الجوانب من هذا الموضوع ، انظر : صالح العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠ ، ط١ ، بغداد ، ١٩٧٩ .

(٥٥) ميمونة الصباح ، «نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر» ، مجلة دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية ، العدد ٤٦ ، السنة ١٢ ، ابريل ، ١٩٨٦ ، ص ١٥ .

(٥٦) المرجع نفسه ، ص ١٤ .

(٥٧) المرجع نفسه ، ص «ن» (عن رواية الشيخ عبدالله السالم الصباح للكولونيل ديكسون ، اذ يذكر بأن هجرتهم كانت نحو الشمال وليس نحو البحر كما يذكر المؤرخ ابو حاكمة) . انظر : احمد مصطفى ابو حاكمة ، تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الثاني ، الكويت ، ١٩٧٠ ، ص ١٨٠

(٥٨) احمد مصطفى ابو حاكمة ، تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠-١٩٦٥ ، ط١ ، الكويت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٣ .

(٥٩) وهنا اتفق مع ما جاء في الملاحظة رقم ٥٧ أعلاه ، أي أن هجرتهم كانت فعلا نحو الشمال .

(٦٠) عثمان ابن سند البصري ، سبائك العسجد في اخبار احمد نجل رزق الأسعد ، (طبعة قديمة على الحجر) ، بومباي ، ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م ، ص ١٨ .

(٦١) علي أبو حسين ، «دراسة في تاريخ العتوب» ، الوثيقة ، العدد ١ ، (مركز الوثائق التاريخية/ البحرين) ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص ٧٩ .

(٦٢) سيار الجميل ، «الحصار العثماني الثاني لفيينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣م » ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ١٦ ، المجلد ٤ ، جامعة الكويت ، خريف ١٩٨٤ .

(٦٣) من الأهمية البالغة دراسةما كتبه الشيخ فتح الله الكعبي عن آل افراسياب في كتابه : زاد المسافر المقيم والحاضر ، مطبعة الفرات ، بغداد ، ١٩٢٤ ، ص ٣٦ . ومراجعة ما كتبه جعفر خياط حول حسين افراسياب في كتابه : صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة ، ج١ ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٩٤-١٠٠ .

(٦٤) للتوسع أنظر : جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي : دراسة لتأريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوروبي ١٥٠٧-١٨٤٠ ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

(٦٥) للتوسع ايضا ، انظر : الشيخ محمد بن النبهاني ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م .

(٦٦) عبد الكريم غرايبة ، تاريخ العرب الحديث ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٦٠ .

(٦٧) المرجع نفسه ، ص «ن» .

(٦٨) سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦ (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩١) ، ص ٢٠٦ .

(٦٩) علي أبو حسين ، المرجع السابق ، ص ٧٨-١٠١ .

(٧٠) عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، مكتبة دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٣٣ .

(٧١) ميمونة الصباح ، المرجع السابق ، ص ١٧ (وتراجع رواية الشيخ النبهاني في التحفة . . ، المصدر السابق ، ص ٥٧) .

(٧٢) أنظر الوثيقة المؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣ هـ (= ٢٣ ديسمبر ١٧٠١م) ، أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول (= دفتر المهمة تحت رقم ١١١ ، ورقة ١٣أ) والوثيقة هي رسالة من والي البصرة علي باشا الى السلطان العثماني مصطفى الثاني ، وهي مترجمة بقلم احمد اغراقجه (جامعة اسطنبول) . وقد استخدمت بعض هذه الوثائق من قبل باحثين عرب وأتراك وأوروبيين . .

(٧٣) المصدر نفسه ، الورقة نفسها .

(٧٤) عبد العزيز الرشيد ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(75) Cf. J.J. Lorimer, *op. cit.*, (The Historical Part), vol. 2, p. 979.

(٧٦) عبد العزيز الرشيد ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٧٧) ميمونة الصباح ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٧٨) المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

(٧٩) سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث (سبق ذكره) ، ص ٢٠٨ .

(٨٠) ميمونة الصباح ، المرجع السابق ، ص ١٨-١٩ .

(٨١) راجع : ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدري البغدادي ، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد (الناشر دار البصري) ، بغداد ، ١٩٦٢ ، ص ١٦٣ .

(٨٢) انظر التفاصيل عند : سيار الجميل ، «نظام الادارة العثمانية اللامركزية . .» المرجع السابق ، (ملاحظة رقم ٧ أعلاه) .

(٨٣) عبد العزيز نوار ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٨٤) المرجع نفسه ، ص «ن» .

(٨٥) المرجع نفسه ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(86) P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922,* London, 1966, p. 112.

(٨٧) انظر : تاريخ جودت باشا : ترتيب جديد ، مطبعة عثمانية ده طبع المنشدر ١٣٠٢ ، ج١١ ، ص ٥٩ . وانظر التفاصيل بالعربية في كتاب : عثمان بن سند ، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ، اختصره أمين الحلواني بعنوان : «مختصر مطالع السعود» ، طبع بومباي ، ١٢٠٤ هـ .

(٨٨) عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٦٠ ، وراجع : عبد العزيز نوار ، «مصر والخليج العربي في القرن التاسع عشر» ، مجلة الهلال المصرية ، العدد ١١ ، السنة ٧٢ ، نوفمبر ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٧ .

(89) Cf. Sayyar K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. 3 (Apparatus Criticus), pp. 1030-1039.

(90) R. Kumar, "Angol-Turkish Antaganism in the . Persian. Gulf" in *Islamic Culture*, vol. XXXVII, No. 2, April, 1963, pp. 99-107. and cf. Ali Haydar Midhat Beg, *The life of Midhat Pasha,* London, 1903, pp. 54-8.

(٩١) انظر : جي «بي» كيلي ، الحدود الشرقية للجزيرة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٤٢ .

(92) J.J. Lorimer, *op. cit.*, (The Historical Part), vol. 1, p. 174.

(93) *Ibid.*, pp. 174-5.

(94) S.H. Longrigg, *op. cit.*, p. 303.

(٩٥) انظر : فتوح الخترش وعبد العزيز المنصور ، نشوء قطر وتطورها ، الكويت (ذات السلاسل) ، ١٩٧٧ ، ص ٥٤ . وقد جاراهما في هذه المعلومات : محمد حسن العيدروس في مقالته : «الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين في قائمقامية قطر العثماني ١٨٧١-١٨٨٢» في ملف أعمال المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العثمانية (أنظر : الملاحظة رقم ١٩ أعلاه) ، ص ٥٥٢ .

(96) H.R.B. Dickson, *op. cit.*, p. 118.

(٩٧) لقد اعتمد المؤرخ ابو علية على العديد من الوثائق التركية المهمة فيما يخص مواقف اهالي الاحساء من الاستراتيجية العثمانية ، انظر : كتابه : دراسات في . . . ، (سبق ذكره) ،ص ١١٤ .

(٩٨) المرجع نفسه ، ص ١١٦-١١٩ .

(٩٩) المرجع نفسه ، ص ١١٢ .

(١٠٠) عبد الفتاح ابو علية ، «جوانب من الحياة الاجتماعية في سنجق الحسا في ظل الحكم العثماني الثاني» ، ملف أعمال المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العثمانية (أنظر : الملاحظة رقم ١٩ أعلاه) ، ص ٢٣-٢٤ .

(101) S.H. Longrigg, *op. cit.*, p. 37.

(102) For example;see, Edward Ives, *A Voyage from England to India in the years 1755-to* 1759, London, 1773; see also, C. Niebuhr, *Reisebeschreibung nach Arabian and andern Umliegende*, Landern, 1908.

(103) For details; see B.C. Busch, *Britain and the (Persian) Gulf 1894-1914*, Berkeley, 1967, pp. 56-19.

الفصل الثامن

الولايات العربية والامبراطورية العثمانية
الحياة الادارية...الملل والأقليات...
التنظيمات وبروز القوميات



تقـــــديم :

انعقد المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية في تونس للفترة ٢٠-٢٦/١/١٩٩٠ ، تحت اشراف مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات (CEROMDI) بتونس ، وبالتنسيق مع الهيئة العربية للدراسات العثمانية (A.C.O.S)(١) . وقد حضر المؤتمر أكثر من ثمانين مؤرخ وباحث ، قدموا من : الجزائر وتونس وليبيا ومصر ولبنان والعراق والامارات العربية والسعودية والسودان وتركيا وفرنسا وايطاليا والمانيا الغربية والاتحاد السوفيتي وهولندا والولايات المتحدة وكندا . وقد افتتح المؤتمر في رحاب المركز بمدينة زغوان برئاسة عميده الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي . وقد تم عقد ١٧ جلسة علمية في زغوان وتونس ، قدم خلالها ٥٥ بحثاً علمياً باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ، دارت حول محاور المؤتمر : ١ - الحياة الادارية في الولايات العربية خلال العهد العثماني . ٢ - الدور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للملل في الولايات العربية . ٣ - بروز القوميات في الدولة العثمانية . وقد دارت ، بعد كل جلسة ، مناقشات مستفيضة باللغات الثلاث ، أثرت جوانب كبيرة من تاريخنا العربي الحديث . واستطاع العديد من المؤتمرين الباحثين ، تقديم معلومات جديدة في بحوثهم المبتكرة والموثقة ، وخصوصا في جوانب التواريخ الادارية وقضايا الملل والأقليات والتنظيمات والديموغرافيا التاريخية . . كما قدمت تحاليل رصينة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وبروز القوميات .

١) الهيئة العربية للدراسات العثمانية (= اكوس)

وقد دارت اجتماعات عديدة للمؤرخين العرب الذين شاركوا في المؤتمر وباشراف الهيئة العربية للدراسات العثمانية ، وذلك خلال الساعات المتأخرة من أيام المؤتمر ، ونوقشت العديد من القضايا المنهجية والتاريخية التي تشكل بالنسبة للمؤرخ العربي هموما دائمية سواء بالنسبة لاشكاليات كتابة تاريخ العرب الحديث ، او بالنسبة للمواد الوثائقية والتعاون العلمي والمناهج المتبعة والموسوعة التاريخية العربية والدراسات التاريخية العليا . . كما عالجت اللجنة (=اكوس) مشكلة الوثائق المتنوعة (المحلية العربية+ العثمانية التركية) وأهميتها في كتابة التاريخ الحديث ، اضافة الى كيفية ايجاد السبل

للارتقاء بالبحث التاريخي العربي ، ومنها : فتح مجال الحوار العلمي والموضوعي بين المؤرخين العرب أنفسهم ، وبينهم وبين المؤرخين الأجانب . لقد كانت اللجنة (اكوس) قد تأسست عام ١٩٨٢م من قبل أبرز المختصّين من المؤرخين العرب في الدراسات العثمانية .

٢) المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية :

لقد حيا المؤتمرون صدور العددان الاول والثاني من هذه «المجلة» الحولية الأكاديمية التي أصدرها مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات في تونس ، وقد جاء ذلك بناء على توصيات كانت قد اتخذتها الهيئة العربية للدراسات العثمانية (= اكوس) عام ١٩٨٦ . وقد ترأس إدارتها الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي ، أما هيئة تحريرها فتتألف من أبرز المختصين والمؤرخين العرب . وتضمن العددان بحوثا أصيلة باللغات : العربية والانكليزية والفرنسية . . وتعد هذه «الحولية» علامة بارزة في تطور الدراسات التاريخية العربية . . وقدّر المؤتمرون الجهود العلمية التي يقوم بها هذا المركز على الصعيدين العربي والدولي من أجل إثراء المعرفة العربية .

٣) الأعمال العلمية للمؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية :

دعوني أتوقف أدناه عند أبرز البحوث التي أثارت اهتماما ومناقشات مسهبة . . كما وان بحوثا كتلك التي تقدم بها بعض المؤرخين العرب اعتبرت نقلة نوعية في طور التفكير العربي والدراسة الحديثة للتاريخ ، وخصوصا في مسألة استخدام الوثيقة التاريخية وتطبيق المناهج المعاصرة كالمنهج المقارن والمنهج السوسيولوجي والمنهج الكمي (The Quantitative method) والديمغرافية التاريخية* . كما ونوقشت اشكاليات عديدة بخصوص : المصطلحات والتوثيقات والمسوحات الديموغرافية والمعلوماتية وتحديد الوقائع التاريخية وبعض المفاهيم «العثمانية» الغامضة ، وتصحيح بعض الآراء . وقد وجدنا أن غالبية البحوث المشتركة قد شغلت الدائرة التاريخية للقرن التاسع عشر ، اذ ندر أن وجدنا شيئا عن القرون العثمانية الثلاثة التي سبقته رغم أهمية الأسس والمرتكزات التاريخية التي قامت عليها تشكيلات القرنين المتأخرين .

* أخص بالذكر : البحث القيّم الذي تقدم به د. مراد رقيّة (تونس) والموسوم : «الجالية التركية بمدينة المهدية وموقعها من البيئة الاقتصادية والاجتماعية من خلال دفتر الأملاك رقم ٨٧١ لسنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧-١٨٦٨م».

١ - الحياة الادارية في الولايات العربية :

١/١ نظام الالتزام

لقد طبق هذا النظام في المنطقة العربية منذ القرن السادس عشر، وازدادت فعاليته في الفترات المتعاقبة، ولكن تأثيره لم يعرف بشكل كامل رغم تواجد كميات هائلة من الوثائق في الأرشيف العثماني، ناهيك عما أضفته أبحاث جادة لبعض المؤرخين. ومن الممكن، رفع مستوى معلوماتنا الحالية عن البلاد العربية بالرجوع الى بعض «الكادستراي» أي : المسوح المحررة ودفاتر الحسابات للمداخيل والأجور والمصاريف في المقاطعات، اضافة الى الفرمانات السلطانية الخاصة بسلطويات بعض الولايات، والمعلومات المتعلقة بالتعيينات والتنصيبات والتشريفات والمكافآت وغيرها.

ان المصادر العثمانية الاولية، تمكننا من تشكيل رؤية مؤكدة عن محاولات الحكومة العثمانية التي حاولت ان تدخل نظام الالتزام في العديد من الولايات العربية، وبواسطته استهدفت السلطات المحلية فيها الى جمع أكبر المدخولات، ولكنها لم تكن كافية لتمويل الجيش والادارة المدنية بشكل مريح، فكثيرا ما قدمت المساعدات لولايات ومناطق معينة لمراكز إقليمية أخرى، «وكثيرا ما قدمت المساعدات الى اقليمي الحبش واليمن من مصر، أما البصرة والاحساء، فقد كانت تأتيهما المساعدات من بغداد والموصل وديار بكر» على حد قول د. صالح اوزبران (تركيا) في بحثه الممتع عن تركيب نظام الالتزام ومقارنة تطبيقاته وآثارها.

١/٢ من حكم المركزية نحو الادارة اللامركزية

لقد تقدمتُ (كاتب السطور) بورقة عنوانها : «نظام الادارة اللامركزية في الولايات العربية : دراسة مقارنة للأنماط الاقليمية» تعرضت من خلالها الى التغييرات الجوهرية التي أصابت الهياكل البيروقراطية على يد العثمانيين خلال القرن الثامن عشر، باستخدام نظام اللامركزية. لقد استفاد العثمانيون كثيرا من الموروث العربي في نظام الادارة الاقليمية (= الأمصار)[٢] خصوصا تنظيمات سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م. ومع التإثر العثماني بالبيروقراطيات الأوروبية، بدأت أنماط جديدة في التنظيمات الادارية على النسق الذي رسمته بنود «قانوننامه لر»[٣] بعد القضاء على كيان الخلافة العربية (=الرمز/الروحي) التي كانت تعيش في ظل المماليك سنة ١٥١٧م.

وعلى ضوء تقسيمات المؤرخ دونالد بيتجر – D.E. Pitcher – في «الجغرافية التاريخية للامبراطورية العثمانية»(٤) ، يمكننا توصيف المنطقة العربية الى : ١ – أقاليم هيمنة عثمانية . ٢ – أقاليم متخلخلة عثمانيا . ٤ – أقاليم مستقلة عن العثمانيين . وقد قدم الباحث تحليلا لاستراتيجية الدواخل والأطراف العربية موضحا تاريخية تفكيك «النظام» العربي القديم في الأطراف والذي استمرت حياته متمثلة ببقاياه في : سلطنة المغرب / سلطنة عمان وزنجبار / أئمة اليمن / أشراف مكة/ المشيخات الاتحادية والقبلية . . . الخ . (انظر : الملاحق ، شكل رقم ٣) .

واستطاع الباحث – ايضا – أن يفسر طبيعة النظام العثماني / المركزي في الادارة الاقليمية المتأثرة بالبيروقراطية الأوروبية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتطورها الى أنماط لامركزية بعد انحسار السلطة السياسية العليا للبلاط العثماني عن الأقاليم خلال القرن الثامن عشر :

١ – النمط الأسروي المتمثل ببيوتات حاكمة كالجليليين في الموصل وآل العظم في دمشق ، والحسينيين في تونس ، والقرمانليين في طرابلس الغرب ، . . الخ .

٢ – النمط المملوكي المنحصر وجوده في بيئتين عريقتين : قديما في القاهرة ، ومحدثا في بغداد ، تبلور الأول من خلال الصراع الداخلي وتبلور الثاني من خلال الصراع الخارجي .

٣ – النمط الأوليغاري الذي مارسته البنية العسكرية (الزعامات + الأوجاقات) لكل من دايات الجزائر وباياتها ، وباشوات دياربكر واحمد باشا الجزار في سوريا .

٤ – النمطية الإثنية للقوى المحلية في التوابع والأطراف كالشهابيين في لبنان ، والبابانيين في شهرزور ، والفونج في السودان وتوات في صحراء الجزائر . . وغيرهم .

١/٣ العراق : دراسة مقارنة بين الموصل والبصرة

لقد أفردت د .دينا خوري (الولايات المتحدة) دراسة مقارنة ممتعة عن الموصل والبصرة خلال العهود العثمانية الأولى ، وهي دراسة مبنية على تحليل الدفاتر العثمانية والقانونية لكل من المدينتين في القرن السادس عشر . ان معظم الدراسات الغربية عن تركيبة المدن العربية ينظر اليها من خلال عدم وجود مؤسسات تستمد شرعيتها من سكان المدينة

كإشارة عن عدم تمكن هذه المدن من التخلص من حكم بيروقراطي يفرض عليها قوانين تمنع سـكانها (= أعيانها وتجارها) من متابعة مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية بطريقة خالية من تدخل الحكومة كما حصل في أوروبا . لذلك بقيت هذه المدن وحدات طفيلية تعتمد على جمع الضرائب وعلى تجارة الترانسيت . بمعنى آخر : انها لم تكن مدن منتجة بالمفهوم الذي يستخدمه المؤرخون لوصف أوروبا خلال تلك العهود النهضوية . . نعم ، انني أشاطر د . خوري رأيها ، اذ أن بحثها يتجاوز المفهوم ، كي يبرهن ان علاقة المدن العراقية وتجارها واعيانها بالدولة العثمانية ، لم تكن علاقة توصف بالخضوع والخنوع والاستلاب[٥] ، فالبصرة لم تحكم حكما مباشرا في تلك المدة . أما الموصل ، فقد كانت مدينة منتجة اعتمدت اوروبا عليها في صناعات عديدة ، واعتمد عليها العراق في زراعات متنوعة . . كي يصل المطاف بسكان المدينة ان يستمد منهم حكم محلي مؤسساتي مبني على بيروقراطية قريبة الشبه من الحالة الاوروبية خلال القرن الثامن عشر ، -وأضيف ايضا- وانبثاق ثقافة عربية رصينة ، وحركة اصلاحية ، وفكرة قومية[٦] .

١/٤ لبنان : التقسيمات والمشاكل الادارية :

لقد ساهم د . عصام خليفة (لبنان) بورقة توثيقية عن «التقسيمات الادارية لشمال لبنان في أوائل القرن ١٦» معتمدا على الطابو دفتري مفصل (رقم ٦٨ أرشيف رئاسة الوزراء في اسطنبول) والذي يتناول ولاية طرابلس الشام سكانا وضرائب ، ويعود تاريخه الى عهد سليمان القانوني . ويتميز البحث بدقة المعلومات وتفصيلاتها التاريخية والديوغرافية والجغرافية والتي اشتغل عليها ايضا ، المؤرخ التركي د . خليل ساحلي اوغلو . . لقد تألفت ولاية طرابلس الشام من ٢٥ ناحية اضافة الى المدينة نفسها ، فهناك ١١ ناحية هي اليوم جزءا من الدولة اللبنانية ، وهناك ١٤ ناحية تشكل جزءا من الدولة السورية المعاصرة !

ويتحدث د . عبد الرحيم ابو حسين (لبنان) عن «المشاكل الادارية في القرنين ١٧/١٦» متخذا سنجق صيدا نموذجا له في التطبيق ، ومستندا على مصادر محلية وعثمانية . ان الأوضاع الادارية لم تكن مستتبة -كما يبدو عليه الوضع في الظاهر- بل انه ومنذ البداية ، سجل جبل الدروز حالة خاصة ، رغم التمتع بنظام اداري . وقد وضح الباحث الأسباب الرئيسية لعقم العلاقة الدرزية-العثمانية والذي أنتج مشاكل تاريخية لا

تحصى ، وتخبطت الادارة العثمانية في المنطقة . ويتوصل البحث الى نتائج غاية في الأهمية ، تفصح عن جوهر العلاقة المشتركة بين الماضي والحاضر .

١/٥ مصر : النظام الاداري وجهاز الأمن

عن الموضوع أعلاه ، قدم د . صلاح هريدي (مصر) ورقته متخذا من الاسكندرية مجال بحثه المحلي ، مشخصا التعديلات والصلاحيات والتنظيم القنصلي في المدينة كعنصر مساعد في إدارتها كونها مدينة كوسموبوليتيكية ، استقطب ميناؤها العديد من الأوروبيين . وتوصل البحث الى نتائج جيدة تخص الأحوال السياسية التي كانت عليها مصر في أواخر القرن الثامن عشر .

ويتوقف د . عبد الوهاب بكر (مصر) في بحثه عن «نظام الادارة وجهاز الأمن في مصر خلال العصر العثماني الثاني ١٨٠٥-١٩١٣م» ليحلل تدفق العناصر الأوروبية والشامية على مصر خلال القرن التاسع عشر ، والاجراءات الأمنية الوقائية الثنائية (المصرية + الأوروبية) حيال ذلك . ومع مقدم الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ ، كان جهاز الأمن المصري عبارة عن خليط كوسموبوليتاني يضم جنسيات متعددة لكنه يحمل إرثا عثمانيا استمر سائدا في مصر لسنوات طويلة حتى بعد انفصالها الرسمي/ القانوني عن تركيا العثمانية التي بدأت هي الأخرى حياة تاريخية جديدة في أعقاب معاهدة لوزان في يوليو عام ١٩٢٣م . لقد أصاب د . بكر في الاستنتاجات التاريخية التي خرج بها من بحثه التوثيقي عن مصر[(٧)] .

١/٦ طرابلس الغرب وتونس والجزائر : تنوع الادارات الاقليمية :

قدم د . صلاح الدين السوري (ليبيا) بحثه عن «الادارة العثمانية في ليبيا بين النظرية والتطبيق» مشيرا الى طبيعة العناصر التاريخية التي حكمت تلك الادارة في ولاية طرابلس الغرب على مدى اربعة قرون كاملة في ظل السيطرة العثمانية ، مع التأكيد التاريخي على الحالة القرامانلية المتميزة . . كما قدم د . احمد قاسم (تونس) ورقته موضحا بعض «الملامح الادارية في تونس حسب وثيقتين قديمتين» عثر عليهما في خزينة أملاك الدولة بتونس . وقد تبين منهما : علاقة الدولة العثمانية بتونس بعد القضاء على الاسبان وحكم الحفصيين فيها ، ثم تأسيس ولاية عثمانية سنة ١٥٧٤م تميزت بطابعها البحري . وتشير المعلومات المتوفرة في الوثيقتين الى المكانة الاقتصادية لتونس من خلال

«بيت المال» فيها والذي يشرف عليه «آغا بيت المال» وهو من الانكشارية المتقاعدين . ويتبين ايضا :فداحة التجاوزات المالية التي حصلت عند بيع املاك الدولة من قبل الموظف السامي الذي كان يتصرف بدوافع شخصية . أما العملة المتداولة عصر ذاك ، فكانت «الدوكا» الاسبانية والدينار الناصري الحفصي . . وهناك قضايا أخرى تمس العلاقة المالية المشتركة بين مركز السلطنة وايالة تونس .

أما عن النظام الاداري للايالة الجزائرية ، فقد قدمت ورقتان ، قدم إحداهما د . ناصر الدين سعيدوني بعنوان «الادارة العثمانية في الأرياف الجزائرية (نموذج مقاطعة دار السلطان)» ، فالمعروف عن هذه الايالة ، انها كانت تتكون من ثلاثة بايلكات ومقاطعة دار السلطان الذي يعتبر مقرا مركزيا للولاة الدايات الذين حكموا الايالة . أما البايلكات الثلاثة ، فهي : بايلك الشرق ومقره قسنطينة ، وبايلك الغرب ومقره وهران ، وبايلك التيطري (في الوسط) ومقرة المديّة (عن النظام الاداري لهذا البايلك قدم محمد سي يوسف (الجزائر) ورقته) . ان اهم ما قدمته الورقة الاولى : التعريف التاريخي للمصطلحات الادارية والمالية التي كانت تستخدم في الادارة الاقليمية واراضي المخزن الجزائرية .

١/٧ العلاقات الخارجية والاقليمية :

أما بخصوص العلاقات الخارجية (مع أوروبا على وجه الدقة) ، فقد قدمّت السيدة آني بارتييه (فرنسا) ورقة بعنوان : «مبعوث من طرابلس (الغرب) الى باريس سنة ١٧٠٤م» معتمدة في كتابتها على تقارير وأوراق رسمية ، فجاءت بمعلومات تاريخية جديدة غير معروفة عن المبعوثين العثمانيين الى اوروبا منذ زمن مبكر . . تقول الباحثة : «ان مبعوثي البلدان العثمانية بما فيهم الولايات العربية الساحلية لشمال افريقيا كانوا كثيرين الى درجة عدم حصرهم ، لقد سجلنا وصول ٢٠ مبعوثاً الى فرنسا من قبل الباب العالي وبلدان شمالي افريقيا خلال الفترة ١٦٦٩-١٧١٥م ، وقد جاءت جميع تلك البعثات لتجديد معاهدات السلم او استرجاع الأسرى او لشراء الأسلحة . ان تواجد السفراء المشارقة في فرنسا يحدث شيئا من الاضطراب ولكن ذلك ليس بشيء جديد ، اذ لم تكن الزيارات خارقة للعادة ، بل انها تبقى في حدود البروتوكولات الرسمية والدوبلوماسية ، وقد يكون للمبعوث أصدقاء من الفرنسيين فيتقبل بكل سهولة دعوات

الضيافة . .ونجده -ايضا- متنبها للتطورات التّقنيّة ، والطباعة ، والمضخات الماصة ، وصك العملة ، وصناعة الاسلحة ، وعلاج المرضى . . كما نجده حساسا ومتفاعلا مع المسرح ، والموسيقى ومستغربا من جمال الحدائق . . وليس هناك أي عائق بالنسبة الى «اللغة» ذلك انه يتكلم اللغة الايطالية» !

اما بخصوص العلاقات الاقليمية ، فقد كتب د . محمد عبد الله آل زلفه (السعودية) ورقته عن مصوع وسواكن وعلاقتهما بولاية جدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر» ، وقد تركزت على معرفة اوضاع هذين الميناثين معتمدا على وثائق ارشيف رئاسة الوزراء باسطنبول فعرف الباحث من خلالها ، التركيبة السكانية والظروف الاقتصادية واستراتيجية البحر الاحمر ، والتبعية الادارية والمالية لهاتين البلدتين لولاية جدة . ويذكر الباحث أن الحكم العثماني لمصوع وسواكن يمثل عصرا ذهبيا ، فسواكن أصبحت اليوم خرابا وقفرا موحشا . اما مصوع فانها كانت طوال الحكم العثماني عربية الهوية في لغتهاوانتمائها وتركيبتها السكانية ، اما اليوم فالله أعلم بحالها ، «فهي ترزح تحت السيطرة الأثيوبية . ان فقدانها وانسلاخها من انتمائها العربي يشكل تهديدا لأمن عروبة البحر الأحمر ، فهي صنوا لميناء إيلات في الطرف الأخير من البحر . ان الحاجة تدعونا لتأسيس مركز عربي متخصص في دراسة هذه المنطقة الاستراتيجية العربية ، ومعرفة احوال سكانها العرب وظروفهم الصعبة اليوم !

٢ - الأقليات والملل : الأدوار السياسية والاقتصادية والاجتماعية

٢/١ حقوق الأقليات

عن هذا الموضوع ، يكتب الباحث المستعرب محمد شكر (تركيا) معتمدا -ايضاً- على وثائق ارشيف رئاسة الوزراء باسطنبول (الوثيقة المرقمة ١٥٩٢) ، قائلا : «وكانت الأقليات في الدولة العثمانية في عيش مريح . . كانت كنائسهم معمورة ، ويؤدون واجباتهم الدينية بحرية كاملة ، وكانت أنفسهم وأموالهم بأمن وسلامة ، لأن معنى أهل الذمة في حقوق الاسلام ليس غير هذا . كما منحوا امتيازات حقوقية ، وأمّنَ لهم العيش في رفاهية من الناحية الاقتصادية ايضا» . قد نتفق مع بعض ما جاء به الباحث الذي قدم ورقته باللغة العربية ، ولكننا بحاجة لفحص وثائق تاريخية ورسمية وديموغرافية عديدة تنتمي الى عهود وتواريخ عديدة من حياة الدولة العثمانية وسياستها المركزية واللامركزية

تجاه الملل والأقليات سواء في العاصمة ام في انحاء الولايات الأناضولية والعربية ، رغم اطمئناننا الى سياستها في التسامح تجاه اليهود مثلا ! واذا ما دققنا في مضمون الوثيقة اعلاه ، فسوف نجد بأنها مؤرخة في أوائل القرن التاسع عشر ، وقد تضمنت عهد حقوق أهل الذمة ، والذي روعي فيه اتخاذ تدابير لازمة لتسهيل البيع والشراء لرعايا الدولة من المسيحيين ، وتجنب اتخاذ القرارات في الادارات المحلية دون استشارة المسؤولين ، وان تحفظ «الحقوق» جميعها ويستحصل عليها بالمراجعة المحلية او العليا . . ويبقى البحث التاريخي العربي بحاجة لتحقيق المزيد من الوثائق وتدقيقها ، اضافة الى دراسة معمقة في التواريخ الاجتماعية والادارية والاقتصادية لهذا الموضوع الحيوي[8] .

٢/٢ التأثير التصاعدي لليهود :

لقد حاولت د . رشيدة ياسين (الجزائر) ان تقدم في ورقتها عن «التأثير التصاعدي للأقلية اليهودية في إيالة الجزائر» اجابة بحثية واضحة عن الطرق التي استخدمتها الأقلية اليهودية هناك ، وذلك باستخدام السيطرة الاقتصادية وفرض نفسها على المجتمع مع جملة علاقاتها مع الدول الأوروبية وحكومة الداي في عاصمة الإيالة . . وتكتشف الباحثة ذلك الأسلوب المتباين في الصراعات ، والأدوار البريطانية ، ومواقف الحكومة منذ مطلع القرن التاسع عشر على امتداد الإيالة . لقد كانت التفاعلات السياسية لليهود متأثرة الى حد كبير باحتكاراتهم الموسمية وتجاراتهم الكبرى ، والنفوذ المتصاعد لمؤسسات بكري وبوشناق اليهودية ، والتأثير لذلك كله على الاقليم . . كما وتركز «الورقة» على هيمنة اليهود على التجارتين : الاقليمية والدولية من خلال السيطرة على الجوانب السياسية المهمة في العلاقات الانكلوفرنسية وعلى العلاقات الانكلوجزائرية بشكل عام .

٢/٣ الملل (نموذج في التطبيق)

عن الملل في ولاية طرابلس الغرب وعن دورها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي خلال العهد العثماني ، حدثنا د . رأفت غنيمي الشيخ (مصر) ، مركزا على الطائفة اليهودية والجاليات الأجنبية التي استفادت من الامتيازات الممنوحة لها . كان اليهود أقلية كبيرة متوزّعة في الولاية ، وقد عاشوا اجتماعيا في مجتمعات مختلفة ، لا يحبذون الاختلاط بالعناصر الأخرى ، وقد اتصفوا بالقذارة والعادات السيئة . ومن الناحية الاقتصادية ، تركزت أعمالهم في الحرف والتجارة والصيرفة وعمليات الربا . . وقد عاملهم العثمانيون معاملة طيبة حيث تمتعوا بالحرية الدينية في معابدهم ، وكانت لهم مدارسهم

الحديثة ، فهم اول من أدرك أهمية التعليم الفني في الولاية فأنشئوا عام ١٨٧٦م أول مدرسة على النسق الأوروبي للتدريب على التجارة . وقد حاولوا انشاء مستوطنات في برقه من خلال مذكرتهم التي رفعوها للحكومة العثمانية عام ١٩٠٩م ، وطالبوا بتأسيس بنك يهودي لشراء أراض واسعة وقبول الهجرة . . الخ ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق . أما بخصوص الجاليات الأوروبية العديدة فقد توالدت وعاشت على النسق الأوروبي متمتعة بالحرية الدينية والتعليمية .

٢/٤ الأقلية الأوروبية

ضمن إطار هذا الموضوع ، تحدث المؤرخ فرانسوا ارنولي (فرنسا) عن «الأقلية الأوروبية في شمال افريقيا خلال القرن ١٨» ، اذ كانت قد تشكلت ثلاث مجموعات في كل من تونس والجزائر وطرابلس الغرب . المجموعة الأولى : يمثلها العبيد الذين أفرزتهم غارات البحر من أسرى الحروب ، وقد تناقصوا وذابوا يوما بعد آخر . أما المجموعة الثانية فقد مثلها التجار والحرفيون والأحرار ذوي الخصوصية من خلال الامتيازات التي تحميهم وخصوصا التشريع القنصلي ، غير انهم كانوا عرضة لكل الانعكاسات السياسية ، وتمتع اليهود المهاجرون بنفس الامتيازات لكنهم لم يخضعوا أنفسهم للوضعية الاجتماعية التي كان يعيش عليها اليهود القدماء من أبناء البلد . وكانت المجموعة الثالثة يؤلفها المنتمون الى مؤسسات الصيد البحري وهم أهالي جنوه وغيرها من الموانىء الأوروبية ، وانهم يسكنون على السواحل ، وعملهم مضاعف . يقول ارنولاي مستنتجا : «هذه الأقليات الأوروبية كانت الواجهة الخارجية للايالات العثمانية بشمالي افريقيا ، فهي عنصر ذو أهمية بالنسبة لاقتصاديات البلاد وتحديثها ، ويقوم الصراع كثيرا فيما بينها بهدف الهيمنة في القرن التاسع عشر ، ومن أجل بلوغ المستوى العالمي . هذا الصراع كثيرا ما سهله ضعف الادارة في القسطنطينية وعدم قدرتها على السيطرة على أملاكها الخارجية ، تاركة امكانية الزحف الخارجي» . اننا بقدر اتفاقنا مع تحليلات ارنولاي حول تقسيمات الأقلية الأوروبية ، ولكننا نختلف معه فيما ذكره من العلل والمسببات ، اذ لدينا القناعة الكافية ، بأن ليس هناك من أدوار تذكر في عملية التحديث ، تكون تلك الأقلية قد مارستها في بلدان المغرب العربي ، اضافة الى أن الأوضاع التي برز عليها القرن التاسع عشر كانت وليدة صراع القوى الأوروبية وأطماعها تجاه الضعف العثماني دون العكس ، وتكون الأقلية الأوروبية قد ذابت تجاه القوى الأوروبية !

٢/٥ وسطاء وشركاء

لقد كان المؤرخ جاك دوبيي (فرنسا) أوضح وأكثر صراحة من ارنولاي ، فقد تقدم بمداخلة متميزة بعنوان : «وسطاء وشركاء في الأقليات للمؤسسات الفرنسية في السلطنة العثمانية خلال مراحلها الأخيرة ١٨٨٠-١٩١٤م» ، واستهدف ، تبيان دور رجال أعمال ينتمون الى الأقليات كوسطاء وشركاء لرأسماليين صناعيين وتجار راغبين في انشاء مشاريع اقتصادية او بيع منتوجاتهم في السلطنة العثمانية . . ورغم عدم غياب الأتراك والعرب المسلمين إلا أن الأقليات كانت أكثرية ، وهناك تمييز بين نوعين من العلاقات الاقتصادية يمثلهما : وسطاء وشركاء . وقد أحصى الباحث ١٥ وسيطا ، بينهم ٧ وسطاء عاديين و ٢ من بائعي الامتيازات ، و٦ من مروجي المعلومات . أما الشركاء فعددهم : ٤٤ شخصا ، ١٥ مصرفيا ، و١٢ شريك مصارف ، و١٧ تاجرا وملاكا . وهناك ايضا ، مجموعة ثالثة أقل انسجاما وتضم مالكي أراضي المناجم . ان مجموع ٦٠ شخصا من الوسطاء والشركاء يتكون من ٢٤ يهوديا ، و١٥ يونانيا ، و٧ ايطاليين ، و٥ عرب مسيحيين من لبنان ، و٢ انكليز و٢ فرنسيين . أما النسبة : فيشكل اليهود ٤٠٪ ، واليونانيون ٢٥٪ (الأكثرية وسطاء) . أما الشركاء الشرقيون فيشكلون ١٨,٢٪ . يقول الباحث :«أما حصة العرب المسيحيين فهي متناسبة مع تراكم رؤوس الأموال في الولايات العربيه ، وان مجموع هؤلاء يشكلون حوالي ٨٠٪ من وسطاء وشركاء الشركات الفرنسية قبيل الحرب الأولى .

لقد كان أولئك الوسطاء والشركاء يقيمون العلاقات الطيبة مع السلطات العثمانية ، وهذا شرط أساسي لفاعليتهم . . أما الدبلوماسية الفرنسية فقد كانت تظهر نوعا من الاحتقار وذلك حسب طبيعة المصالح المتصارعة ، بينما الشركاء وخاصة الأرمن واللبنانيين والسوريين ، أو اليهود المعادين للصهيونية ، فكانوا يحظون بتقدير ايجابي ، وهذا ما خدم المطامع الامبريالية لفرنسا في منطقة الشرق الأوسط .

٢/٦ لبنان : جذور الطائفية

لقد تطرق د . جوزيف ابو نهرا (لبنان) في محاولته البحث عن إبراز تلك الجذور في النظام السياسي اللبناني على ضوء الأرشيف العثماني والأرشيف الوطني اللبناني ومراسلات القناصل والسفراء الأوروبيين ، مركزا بنوع خاص على ترسيخ وصعود الولاء

الطائفي في لبنان مع تنظيمات شكيب أفندي الادارية في ٢ تشرين الأول/ اكتوبر ١٨٤٥م ، وبأربعة محاور رئيسية :

١ - الولاء السياسي والولاء الطائفي في عهد الامارة ١٥١٦-١٨٤١م : ثنائية راسخة من الولاء الجامع لـ«المقاطعجية» في ظل مناخ حر ومحترم : حزب قيسي وحزب يماني حتى سنة ١٧١١م ، ثم حزب يزبكي وحزب جنبلاطي حتى سنة ١٨٤١م .

٢ - بروز الصراعات السياسية ذات الطابع الطائفي خلال القرن التاسع عشر بعد تحولات ديموغرافية واسعة ، وانحسار قوى المقاطعجية المسيحيين لمصلحة الاكليروس والمؤسسات الدينية وبروز الصراعات بين الدروز والموارنة بعد امتدادات ابراهيم باشا العسكرية . . وتدخلات أوروبا بحجج حماية الطوائف المسيحية ، فأثر كل ذلك سلبا على علاقاتها الداخلية ، فنشأت بينها منازعات وحروب أهلية في سنوات ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ .

٣ - اتفاق الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية على تقسيم جبل لبنان الى قائمقاميتين سنة ١٨٤٢ : درزية ومسيحية للقضاء على وحدته التي مثلّتها الارادة اللبنانية في ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٤٢ ، اثر اجتماع « المختارة» واختيار أسعد شهاب حاكما للجبل .

يستنتج الباحث بأن الطائفية قد تكرست في الحكم والادارة مع تنظيمات شكيب أفندي والقانون الأساسي لجبل لبنان ، وتأليف «المجالس» على أساس الانتماء الطائفي ، ودور رجال الدين مسلمين ومسيحيين في اختيار المرشحين لعضويتها ، فزاد ذلك من تصاعد الولاء الطائفي . . كما وان الصراعات الطائفية قد تمأسست سياسيا بتغذية من الدول الأوروبية بهدف خلق فرص للتدخل وتعميق الانقسامات الاقليمية .

٢/٧ لبنان : تطور المؤسسات الطائفية

قدم د . بطرس لبكي (لبنان) ورقته عن هذا الموضوع ، ودور تلك المؤسسات في أواخر العهد العثماني وفي ظل التوسع الأوروبي ، اذ تفككت بنية النظام الاقطاعي بشكل متسارع ، وتصاعدت قوى اجتماعية جديدة أفرزتها التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية التي ارتبطت بتوسع الوجود الأوروبي . لقد استطاع الباحث ان يحدد مفهومه الدقيق لـ «الطائفة» في لبنان ، فهي بالاضافة الى كونها : جماعة تربطها وحدة الطقوس

والمعتقدات ، إلا أنها ترتبط بمجموعة من المؤسسات الدينية والقضائية والتربوية والاجتماعية وأحيانا الصحية والسياسية . وقد كانت تلك «المؤسسات» متفاوتة التبلور قبل التوسع الأوروبي ، وكانت الأكثر تبلورا ، مؤسسات السنة كجزء من جهاز الدولة ، وايضا ، مؤسسات الموارنة المتجددة منذ القرن السادس عشر بدفع من بابوية روما . . اضافة الى مؤسسات طوائف أخرى كالروم الارثوذكس والشيعة الاثني عشرية والدروز الأقل تبلورا .

أما العناصر الفاعلة في تبلور المؤسسات الطائفية ، فهي :

١ - التنظيمات الخيرية منذ ولادة خطي شرف كولخانه سنة ١٨٣٩م ، وخطى شريف همايون سنة ١٨٥٦م ، اللذين أثرا بشكل خاص على طوائف الروم الأرثوذكس واليهود والروم الكاثوليك بسبب انشاء مجلس ملية متعددة .

٢ - تطور عمل الارساليات كمّا ونوعاً من بروتستانتية وكاثوليكية ابتداء من الثلث الثاني للقرن التاسع عشر ، وقد سبب هذا التطور : تشكيل الطوائف الانجيلية واللاتينية ، وانشاء عدد كبير من المدارس والجامعات .

لقد أثرت «التنظيمات» باتجاه تحديث المؤسسات القضائية للسنة ، لكن «التحديث» الأهم لمؤسسات الطائفة السنية في لبنان أتى على الصعيد التربوي ، فخوفا من تأثير الارساليات على أبنائهم ، نشأت العديد من المدارس ، أهمها : مدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت وصيدا . كما تخوفت الطوائف المسيحية الشرقية أيضا من التبشير الارسالياتي عليها ، فدفعها ذلك الى انشاء مدارس لأبنائها دون تأثير التبشير عليهم ، وقد وقع مثل ذلك عند الموارنة والروم الكاثوليك والأرثوذكس . أما الطائفتين الشيعية والدرزية ، فان تأثر مؤسساتها بالمستجدات ، كان محدودا بسبب بعدها عن العناصر الفاعلة في هذا التطور سواء كانت أجنبية أم عثمانية .

أود أن أشير الى نقطة خلاف واحدة بيني وبين الزميل د . لبكي ، ذلك انني أقول بمصطلح «الاصلاحية» ولا أقول بمصطلح «التحديث» الذي استخدمه بالنسبة الى المؤسسات المعنية ، اذ أن المعنى الضمني/ التاريخي لذلك يختلف من «تقويم» الشيء عن «تغييره» جذريا[٩] . . وتبقى نتائج البحث رصينة وذات توظيفات تاريخية مهمة .

٣ - التنظيمات العثمانية

لقد ارتبطت إحدى المراحل المهمة في التطور التاريخي للدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر بحركة الاصلاحات المنظمة (= التنظيمات) للفترة ١٨٣٩-١٨٧١م . وكان مرتكزاتها مجموعة من المبادىء والأفكار الأيديولوجية لا النزوعات الدينية-العقائدية . ولعل إحدى خصائص التنظيمات ، تكمن في سندها وقوتها الحركة المتمثلة بالفئات الحاكمة والنخب المثقفة (= الانتلجينسيا العثمانية) نفسها ، تلك التي طرحت مهمة تطبيق المساواة المدنية لكافة رعايا الدولة . وبهذا المعنى ، فان التنظيمات هي إحدى المحاولات الأولية الكبرى لاعادة تنظيم الدولة «الاسلامية» القروسطية . وعلى هذا الأساس ، فقد واجهت الجماهير ، وخصوصا تلك الشرائح الاجتماعية العريضة المتشبعة باللاهوتية والطقوسية من رجال الدين والعامة من الناس ، اضافة الى القوى المتصوفة المنغمسة بالبدع والدروشة والخيالية . . واجهت جميعها العمليات الاصلاحية بعداوة شرسة ، وانتفضت معارضة للسلطات والمثقفين المحدثين في مختلف أصقاع الامبراطورية ، وخصوصا في المدن ومراكز الاقاليم والعاصمة . لقد سبقت عهد التنظيمات أعلاه ، اصلاحات كلا من سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م ، ومحمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م ، تلك التي مهدت السبيل لاصدار مجموعات من النظم والقوانين والقرارات . . اضافة الى اعلان «الدستور العثماني» عام ١٨٧٦ وظهور العديد من التشريعات المدنية . .أي بمعنى : ولادة لنظام عثماني جديد سيبدأ تطبيقه في أرجاء الدولة ، وهو نظام له تشكيلاته وهياكله ونصوصه وأجهزته وعناصره التي ستعمل جميعها في المرافق المختلفة من الحياة العثمانية . دعونا نتوقف عند بعض تلك المرافق الحيوية :

٣/١ « تطور الاسلام »

يأتي بحث المستعرب قاسم بن محمد كريموف (الاتحاد السوفييتي) ، لكي يقدم بعض الأراء بصدد «تطور الاسلام في الامبراطورية العثمانية خلال عهد التنظيمات» ، وقد وضح امكانيات التأويل وتشكيل الظروف المناسبة في أحشاء الامبراطورية لاستيعاب واقع تطبيق القوانين غير الدينية . فالاصلاحية العثمانية القائمة آنذاك ، بما في ذلك اصلاح الاسلام ، لم تضع نصب عينيها مهمة القضاء على الدين او فصله عن موقعه في المجتمع ، بوصفه أداة روحية يستفاد منها في وحدة الامبراطورية . ان احد أبرز

المظاهر في هذ الصدد : بداية سريان استخدام الملابس الأوروبية ، وانتشار الصور (التي حرمها الاسلام) ، وبعض العادات الغربية . . والأهم من ذلك كله : قضية الخدمة العسكرية لغير المسلمين في الجيش العثماني ، فقد كان فيما سبق ، لم يستشهد من أجل الوطن سوى المسلمين الذين يعتبرون حماة لأهل الذمة ، بينما النصارى وأتباع الديانات الأخرى كانوا يزاولون التجارة والعلوم والصيرفة والأعمال المهنية ، وهكذا ، سيكون مستوى معيشتهم بالضرورة أفضل من رفاقهم المسلمين . وعليه ، فان مسألة اشتراك المسيحيين في الجيش ، أثارت اهتمام الجميع ، ومنها مخاوف البعض من خيانة الامبراطورية في ظروفها الحرجة ، أما في حقول الحياة المدنية ، فقد بدأت تظهر يوما بعد آخر بعد تطبيق واسع للقوانين والنظم الجديدة بعض المهن الجديدة غير الدينية كالصحافة والقضاء المدني والتعليم الرسمي/ العلماني والطب الحديث . . الخ .

٣/٢ النظامان القديم والجديد : اشكالية التقاطع

يأتي بحث د . وجيه كوثراني (لبنان) : «التنظيمات العثمانية بين النظام القديم والجديد[١٠]» لكي يحلل إشكالية التقاطع او التناقض بين الاثنين : نظام تكيف مع أعراف المجتمع الأهلي والسلطات القديمة التي كان يتمتع بها العلماء والأعيان والملتزمين والأسر المحلية والعصبيات في الولايات ، وبين نظام جدي يتمثل وفقا لقوانين التنظيمات بجملة ما احتوى عليه من هياكل ادارية وقضائية مستحدثة ، وهيئات من الموظفين ، ولوائح من النظم والتعليمات . ويستنتج الباحث ، اختفاء ما نسميه بـ «وسطاء» السلطة الأهلية في المجتمع من نقباء ومشايخ حرف وملتزمي ضرائب ورؤساء عائلات وشيوخ قبائل وعصبيات وطوائف وأغوات . . لتحل بدلهم : أجهزة من الموظفين المتخصصين بأداء مهام معينة ، والقضاة المدنيين ، والمعلمين العلمانيين ، والمجالس البلدية والادارية ، والصلاحيات المحددة ، والمؤسسية المنافسة للأصناف الحرفية القديمة والتجارة التقليدية ، وضابطية الأمن الداخلي . . كأجهزة حلت محل السلطات الوسيطية التي كانت تمثلها البنى الأسروية والاقطاعية والعسكرية المحلية . . اضافة الى أن النظام الجديد قد ساهم بتحديد الضرائب وتنظيم الملكيات الزراعية ومسحها وتسجيلها ، مما أربك أصحاب النفوذ المسيطرين على الأراضي ، وخصوصا أراضي الميري ، فتحولت مقاطعات كبيرة الى أراض «ملك صرف» .

لقد أفرزت هذه التطبيقات ، أزمات اجتماعية/ سياسية في البيئات الاجتماعية المتنوعة منها : تحركات فلاحية/ ريفية ، وتململ في الأوساط الحرفية المدينية ، واستياءات في أوساط الأعيان والمشايخ والعلماء . . وكنتيجة لذلك ، فان عمليات التكيف والتأقلم مع الاجراءات الجديدة قد تمثلت بمحاولات جماعات النظام القديم (=نقباء/ مُفْتُون/ علماء/ مشايخ . .) استيعاب تلك الاجراءات لمصلحتهم من أجل تثبيت سلطتهم القديمة ، او تجديدها بواسطة أبنائهم الذين سيحتلون وظائف جديدة في مجالس الادارة والمحاكم النظامية ، ومجالس البلديات ، وغرف التجارة ، والدوائر المستحدثة للطابو والتسوية والبريد والبرق والكمارك والمعارف والأوقاف . .الخ ويتوصل زميلنا الباحث من خلال مقارناته التاريخية بقوله : «فكثير من الأسماء التي نجدها تتكرر في مناصب الادارة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين ، نجدها ايضا في مواقع الأسر الحاكمة للثروات العقارية في سورية ، الأمر الذي يشير الى استخدام هؤلاء الوظيفة الادارية وسيلة لتسجيل الأراضي كملكيات خاصة به». وهذه من النتائج الخطيرة في عملية القطائع والأضداد بين القديم والجديد في تطبيق التنظيمات!

٣/٣ ادارة الوقفيات

لقد ازداد تسيير الادارة الحكومية للوقف خلال عهد التنظيمات ، متمركزة بمحاولات جادة للمسائل الوقفية التي أدمجها محمود الثاني مع حكومة اسطنبول . واعتبر ذلك بمثابة نقطة سياسية في البرنامج المركزي للامبراطورية ، بعد أن كان مسيرا من قبل العلماء والاداريين اللامركزيين ، اذ يعتبر استحداث محمود الثاني لدائرة الوقف العام المركزية عام ١٨٢٦م ، اول درجة صلبة في اصلاحية النظام الوقفي ، رغم الكثير من العقبات بفعل النقص والاحتياج للمؤهلات ، وبفعل المصالح الشخصية لموظفي الدوائر الجديدة . وتكمن الأهمية البالغة لمحمود الثاني في توفيقه بين السلطة الحكومية والقضايا الوقفية التي اعتبرت واحدة من الفروع الادارية -المركزية بعد تدمير الانكشارية عام ١٨٢٦ ، ومصادرة الحكومات المتلاحقة الملكيات البكتاشية وبضمنها أوقافهم . ان ورقة راندي ديكولهام (فرنسا) :«تنظيم ادارة الوقف في الولايات العربية خلال عهد التنظيمات» تبحث في تفاصيل هذه الاجراءات الاصلاحية مع النتائج التي تمخضت عنها محليا ، وخاصة في عاصمة اقليمية كدمشق . . ناهيك عن نوع «المعارضة» التي

نظمها العلماء كحالة من أجل الاحتفاظ بسيطرتهم على الوقفيات . . وما هي درجات المجتمع التي دعمت تلك الاجراءات الاصلاحية في اسطنبول مركزيا أو لامركزيا؟ ثم ما هي القطاعات التي دعمت العلماء الذين انحسرت مصالحهم شيئا فشيئا؟؟

سؤال واحد نوجهه للباحثة : هل تعتبر اجراءات محمود الثاني الاصلاحية بخصوص ادارة الوقف وغيرها من الشؤون المدنية والعسكرية هي اجراءات داخلة ضمن اطار مشروع «التنظيمات» الذي بدأ مع فاتحة عهد السلطان عبد المجيد الأول عام ١٨٣٩م بصدور خطي شريف كولخانه ، علما بأن بناء مشروع التنظيمات والتخطيط له كان على عهد سلفه؟؟

٣/٤ أراضي الميري

وطرحت د . البرتين جويدا (كندا) ورقتها عن «الادارة العثمانية لأراضي الميري في ولاية بغداد ١٨٦٩-١٩١٤م» ، والموضوع ذو أهمية متفردة بالنسبة لتاريخ العراق الحديث ، اذ شكلت أراضي الميري ٨٢٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في وادي الرافدين ويعتبر مدحت باشا والي بغداد ١٨٦٩-١٨٧٢م ، اول من حاول تطبيق قانون الأراضي العثماني في العراق ، اذ شكل لجنة محلية للأراضي من أجل ادارتها . وتلخص الورقة : أسلوب قانون الطابو الصادر في ١٨٥٨م فيما يتعلق بوظيفة وتنظيم لجنة أراضي الولاية والاصلاحات الزراعية والسياسات القبلية التي طبقها مدحت باشا عندما استطاع تعديل القانون من اجل تحسين أهداف سياسته . وقد ركزت د . جويدا على كيفية عمل لجنة الأراضي ، وتتبعت مراحلها الثلاث على بعض المناطق . وتنتهي الورقة الى الدلائل التي تكشف بأن النظرة القادمة الطويلة من السلطان والتي أضيفت الى مسؤوليات مدحت باشا بتجنيب كميات كبيرة من أراضي الدولة الى مشائخ القبائل وأهل المدن في سياسة متعمدة لكسر طوق التضامن المشيخي هي نظرة لا أساس لها من الصحة . لقد اعتمد البحث على وثائق وسجلات رسمية ، واستفادت السيدة الباحثة كثيرا من خبرتها التاريخية الطويلة في هذا الموضوع ، وقد فسرت العديد من المصطلحات الاقتصادية القديمة الخاصة بالتاريخ الاقتصادي للعراق الحديث اضافة الى تحليلاتها واستنتاجاتها وتفسيرها لبعض أصناف الأراضي العراقية وخصوصا في المنطقة الجنوبية .

٣/٥ ولادة المؤسساتية العربية

لقد استفاد د . محمد العزيز ابن عاشور (تونس) من أطروحته للدكتوراه كثيرا[١١] ، فقدم ورقته عن «المؤسسات السياسية بتونس في عهد الدولة الحسينية (القرنان ١٨و١٩)» ، محللا مسألة تطور تلك المؤسسات على يد البايات الحسينيين ، «تطورا أخرج البلاد التونسية من صنف مجرد إيالة عثمانية تشرف عليها سلطات سياسية وعسكرية موروثة منذ عهد سنان باشا سنة ١٥٧٤م ، وصيرها دولة ذات سلطة سياسية موحدة ومعتمدة نسبيا في تسيير شؤونها على العنصر الاجتماعي المحلي ، كما اتّصفت الدولة في العهد الحسيني باستقلال نسبي تجاه الباب العالي» . إنني أرى أن ليس هذا باستثناء تاريخي في العلاقة المشتركة بين الايالة التونسية والباب العالي اذا ما تعمق الباحث والمؤرخ في دراسة العلاقات الاقليمية بين ولايات أخرى والبلاط العثماني ، فقد ولدت المؤسساتية البيروقراطية والبنى الأسروية في أربع ولايات عربية ، هي : الموصل ودمشق (بحكم اقتصاد البازار لغارتز) ، وتونس وطرابلس الغرب (بحكم اقتصاد العالم لبروديل) خلال القرن الثامن عشر ، وذلك اثر انحسار السلطة المركزية-العثمانية ، كما وتراءت العلاقة اللامركزية ضمن أنماط متعددة استطعت تصنيفها في ورقتي المذكورة سلفا (أنظر : الفقرة ١/٢) ، كما وقدمت د . دينا خوري استنتاجات تاريخية جيدة بهذا الصدد (انظر : الفقرة ١/٣ أعلاه) . (انظر : الملاحق شكل رقم ٤) .

أما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد أتّصف تاريخ المؤسسات السياسية بالاعلان عن الاصلاحات الحسينية وبخاصة «عهد الأمان» سنة ١٨٥٧م ، والقانون الأساسي عام ١٨٦١م . وقد تم الاعلان عنهما خلال ظرف سياسي واقتصادي واجتماعي عسير حيث استمر تقهقر النظام السياسي رغم محاولات الوزير الأول خير الدين ١٨٧٣-١٨٧٧م ، واستمرار تصاعد التدخل الأجنبي الذي تجسم في وضع الوصاية المالية على البلاد التونسية ، ثم الحماية سنة ١٨٨١م .

٣/٦ تحديث العلاقات الاقليمية

قدم د . بيرون كانن (الولايات المتحدة) ورقته عن «العلاقات التونسية-المصرية» فجاء بمعلومات جديدة عن الوظيفة القنصلية التونسية في القرن التاسع عشر ، وخصوصا

العلاقات بين وكيل بيك الثاني (التونسي) وبين حكومة محمد علي المصرية للفترة ١٨٢٥-١٨٤٨م ، فكان هناك يوميات ورسميات امتدادا لأدوار الوكلاء حتى سنة ١٨٨١م . وتظهر وثائق دار البيك بتونس وجوه جديدة من التاريخ المشترك في تحديث البلدين في التجارة والقضاء والمهاجرين . ويتعرض الباحث الى طبيعة عمل «الوكالة» كوظيفة قنصلية او شخصية واختلافها عن العمل القنصلي الحديث .

٣/٧ الاصلاحية العسكرية العثمانية

قدم د . كارل ماكس كورتبيتر (الولايات المتحدة) ورقة عن «الجنرال ك . فون كولتز والاصلاحية الحربية العثمانية» مناقشاً نقاط مهمة وحساسة ، منها : «باب اهتمام المانيا بالتحديث العسكري العثماني ، وماهية تجربة كولتز والعقبات والاصلاحات التي أنجزها في اسطنبول .

كان كولتز احد كبار رجالات الاستراتيجية والعلوم العسكرية في العالم ، وقد خدم الامبراطورية العثمانية في عدة مجالات : فقد كان رئيسا للبعثة العسكرية الألمانية للفترة ١٨٨٣-١٨٩٥م ، وأنجز بعض الاصلاحات في الكلية العسكرية ، تلك التي ساعدت الجيش التركي ان يهزم اليونان سنة ١٨٦٧ . وقد قام كولتز برحلات عديدة الى تركيا خلال ١٩٠٨-١٩١٣ حتى تقاعد من الجيش الألماني عام ١٩١٣ وعمره ٧١ سنة . وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وصل اسطنبول لكي يعمل كضابط قيادة للجيش العثماني السادس ، ثم توفي بالطاعون بعد ان قدم خدمات جلى ، منها : التحصينات الحربية على ضفاف البوسفور والدردنيل . لقد تحرى كورتبيتر عن الأسباب والعلل التاريخية للارتباطات الألمانية مع الامبراطورية العثمانية من خلال عمليات الاصلاحية العسكرية وجاءَ الباحث باستنتاجات تاريخية بارزة حول طبيعة تلك العمليات خلال فترة التخضرم بين القرنين ١٩/٢٠ ، ولكن هذه «الورقة» تعاملت فقط مع حياة كولتز الأولى ، وكنا نود لو قارن الباحث هذه التجربة التاريخية/ الاصلاحية مع تجارب أخرى في التحديث لدول أخرى في العالم ، والاجابة عن تساؤل تاريخي : ماذا كان يكمن في التفكير الألماني ابان تلك الحقبة المعقدة من التاريخ في المتغيرات الدولية .. وحجم البدائل لذلك العصر الاستعماري الكولينيالي ؟؟

٤ - بروز القوميات

٤/١ بونابرت إزاء مصر

قدم د . علي مراد (السوربون) ورقة بعنوان : «بونابرت وتخطيطاته الاستعمارية في مصر (١٧٩٨-١٧٩٩م)» في محاولة دقيقة في محاولة دقيقة للبحث في تطلعات بونابرت وخططه البعيدة قبل إقدامه على تنفيذ عمليته الجريئة بعدة شهور . لقد أكد البحث على شخصية هذا القائد ، واسمه الحقيقي «بونابرت» الذي اشتهر به ، ثم أضفى عليه «نابليون» في وقت متأخر ، كما ونظر البحث في خلفياته وراء حملته من زاويتين اثنتين : الأولى : نواياه عند تقدّمه الى السلطة الحاكمة بفرنسا أيامئذ ، في إلحاح شديد بمشروع احتلال مصر . الثانية : مقاصد بونابرت بعد نجاح عمليات غزو مصر بالذات . ان البحث يحاول الاجابة عن تساؤلات عديدة : هل كانت مصر تعتبر كاقليم يضاف الى مستعمرات الجمهورية الفرنسية فيما «وراء البحار»؟ أم هل كان بونابرت يرى لنفسه دوراً خاصا على رأس حكم مصر؟ وكيف كانت نوعية حكمه على مصر؟ وكيف كان يقدر لسلطته على مصر من علاقة سياسية او دبلوماسية مع نظام الجمهورية الفرنسية من جانب ، ومع الدولة العثمانية من جانب آخر؟

لقد سجل هذا البحث العديد من النقاط المهمة في تاريخية بروز القوميات ولأول مرة وفي أهم حادث تاريخي عند مطلع القرن التاسع عشر ، استطاع أن يؤثر ليس في تاريخ مصر الحديث فحسب ، بل في التطورات التي شهدتها المنطقة العربية أولا ، والتطلعات التي جسدتها الدولة العثمانية ثانيا وخصوصا في عهد سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م ، وكان اسم بونابرت خلال هذه الفترة قد ذاع في الدنيا بعد انطلاقته من مصر .

٤/٢ مصر والانفصال عن العثمانيين

اقترب بحث د . محمد محمود السروجي (مصر) كثيرا من بحث د . عبد القادر قره خان (تركيا) في التفكير والمعلومات التاريخية ، ان ورقة السروجي « محاولة الخديوي اسماعيل الاستقلال عن الدولة العثمانية» قد وثقتها ورقة قره خان عن «المواقف الوطنية لضياء باشا وجماعته ورسالة علي سعاوي بخصوص تأسيس دولة افريقية» . ان علاقة الخديوي اسماعيل بالدولة العثمانية في محاولته الحصول على استقلال كامل لمصر

بالتدرج دون القوة . . قد مرت بأربع مراحل متميزة : ١ - مرحلة العلاقات الودية باستحصال فرمان ١٨٦٦م الذي أقر بالحكم الوراثي ، وفرمان ١٨٦٧م المانح للقب «الخديوي» المميز . ٢ - علاقات التوتر بين الطرفين ، ولا سيما في عامي ١٨٦٩ و ١٨٧٠م عندما عزم الخديوي اعلان الاستقلال في حفل تدشين قناة السويس بحضور ملوك وأمراء أوروبا وبتأييد فرنسي ، مع التحصينات العسكرية والتسلح وبعد حلفه مع اليونان سنة ١٨٦٧م . ٣ - مرحلة إعادة العلاقات الودية بعد ضعف فرنسا واشارتها عليه بسياسة التعقل والتودد . ٤ - تقييد أوروبا لارادة الخديوي بعد تدخلات بريطانيا وفرنسا بعد دخوله الأزمة المالية الصعبة .

لقد كتب قره خان عن اكتشافه قبل سنوات طويلة في مكتبة المتحف البريطاني لدفتر قديم فيه مراسلات مختلفة للفترة ١٨٢٩-١٨٧٠م ، ومن ضمنها ثلاث رسائل كتبها علي سعاوي عبرت عن آراء خطيرة ، اذ يذكر في رسالة له ، مؤرخة في ١٢ صفر ١٢٨٧ هـ/١٠ مايس ١٨٧٠م ومعنونة الى رياض باشا أحد رجالات الدولة المصرية ، ما يلي : «هناك جمعية في استانبول تضم رجال دولة وشخصيات مثقفة معروفة ، تأسست سرا قبل اربع سنوات وتقوم بفعالياتها الآن . هدفها خدمة وتأسيس وبناء دولة افريقيّة ، ستضم تونس ومصر وطرابلس (الغرب) ، وسيكون لهذه الدولة استعداد لتأسيس دولة (عربية) اسلامية وفقا لموقعها الجغرافي والتاريخي والجماهيري . وتعود حماية الدولة لهذه الجمعية المذكورة وبعيدة عن كل شبهة وبالاضافة الى ذلك ، فان كادر الجمعية يعمل من أجل هذا الهدف . وان اعمال الكادر ، ستعطي نتائج ايجابية ، ويجب ان تكون مصر على رأس هذه الدولة» . ويعلق قره خان قائلا :«يمكن القول انه من الفائدة الأخذ بنظر الاعتبار موضوع تأسيس دولة شمال افريقيا الاسلامية حتى وان كانت الفكرة خيالية . . ان هذه الفكرة تتناقض تماما مع الفكرة الوطنية . ومن الواضح ان سعاوي حمل بعض الأفكار الغريبة في أيامه ، وهي أفكار مناقضة لمصالح دولته» . ونحن نقول : كيف تكون الفكرة خيالية اذا صحت الآراء التي جاءت بها هذه الوثائق؟ ان حقيقة محاولات مصر للانفصال التام تبرزها علاقات التوتر التي سادت بين دولة الخديوي والسيادة العثمانية . . ونقول ايضا : كيف تتناقض تلك الطموحات المشروعة مع الفكرة الوطنية؟ بمعنى آخر : من الذي كان يمثل النزوع الوطني أيامئذ؟ ومن هو الأكثر اتصالا ومشروعية بـ «الوطن

العربي» : دولة عربية جديدة ام دولة عثمانية قديمة؟ اننا نسأل : لو صحت أقوال علي سعاوي تاريخيا ، فان ذلك يعتبر قصب سبق ليس في تدعيم الحكم او التمثيل اللامركزي لمصر ، بل في الانفصال ، وبدء التشكيل القومي-العربي بعيدا عن العثمانيين؟ ولكن : من هو علي سعاوي؟ هل ينفض الأرشيف العثماني الغبار يوما عن شخصيته وأدواره؟ وعن أخبار تلك «الجمعية»؟ لا بد أنه كان رجلا خطيرا بدليل ان رسائله الثلاث ، كانت برفقة خطى شريف همايون وفرمان سلطاني وتلغراف (= الدفتر الأول) .

٤/٣ بروز القومية التركية

قدم د . م . س . هاني اوغلو (تركيا) ورقته عن «ظهور القومية التركية وتركيا الفتاة ١٨٩٥-١٩٠٨م» التي توضح من خلالها : كيفية انتشار الفكرة القومية لدى الجماعات العثمانية المحدثة . كان الأتراك في الامبراطورية قد تبنوا الايديولوجيا العثمانية التي اعتمدتها الدولة منذ عهد التنظيمات ١٨٣٩م ، وكانوا السباقين الأوائل اليها وتأطيرها لكل الجماعات القومية/العرقية في الامبراطورية بغض النظر عن الهوية المتماثلة ، ولكن الدوائر الامبريالية لم تمتلك.المعاني لكل المواضيع الاجتماعيةالتي كان يخضع لها المواطن العثماني -على حد تعبير الباحث- وكنتيجة في التطبيق ، فان الايديولوجية الرسمية للدولة لم تؤثر على نحو مهم وبارز لدى الجماعات غير التركية . . وعلى هذا الأساس ، انقاد الأتراك في الرؤية والمنهج لابراز هويتهم هم أنفسهم . ولكن البحث في الهوية ليس كافيا في حد ذاته لكي يوصف بـ « القومية» . ان الانتلجينسية التركية كانت في الحقيقة ، مهتمة بشكل رئيسي بمبدأ الاحتفاظ بالدولة ، وكانت مهتمة باقناع الآخرين بالقومية التركية . وقد حاول الباحث فحص أفكار تركيا الفتاة القومية ، وهي «أفكار» مهمة جدا باتجاهات عديدة : فقد استطاع أن يعرض للمؤتمرين نماذج من انطباعات سلبية حملتها تركيا الفتاة تجاه القوميات الأخرى في الدولة ، وخصوصا ضد العرب ، اذ ظهر ذلك من خلال الكتابات الصحفية المتنوعة بالتركية خلال السنوات الأخيرة من عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩م أي قبل انقلاب ١٩٠٨م . لقد حظيت هذه الورقة بمناقشات مستفيضة ، نظرا لما احتوته من معلومات جديدة ، ونصوص تاريخية .

٤/٤ اقتصاديات عهد تركيا الفتاة

تحدث د . ظفر توبراك (تركيا) عن «القومية والاقتصاديات في عهد تركيا الفتاة ١٩٠٨-١٩١٨م» ذاكرا بأن فكرة «العثمنة» (= القومية العثمانية) كانت الركيزة الأساسية لثورة ١٩٠٨م في الحرية والإخاء والمساواة (= العدل) والتي كانت تعتبر من أمهات القضايا الرئيسية التي أستعيرت من الثورة الفرنسية . وكانت ليبرالية القرن التاسع عشر الاقتصادية لم تزل على جدول أعمال حكومات تركيا الفتاة . وعليه ، فان ثورة ١٩٠٨ قد بشرت بالمناخ الحر ولكن في عصر ليبرالي متأخر !! وتحدث الباحث عن آثار حرب البلقان الاقتصادية عام ١٩١٣م في رسم السياسة الاقتصادية القومية ، وما كانت حكومة الاتحاديين قد أنجزته بخصوص التجارة المشتركة بين المسلمين وغير المسلمين ، ثم تشجيع المؤسسات الصناعية والمصرفية . كما وتحركت اقتصاديات الريف ، وفتحت بعد عدة شهور حوالي ٦٠٠ من الدكاكين في عدة أحياء من اسطنبول . ولكن الانعطاف الرئيسي جاء مع بداية الحرب العالمية الأولى : خطوات راديكالية قد بدأت في الأيام الأولى من الحرب . . رؤوس الأموال بدأت تختفي شيئا فشيئا . . مسألة دفع الديون قد تأجلت . .الخ وحلت العطالة بين صفوف المسلمين في المرافق المالية والاقتصادية التي روجت من خلال «لغة الاصلاح» ، وغدت «اللغة التركية» ضرورية في جميع المراسلات والمعاملات والحسابات الرسمية . لقد ركز هذا الباحث كثيرا على العوامل الخارجية ، دون التفصيل في دراسة العوامل الداخلية لهذا الموضوع ، كما وانه لم يتعرض الى طبيعة السياسة الاقتصادية التي اتبعها الاتحاديون تجاه الأطراف والأقاليم في الدولة ، وخصوصا الولايات العربية؟

٤/٥ سكة حديد الحجاز

أما د . حسن كيالي (تركيا) فقد كتب عن «تركيا الفتاة ومشروع بناء سكة حديد الحجاز» ، ذلك المشروع الذي واكب قيام الجمعية ، وسهل مهمتها في بسط سلطتها المركزية على أجزاء من شبه الجزيرة العربية . وقد اعتبر الفشل في مد الخط فيما وراء (المدينة) مسؤولا عن فشل جهودها في السيطرة على الحجاز . ورغم القيمة الاستراتيجية لذلك ، فان حكومة اسطنبول لم تعط المشروع الأولوية المطلقة ، اذ ركزت مركزيتها على المدينة المنورة ، واستندت على شريف مكة للحفاظ على مصالحها والترويج لأطماعها في الجزيرة العربية .

ويرجع اهتمام حكومة اسطنبول بتحسين المواصلات في الدولة الى أسباب اقتصادية أكثر منها استراتيجية . . فبالنسبة لأغراض الحج والتجارة ، كانت تفضل البحث عن خطوط بحرية في البحر الأحمر ، ومد خطوط سكك حديدية قصيرة من سواحله الى الدواخل . وعليه ، فان اهتمامها بربط المدينة بمكة ، كان أقل من ربط جدة بمكة الذي بدأت به اعتبارا من سنة ١٩١٠م كخطوة عملية رافقتها عملية تحسين الملاحة في ميناء جدة . ويبقى موقف شريف مكة إزاء خط سكة حديد جدة غامضا رغم شعوره بأنه يشكل أقل الأخطار على مركزه وسلطته المحلية ، وبدأ يميل الى تأييد المشروع مستمرا في سياسته المتمثلة باتباع أسلوب العرقلة والتأخير ، ولكن المعوقات الحقيقية جاءت من قبل العسكريين في اسطنبول الذين مارسوا ضغوطهم بعد سنة ١٩١٢م طالبين الاستمرار في مشروع خط سكة حديد الحجاز ، وجاءت الحرب الايطالية لتقوي مركزهم . ان الصعوبات الحقيقية انما جاءت من الظروف السياسية التي اكتشفت مد خط مكة-المدينة ، والحاجة الماسة الى الأموال . . وتلك عقبات لم يكن بالامكان تجاوزها ، وانفجرت الحرب الأولى التي انطلقت في خضمها شرارة الثورة العربية .

انني أختلف قليلا أو كثيرا مع ما ذهب اليه د . كيالي في بعض آرائه رغم تحليله الجيد للموضوع الذي ركز عليه من جانب واحد (= حكومة اسطنبول) دون أن يتفهم الأوضاع العربية عهدذاك سواء في الحجاز ام الشام ام العراق . تلك الأوضاع الصعبة التي عاشها العرب تحت حكم الاتحاديين سياسيا ، فكيف كان الحال اقتصاديا اذن؟ وانني أسأل الباحث عن ماهية أدلّته التاريخية/الوثائقية بقوله حول «استناد تركيا الفتاة على شريف مكة للحفاظ على مصالحها والترويج لأطماعها في الجزيرة العربية» ؟ ونقول ايضا : بأن الجانب العربي لم يكن مهيئا أو قابلا لكي يلعب ذلك الدور الخطير على حساب أمانيه ومستقبله . . وقد أعلن الثورة بعد اختمار الأسباب ، وكنتيجة واضحة لعطب السياسات التي اتبعتها حكومة اسطنبول إزاء حاضره ومصيره !

٦/٤ جذور القضية الفلسطينية

قدم د . طارق اسماعيل (كندا) ورقته عن «القضية الفلسطينية تحت الحكم العثماني» ، محللا بشمولية لهذا الموضوع الخطير ، وراسما أسس المشكلة وجذورها التاريخية . انها قبل كل شيء ، مشكلة الهجرة الأوروبية/ الكولينيالية المنظمة منذ

بدايتها عند مطلع هذا القرن . . وهي أمور أصابها الاغفال العام والمتعمد في التسجيلات التاريخية مع الأسف . لقد كانت الصهيونية المنظمة قد رعت وتكفلت بتلك الهجرة الأوروبية اليهودية الى فلسطين مبتدئة منذ تأسيس الحركة الصهيونية في عام ١٨٩٧م ، ونحن نعرف بأن فلسطين بقيت تحت الحكم العثماني حتى عام ١٩١٨م .

لقد تحرى الباحث : أساليب تلك «الهجرة» الممقوتة من قبل الصهيونية ، وقد اتخذت منذ البداية صورة مشكلة سياسية للامبراطورية العثمانية دون إدراك من قبل العثمانيين لكيفية التعامل الحقيقي معها . . قسم الباحث ورقته الى أربعة أقسام :

١ - تنامي القضية الفلسطينية كمشكلة سياسية معقدة إزاء رعاية الصهيونية وأساليبها للهجرة المنظمة للفترة حتى عام ١٩١٨م .

٢ - التحري عن طبيعة المشكلة الفلسطينية بفحص حجم الهجرة ومبلغ تأثيرها الواضح سياسيا وسكانيا واقتصاديا واجتماعيا . . ودور كولينيالية الاستعمار الأوروبي ، اضافة الى معرفة ردود الفعل العثمانية إزاء الوقائع الأوروبية في الأراضي العثمانية . اذ كانت هذه المشكلة تتفاقم يوما بعد آخر بالنسبة للسلطات العثمانية . . وقد توضح ذلك من خلال المؤتمر الانتخابية مثلا ، وقد فشلت تلك السلطات في أداء شعائر التمثيل الانتخابي في الأراضي المهددة .

٣ - فحص الأسباب والعلل التاريخية ، ومنها عوامل خارجية وأخرى داخلية . وتعتبر العوامل الخارجية هي أساسية ومتميزة في تفاقم حجم المشكلة وخطورته ، في حين تركزت العوامل الداخلية على جوانب من الفساد الذي عم أبناء الصفوة العثمانية الذين لم يشعروا بالخطر الصهيوني . . جنبا الى جنب انعدام فاعلية البيروقراطية العثمانية في الدولة . . لقد تفاعلت هذه العوامل لكي تؤثر على امتداد نطاق المشكلة واتساعها .

٤ - لقد اعتمد الباحث على عدد من المصادر الأساسية والقديمة ، ومنها تلك التي تضمنت البايوغرافيات الشخصية المرتبطة بالأحداث التاريخية . . والأكثر قيمة في المعلومات والمواقف والبيانات ، كانت الوثائق الأصلية والرسائل ، والتقارير المتعلقة بالهجرة اليهودية الى فلسطين ، اضافة الى مصادر بريطانية وعربية وعثمانية . وهناك

ايضا ، أرشيف دائرة وزارة الخارجية البريطانية . .الخ كلها مصادر موثوقة برهنت على قيمة المعلومات الواردة والاطلاع عليها لأول مرة .

٤/٧ القومية العربية

عن «القومية والحداثة أو ثنائية الاصلاح في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين» ، قدم د . نور الدين الصغير (تونس) ورقته مؤكدا على دور القوى الفكرية العربية في استجابتها للتحديات الخارجية لكي تنسج منظومتها الحضارية والتي جاءت محملة بكل هموم الانسان العربي وتطلعاته ، ويأسه وطموحاته ، وعجزه وقدراته . هذه المنظومة ، استطاعت ان تدخل الفكر العربي في الوحدة الكلية لتلاقح الحضارات بعد ان وقف خارجها طويلا . . أما القومية ، فقد ظهرت لتجسم عودة الوعي متخذة العروبة كأساس لانفصال الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية .

ويقدم د . كراي القسنطيني (تونس) تصوره المريب عن نجيب عازوري في ورقة عنوانها : « تصور مريب ليقظة الأمة العربية : نجيب عازوري والمغرب العربي» معتمدا في ذلك على ما عثر عليه من مراسلات لعازوري مع صديقه الفرنسي ايجين جانيك ، والتي «كشفت» للباحث خفايا جديدة ، منها : موقفه المعادي للحركات الوطنية في البلاد المغاربية . . ويذكر ايضا : «بأن عازوري كان قد عرض خدماته على وزارة الخارجية الفرنسية» ! ويطلق الباحث العديد من الأحكام والتساؤلات حول مشروعية الفكر القومي العربي عند نجيب عازوري . . وقد جوبه الباحث بجدال ساخن حول مواقف فكرية عربية لم تكن بالضرورة متعمدة لدى البعض من أبناء المشرق العربي وأدبائه ومفكريه ، كما هو الحال بالنسبة الى احمد شوقي ومحمد عبده مثلا ، اذ لم تكن قد ولدت بعد ، التنظيمات القومية العربية اولا ، ولم تتبلور حركات التحرر تجاه المستعمر الأوروبي ثانيا . . علما بأن الفكر القومي العربي وتنظيماته قد انبثقت عن حالة العداء تجاه الأتراك الذين كانوا قد بدأوا حالة العداء وحملوا عنصريا على بقية القوميات والملل في الدولة العثمانية خلال العقدين الأولين من القرن العشرين . دعوني أترك الكلام الآن للمؤرخ البرت حوراني وهو يحدثنا عن تفكير نجيب عازوري قائلا :« وكان من رأي عازوري وجوب استقلال الأمة العربية عن الأتراك ، اذ كان معاديا لهم في كتاباته وبشكل بارز وواضح ، أكثر من كتابات من سبقه . فالأتراك في نظره هم الذين سببوا خراب العرب ، ولولاهم

لكان العرب هم في عداد الأمم المتمدنة في العالم . . ويخصص عازوري قسما كبيراً من كتابه لتحليل مصالح الدول وسياساتها في الشرق الأدنى ، ويستنتج بأن روسيا تشكل الخطر الأكبر ، وان التوسع الألماني في آسيا الصغرى هو خطير أيضا . لذلك بقي الأمل معقودا في كل من انكلترا وفرنسا ، صاحبتي التقاليد الليبرالية ، وخصوصا فرنسا . لكن يلوح لعازوري خطر أخر لعلنا نسمع به هنا للمرة الأولى ، تحذيرا من مطامع الملة اليهودية في العودة الى فلسطين اذ يقول بـ «سعي اليهود الخفي لاعادة ملك اسرائيل القديم على نطاق واسع . .» ولكن عازوري لم يكن منسجما مع نفسه[١٢] ، وكانت تربيته تربية فرنسية أثرت كثيرا في مجرى حياته الغامضة في كل من القدس وباريس والقاهرة التي توفي فيها عام ١٩١٦ ، وكان قد نشر كتابه الشهير «**يقظة الأمة العربية**» باللغة الفرنسية بباريس عام ١٩٠٥م[١٣] .

احالات وملاحظات

(١) انعقد المؤتمر التأسيسي الدولي للدراسات العثمانية عام ١٩٨٢ وكان موضوعه : «الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني» ، وانعقد المؤتمر الدولي الأول عن «الحياة الاقتصادية ومصادر وثائقها في الولايات العربية» عام ١٩٨٤ ، وانعقد المؤتمر الدولي الثاني عن «الحياة الاجتماعية ومصادر وثائقها في العهد العثماني» عام ١٩٨٦ ، وانعقد المؤتمر الدولي الثالث عن «الحياة الفكرية للولايات العربية في العهد العثماني» عام ١٩٨٨ . وانعقدت جميعها في تونس ، وقام مركز (سيرمدي) بطبع ونشر جميع أعمالها ، بجمع وتقديم عميده د . عبد الجليل التميمي .

(٢) للتوسع في مفاهيم الجغرافية الانسانية عند العرب والمسلمين ، أنظر :

Andre Miquel, *La Geographie humain de monde musulman jusqu'au milieu du 11 Siecle,* Mouton and Paris, 1973.

(٣) للتفاصيل في بنود تنظيمات «قانوننامه لر» ، أنظر :

"The Ottoman Liva Kanunnames Contained in the Derter-i Hakani", *The Journal of Ottoman Studies, II, Istanbul,* 1981, pp. 43-74.

ومن المفيد جدا مراجعة الملاحق التي ضمنها المؤرخ التركي عمر لطفي برقان في هذه المقالة التوثيقية .

(٤) لقد بنيت العديد من الأفكار والطروحات التاريخية حول تركيب «الوطن العربي» خلال العهد العثماني على الأساسيات التي كتبها ورسمها دونالد بيتجر ، أنظر :

D.E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earliest times to the end of the Sixteenth Century,* Leiden and E.J. Brill, 1972.

(٥) لقد استفادت الباحثة د . دينا خوري كثيرا من تحليلات واستنتاجات أستاذها المؤرخ د . حنا بطاطو المختص بالشؤون التاريخية للعراق الحديث والمعاصر ، انظر الفصول الأولى من كتابه الموسع :

Hanna Batato, *The Old Social Classes and the Revolutinary Movements of Iraq,* Princeton Univ. press, Princeton, 1978.

(٦) حول هذا الموضوع الحيوي ، أحيل القراء والدارسين الى :

د . سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

(٧) لقد أكمل د . بكر بهذا البحث ، أفكاره وتعليقاته التي كان قد سجلها على ترجمته لكتاب : دانيال كريسيليوس ، جذور مصر الحديثة ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ (وهو من

الكتب القيمة في تاريخ مصر الحديث) .

(٨) يشير المؤرخ التركي خليل اناجيك بهذا الصدد الى «أن تاريخ الامبراطورية العثمانية ، يكشف عن وجود دائم لعناصر التأثير الثقافي المتبادل وتقاليد التسامح الديني بين المسلمين وغيرهم من أتباع الملل الأخرى» ، انظر كتابه الرصين :

Halil Inalcik, *The Ottoman Empire : The Classical Age 1300-1600,* London, 1973, pp. 180-3.

(٩) للمزيد من التفاصيل في المفاهيم النقدية حول المصطلحين ، والفروقات الضمنية والمصطلحية بينهما ، انظر مقالة «التحديث» (Modernization) في القاموس النقدي للسوسيولوجيات :

R. Boudon and F. Bourricaud, *Dictionnaire Gritique de la Sociologie,* ed. presses Universitaires de France, 1984, pp. 148-9.

ثم قارن المفاهيم مع التطبيقات الاصلاحية العثمانية التي أوضحتها تفاصيل :

Ed. Engelhardt, *La Turguie et le Tanzimat on histoire des Reformes dans L'Empire Ottoman,* 2 vols., paris, 1882-4.

وانظر : البرت حوراني ، «الاصلاح العثماني والمشرق العربي ،» ، الواقع ، السنة ١ ، العدد ٤ ، شباط/فبراير ١٩٨٢ .

(١٠) من الأهمية بمكان ، مراجعة أطروحة : د . وجيه كوثراني ، السلطة والمجتمع والعمل السياسي : من تاريخ الولايةالعثمانية في بلاد الشام ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ٨٨-٩٩ .

(١١) وهي أطروحة توثيقية وميدانية مهمة ، انظر :

Mohaned El Aziz ben achour, *Caregories de la Societe Tunisoise dans La Deuxieme Moitie du XIX'eme Siecle,* Tunis, 1989.

(باشراف وتقديم المستشرق الفرنسي دومينيك شيفاليه) .

(١٢) انظر نص البرت حوراني في كتابه المعروف :

Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939,* Cambridge Univ. Press, London, 1983, p. 121.

(١٣) لقد صدر كتاب لنجيب عازوري بالفرنسية ، واعتبر اول كتاب لمؤلف عربي يبشر بالقومية العربية ودورها في بناء الوحدة العربية ، انظر :

N. Azoury, *Le Reveil de la Nation Arabe*, Paris, 1905.

لقد طبع مرة واحدة ، وهناك نسخ قليلة جدا من الطبعة الاولى متوزعة في أماكن محدودة في العالم . وقد نشر الكتاب العربية تحت عنوان : «يقظة الأمة العربية» ، ترجمة وتقديم : احمد بوملحم ، بيروت ، ١٩٧٨ .



المصادر والمراجع

١) الوثائق والأوراق الخاصة.

٢) الكتب التاريخية (بالعربية والعثمانية).

٣) المراجع العربية والمعرّبة.

٤) البحوث والدراسات (بالعربية).

٥) المراجع التاريخية التركية الحديثة.

٦) المراجع الأجنبية (بالانكليزية والفرنسية والألمانية).

٧) البحوث والدراسات الأجنبية (بالانكليزية والفرنسية).

٨) الموسوعات والانسكلوبيديات.



الوثائق والتقارير والتقاويم

- وثائق الأرشيف العثماني - استانبول

(Basbakanlik Osmanli Arsivi)

1 . Yildiz Esas Evraki.

2 . Name-i Hamayun Defteri

3 . Hatti Humayun

- **Public Record Office**

F. O. No. 371, vol. 3389.

F. O. No. 686, vol. 14.

- The Collection of Treaties: Engagements and Sanads Relation to India and Neighbouring Cuntries, vol. 10, India, 1933.

- "The Ottoman Liva Kanunnames Contained in the Defter-i Hakani", in **The Journal of Ottoman Studies,** ll, Istanbul, 1981.

- مجموعة التنظيمات العثمانية (الدستور)، ترجمها عن التركية: نوفل نعمة الله نوفل، المجلدان ١/٢، (بيروت، ١٣٠١ هـ/ ١٨٨٤م).

- بيان حزب اللامركزية الإدارية العثماني، المنار، المجلد (١٦)، ج ٣، ١٢٩١ هـ/ ١٩١٣م.

- اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني، المؤتمر العربي الأول، جمع وتحرير: محب الدين الخطيب (القاهرة: ١٩١٣).

- المحفوظات الامبراطورة النمساوية العائدة للبنان والشرق الأوسط (١٧٩٣-١٩١٨)، اعداد ونشر: د. كرم رزق ومجموعة من الباحثين (بيروت، ١٩٩٧).

- سالنامة نظارت أمور خارجية، نمرة (١)، ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤م.

- سالنامة نظارت معارف، نمرة (٥)، ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٣م.

- موصل ولايت سالنامة سي، نمرة (٢)، ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢م.

- بصرة ولايت سالنامة سي، دفعة (٢)، ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩١م.

الكتب التاريخية (بالعربية والعثمانية)

- الإحسائي ، محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر الأنصاري
تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد ، ط ١ ، (الرياض ، ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م) .
- الألوسي ، السيد محمود شكري
تاريخ نجـد ، تحقيق وتعليق : محمد بهجة الأثري ، ط ٢ ،(القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٣٤٧ هـ) .
- الانسي ، محمد علي
الدراري اللامعات في معرفة اللغات (بيروت ، ١٣١٨ هـ) .
- ابن أبي الضيّاف ، أحمد
إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، جـ ١ ، (تونس ، ١٩٦٣) .
(وانظر النشرة الثانية بتحقيق : أحمد الطويلي (تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٩) .
- ابن إيّاس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي .
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، (القاهرة ، ١٩٦٠) .
- ابن خليل غلبون ، أبو عبد الله محمد
تاريخ طرابلس الغرب المسمى : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، حققه : الطاهر الزاوي ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .
- ابن الخوجة ، محمد
الوزراء الصدور بالمملكة التونسية ،
(الروزنامة التونسية) ،ج ١ ، تونس ، ١٩٠٢ .
- ابن جمعة ، محمد
الباشات والقضاة
حققها : صلاح الدين المنجّد في بحثه الموسوم :
ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ .
- ابن سحنون الراشدي ، أحمد بن محمد

الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي ، قسنطينة ، ١٩٧٣ .

– ابن سند البصري ، عثمان

سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ، بومباي ، ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م (طبعة قديمة على الحجر) .

مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود

اختصره : أمين الحلواني بعنوان : «مختصر مطالع السعود» طبع بومباي ، ١٢٠٤ هـ

مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود

تحقيق : عماد رؤوف ، (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩١) .

– ابن زريق ، حميد

الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٧٧) .

– ابن زنبل الرمال ،

تاريخ السلطان سليم خان . . . مع قانصوه الغوري سلطان مصر ،(فتح مصر) ، القاهرة ، ١٢٧٨ هـ

– ابن ظهيرة ، محمد جار الله بن أمين

«الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف» منشور في :

F. Wustenfeld (ed.), *Die Charoniken der Stadt Mekka*, vol. ii, Leipzig. n.d.

– ابن عثمان خوجة ، حمدان

المرآة ، تقديم وتعريب وتحقيق : محمد العربي الزبيري ، ط ٢ ، الجزائر ، ١٩٨٢ .

– ابن علي كمالي ، سليمان شفيق (سويله مز اوغلو) ،

جحاز سياحتنا مه سي ، مخطوط مؤرخ في ٢٦ ايلول ١٣٠٨ بدار الخلافة ، (نسخة مصورة منه في المكتبة الهاشمية بجامعة آل البيت / الاردن) .

– ابن غنّام ، حسين ،

تاريخ نجد المسمى (روضة الأفكار والإفهام لمرتاد حال الإمام وتعدّد غزوات ذوي الاسلام) ، تحقيق : ناصر الدين الأسد ، (بيروت : دار الشروق ، ١٩٩٤) .

- ابن ميمون الجزائري، محمد

التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم وتحقيق : محمد بن عبد الكريم (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر ، ١٩٧٢) .

- الأرياني ، علي بن عبد الله

سيرة الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المسماة ؛ بالدر المنثور في سيرة الإمام المنصور دراسة وتحقيق : محمد عيسى صالحية ، (جزءان) ، عمان : دار البشير ، ١٩٩٦ .

- الأزرقي ، عثمان بن الحارث

أخبار مكة ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، (ط مصورة في بيروت : دار الأندلس للطباعة والنشر عن طبعة غوتنغة ، ١٣٧٥ هـ)

- أميري ، علي

تذكرة شعراء آمد ، (استانبول : مطبعة آمدي ، ١٣٢٧ هـ)

- أمين ، محمد

«منازل حج شريف»

(مخطوط بالتركية تحترز عليه مكتبة السلطان عبد العزيز في متحف طوب قابي سراي باستانبول والمؤرخة في ١١٧٦ هـ) .

- الأنصاري ، أحمد النائب

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (جزءان) ، الأستانة ، ١٨٩٩م .

- أولياء جلبي ، محمد ظلي بن درويش

أولياء جلبي سياحتنامه سي ، (استانبول ، ١٣١٤ هـ)

- البدليسي ، شرف الدين خان

شبرفنامه ، ترجمة : محمد علي عوني (جزءان) (القاهرة ١٩٥٨ / ١٩٦٢م) .

- البديري الحلاق الدمشقي ، أحمد

حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ / ١٧٤١ - ١٧٦٢م ، نقّحه الشيخ محمد سعيد القاسمي ، تحقيق : أحمد عزت عبد الكريم ، (القاهرة ، ١٩٥٩) .

- البرهانبوري ، محمد بيك النقشبندي

ملحق خلاصة السير، تحقيق: أحمد أظهر (لابور، ١٩٤٠).
- البكري الصدّيقي، محمد بن أبي السرور
كشف الكربة في رفع الطلبة، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلد ٢٣ (القاهرة: منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٦).
- البوريني، البطريرك اسطيفان
«تاريخ الأزمنة»، نشره: فرناند توتل في مجلة المشرق، بيروت، ١٩٥٤، ونشره: مهند جونيه، لبنان، ١٩٧٦.
- البيطار، الشيخ عبد الرزاق،
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق: محمد بهجة البيطار، (ط دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٦٣).
- ثريا، محمد
سجلي عثماني أو تذكرة مشاهير العثمانيين، ج ١، استانبول، ١٣٠٨ هـ / ج ٣، استانبول ١٣١١ هـ.
- حبيش، بطرس بدر
تاريخ الأمير بشير الكبير، نشره وعلق على حواشيه: الخوري بولس قرألي، (قسمان)، لبنان، ١٩٣٢.
- الحربي، ابو اسحق ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم
المناسك وأماكن وطرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٨ هـ)
- الحموي، ياقوت
معجم البلدان، (ط مصورة عن دار صادر - بيروت، د. ت.)
- الحيدري البغدادي،
عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، بغداد، (نشره دار البصري، ١٩٦٢).
- الخالدي الصفدي، أحمد
لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، حققه: أسد رستم والمعلوف، بيروت، ١٩٦٩.

- الخزرجي ، علي بن الحسن

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، (جزءان) ، تحقيق : محمد بن علي الأكوع ، صنعاء ، ١٩٨٣ .

- خوجة ، حسين

ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، تحقيق : الطاهر المعموري (تونس : الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٥) .

- خوجة ، سعد الدين ،

تاج التواريخ (جزءان) ، (استانبول ، ١٨٦٢ / ١٨٦٣م) .

- الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن

عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤ أجزاء) ، (المطبعة الأميرية بمصر ، ١٣٢٤ هـ) ، (بولاق ، ١٨٧٩ - ١٨٨٠م) .

- الجزيري الحنبلي ، الشيخ عبد القادر

مخطوطة درر الفوائد المنظمة ،

(نسخة دار الكتب العربية / خزانة تيمور برقم ٨٢٦) ، (عن نسخة مصورة بحوزة المؤلف) .

- الجميل ، علي

التحفة السنية في المشايخ السنوسية ، (رسالة مرفوعة الى الأمة العربية) ، ط ١ ، (الموصل : مطبعة سرسم ، ١٩١٢) .

- جودت ، أحمد

تاريخ جودت باشا : ترتيب جديد

(استانبول : مطبعة عثمانية ده طبع المنشدر ، ١٣٠٢ هـ) .

- دحلان السيد احمد بن زيني

تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ .

خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، (ط ، مصر : دار الكتب العربية ، ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٦-١٨٨٧م)

وانظر الطبعة الجديدة منه بعنوان : تاريخ أشراف الحجاز ١٨٤٠-١٨٨٣ (خلاصة الكلام في

بيان أمراء البلد الحرام) ، تحقيق : محمد أمين توفيق ، ط ١ ، (لندن / بيروت : دار الساقي ، ١٩٩٣) .

- الراشدي ، الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الشقراني

القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط ، تحقيق وتقديم : ناصر الدين سعيدوني ، ط (بيروت : دار الغرب الاسلامي ، ١٩٩١) .

- رستم باشا

تواريخ آل عثمان

(مخطوط بالتركية تحترز عليه جامعة استانبول / تركيا تحت رقم A 2438) (وبحوزة المؤلف بعض أوراقه المصورة)

- سعاوي ، علي

سالنا مه خاصة ، ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م .

- السويدي ، عبد الرحمن

حديقة الزوراء في سيرة الوزراء : تاريخ بغداد ، تحقيق : صفاء خلوصي ، بغداد ، ١٩٦١ .

- سيوفي ، نقولا

مجموع الكتابات المحررة على أبنية مدينة الموصل ، حققه ونشره وأضاف عليه : سعيد الديوه چي ، بغداد ، ١٩٥٦ .

- الشريف الزهار ، الحاج أحمد

مذكرات ، تحقيق وتقديم : أحمد توفيق المدني ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

- الشهابي ، الأمير حيدر احمد

تاريخ الشهابي (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين : الغرر الحسان في أخبار الزمان)

طبعه : نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ . (وراجع طبعته الثانية في بيروت ، ١٩٣٠-١٩٣٣) .

تاريخ أحمد باشا الجزار ، نشره ووضع مقدمته وحواشيه وفهارسه : الأب أنطونيوس شبلي اللبناني والأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي ، مكتبة أنطوان ، لبنان ، ١٩٥٥ .

- الصالحي محمد بن كنان

يوميات شامية (١١١١-١١٥٣ هـ/ ١٦٩٩-١٧٤٠م) ، ط ١ ، تحقيق : أكرم العلبي ، (دمشق ، دار الطبّاع ، ١٩٩٤)

- صولاق زادة ، محمد چلبي

تاريخ صولاق زاده (استانبول ، ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩م)

- طا شكبري زادة ، احمد

الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥) .

- الطبّاع ، راغب

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، (٧ أجزاء) ، حلب ، ١٩٢٣-١٩٣٦ .

- الظاهري ، خليل بن شاهين

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (الحجاز : وصف ورحلات) ، طبعة باريس ، ١٨٩٣م .

- عاشق باشا زاده ،

عاشق باشا زاده تاريخي ، (استانبول ، ١٣٣٢ هـ) .

- عاصم عينتابلي ، أحمد

تاريخ عاصم (استانبول ، د . ت) .

- عبد الغني ، احمد شلبي

التاريخ العيني : أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات ، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

- عبد الحميد الثاني ، (السلطان)

مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨ ، ط ٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢) .

- عبد الله بن الحسين (الملك) ،

مذكراتي ، ط ١ (القدس : مطبعة القدس ، ١٩٤٥) .

الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ، (بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٩) .

- العبدلي ، احمد فضل بن علي محسن

هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ، بيروت ، ١٩٨٠ .

- العرشي ، حسين بن احمد ،

بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولّى ملك اليمن من ملك وإمام ، تحقيق : الأب انستاس ماري الكرملي ، (القاهرة ، ١٩٣٩) .

- العرضي ، أبو الوفا بن عمر

معادن الذهب في الأعيان المشرّفة بهم حلب ، دراسة وتحقيق : عيسى أبو سليم (عمان : منشورات مركز الوثائق والمخطوطات/ الجامعة الأردنية ، ١٩٩٢) .

- علي افندي ، عين

قوانين آل عثمان ، ترجمة وتعليق : خليل ساحلي أوغلو ، مجلة دراسات ، المجلد (١٤) الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٧ .

- العليمي الحنبلي ، مجير الدين

كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، (بيروت : دار الجليل ، د . ت) .

- العمري ، عصام الدين عثمان الدفتري

الروض النضر في ترجمة أدباء العصر ، (مجلّدان) ، تحقيق : سليم النعيمي ، بغداد ، المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٤ - ١٩٧٥ .

- العمري ، محمد امين الخطيب

منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء ، (جزءان) ، تحقيق : سعيد الديوه جي ، الموصل ، ١٩٦٧ .

- العمري ، ياسين الخطيب

الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون ، تحقيق ودراسة : سيّار الجميل (٣ مجلدات) ، (اسكتلندا : جامعة سانت اندروس ، ١٩٨٣)

(انظر : المراجع الأجنبية) .

- ــــــــــــــــ

منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق : سعيد الديوه جي ، الموصل ، ١٩٥٥ .

- ــــــــــــــــ

غاية المرام في تاريخ بغداد دار السلام ، نشرته : دار البصري ، بغداد ، ١٩٦٧ .

(زبدة) الآثار الجليّة في الحوادث الأرضية ، انتخب زبدته : د . داود الجلبي ، حققه : عماد عبد السلام رؤوف ، (النجف ، ١٩٧٤) .

– العينتابي الأمشاطي ، محمود بن أحمد

القول السديد في اختار الإماء والعبيد ، تحقيق : محمد عيسى صالحية ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٦) .

– الغزّي ، نجم الدين محمد بن محمد

الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، تحقيق : جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٧٩ .

لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ، تحقيق : محمود الشيخ ، دمشق ، ١٩٨١ .

– الغلامي ، محمد بن مصطفى

شمّامة العنبر والزهر المعنبر ، تحقيق : سليم النعيمي ، بغداد : المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٧ .

– الفاخري ، محمد بن عمر

الأخبار النجدية ، حققه وعلّق عليه : عبد الله بن يوسف الشبل ، (مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، د . ت) .

– فائق ، سليمان

تاريخ المماليك الكوله مند ، ترجمه عن التركية : محمد نجيب الارمنازي ، بغداد ، ١٩٦٦ .

تاريخ بغداد (مرآة الزوراء في تاريخ الوزراء) ترجمه عن التركية : موسى كاظم نورس ، بغداد ، ١٩٦٢ .

– فريدون بيك ،

منشآت السلاطين (استانبول ، ١٢٧٨ هـ / ١٨٧٠م)

– فندقلي محمد آغا

تاريخ سلحدار ، تحقيق : احمد رافق (استانبول ، ١٩٢٨) .

– القاياتي ، الشيخ عبد الجواد

نغمة البشام في رحلة الشام (نسخة مصورة) ، (بيروت : دار الرائد العربي ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م) .
- كاتب جلبي ،
فذلكة تاريخ ، استانبول ، ١٢٨٦-١٢٨٧ هـ / ١٨٥٧-١٨٥٨م .
- الكركوكلي ، رسول حاوي
دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء ، ترجمة : موسى كاظم نورس ، بيروت ، د . ت .
- الكعبي ، الشيخ فتح الله ،
زاد المسافر المقيم والحاضر ، (بغداد : مطبعة الفرات ، ١٩٢٤) .
- لنزا ، دومنيكو ،
الموصل في الجيل الثامن عشر ، ترجمة : روفائيل بيداويد ، (الموصل ، ١٩٥٣) .
- الماوردي ، ابو الحسن
الأحكام السلطانية ، (القاهرة ، ١٢٩٧ هـ / لندن ، ١٩٠١م) .
- المحبّي ، محمد امين بن فضل الله
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، (٤ مجلدات) ، (القاهرة ، ١٨٦٨م) .
- المدني ، امين بن حسن ،
خمسة وخمسون عاماً من تاريخ العراق ١١٨٨-١٢٤٢ هـ
وهو مختصر كتاب : مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود
لمؤلفه : عثمان بن سند البصري الوائلي ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ .
- المرادي ، محمد خليل ،
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، (٤ أجزاء) ، القاهرة ، ١٢٩١ هـ ، (أعيد نشره على الأوفست ببغداد ، ١٩٧٢) (وط مصورة في دار البشائر الاسلامية) (وط أخرى في دار ابن حزم ، ١٩٨٨) .
- مشاقة ، ميخائيل
تاريخ حوادث الشام (١١٩٧-١٢٥٧ هـ / ١٧٨٣-١٨٤١م) ، تحقيق : الأب يوسف معلوف ، (بيروت ، ١٩١٣) .

- المعلوف ، الأب لويس

تاريخ حوادث الأم ولبنان ١١٩٧-١٢٥٧ هـ / ١٧٨٢-١٨٤١م ، بيروت ، ١٩١٣ .

- المكّي ، عبد الله بن محمد بن عبد الشكور

تاريخ أشـــراف وأمـــراء مكة ، مخطوطة يحتـرز عليهـا مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى في مكة المكرمة ، برقم ١٢١ وتاريخ ١٣٧١ هـ / تراجم .

(وللمؤلف بعض أوراقها المصوّرة) .

- المنشىء البغدادي ، محمد بن احمد

رحلة المنشىء البغدادي ، ترجمها عن الفارسية : عباس العزاوي ، بغداد ، ١٩٤٨ .

- مؤلف مجهول ،

لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق : احمد مصطفى ابو حاكمة ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧) .

- النابلسي ، الشيخ عبد الغني ،

الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز ، تقديم واعداد : احمد عبد المجيد هريدي ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦) .

- نظمي زاده ، مرتضى ،

كلشن خلفا ، ترجمة : موسى كاظم نورس ، بغداد ، ١٩٧٢ .

- نعيما ، مصطفى ،

تاريخ نعيما ، (استانبول ، ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ - ١٨٦٤م) .

- النهروالي ، الشيخ قطب الدين

الاعلام باعلام بيت الله الحرام (أخبار مكة المشرّفة) ، تحقيق : فيرناند ويستنفلد ، المجلد ٣ ، (بيروت : خياط ، ١٩٦٤) .

- نوفل ، نعمة الله ،

كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام ، تحقيق : ميشال أبي نوفل وجان نخّول ، (بيروت : جروس برس ، ١٩٩٠) .

- واصف ، احمد

تاريخ واصف (محاسن الأثر) ، استانبول ، ١٢١٩ هـ .
- الورتلاني ، الشيخ حسين
نزهة النظار في فضل التاريخ والأخبار ، نشره : محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، ١٩١٠
(تمّ نشر ط مصورة منه في بيروت ، ١٩٨٨) .
- الوزير السراج ،
الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،
تحقيق : الحبيب الهيلة ، (بيروت : دار الغرب الاسلامي ، ١٩٨٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراجع العربية والمعرّبة

- أباظة ، فاروق

الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨ ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

- أبو حاكمة ، احمد مصطفى

محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، ط ١ (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العزبية ، ١٩٦٨) .

تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم الثاني ، الكويت ، ١٩٧٠ .

تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠-١٩٦٥ ، ط ١ ، الكويت ، ١٩٨٤ .

- أبو عليه ، عبد الفتاح ،

دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، الرياض ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .

- أداموف ، الكسندر ،

ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة : هاشم صالح التكريتي ، البصرة ، ١٩٨٢ .

- الأرناؤوط ، محمد م . (ترجمة وتقديم) ،

دراسات ووثائق حول الدفشرمة ، ط (اربد ، ١٩٩١) .

- أنطونيوس ، جورج ،

يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة : ناصر الدين الأسد ، وإحسان عباس ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠) .

- أنيس ، محمد

الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤ ، القاهرة ، د . ت .

- أوزن جارشلي ، اسماعيل حقي ،

أمراء مكة في العهد العثماني ، ترجمة : خليل علي مراد ، البصرة ، ١٩٨٥ .

- إيفانوف ، نيقولاي

الفتح العثماني للأقطار العربية ، ترجمة : يوسف عطا الله ، بيروت ، ١٩٨٨ .

- بركات ، حليم

المجتمع العربي المعاصر : بحث استطلاعي اجتماعي ، ط ٢ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥) .

- بكر ، عبد الوهاب ،

الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

- حتّي ، فيليب

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة : كمال اليازجي ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٥٩م .

- حتّي ، فيليب وآخرون ،

تاريخ العرب (المطوّل) ، ج ٢ ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦١ .

- حسن ، حسن ابراهيم

تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ١ ، ط ١٤ ، (بيروت : دار الجيل ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٦) .

- الحصري ، ساطع ،

البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ .

- حطب ، زهير ،

تطور بني الاسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة ، بيروت ، ١٩٧٦ .

- حمّاد ، خيري

أعمدة الاستعمار البريطاني في الوطن العربي : الحلقة الأول : عبد الله فيلبي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

- الحمود ، نوفان رجا

العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨١ . (في الأصل رسالة ماجستير) .

- حوراني ، البرت

الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ ، ط ٣ ، ترجمة : كريم عزقول ، (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧) .

- خان ، ميرزا حسن ،

تاريخ ولاية البصرة : دراسة في الأحوال الاجتماعية والسياسة والاقتصادية ، ترجمة : محمد وصفي أبو مغلي ، (البصرة : جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٠) .

- الخثريش ، فتوح وعبد العزيز المنصور ،

نشوء قطر وتطورها ، (الكويت : ذات السلاسل ، ١٩٧٧) .

- الخطيب ، مصطفى عقيل

التنافس الدولي في الخليج العربي ، ١٦٢٢-١٧٦٣ ، (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٨١) .

- خياط ، جعفر ،

صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة ، ج ١ ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧١ .

- الجابري ، محمد عابد

الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية ، ط ٢ ، (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٥) .

- جدعان ، فهمي

أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨١ .

- الجلبي ، داود ،

مخطوطات الموصل ، (بغداد ، ١٩٢٧) .

- جمعة ، بديع واحمد الخولي ،

تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ط ١ ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٧٦ .

- الجميل ، سيّار

العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من أجل بحث رؤيوي معاصر ، ط ١ ، (بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٩) .

حصار الموصل : الصراع الاقليمي واندحار نادر شاه ، ط ١ ، (الموصل ؛ بيت الموصل للنشر ، ١٩٩٠) .

تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦ ، ط ١ ، (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩١) ، ط ٢ ، (عمان : دار الشروق للطباعة والنشر ، ١٩٩٧) .

الدليل التاريخي لحصار الموصل ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣م ، ط ١ ، (بغداد : وزارة الثقافة ، ١٩٩٤) .

التحولات العربية : اشكاليات الوعي وتحليل التناقضات وخطاب المستقبل ، ط ١ (عمان / بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧) .

- الجواهري ، عماد

الأوضاع الإقطاعية في فلسطين في العصر الحديث : تقويم لآثارها الاجتماعية والسياسية ، بغداد ، ١٩٨٣ .

- الدجاني ، احمد صدقي

أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، طرابلس ، ١٩٦٨ .

- الدملوجي ، صديق ،

اليزيدية (الموصل : مطبعة الهدف ، ١٩٤٩)

إمارة بهدينان أو إمارة العمادية (الموصل ، ١٩٥٢) .

- الدوري ، عبد العزيز

التكوين التاريخي للأمة العربية : دراسة في الهوية والوعي ، ط ١ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤) .

- ــــــــــــــــ

النظم الاسلامية : الخلافة ، الوزارة ، النظم المالية ، النظم الادارية (طبعة جديدة . جامعة بغداد : بيت الحكمة ، ١٩٨٨) .

- الرافعي ، عبد الرحمن

عصر محمد علي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥١ .

- رافق ، عبد الكريم

بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦- ١٧٩٨ ، ط ٢ ، دمشق ، ١٩٦٨ .

العرب والعثمانيون ، ١٥١٦- ١٩١٦ ، (دمشق : مكتبة أطلس ، ١٩٧٤) .

- راقد ، محمد عبد المنعم ،

الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

- الرشيد ، عبد العزيز

تاريخ الكويت ، (بيروت : مكتبة دار الحياة ، ١٩٦٣) .

- رمضان ، محمد رفعت

علي بك الكبير ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

- رؤوف ، عماد عبد السلام ،

الموصل في العهد العثماني : فترة الحكم المحلي ، ١١٣٩-١٢٤٩ هـ / ١٧٢٦-١٨٣٤م ، النجف ، ١٩٧٥ .

- الريحاني ، أمين

تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود ، (بيروت : المطبعة العلمية ، ١٩٢٨) .

- زامباور

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، قدّمهُ الى العربية : زكي محمد حسن وجماعته ، بيروت ، ١٩٨٠ .

- زكي ، محمد امين

تاريخ الكرد والكردستان ، ترجمه عن الكردية : محمد علي عوني ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، (الأصل طبع بالكردية في بغداد سنة ١٩٣١) .

- زيادة ، خالد

اكتشاف التقدم الأوروبي : دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨١ .

كاتب السلطان : حرفة الفقهاء والمثقفين ، ط ١ ، (لندن : الريس للكتب والنشر ، ١٩٩١) .

- زين ، زين نور الدين

نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية ـ التركية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٢ .

- سركيس ، يعقوب نعوم

مباحث عراقية في التاريخ والآثار ، بغداد ، ١٩٤٨-١٩٥٣ .

- سعيد ، أمين

الثورة العربية الكبرى ، (٣ أجزاء) ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

- سعيدوني ، ناصر الدين والشيخ المهدي بوعبدلي

الجزائر في التاريخ : العهد العثماني ، الجزائر ، ١٩٨٤ .

- السيّار ، عائشة ،
دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقيا ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- شرف الدين ، احمد حسين
اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين ، ط ١ ، القـاهرة ، ١٩٦٣ .
- شرف الدين ، فهميّـه
الثقافة والايديولوجيا في العالم العربي (١٩٦٠ - ١٩٩٠) ، ط ١ (بيـروت : دار الآداب ، ١٩٩٣) .
- الشرقاوي ، محمود ،
مصر في القرن الثامن عشر : دراسة في تاريخ الجبرتي ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- الشيبي ، كامل مصطفى
الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر ، بغداد ، ١٩٦٧ .
- صالح ، زكي ،
موجز تاريخ العراق : منشأ النفوذ البريطاني في بلاد ما بين النهرين ، ط ١ ، بغـداد ، ١٩٤٩ .
- صايغ ، سليمان
تاريخ الموصل ، المجلد (١) ، القاهرة ، ١٩٢٧ .
- الضباغ ، ليلى
المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٧٣ .
- الصليبي ، كمال سليمان
تاريخ لبنان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- الصوفي ، احمد
المماليك في العراق ، الموصل ، ١٩٥٢ .
- طهبوب ، فائق حمدي ،
تاريخ البحرين السياسي ، ١٧٨٣-١٨٧٠ ، (الكويت : ذات السلاسل ، ١٩٨٣) .

- العابد ، صالح

موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ،

١٧٩٨-١٨١٠ ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٧٩ .

- عازوري ، نجيب ،

يقظة الأمة العربية ، ترجمة وتقديم : احمد بوملحم ، بيروت ، ١٩٧٨ .

- عبد الغني ، عارف

تاريخ امراء مكة المكرمة من ٨ هـ - ١٣٤٤ هـ ، ط ١ (دمشق : دار البشائر ، ١٩٩٢) .

- عبد الكريم ، احمد عزّت

دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٧٠ .

- عبد اللطيف ، ليلى

الادارة في مصر في العصر العثماني ، (القاهرة : جامعة عين شمس ، ١٩٧٨) .

- العروي عبد الله

مفهوم الدولة ، ط ٣ ، بيروت / الدار البيضاء ، ١٩٨٤ .

مفهوم الحرية ، ط ٣ ، بيروت / الدار البيضاء ، ١٩٨٤ .

- عز الدين ، يوسف

داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، ط ٢ ، بغداد ، ١٩٧٦ .

- العزاوي ، عباس

تاريخ العراق بين احتلالين ، الجلد (٤) ، بغداد ، ١٩٤٩ . الجلد (٦) ، بغداد ، ١٩٥٤ .

- علي ، علي شاكر

تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ - ١٧٥٠ : دراسة في أحواله السياسية ، ط ١ ، نينوى ، ١٩٨٤ (في الأصل رسالة ماجستير) .

- علي ، محمد كرد

كتاب خطط الشام ، ج ٤ ، (دمشق : مطبعة الترقّي ، ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦م) .

- عمر، عبد العزيز

المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٧١ .

- عيساوي، شارل

تأملات في التاريخ العربي، ط ١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١) .

- غرايبة، عبد الكريم

مقدمة تاريخ العرب الحديث، دمشق، ١٩٦٠ .

تاريخ العرب الحديث، ط ١، بيروت، ١٩٨٤ .

- غربال، محمد شفيق

مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١ (المقالة الأولى)، ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسنين أفندي ـ أحد أفندية الروزنامة ـ، القاهرة، د. ت .

- غنيمة، يوسف رزق الله

نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، بغداد، ١٩٢٢ .

- غوانمة، هنادي يوسف

المملكة الهاشمية الحجازية، ط ١، عمّان / الأردن، ١٩٨٩ .

- فارج، فيليب ويوسف كرباج

المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي العربي والتركي، ترجمة: بشير السباعي، ط ١ (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٤) .

- قاسم، جمال زكريا

الخليج العربي: دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوروبي ١٥٠٧-١٨٤٠، القاهرة، ١٩٨٥ .

- قدري، احمد

مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق، ١٩٥٤ .

- قرقوط، ذوقان

تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥-١٩٣٦، بيروت، ١٩٧٢ .

- كريسيليوس، دانيال

جذور مصر الحديثة، ترجمة وتعليق: عبد الوهاب بكر، (جامعة القاهرة، ١٩٨٥) .

- كوثراني ، وجيه

وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ : كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به : الدولة العثمانية وظروف نشأة الحركة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ .

السلطة والمجتمع والعمل السياسي : من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام . ط ١ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٨) .

الفقيه والسلطان : دراسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية ـ القاجارية ، ط ١ (بيروت : دار الراشد ، ١٩٨٩) .

- كيلي ، جي بي

الحدود الشرقية للجزيرة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .

- لوتسكي ، فلاديمير

تاريخ الأقطار العربية الحديثة ، ترجمة : عفيفة البستاني ، (موسكو : دار التقدم ، ١٩٧١) .

- لونكريك ، ستيفن هيمسلي

اربعة قرون من تاريخ العراق الحديثة . ترجمة : جعفر خياط ، تعليقات : مصطفى جواد ، ط ٣ ، بغداد ، ١٩٦٢ .

- ليفين ، ز . أ .

الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث : (لبنان وسوريا ومصر) ، ترجمه عن الروسية : بشير السباعي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٨ .

- متولي ، محمد فؤاد ،

الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

- المدني ، احمد توفيق

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢ ، الجزائر ، ١٩٧٦ .

- مصطفى ، احمد عبد الرحيم

في أصول التاريخ العثماني ، ط ١ ، (بيروت / القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢) .

- ميكاكي ، رودلفو

طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ، ترجمه : طه فوزي (تحت إشراف : محمد

شفيق غربال) ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- موسى ، سليمان

الثورة العربية الكبرى : الحرب في الحجاز ١٩١٦-١٩١٨ ، عمّان / الأردن ، ١٩٨٩ .

- نصري ، بطرس

ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، (الموصل ، ١٩١٣) .

- نظمي ، وميض

الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق ، ط ١ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤) .

- النقيب ، خلدون

المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية (من منظور مختلف) ، ط ٢ ، (بيروت : مركز درسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩) .

الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر : دراسة بنائية مقارنة ، ط ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١) .

- نوار ، عبد العزيز

داود باشا والي بغداد ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

تاريخ العرب المعاصر : مصر والعراق ، بيروت ، ١٩٧٣ .

- نورس ، علاء

حكم المماليك في العراق ١٧٥٠-١٨٣١ ، بغداد ، ١٩٧٥ .

- وحيدة ، صبحي

في أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

- وهيم ، طالب محمد

مملكة الحجاز ١٩١٦-١٩٢٥ : دراسة في الأوضاع السياسية ، البصرة ، ١٩٨٢ ، (في الأصل رسالة ماجستير) .

البحوث والدراسات (بالعربية)

– ابراهيم ، سعد الدين

«مصادر الشرعية في أنظمة الحكم العربية»

الفصل الثامن من ملف أعمال ندوة : أزمة الديمقراطية في الوطن العربي ، تحرير : مجموعة من المفكرين العرب ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤) .

– أبو حسين ، علي

«دراسة في تاريخ العتوب» ، الوثيقة ، العدد (١) ، مركز الوثائق التاريخية ، البحرين ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

– أبو علية ، عبد الفتاح

«العثمانيون وبنو خالد في الإحساء» ، المجلة التاريخية المغربية ، العددان ٢٩/٣٠ ، السنة (١٠) ، يوليو ١٩٨٣ .

– ______

«جوانب من الحياة الاجتماعية في سنجق الحسا في ظل الحكم العثماني الثاني» ، ملف أعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية ، تحرير وتقديم : عبد الجليل التميمي ، : الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، تونس ، ١٩٨٨ .

– الإمام ، رشاد

«سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا» ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٦) ، تونس ، يوليو ، ١٩٧٦ .

– التازي ، عبد الهادي

«السياسة الخارجية للمملكة المغربية إزاء العثمانيين» ، في كتاب عبد الجليل التميمي (محرر) : تحية وفاء وتقدير للأستاذ روبرت منتران ، زغوان / تونس ، ١٩٨٨ .

– التميمي ، عبد الجليل

«العلاقات العربية ـ العثمانية بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م» ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العددان ١/٢ (تونس : CEROMDI ، جانفي ١٩٩٠) :

- الحمداني ، طارق

«علاقة العثمانيين وآل أفراسياب بالإحساء خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر» ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٣٢) ، المجلد (٨) ، خريف ١٩٨٨ .

- حوراني ، البرت

«الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث» ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد (١٥) ، السنة (٢) ، بيروت ، كانون الثاني / يناير ، ١٩٨٠ .

«الاصلاح العثماني والمشرق العربي» الواقع ، السنة(١) ، العدد (٤) ، شباط / فبراير ١٩٨٢ .

- خوري ، فيليب شكري

«طبيعة السلطة السياسية وتوزّعها في دمشق ١٨٦٠-١٩٠٨» ، أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦-١٩٣٩ ، ج ١ ، (جامعة دمشق ، كلية الآداب ، د . ت)

- الجميل ، سيّار

«دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل واقليم الجزيرة سنة ١٥١٦ وبدايات الصراع العثماني - الإيراني في عهد السلطان سليم الأول» ، حولية بين النهرين ، العددان ٣٠/٣١ ، الموصل ، ١٩٨٠ .

- ________

«استراتيجية العراق وأثرها في نشوء الصراع العثماني - الايراني» ، آفاق عربية ، العدد (١٠) ، السنة (٦) ، يونيو / حزيران ، ١٩٨١ .

- ________

«الحصار العثماني الثاني لفينا ، عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣» ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد (١٦) ، المجلد (٤) ، جامعة الكويت ، خريف ١٩٨٤ .

- ________

«تحليل كتاب نشر المثاني لمحمد القادري ، تحقيق : نورمان سيكار» ، المجلة التاريخية المغربية ، العددان ٣٤-٣٥ ، تونس ، ديسمبر ١٩٨٤ .

- ________

«الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهــد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤م» ، أعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية سنة ١٩٨٦ في : الحياة الاجتماعية في الولايات

العربية أثناء العهد العثماني (٣ أجزاء) ، الجزءان ١/٢ ، جمع وتقديم : عبد الجليل التميمي ، تونس ، ١٩٨٨ .

- ________________

«دولة السلطنة العثمانية وإشكالية الخلافة . .» ، مجلة دراسات عربية ، العدد (٩) ، السنة (٢٤) ، تموز / يوليو ١٩٨٨ .

- ________________

«الادارة العثمانية اللامركزية ونظامها في الولايات العربية : دراسة مقارنة للأنماط الاقليمية في تاريخ الوطن العربي الحديث خلال القرن ١٨» ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العددان ٥/٦ ، (تونس : CEROMDI ، فيفري ، ١٩٩٢) .

- ________________

«الموصل من العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤ ، موسوعة الموصل الحضارية ، المجلد (٤) ، (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩٢) .

«الموصل في نهاية الحكم الجليلي الى عهد الادارة المباشرة» ، موسوعة الموصل الحضارية ، المجلد (٤) ، (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩٢) .

«الخيارات الفكرية والسياسية لدى العرب والاتراك» مجلة المستقبل العربي ، العدد (١٨٥) ، السنة (١٧) ، تموز / يوليو ١٩٩٤ .

«الخلافات الحدودية والاقليمية بين العرب والايرانيين» [الورقة العربية الثانية] ، في عبد العزيز الدوري وآخرون ، العلاقات العربية الايرانية : الاتجاهات الراهنة وآفاق المستقبل (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية وجامعة قطر بالدوحة) ، ط ١ ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٦) .

- السيد ، رضوان

«الكاتب والسلطان : دراسة في نشوء كاتب الديوان في الدولة الاسلامية» ، الاجتهاد ، العدد (٤) ، بيروت ، ١٩٨٩ .

- شليشر ، ليندا

«بعض مظاهر احوال الأعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر» ، أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٥١٦-١٩٣٩ ، ج ١ ، (جامعة دمشق ، كلية الآداب ، د . ت) .

- صالحية ، محمد عيسى

«وثائق جديدة عن حملة سنان باشا الى اليمن سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٦٨- ١٥٦٩م» حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثامنة ، الرسالة (٤٢) ، ١٩٨٦/١٩٨٧ .

- الصباح ، ميمونة

«نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر» ، مجلة دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية ، العدد (٤٦) ، السنة (١٢) ، ابريل ١٩٨٦ .

- العروي ، عبد الله

حوار معه أجرته مجلة Lamalif ، العدد (٦٤) ، يوليوز ١٩٧٤ ، وقد ترجم الى العربية ونشرته مجلة بيت الحكمة المغربية ، العدد (١) ، السنة (١) ، ابريل ١٩٨٦ .

- العيدروس ، محمد حسن

«الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين في قائمقامية قطر العثمانية ١٨٧١-١٨٨٢» ، ملف أعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية ، تحرير وتقديم : عبد الجليل التميمي : الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، تونس ، ١٩٨٨ .

- مراد ، خليل علي

«الموصل بين السيطرة العثمانية وقيام الحكم الجليلي ١٥١٦-١٧٢٦» ، موسوعة الموصل الحضارية ، المجلد (٤) ، (جامعة الموصل : مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٩٢) .

- النقيب ، خلدون

«بناء المجتمع العربي : بعض الفروض البحثية» ، المستقبل العربي . العدد (٧٩) ، السنة (٨) ، أيلول / سبتمبر ١٩٨٥ .

- نوار ، عبد العزيز

«مصر والخليج العربي في القرن التاسع عشر» ، مجلة الهلال المصرية ، العدد (١١) ، السنة (٧٢) ، نوفمبر ، ١٩٦٤ .

المراجع التاريخية-التركية الحديثة

- Altindag,
  "Selim I", islam Ansiklopedisi, No. X
- Barkan, Omar Lutfi,
  XV ve XVI-inci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda Zirai ekonominin hukuki ve mali esaslari I.
  Kanunlar, Istanbul, 1043.
- ——————
  "Timar" in islam Ansiklopedisi, vol. XII
- Bayrakdar, Mehmet,
  Bitilisi Idris, Ankara, 1991.
- Baysun, Cavid,
  "Ebussuud Efendi", islam Ansiklopedisi, No. IV.
- Gokbilgin, M. Tayyip
  "Suleyman I", islam Ansiklopedisi, No. XI
- ——————
  "Orhan", islam Ansiklopedisi, no. 9 (1962).
- Hinz, Walther,
  Uzun Hasan ve Seyh Cunyd. Ceviran Tevfik Biykli Oglu, Ankara, 1948.
- Inan, Afet,
  Turk Amir Ali piri Reis in Hayat ve Eserleri, Istanbul, 1954.
- Mustafa, Celal-Zade,
  Selim-nameh; Hazirayanlar, Ankara, 1990.
- Ozkaya, Y.,
  Osmanli Imparatorlugu nda Ayanlik, Ankara, 1977.
- Ozuncarsili, Ismail Hakki,
  Osmanli Devletinin Merkez ve Bahriye Tesklati, Ankara, 1948.
- Silahdar, Fendakli,
  Silahdar Tarihi, ed. by Ahmet Rafik, Istanbul, 1982.

- Thkindog, S.,
  "Cazzar Ahmed Pasa" in islam Ansiklopedisi, vol. 3.
- Uzuncarsili, Ismail Hakki,
  Osmanli Tarihi, vol. I, Ankara, 1954.
  "Murad I", islam Ansiklopedisi, no. vii.
  Mekke-i MukerremeEmirleri, (Ankara: Turk Tarih Kurumn Baski, 1972).

المراجع الأجنبية: (الإنكليزية والفرنسية والألمانية)

- Akarli, Engin D.,
  "Provincial Magnates in Ottoman Bilad Al-Sham and Egypt, 1740-1840" in A. Temimi *(ed.), Les vie sociale dans les provinces arabes a lepaque ottoman, tome 3* (Zaghouan / Tunis, 1988).
- Allen, W.E.D.
  Problems of Turkish Power in the Sixteenth Century, London, 1963.
- Amin, Samir,
  La nation arabe, Paris, 1977.
- Al-Amr, Saleh M.,
  The Hijaz under Ottoman Rule 1869-1914: Ottoman Vali, the Sharif of Mecca and the Growth of British influence, (Riyad Univ. Publications, 1978).
- Anderson, Perry,
  Lineages of the Absolulist State, London, 1977.
- Ashtor, E.,
  A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, (Berkeley, Calif.: Univ. of California Press; London: Collins, 1976).
- Atiya, Aziz S.,
  A History of Eastern Christianity, (Methuen Co, London, 1968).
- Ayalon, David,
  Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom: A Challenge to the Mediaeval Society, London, 1965.
- Azoury, N.
  Le Reveil de la Nation Arabe, Paris, 1905.
- Babinger, Franz
  Mehmed II, der Emoberer und Seine Zeit, Wiltensturmer elner Zeitenwende, Munich, 1953.
- Bachrouch, Taoufik
  Les elites tunisiennes du pouvoir et de la devotion. Contribution al. étude des groupes sociaux dominants (1782-1881), (these de doctorate es-lettres, Paris IV, 1981).
  Formation sociale barbaresque et pouvoir a 'Tunis au XVIIe Siecle, Tunis, 1977.
- Al-Bakhit; Muhammad Adnan,
  "The Christain Population of the Province of Damascus in the Sixteenth Century", in Benjamin Braude et Bernard Lewis, *Christain and Jews in the Ottoman Empire*, vol. II, (New Youk, Holmes and Meier, 1982).

- Barber, Karl,
Ottoman Rule in Damascus 1708-1758, (Ph. D. Thesis), (Princeton: Princeton Univ. Press, 1980).
- Batatu, Hanna,
The Old Social Classes and Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers, (Princeton, N.J.: Princeton Univ. Press, 1978).
- Bates, Danial and Amal Rassam,
People and Cultures of the Middle East (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1983).
- Beldiceanu, Nicoara,
Code de lois Coutumieres de Mehmed II. Kitab-i Qavanin-i Urfiyye-i Osmani, Paris, 1967.
- Bin Achour, Mohamed El-Aziz,
Categories de la Societe Tunisoise dans la Deuxieme Moitie du XIX eme Siecle, (Tunis: Institut National D'Archeologie et D'Art, 1989).
- Blake, G.H. and R.I. Lawless (eds.),
The Changing Middle Eastern City
(London: Croom Helm; New York: Barnes and Noble Books, 1980).
- Bosworth, C.E.
The Islamic Dynasties,
(Edinburgh: Edinbrugh Univ. Press, 1980).
- Boudon, R. et F. Bourricaud,
Dictionnaire Gritique de la Sociologie, (ed. presses Universitaires de France, 1984).
- Braudel, Fernand,
The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, 2 vols., (London & New York, 1972-3).
- Brown, Carl L.,
The Tunisia of Ahmad Bey, (Princeton, 1974).
- ________________
International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game, (London: I.B. Tauris; Princeton, N.J.: Princeton Univ. Press, 1984).
- Bury, G.W.
Arabia Infelix or the Turks in Yemen, London, 1915.
- Busch, B.C.
Britain and the Persian Gulf 1894-1914, (Berkeley, 1967).
- Cahen, Claude,
"The Turkish Invasion: The Selchukides" in K.M. Setton (ed.), *History of the*

Crusades, vol. 1, *The First Hundred Years*, Philadelphia, 1955; 2nd ed., 1967.

———

Pre-Ottoman Turkey; A General Survey of the Meterial and spiritual Culture and History, C. 1071-1331, Tran, from French by Jones Williams (London: Sidgwich and Jackson, 1968).
- Charles-Roux, Fr.
  Les Echelles de Syria et Palastine au XVIIIIE Siecle, Paris, 1928.
- De Grammont, H.,
  Histoire d'Alger sous la domination Turque, Paris, 1987.
- Dessort, Ch. Roger,
  Histoire de la ville de Tunis, Tunis, 1926.
- Cherif, M.H.
  Pauvoir et societe dans la Tunisie de Husayn Bin Ali, 1705-1740, 2 tomes, Tunis, 1984.
- Chevallier, Dominique
  La Societe du Mont-Liban a lepoque de la revolution industrielle en Europe, Paris, 1971.
- Clark, Edson L.,
  Turkey, (New York, 1808).
- Colt, A.
  Soliman le Magnifique, Paris, 1983.
- Cooke, M.A. (ed.)
  Studies in Economic History of the Middle East; From the Rise of Islam to the Present Day, (London: Oxford Univ. Press, 1970).
- Creasy, E.S.
  History of the Ottoman Turks, London, 1878.
- Davidson, Roderic Hollet,
  Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876, (Princeton, N.J.: Princeton Univ. Press, 1964).
- Dawn, C. Ernest,
  The Amir of Mecca Al-Husayn ibn Ali and the Origin of the Arab Revolt, (American Philosophical Society, CIV, 1060).
- De Gaury, Gerald,
  Rulers of Mecca, London, 1951.
- de la Jonpuiere, Vte. A.,
  Histoire de l'Empire Ottoman, Paris, 1881.
- Derrida, Jacques
  De L'espirt; Hiedgger et sa quetion, Ed. Galilee, Paris, 1987.
- Dickson, H.R.B.

Kuwait and her neighbours, London, 1926.
- Didier, Ch.,
Sejollir chez la hrand cherif de la Mecque, Paris, 1856.
- Drysdale, A. and G. Blake,
The Middle East and North Africa, Oxford, 1985.
- El-Edroos, B. Syed Ali
The Hashemite Arab Army, 1908-1979: An Appreciation and Analysis of Military of operations, Amman, 1980.
- Engelhardt, Ed.,
La Turguie et le Tanzimat on histoire des Reformes dans L'Empire Ottoman, 2 vols., Paris, 1882-4.
- Faroqhi, Suraiya,
Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia (Cambirdge: Cambridge Univ. Press, 1984).
- Fawaz, Leila Tarazi,
Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut (Cambridge: Harvard Univ. Press, 1983).
- Fisher, Sidney N.,
The Foreign Relations of Turkey, 1481-1512, Urbane, III, 1948.
- Fisher, Sydney Nettleton,
Social Forces in the Middle East., (Ithaca, N. Y.: Cornell Univ. Press, 1955).
- Foucault, Michel,
L'Archeologie du Savoir, (Paris: Callimard, 1969).
- Gaid, Mouloud,
L'Algeria sous les Turcs, Alger, 1974.
- Gibb, Sir H.A.R. and Harold Bowen,
The Islamic Society and the West, part 1, Oxford, 1950.
- Gibbons, H.A.,
The Foundation of the Ottoman Empire, New York, 1916.
- Hasluck, F.W.,
Christianity and Islam under the Sultans (2 vols.), Oxford, 1929.
- Held, David (et. al.),
States and Societies
(Oxford: Blackwell, 1985).
- Hershlag, Zvi Yehuda,
Introduction to the Modern Economic History of the Middle East, (Leiden & Brill, 1964).
- Hitti, Phlip K.,
History of hte Arabs, (10th ed.), London, 1980.

- Hodgson, Marshall G. S., *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, 3 vols., (Chicago: Chicago University Press 1974).
- Hoffman, Valerie J., *Sufism, Mystics and Saints in Modern Egypt* (Columbia, Sc. University of South Carolina Press, 1995).
- Hogarth, D.G.
  Hejaz Before World War 1: A Hand book (Cambridge, 1978).
- Holt, P.M.,
  Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922, (Cornell Univ., 1966).
- Hourani, Albert,
  Minorities in the Arab World, Oxford, 1947.
- ________________
  Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939, (London: Cambridge Univ. Press, 1983).
- ________________
  "Ottoman Reform and the politics of Notables" in W.R. Polk and R.L. Chambers (eds.), *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Ninteenth Century,* (Chicago: Chicago Univ. Press, 1968).
- ________________
  The Ottoman Background of the Modern Middle East, Univ. of Essex, 1969.
- ________________
  "Ottoman Reform and the Politics of Notables" reproduced in his book: *The Emergence of the Modern Middle East,* (Oxford, 1981).
- Inalcik, Halil,
  "The Ottoman Economic Mind and Aspects of the Ottoman Economy" in M.A. Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East,* (London: Oxford Univ., Press, 1070).
- ________________
  The Ottoman Empire: The Classical Age 1300-1660 (London and New York, 1973).
- ________________
  "The Socio-Political Effects of the diffusion of fire-arms in hte Middle East", in J.V. Parry and M.E. Yapp, (eds.), *War Technology and Society in the Middle East,* (London, 1975).
- ________________
  "Centralization and Decentralization in Ottoman Administration", in T. Naff and R. Owen (eds.), *Studies in 18th Century Islamic History,* (Carbondale, 1977).

- ——————————
The Ottoman Empire: Comquest, Organization and Economy (Collected Studies), London, 1978.
- Issawi, Charles Philip,
An Economic History of the Middle East and North Africa. (London: Methuen; New York: Columbia Univ. Press, 1982).
- ——————————
(ed.), *The Economic History of the Middle East, 1800-1914.* (Chicago, Ill.: Univ. of Chicago Press, 1966).
- Ives, Edward,
A Voyage from England to India in the Years 1755 to 1759, London, 1773.
- Al-Jamil, Sayyar K.
A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A.H.= 1514/1515 A.D. - 1811/1812 A.D.), ph.D. Thesis, 3 vols., vol. I *(Introduction and Notes)*: vol.2: (*Text*): vol.3: (*Appartus Criticus)*, (Scotland: St. Andrews University, 1983).
- Julien, Charles - Andre,
Histoire de l'Afrique du Nord; Tunisie, Algerie, Maroc, de la conquete arabe a 1830, Paris, 1964.
- Karpat. Kemal,
"The Stages of Ottoman History: A Structural Comparative Approach", in Kemal Karpat (ed.), *The Ottoman State and its place in World History,* Leiden & Brill, 1974.
- ——————————
Ottoman Population, 1830-1914: Demographic and Social Characteristics, (Madison: The Univ. of Wisconsin Press, 1985).
- Keane, Augustus H.,
Asia with Ethnological Appendix,
ed. by Sir Richard Temple, London, 1882.
- Kemp, Percy
Mosul and Mosuli Hostorians of the Jalili era 1726-1834 (D. phil. Thesis). Oxford Univ., 1980.
- Khoury, Philip S., *Urban notables and Arab nationalisme: The politics of Damascus 1860 - 1920,* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1983).
- Kinross, Lord,
The Ottoman Centuries, London, 1977.

- Kissling, H.J.
"The Role of the Dervish orders in the Ottoman Empire", in G.E. von Grunebaum, *Studies in Islamic Cultural History*, American Amthropologist memoire, no. 76 (1954).
- Kortepeter, Carl-Max,
Ottoman Imperialism During the Reformation: Europe and the Coucasus, New York & London, 1972.
- Kunt, I.M.
The Koprulu Years 1656-1661, (ph.D. Thesis), Princeton Univ., 1972.
- ————————
The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550-1650, New York, 1983.
- Kurat, A.N.,
"The Reign of Mehmed IV, 1648-87", in M.A. Cook, *A History of the Ottoman Empire to 1730.*
- Kurat, A.N. and J.S. Bromley,
"The Retreat of the Turks, 1683-1730", in M.A. Cook (ed.), *A History of the Ottoman Empire to 1730.*
- Lapidus, Ira Marvin (ed.),
Middle Eastern Cities; A Symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism (Berkeley; Calif; Univ. of California Press, 1966).
- Lapidus, Ira Marvin,
Muslim Cities in the later Middle Ages, Harvard Middle Eastern Studies, II (Cambridge, Mass.: Harvrd Univ. Press, 1967).
- Lewis, Bernard
Istanbul et la civilisation ottoman, (Paris, Lattes, 1991).
- Lewis, Bernard and Heath W. Lowry (eds.), The Middle East Economy: Decline and Recovery: Selected Essays by Charles Issawi, (Princeton: Marcus Wiener Publishers, 1995).
- Longrigg, S.H.
Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925.
- Lorimer, J.G.
Gazetter of the Persian Gulf, I (Historical Part), IB, Holand, 1970.
- Lybyer, A.H.,
The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, Cambridge, 1913.
- McCarthy, Justin,
Muslims and Minorities: The Population of Ottoman Anatolia at the End of the Empire (New York: New York Univ., Press, 1983).

- Mc Gowan, Bruce,
Economic Life in Ottoman Europe 1600-1800, (Cambridge New York: Cambridge Univ. Press, 1981).
- Mantran, Robert,
Histoire de la Turquie, press Univ. de France, 1975.
- ——————
(ed.) *Histoire de L'Empire Ottoman,* (Paris: Fayard, 1989).
(ترجم مؤخراً من قبل بشير السباعي الى العربية بعنوان : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ط ١ ، (القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ،١٩٩٣)
- ——————
L'Empire Ottoman et tale Commerce a Siatiqul, Paris, 1961.
- Mantran, Robert et J. Sauvaget,
Reglements fiscaux ottomans, Beirut, 1951.
- Midhat Beg, Ali Haydar,
The Life of Midhat Pasha, London, 1903.
- Miquel, Andre
La Geographie humaine de Monde Musulman Jusqu au milieu du II siecle, (Paris & Mouton, 1973).
- Morris, James
The Hashemite Kings, London, 1959.
- Mzali, Mohamed Salih,
L'Herdite dans la dynastie Husseinite (evolution et nelation), maison tunisienne de L'Edition, 1969.
- Niebuhr, C.,
Reisebeschreibung nach Arabian and andern Umliegende, Landern, 1908.
- Olson, Robert W.,
The Siege of Mosul and Ottoman Persian Relations 1718-1743, (Indiana: Indiana Univ. Press, 1975).
- Pallis, Alexander,
In the Days of the Janissaries, Introduction by Philip Graves, London, 1951.
- Parry, V.J. and Others,
A History of the Ottoman Empire to 1730, ed. by M.A. Cook, London, 1970.
- Parry, V.J.,
"The period of Murad IV, 1617-48", in M.A. Cook, *A History of the Ottoman Empire to 1730.*
- Pitcher, Donald E.,
An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earliest times to the end of the sixteenth century; Leiden & Brill, 1972.

- Polk, William R. and Richard L. Chambers (eds.),
Beginnings of Modernization in the Middle East: The Ninteenth Century. (Chicago, III.: Univ. of Chicago Press, 1968).
- Rafeq, A.K.
"Economic Relation between Damascus and Dependent Countyside, 1743-1771" in A. Udovitch (ed.), *The Islamic Middle East, 700-1900* (Princeton, N.J.: Princeton Univ. Press, 1981).
- ————————
"The Local Forces in Syria in the Seventeenth and Eighteenth Centuries", in N.J. Parry and M.E. Yapp, *War Technology and Society in the Middle East* (London: Oxford Univ. Press, 1975).
- Raymond, Andre,
Grandes Villes Arabes a lepoque ottomane (Paris: Sindbad, 1985).
- Repp, R.C.,
The Mufti of Istanbul, (London: Oxford Univ. Press, 1986).
- Rich, C.J.
Narrative of a Residence in Koordistan, 2 vols., (London, 1836).
- Richmond, John C.B.,
Egypt, 1798-1952: Her Advance Towards a Modern Identity (New York; Columbia Univ. Press, London; Methuen, 1977).
- Runciman, Steven, *The Fall of Constantinople, 1453* (Cambridge Univ. Press, 1965).
- Sada, D.R.,
Urban Notables in the Ottoman Empire: the "Ayan", (Ph.D.Thesis), Rutgers Univ., 1969.
- Salmon, W.H.
An Account of the Ottoman Conquest of Egypt, London, 1939.
- Schilcher, S.S.
Families in Politics (Stutthart, 1985).
- Sharabi, Hisham
Arab Intellectuals and the West: the Formative Years, 1875-1914. (Baltimore, Mad.: Johns Hopkins Univ. Press, 1970).
- Shaw, Stanford J.
Ottoman Egypt in the 18th Century, (Harvard Univ., 1962).
- ————————
The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798. (Princeton: N.J.: Princeton Univ. Press, 1962).

- *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,* vol.,1, *Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280-1808* (Cambridge; Cambridge Univ. Press, 1979).
- *Shaw, Stanford J. and Ezil Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,* vol. 2: *Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turdey 1808-1975,* (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1978).
- Savory, R.M.
  Iran under the Safavids, Cambridge, 1976.
- Sykes, Mark,
  The Caliph's last Heriatage, (London, 1915).
- Tavernier, John B.,
  The six Travels of J.B. Tavernier through Turkey and Persia to the India.., London, 1684. (نسخة مصورة عن الكتاب / مكتبة المتحف البريطاني)
- Thuasne, L.,
  Djem Sultan, Paris, 1892.
- Tibawi, A.L.,
  A Modern History of Syria (Edinburgh, 1969).
- Touchard, Jean (ed.),
  Histiore des Idees Poletiques, (Paris: Presses Universitaites de France, 1963).
- Toynbee, Arnold J.
  A Study of History, vol. I, Oxford, 1934.
- ————————
  A Study of History: Abridgement of vols. I-VI written by D.C. Somervell, Oxford, 1964.
- Tyan, E.
  Histoire de L'organisation Judiciaire en pays d'Islam, Leiden, 1960.
- Ubicini, Abdolonyme et pavet de Courteille,
  Etat Present de l'Empire ottoman, (Paris: Dentu, 1976).
- Udovitch, Abraham L. (ed.),
  The Islamic Middle East, 700-1900: Studies in Economic and Social History, (Princeton, N.J.: Princetion Univ. Press, 1981).
- Vatikiotis, Panayiotis J.,
  The History of Egypt: From Muhammad Ali to Sadat, 2nd ed. (London: Weidenfeld and Nicolson; Baltimore, Mad.: John Hopkins Univ. Press, 1980).
  The Middle East: From the End of Empire to the End of the Cold War (London: Routledge, 1997).

- Von Grunebaum, G.E.
  Themes in Medieval Literature, (London, 1981).
- Von-Hammer Purgstall,
  Geschichte der Osmanischen Reiches, Band 2, (1453-1530), Wien, 1828.
- Vucinich, Wayne S.,
  The Ottoman Empire: Its Record and Legacy, Princeton, New Jeresey, 1965.
- Wiet, G.,
  "L'Egypt arabe de la conquete ottoman.." in G. Hanotaux (ed.), *Histoire de la nation egyptienne*, Paris, 1931-1940.
- Wittik, Paul,
  The Rise of the Ottoman Empire, London, 1971.
- Wolf, J. B.,
  The Barbary Coast: Algeria under the Turks 1500-1830 (U.S.A., 1969).
- Wright, W.L.
  Ottoman Statecraft, Princeton, N.J., 1953.
- Wustenfeld, F. (ed.),
  Die Chroniken der Stat Mekka, vol., ii, Leipzig, 1859.
- Zafrani, Haim,
  Mille ans de vie juive au Maroc, Histiore, culture, religion et magie (Paris: Maisonneuve et Larose, 1983).
- Zein, Zein N.,
  The Struggle for Arab Independence, Beirut, 1960.

البحوث والدراسات الأجنبية:
(بالانكليزية والفرنسية)

- Abu Manneh, B., "Sultan Abdulhamid II and the Sharifs of Mecca". *Asian and African Studies,* No. (9), 1973.
- Aubin, Jean
  "Comment Tamerlan prenait les villes", *Studia Islamica,* No. 9, (1963).
- Bear, G.
  "The Administrative Economic and Social Functions of the Turkish Guilds", *International Journal of Middle East Studies,* 1st Jan. 1970.
- Brenner, Robert,
  "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe", *Past and Present,* fev. 1976
- Charanis, P.
  "The Strife Among the Palaeologi and the Ottoman Turks 1370-1420", *Byzantion,* No. 16, 1942-3.
- Faroqi, S.
  "Textile Production in Rumeli and the Arab Provinces; Geographical Distribution and Internal Trade 1560-1650", *The Journal of Ottoman Studies,* No. L, 1980.
- Grandchamp, Pierre,
  "arabe genealogique de la famille hassinite 1705-1936", *Revue Tunisienne,* 1936.
- Hess, Andrew C.,
  "The Evolution of the Ottoman Seaboune Empire in the Age of the Oceanic Discoveries 1453-1525", *in American Historical Review,* 75, No. 7, Dec. 1970.
- Hess, A.C.,
  "The Ottoman Conquest of Egypt 1517, and the Beginning of the sixteenth Century World War", in *Journal of Middle East Studies,* vol., 4, (1973).
- Heyd, Uriel,
  "The Ottoman Ulema and Westernization in the time of Selim III and Mahamoud II", *Scripta Hierosolymitana,* vol. no. IX (1961).
- Hourani, Albert,
  "The Changing Face of the Fertil Crescent in the XVIII Century", *Studia,* Larosse, Paris, 1957.

- Inalcik, Halil,
"Ottoman Methods of Conquest", in *Studia Islamica*, Vol. II, Paris, 1954.
- ____________
"Bursa and the Commerce of the Levsnto", in *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. III, 2, (1960).
- ____________
"Suleiman the Lawgiver and Ottoman Law", in *Archivum Ottomanicum*. I, The Hague, 1969.
- ____________
"The Rise of the Ottoman Empire", in The *Cambridge History of Islam*, vol. I, Cambridge, 1970.
- ____________
"Mehmed the Conqueror and his Time", *Speculum*, No. 25, (1960).
- ____________
"The policy of Mehmed II Toward the Greek population of Istanbul and Byzantine Buildings of the City", *Dumbarton Oaks Papers*, No. 23, 1970.
- Al-Jamil, Sayyar K.,"Arab Historiography on Ottoman Empire", in Fikret Adanir and Suraiya Faroghi (eds.), *The Ottoman Empire in Historiographic Discussion*, 1st ed., (E. J. Brill & Leiden, 1997).
- Jansky, H,
"Beitrage Zur Osmanische Geschichtschreibung Uber Agypten", *Der Islam*, No. 21, (1933).
- Kumar, R.
"Anglo-Turkish Antaganism in the Persian Gulf" in *Islamic Culture*, vol. XXXVII, No. 2, April, 1963.
- Lane, Fredrick, C.,
"The Mediterranean Spice Trade: Further Evidince of its Revival in the 16th Century", in *American Historical Review*, vol. XLV, 3, Ap. 1940.
- Lewis, Bernard
"Ottoman observers of Ottoman decline", *d. c.i.i.R*, vol., (1952).
- Lockhart, L.
"The Menace of Muscat and its Consequences in the late 17th and 18th Centuries", in *Journal of Asiatic Review*, No. 42, (1946).
- Lowry, Heath,
"The Ottoman Liva Kanunnames Contained in the Defter-i Hakani", *The Journal of Ottoman Studies*, No. II, Istanbul, 1981.
- Lybyer, A. H.,
"The Ottoman Turkes and the Routes of Oriental Trade" in *The English*

Historical Review, No. CXX, vol. XXX, Oct. 1915.

- Mainz, E.
"Les Juifs d'Alger sous la deomination turque", *Journal Asiatique,* (1952).
- Mandaville, G.S.,
"The Ottoman Privince of Al-Hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", in *Journal of the American Oriental Society,* vol. 90, No. 3, July - Sept., 1970.
- Mantran, Robert,
"L'evolution des relations entre la Tunisie et l'empire ottoman du 16 au 19 siecle", *Cahiers du Tunisie,* 2 et 3 trim, 1959.
- ————————
"Baghdad a epoque Ottoman", *Arobica,* Special vol., (1962).
- ————————
"Reglements fiscaux ottoman la province de Bassora emoitie du xvi", in *Journal History of the Orient,* No. X, 1967.
- Ozbaran, Salih,
"The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf 1534-1581", *Journal of Asian History,* vol. 6, No. 10, (1972).
- Parry, V.J.
"The Ottoman Empire 1418-1520", *New Cambridge Modern History,* vol. I, (1957).
- Savory, R.M.
"The Consilidation of Safawid Power in Persia", *Der Islam,* Band 41, Berlin, 1965.
- ————————
"The Struggle for Supermacy in Persia after the Death of Timur", *Der Islam,* Band 40, Berlin, 1964.
- Shaw, Stanford J.,
"Archival Sources for Ottoman History: The Archives of Turkey", in *Journal of the American Oriental Society* No. 80, 1060.
- Souvaget, J.
"Noms et surnoms de Mamlouks" in *Journal Asiatique,* No. CCXXXVIII, Paris, 1950.
- Stripling, G.W.F.
"The Ottoman Turks and the Arabs 1511-1574", *dans Illinois Studies in Social Sciences,* XXVI, no. 4, Urbana, 1942.
- Vickery, C.E.
"Arabia and the Hejaz", in *Journal of Royal Central Asian Society,* vol. X, Part I, (1923).

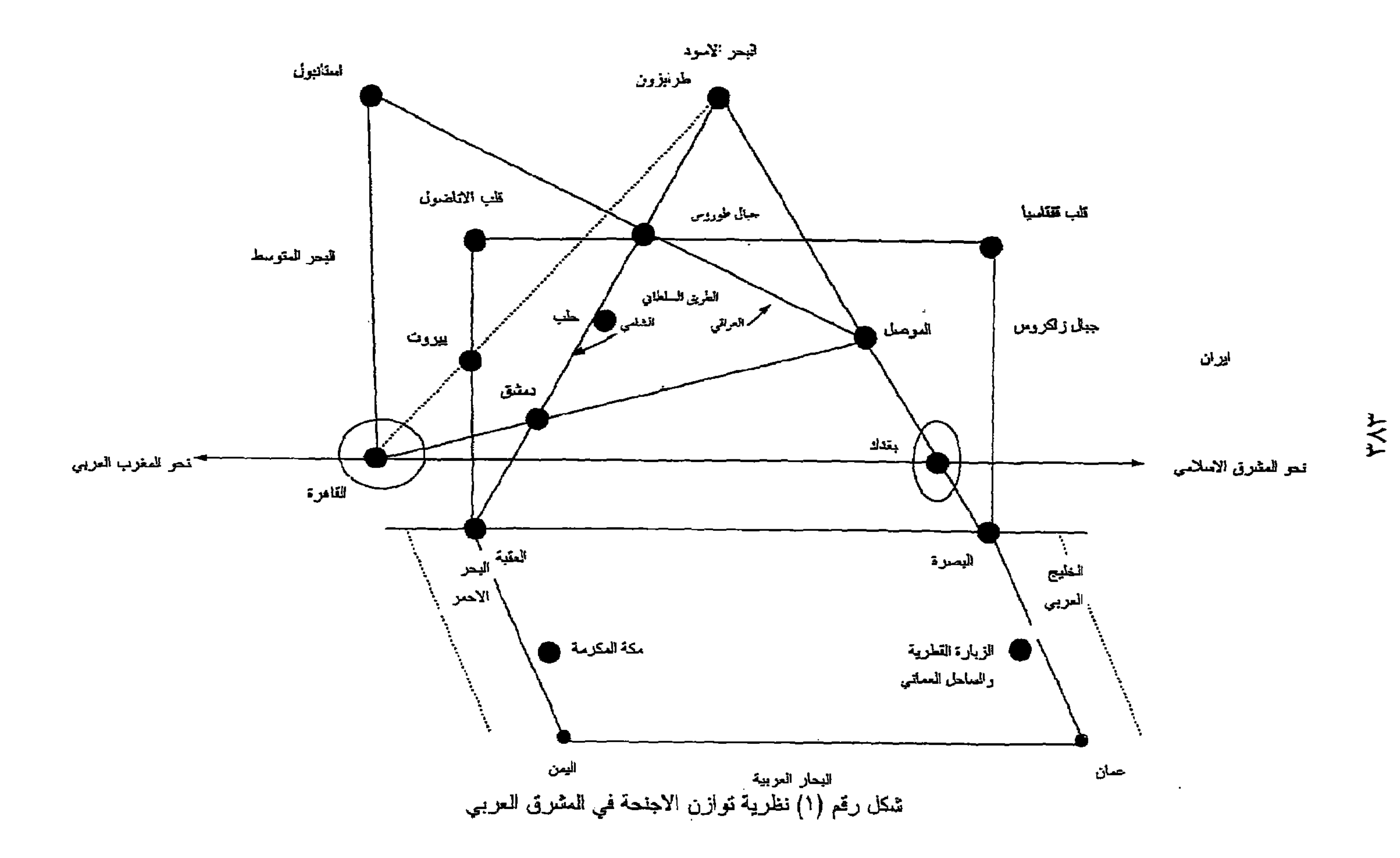
الإنسكلوبيديات والموسوعات

- *An Encyclopedia of World History,* Compild and ed. by W.L. Langer, 5th ed., London, 1972.
- *Islam Ansiklopedisi,* II vols., inprogress, istanbul, 1941.
- *The Encyclopedia of Islam,* New ed., ed. by H.A.R. Gibb, J.H. Kramers, E. Levi-provencal, J. Schact, B. Lewis, C. Pellat, and V. Menage (Lieden and London, 1974).
- *The New Encyclopedia Britannica,* vol. v., London, 1974.
- *The Cambridge History of Islam* (Cambridge; Cambridge Univ. Press, 1970).
- *The Cambridge History of Iran,* ed. by W.B. Fisher, (Cambridge; Cambridge Univ. Press, 1968).
- *The New Cambridge Modern History,* vol., VI, ed., by J.S. Bromely, Cambridge, 1950; vol. VII, ed. by J.O. Lindsay. Cambridge 1957; vol. VIII, ed. by A. Goodwin, Cambridge, 1965.

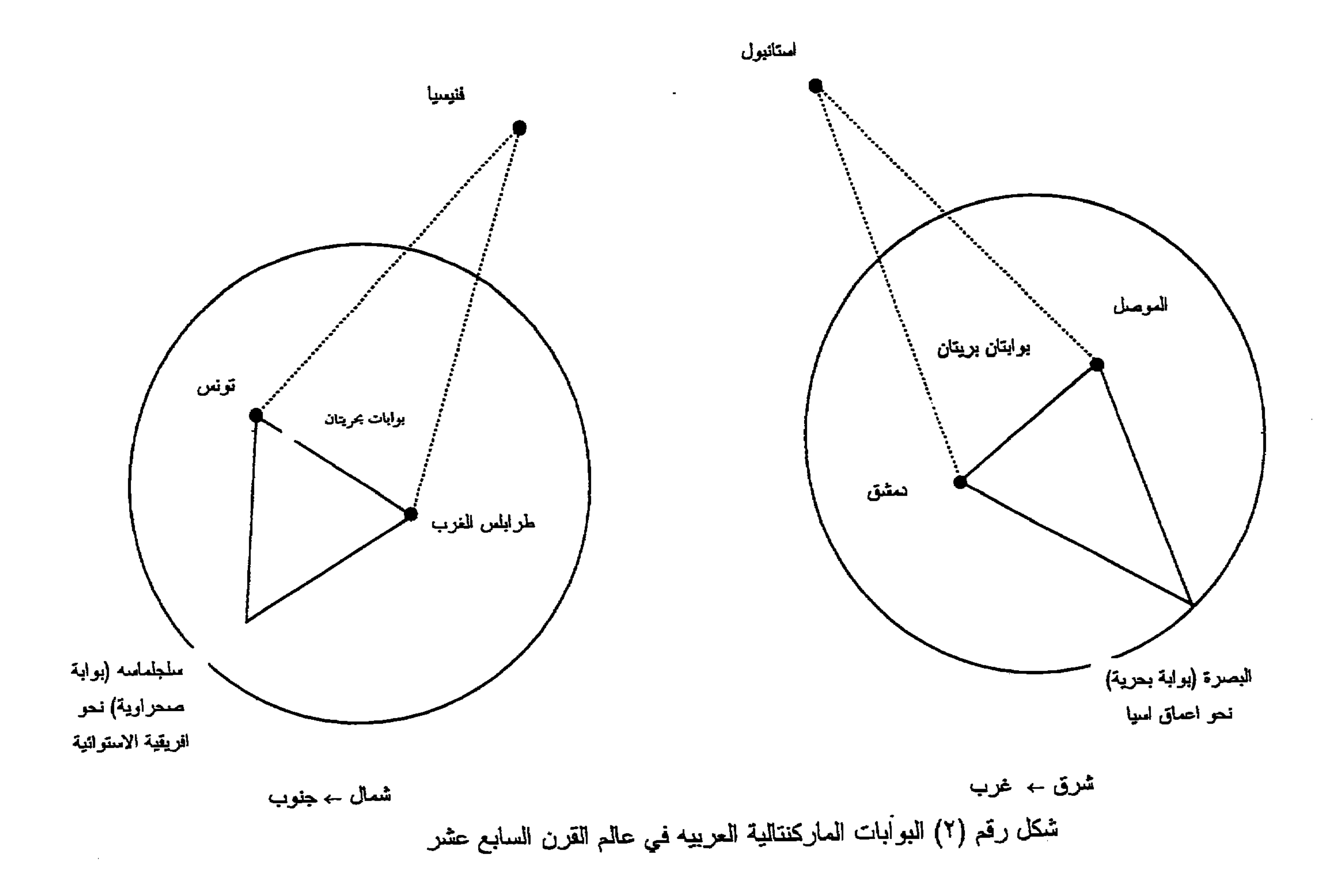


الملاحق

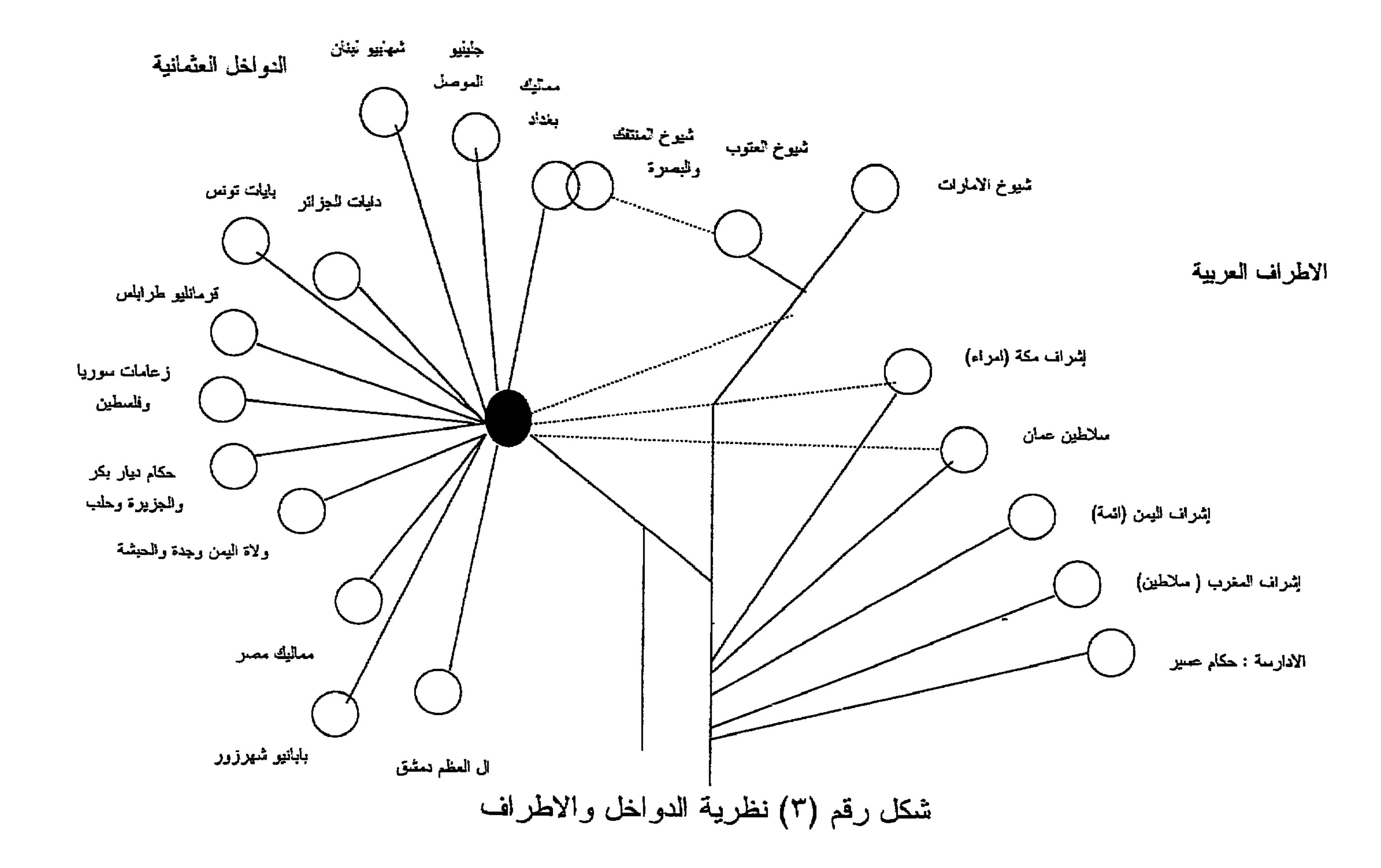




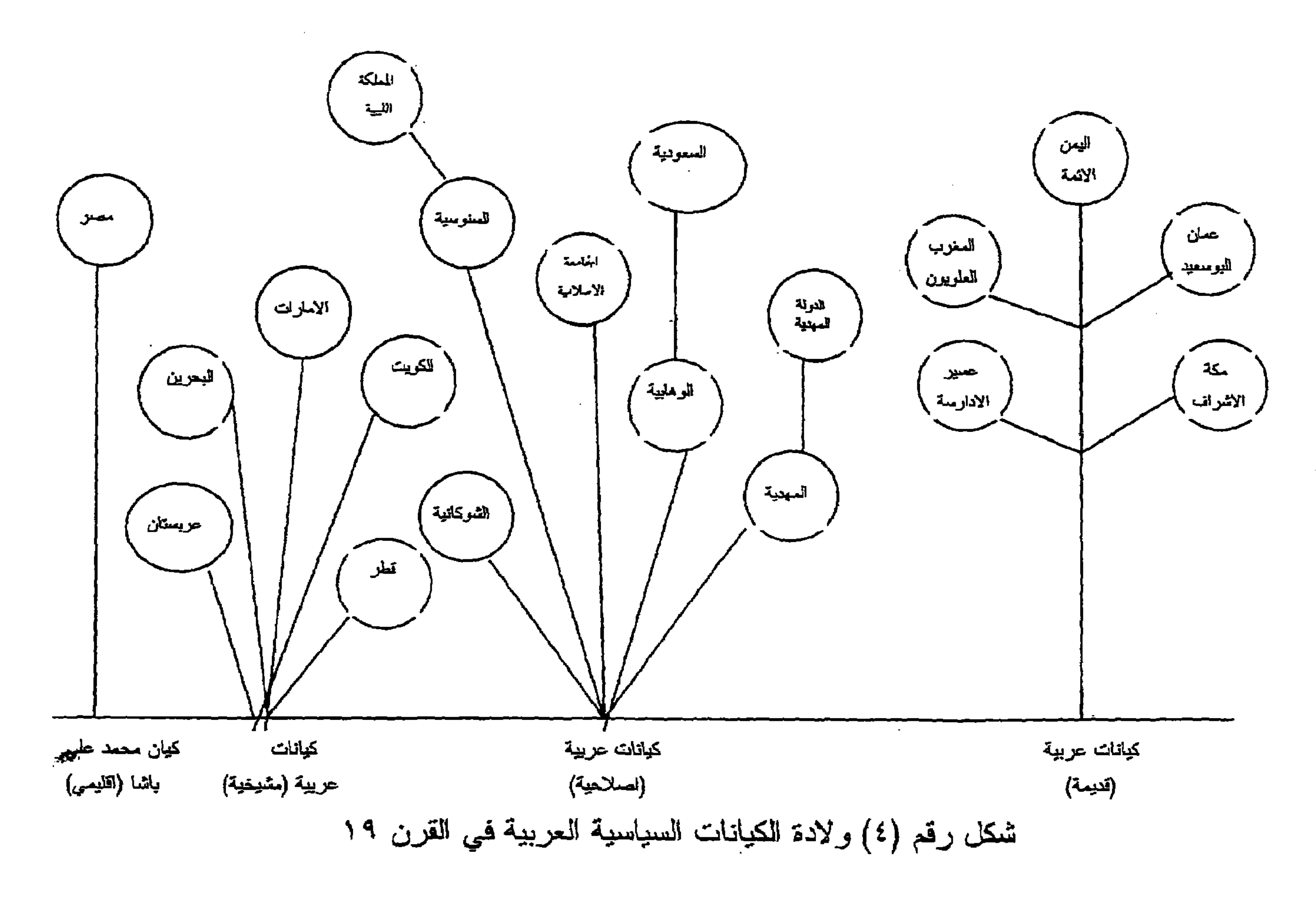
شكل رقم (١) نظرية توازن الاجنحة في المشرق العربي



شكل رقم (٢) البوابات الماركنتالية العربيه في عالم القرن السابع عشر

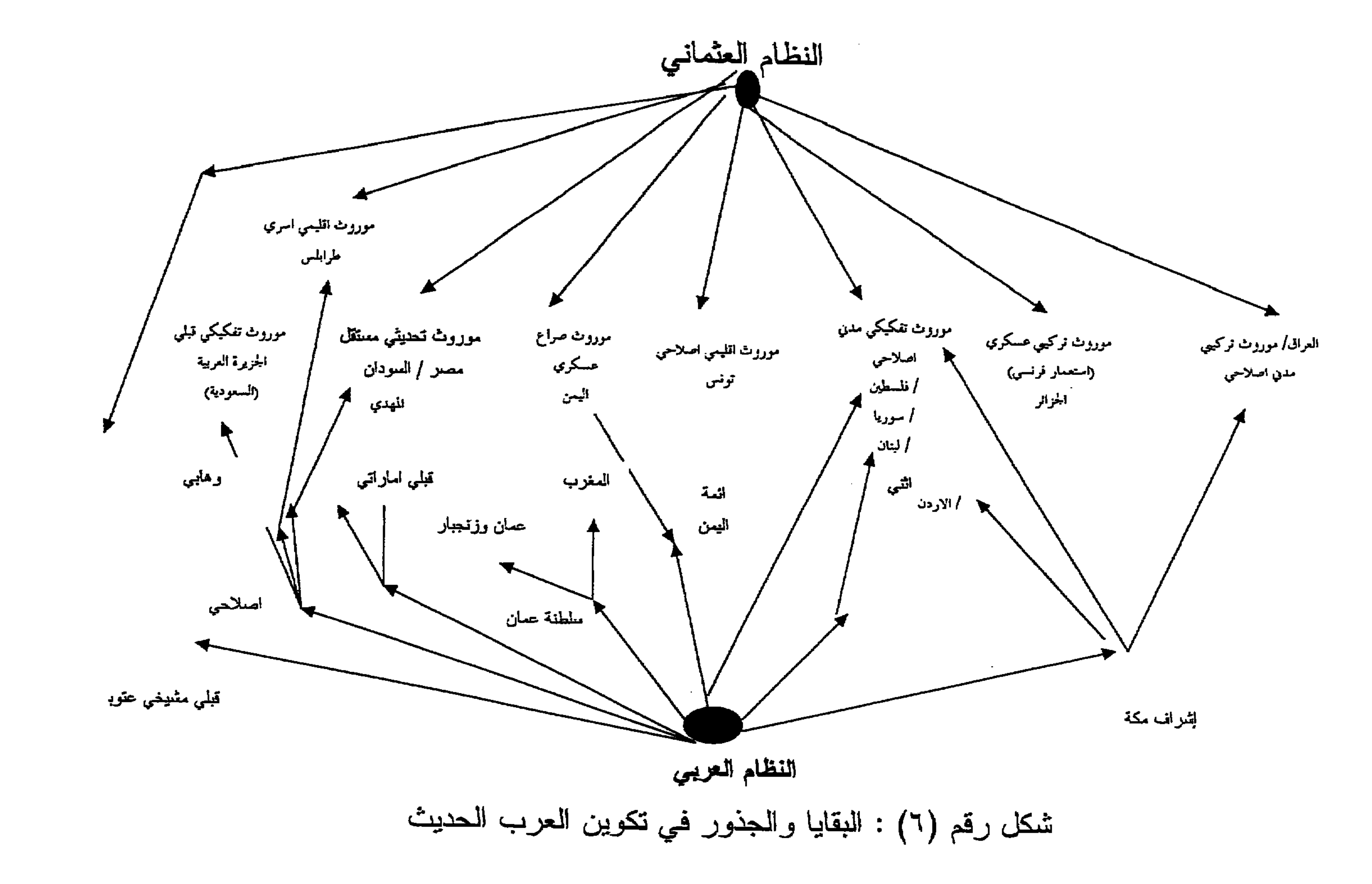


شكل رقم (٣) نظرية الدواخل والاطراف



شكل رقم (٤) ولادة الكيانات السياسية العربية في القرن ١٩

شكل رقم (٥) امتدادات مصر محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر



شكل رقم (٦) : البقايا والجذور في تكوين العرب الحديث

شكل رقم (٧) : شجرة السلالة العثمانية

ارطغرل

١- عثمان
(٦٨٠-٧٢٤/١٢٨١-١٣٢٤)

٢- اورخان
(٧٢٤-٧٦١/١٣٢٤-١٣٦٠)

٣- مراد الأول
(٧٦١-٧٩١/١٣٦٠-١٣٨٩)

٤- بايزيد الأول
(٧٩١-٨٠٤/١٣٨٩-١٤٠١)

مصطفى

٥- محمد الأول
(٨١٦-٨٢٤/١٤١٣-١٤٢١)

موسى
(ت ٨١٦-١٤١٣)

سليمان
(ت٨١٣/١٤١١)

عيسى
(ت٨٠٧/١٤٠٤)

٦- مراد الثاني
(٨٢٤-٨٤٨/١٤٢١-١٤٤٤)
(٨٥٠-٨٥٥/١٤٤٦-١٤٥١)

احمد
(ت ٨٥٥/١٤٥١)

٧- محمد الثاني (= الفاتح)
(٨٤٨-٨٥٠/١٤٤٤-١٤٤٦)
(٨٥٥-٨٨٦/١٤٥١-١٤٨١)

جيم
(ت ٨٥٥/١٤٥١)

٨- بايزيد الثاني
(٨٨٩-٩١٨/١٤٨١-١٥١٢)

٩- سليم الأول
(٩٠٨-٩٢٦/١٥١٢-١٥٢٠)
(ت٩١٩/١٥١٣)

احمد

١٠- سليمان الأول(=القانوني)
(٩٢٦-٩٧٤/١٥٢٠-١٥٦٦)

١١- سليم الثاني
(٩٧٩-٩٨٥/١٥٦٦-١٥٧٤)

بايزيد
(ت٩٦٩/١٥٦١)

مصطفى
(ت٩٦١/١٥٥٣)

محمد
(ت٩٥٠/١٥٤٣)

انظر الصفحة التالية

تتمة الصفحة السابقة

١٢- مراد الثالث
(١٠٠٣-١٠١٢/١٥٩٥-١٦٠٣)

١٣- محمد الثالث
(١٠٠٣-١٠١٢/١٥٩٥-١٦٠٣)

١٥- مصطفى الأول
(١٠٢٦-١٠٢٧/١٦١٧-١٦١٨)
(١٠٣١-١٠٣٢/١٦٢٢-١٦٢٣)

١٤- احمد الأول
(١٠١٢-١٠٢٦/١٦٠٣-١٦١٧)

١٨- إبراهيم
(١٠٤٩-١٠٥٨/١٦٤٠-١٦٤٨)

١٧- مراد الرابع
(١٠٣٢-١٠٤٩/١٦٢٣-١٦٤٠)

١٦- عثمان الثاني
(١٠٢٧-١٠٣١/١٦١٨-١٦٢٢)

٢١- احمد الثاني
(١١٠٢-١١٠٦/١٦٩١-١٦٩٥)

٢٠ سليمان الثاني
(١٠٩٩-١١٠٢/١٦٨٧-١٦٩١)

١٩- محمد الرابع
(١٠٥٨-١٠٩٩/١٦٤٨-١٦٨٧)

٢٣- احمد الثالث
(١١١٥-١١٤٣/١٧٠٣-١٧٣٠)

٢٢-مصطفى الثاني
(١١٠٦-١١١٥/١٦٩٥-١٧٠٣)

٢٧- عبد الحميد الأول
(١١٨٧-١٢٠٣/١٧٧٤-١٧٨٩)

٢٦- مصطفى الثالث
(١١٧١-١١٨٧/١٧٥٧-١٧٧٤)

٢٥- عثمان الثالث
(١١٦٨-١١٧١/١٧٥٤-١٧٥٧)

٢٤- محمود الأول(١١٤٣-١١٦٨/١٧٣٠-١٧٥٤)

٣٠ محمود الثاني
(١٢٢٣-١٢٥٥/١٨٠٨-١٨٣٩)

٢٩- مصطفى الرابع
(١٢٢٢-١٢٢٣/١٨٠٧-١٨٠٨)

٢٨- سليم الثالث
(١٢٠٣-١٢٢٢/١٧٨٩-١٨٠٧)

٣٢- عبدالعزيز
(١٢٧٧-١٢٩٣/١٨٦١-١٨٧٦)

٣١- عبدالمجيد الأول
(١٢٥٥-١٢٧٧/١٨٣٩-١٨٦١)

٢٧- عبدالمجيد الثاني
(خ ١٣٤١-١٣٤٢/١٩٢٢-١٩٢٤)

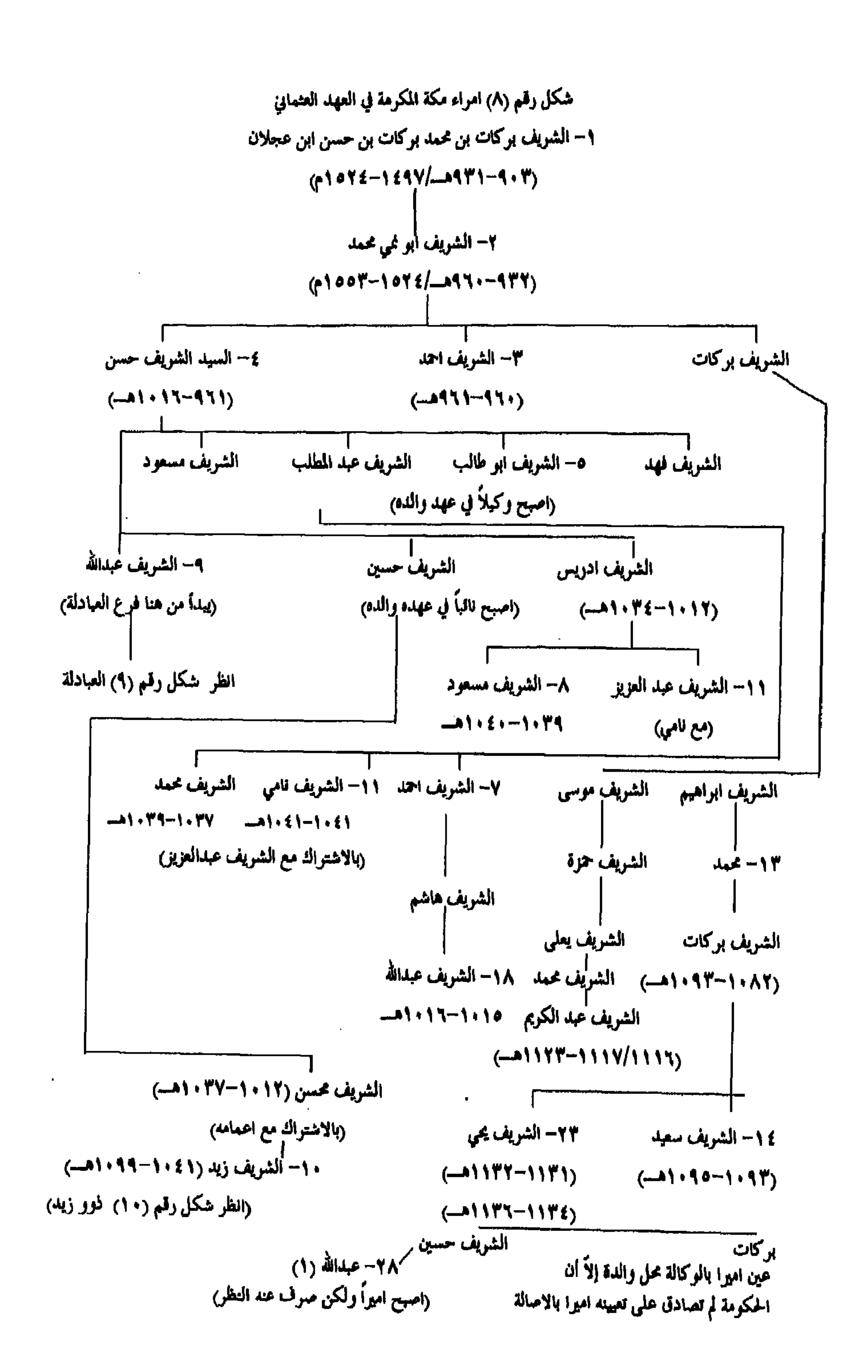
٣٦- محمد السادس
(= محمد وحيد الدين
(خ ١٣٣٦-١٣٤١/١٩١٨-١٩٢٢)

٣٥- محمد الخامس
(=محمد رشاد)
(خ١٣٢٧-١٣٣٦/١٩٠٩-١٩١٨)

٣٤- عبدالمجيد الثاني
(خ١٢٩٣-١٣٢٧/١٨٧٦-١٩٠٩)

٣٣- مراد الخامس
(١٢٩٣/١٨٧٦)

ملاحظات: ١- الترقيم للسلاطين ٢- الاقواس لسنوات الحكم والوفاة (هجرية / ميلادية) ٣- خ = خليفة ٤- ت = توفي


شكل رقم (٨) امراء مكة المكرمة في العهد العثماني
١- الشريف بركات بن محمد بركات بن حسن ابن عجلان
(٩٠٣-٩٣١هـ/١٤٩٧-١٥٢٤م)
٢- الشريف ابو نمي محمد
(٩٣٢-٩٦٠هـ/١٥٢٤-١٥٥٣م)
الشريف بركات
٣- الشريف احمد
(٩٦٠-٩٦١هـ)
٤- السيد الشريف حسن
(٩٦١-١٠١٦هـ)
الشريف فهد
٥- الشريف ابو طالب
(اصبح وكيلاً في عهد والده)
الشريف عبد المطلب
الشريف مسعود
الشريف ادريس
(١٠١٢-١٠٣٤هـ)
الشريف حسين
(اصبح نائباً في عهده والده)
٩- الشريف عبدالله
(يبدأ من هنا فرع العبادلة)
الظر شكل رقم (٩) العبادلة
١١- الشريف عبد العزيز
(مع نامي)
٨- الشريف مسعود
١٠٣٩-١٠٤٠هـ
الشريف ابراهيم
الشريف موسى
٧- الشريف احمد
١١- الشريف نامي
١٠٤١-١٠٤١هـ
الشريف محمد
١٠٣٧-١٠٣٩هـ
(بالاشتراك مع الشريف عبدالعزيز)
١٣- محمد
الشريف حمزة
الشريف هاشم
الشريف بركات
(١٠٨٢-١٠٩٣هـ)
الشريف يعلى
الشريف محمد
١٨- الشريف عبدالله
١٠١٥-١٠١٦هـ
الشريف عبد الكريم
(١١١٦/١١١٧-١١٢٣هـ)
الشريف محسن (١٠١٢-١٠٣٧هـ)
(بالاشتراك مع اعمامه)
١٠- الشريف زيد (١٠٤١-١٠٩٩هـ)
(الظر شكل رقم (١٠) ذوو زيد)
١٤- الشريف سعيد
(١٠٩٣-١٠٩٥هـ)
٢٣- الشريف يحي
(١١٣١-١١٣٢هـ)
(١١٣٤-١١٣٦هـ)
بركات
عين اميرا بالوكالة محل والدة إلاّ أن
الحكومة لم تصادق على تعيينه اميرا بالاصالة
الشريف حسين
٢٨- عبدالله (١)
(اصبح اميراً ولكن صرف عنه النظر)

شكل رقم (٩) إشراف مكة في العهد العثماني : ذوو زيد

١٠ – الشريف زيد (١٠٤١-١٠٧٧هـ)

١٢– الشريف سعد (تولى الامارة في المرة الاولى
بالاشتراك مع اخوه احمد وابن عمه حمود)
١٠٧٧-١٠٨٢هـ
١١٠٣ -١١٠٥هـ
١١٠٦-١١١٤هـ
١١١٦-١١١٦هـ

الشريف حسين

(الشريف احمد ١٠٩٥-١٠٩٩هـ)
(بالاشتراك مع اخيه سعد)

١٩– الشريف عبد المحسن
١١١٦-١١١٩هـ

٢٤– الشريف مبارك
١١٣٢-١١٣٤هـ
١١٣٦-١١٣٦هـ
(توفي وهو أمير وكالة)

١٧– الشريف سعيد
(١١٠٣-١١٠٣هـ)
(١١١٤-١١١٦هـ)
(١١١٦-١١١٧هـ)
(١١٢٣-١١٢٨هـ)

٢٧– الشريف مساعد
(١١٦٥-١١٧٢هـ)
(١١٧٣-١١٨٤هـ)

٢٦– الشريف مسعود
(١١٤٥-١١٤٥هـ)
(١١٤٦-١١٦٥هـ)

٢٢– الشريف علي
(١١٣٠-١١٣١هـ)

٣٠– الشريف احمد
(١١٨٤-١١٨٦هـ)

٢٩– الشريف جعفر
(١١٧٢-١١٧٣هـ)

٢١– الشريف عبدالله
(١١٢٩-١١٣٠هـ)
(١١٣٦-١١٤٣هـ)

٢٥– الشريف محمد
محرم ١١٤٤-١١٤٥هـ
١١٤٥-١١٤٦هـ

٣١– الشريف عبد المعين
(١٢٠٢هـ)

٣٢– الشريف غالب
(١٢٠٢-١٢٢٨هـ)

٣٥– الشريف عبدالمطلب
(١٢٤٨-١٢٤٨هـ)
(١٢٩٧-١٢٩٩هـ)

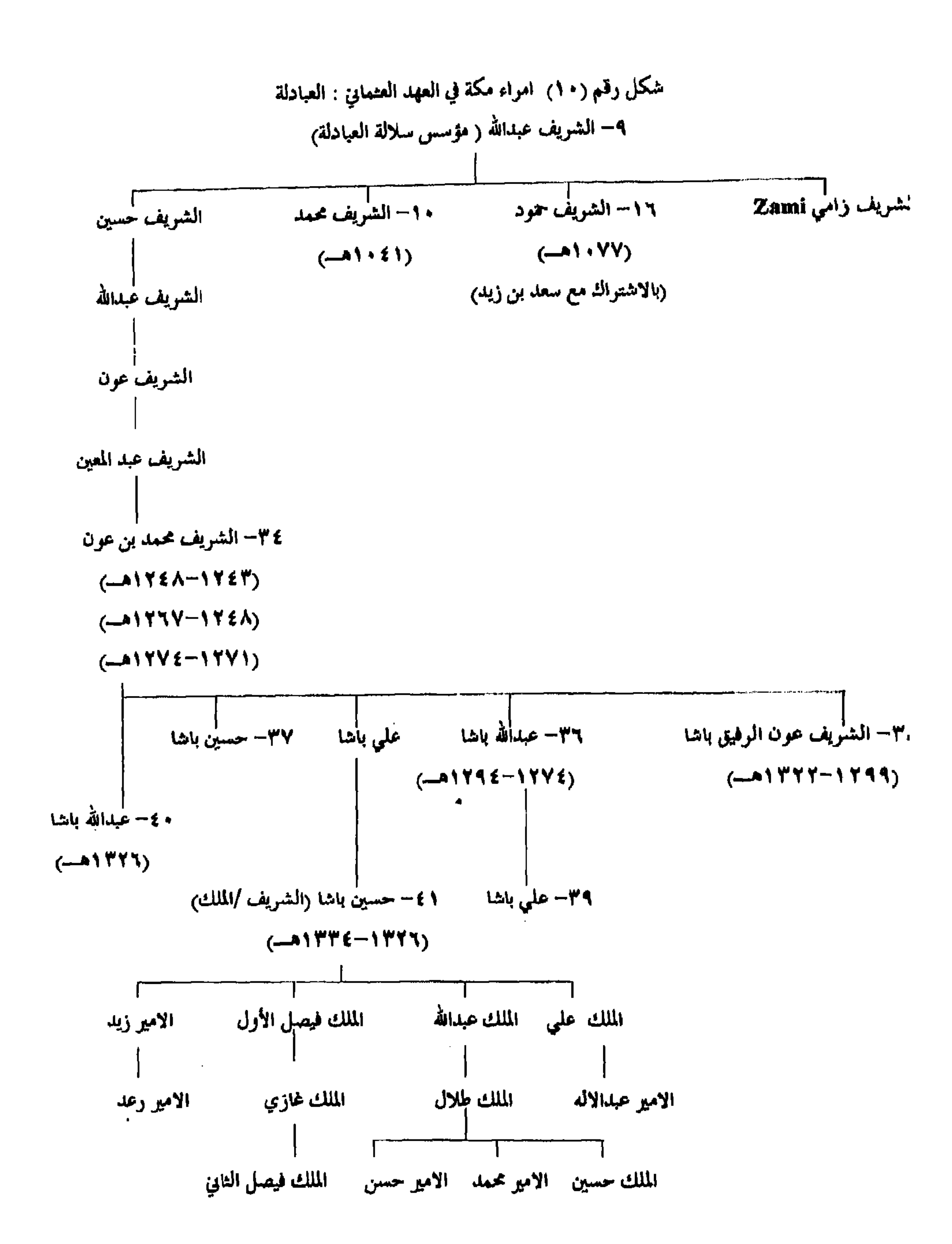
الشريف جابر باشا

٤٢– الشريف علي حيدر باشا
(١٣٣٤-١٣٢٧هـ)
اسميا

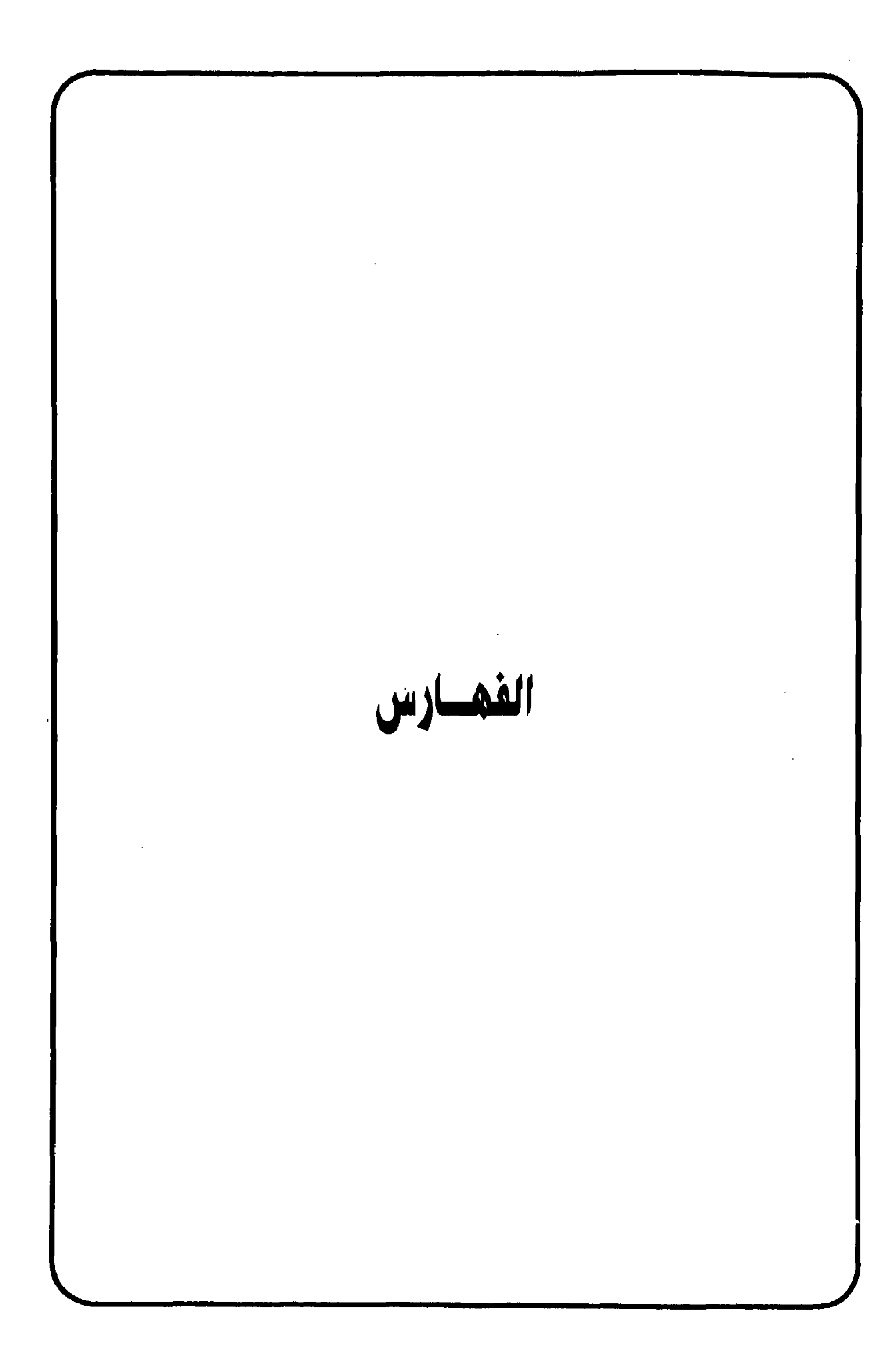
٣١– الشريف سرور
(١١٨٦-١٢٠٢هـ)

٣٣– الشريف يحيى
(١١٢٨-١٢٤٢هـ)

شكل رقم (١٠) امراء مكة في العهد العثماني : العبادلة







الفهـارس



ا اولاً : فهرس الامكنة

(أ)

الاتحاد السوفييتي:٣٠٥، ٣١٨.

الاحساء (الحسا):١٣، ٧٩-٨٠، ١٢٩-١٣٠، ٢٧٤-٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٨-٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٢-٣٠٧.

ادرنة (ادرنة بول):٦٤، ٧٩.

ادنة:١١٤.

اذربيجان: ١٠٣، ١١٥، ١٢٦-١٢٨.

أرارات (جبال):١١٤.

اربد:٥٤، ٩٥.

اربيل: ١٠٩-١١٠، ١١٣، ١٢٨.

اردبيل: ١٠٣.

الاردن (شرقي الاردن):١٨، ٣٦، ٤٢، ٥٠، ٩٥، ٢٠٥-٢٠٦، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٦٧-٢٦٨.

ارزنجان: ١١١.

ارضروم:٧٩.

ارغني:١١٣.

ارمينيا:١٠٣، ١٠٨، ١١٥.

ارتيريا:١٦٤.

اريفان:١٠٨، ١١٤-١١٥.

ازنيق:٦١.

اسبانيا:١٣٣، ١٣٥، ٢١٩.

استانبول (الاستانة/اسلامبول):٦٤، ٦٦، ٧٧، ٩٠، ٩٢، ١٠٨، ١٢٣، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٥٢-١٥٤، ١٥٨، ١٦١، ١٧٣، ١٩٥، ٢٠٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٤-٢٣٧، ٢٤٠-٢٤١، ٢٤٤-٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣-٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٤-٢٦٦، ٢٧٨، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٢٠-٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٧-٣٢٨.

اسرائيل:٢٨٩، ٣٣١.

اسكتلندا:١٤١.

الاسكندرون:١٠٧.

الاسكندرية:٨٢، ٩٠، ١١٤، ١٢٣، ٢٨١.

اسكودار:١٢٧.

اسيا:٧٨، ١٣١، ١٦٨، ١٧٩، ٢٧٥.

اسيا الصغرى:٥٩، ٣٣١.

اسيا الغربية:٥٩.

آسيا الوسطى:٥٩، ٨١، ٩٠.

افريقيا:٧٨، ١٣١، ١٧٩، ٢٧٥.

افريقيا الاستوائية:١٦٤.

افريقيا (شرق):٩٠، ١٧٥.

افريقيا (شمال):٥٩، ١٤٦، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٥.

آق حصار:٦١.

آق شهر:١١٢.

البانيا:٦٤.

المانيا:٣٠٥، ٣٢٣.

اماسيه٧٩، ١٠٨، ١١٠، ١١٤.

الامارات العربية:٢٠٥، ٣٠٠، ٣٠٥.

آمد:١٠٤.

امريكا:١٦٨.

ام قصر:٢٨٣.

الاندلس:٨١، ٨٧.

الاناضول (الاناتوليا) :٥٩-٦٠، ٦٢، ٦٤-٦٧، ٧٢، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٥-٨٦، ٩٠، ١٠٣، ١٠٩، ١١٦، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٤، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٩، ١٩٢، ١٩٨-١٩٩.

الاناضول (شرق/جنوب شرق): ٦٠-٦١، ١٠٣-١٠٦، ١٠٨-١١٠، ١١٥،١٢٥.

القرة: ٦٢-٦٣، ٧٩، ١٥٨.

الكلترا: ٣٣١.

الاهوار: ٢٠١، ٢٨٠.

اورفة: ١١٠، ١١٣.

اوروبا: ١٢، ٦٠، ١٠٥، ١٠٧-١٠٨، ١١٣-١١٤، ١٢٦، ١٥١، ١٥٢، ١٥٧-١٥٨، ١٦٣-١٦٤، ١٦٨، ١٧٩، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٩٠، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٦، ٣٢٥.

اوروبا (الجنوبية): ٦٦.

اوروبا (الشرقيـــة): ٥٩، ٦٣-٦٤، ٦٦، ١٤٧، ١٥٠-١٥٢، ١٥٤، ١٦٣-١٦٤، ١٧٩.

اوروبا (الشمالية): ١٦٦.

اوروبا (الغربية): ٢٠٧.

اورومية (بحيرة): ١٠٨.

ايـــران: ٦٠، ٦٥، ٦٧، ٨١، ٨٧، ٩٠، ١٠٣-١٠٤، ١٠٦-١٠٩، ١١٥-١١٦، ١٢٧، ١٣٥، ١٦٤، ١٩٠-١٩١، ٢٠٧، ١٧٤-١٧٥.

ايران (شمال غرب): ١٠٤.

ايطاليا: ٦٦، ٣٠٥.

ايلات: ٣١٢.

(ب)

باب زويلة: ١٢٣.

باريس: ٢٦١، ٣١١، ٣٣١.

الباكستان: ٣٦، ١٦٤.

بالو: ١١٠.

بثينيا (بيزنطة): ٦٠.

البحار الجنوبية: ٢٧٦.

البحـــار الشرقيـــة: ١٠٣، ١٠٧، ١٣٠، ١٣٥، ٢٧٤، ٢٩٠، ٢٩٢.

البحـــار العربيـــة: ١١٥، ١٦٤، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٢.

البحر الاحمر: ١١٥-١١٦، ١٢٩-١٣٢، ١٣٦، ٢٢٧، ٢٧٤، ٣١٢، ٣٢٨.

البحر الاسود: ٦٥.

بحر العرب (العربي): ١١٥، ١٣١، ٢٧٣.

البحر المتوسط: ١١، ٧٢، ١٠٧، ١١٣، ١٣٣-١٣٦، ١٥٣، ١٦٤، ١٦٨، ٢٠٦، ٢٧٣، ٢٩٢.

البحريـــــن: ١٢٩، ٢٢٨، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩١، ٣٠٠.

بخارى: ٩٠.

بدليس (بتليس): ١٠٩-١١٠، ١٢٦.

البر الايراني: ١٥٣.

البرتغال: ١٠٨، ١١٥.

برقة: ٢٢٢.

بروسه (بورسة): ٦١، ٦٦-٦٧، ١٠٨.

بريطانيـــــا: ١٩٢، ٢١٠، ٢٥٥، ٢٩١، ٢٩٩، ٣٢٥.

البصـــــرة: ١٣-١٤، ٥٥، ٧٩-٨٠، ٨٢، ٨٥، ٩٠، ٩٨، ١٠٠، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٦، ١٩١، ١٩٤، ١٩٩، ٢٢١، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٦-٢٧٩، ٢٨٠-٢٨٧، ٢٨٩-٢٩٣، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٧-٣٠٩.

بعلبك: ٢٠٢.

بغداد: ٥٥،٥٩، ٦٨، ٧٧، ٧٩-٨٠، ٨٢، ٨٥، ٩٢، ٩٨، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٧، ١٢٣، ١٢٥-١٣٠، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٥٣، ١٥٥،

١٧١– ١٨٧، ١٩٠-١٩٢، ١٩٤، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٧-٢١٨، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٤٥، ٢٥٣، ٢٧١، ٢٧٤-٢٧٦، ٢٧٨-٢٧٩، ٢٨٦-٢٨٨، ٢٩٠-٢٩١، ٣٠٧-٣٠٨، ٣٢١.

بلاد ما بين النهرين:٢٨٧.

بلاد وادي النيل:٢٨٧.

بلغاريا:٦١، ٦٤.

بلغراد:٦٣-٦٤.

البلقان:٦٣، ١٥١، ٣٢٧.

بندر فريجه:٢٨٤.

بندر الكونك:٢٨٤.

البندقية:٦٣، ١٨٥، ٢٣٢.

بودا (بست):٧٩.

البوسفور:٣٢٣.

البوسنة:٦١، ٦٥، ٧٩.

بولاق:٢١٦.

بومباي:٣٠٠-٣٠١.

بيت المقدس:١١٩.

بيرجيك:١٢٦.

بيروت:١٨-١٩، ٢٣، ٣٢، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٥٢، ٨٢، ٩٠، ٩٥-٩٦، ٩٨-١٠٠، ١١٩، ١٣٦، ١٤٠-١٤١، ١٦٩-١٧٠، ١٧٢، ١٧٤-١٧٥، ١٩٩، ٢١٣-٢١٤، ٢١٦-٢١٨، ٢٢١-٢٢٣، ٢٦١-٢٦٢، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٩٥، ٢٩٨-٣٠٠، ٣٠٢، ٣١٧، ٣٣٢-٣٣٣.

البيت الحرام (المسجد الحرام):٧٣، ٢٣٦.

بينون– دارجيل (جزيرة):١٣٤.

(ت)

تبريز:١٠٣-١٠٤، ١٠٧-١٠٨، ١١٤، ١٢٦-١٢٧.

ترانسلفانيا:٨٠.

الترسانة (حديقة):٢٤٤.

تركيا:٤٤، ٤٦، ٣٠٥، ٣١٠، ٣١٢، ٣٢٣-٣٢٤، ٣٢٦-٣٢٧.

تعز:١٣٢، ٢٢٢.

تكريت:١١٤.

تلعفر:١١٣.

تلمسان:١٣٣.

توات:٢٠٢، ٢٢٢.

تونس:١٢، ١٤، ١٧، ١٩، ٢٥، ٣٣، ٤٢، ٤٩-٥٠، ٧٩-٨٠، ٨٢، ٩٠، ٩٩، ١٣٤-١٣٦، ١٤٠، ١٦٣، ١٧٢-١٧٣، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٣-١٨٨، ١٩٩، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٤-٢٠٦، ٢١١، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٤٤، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٨١، ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٥-٢٩٧، ٣٠٥-٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٤، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣٢.

تهامة:٢٢٧.

التيطري:٣١١.

تيمشوار:٧٩.

(ج)

الجافورة (صحراء):٢٧٦.

جالديران (معركة):١١، ١٠٨-١٠٩، ١١٤-١١٦.

جبيل:٢٢١.

جدة:٧٩، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٩،٣١٢، ٣٢٨.

جربه (جزيرة): ١٨٥.
جركسيا: ٨٠.
الجرمه: ٢٢٧.
الجزائر: ١٤، ٢٥، ٣٦، ٤٢، ٥٠، ٧٩-٨١، ٩٠، ١٣٣-١٣٧، ١٥١، ١٦٣، ١٧٢، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٤-١٩٥، ١٩٧، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٤٤، ٢٨٧-٢٨٨، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٠-٣١١، ٣١٣-٣١٤.
جزائر بحر سفيد: ٧٩.
الجزر العربية: ١٦٤، ١٩٩.
جزيرة ابن عمر: ١١٠، ١١٣.
الجزيرة العربية: ٢٤، ٥٠، ١٠٠، ١٢٩، ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤٨، ٢٥١-٢٥٢، ٢٦٠، ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٩-٣٠٠، ٣٠٢، ٣٢٧.
الجزيرة الفراتية: ٨١، ١٠٤، ١٠٨-١١٠، ١١٢-١١٣، ١١٥، ١٢٦، ١٣٨، ١٦٤، ١٨١، ٢٢١.
الجليل: ٢٢١.
جورجيا: ٨٠، ١٩٠.
جيلدير: ٧٩.

(ح)

حائل: ٢٢١، ٢٧٢، ٢٨٣، ٢٨٨.
الحبشة: ٧٩-٨٠، ٣٠٧.
الحجاز: ١٥، ٢٤-٢٥، ٩٠، ١٠٩، ١٢٣، ١٣٠، ١٣٦-١٣٧، ١٥١، ١٦٣-١٦٤، ١٧٤، ١٨٩، ٢٠٤-٢٠٦، ٢١٠، ٢٢١، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٣-٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩-٢٤٤، ٢٤٦-٢٤٨، ٢٥٠-٢٥٢، ٢٥٤-٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٤-٢٦٨، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٧-٢٨٨، ٣٠٨.
حرّان: ١١٣.
الحرم الشريف: ٢٥٠، ٢٥٢.
الحرمين الشريفين: ١٣٠، ٢٣١-٢٣٣، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥٩.
الحصن: ٢٢١.
حصن ذات السلاسل: ٦٢.
حصن سوران: ١١٣.
حصن كيفا: ١١٠.
حضر موت: ١٣٢، ١٣٧، ١٦٣-١٦٤، ١٩٩، ٢٢٢، ٢٨١، ٢٨٨.
حلب: ٥٥، ٧٩، ٨٥، ٩٠، ٩٢، ٩٨، ١٠٠، ١٠٧، ١١٣-١١٤، ١١٦، ١١٨-١١٩، ١٣٦، ١٨٣، ١٩٦، ١٩٩، ٢٢١، ٢٤٦، ٢٥٨.
حلق الواد: ١٨٥.
الحلة: ٩٨، ١٠٠.
حما: ١٠٠، ١١٩.
حمص: ١٠٠، ١١٩.
حوران: ١١٩، ٢٠٢، ٢٢١.
الحويزة: ٢٨٠.
حيفا: ١٩٦-١٩٧.

(خ)

خان يونس: ١١٤، ١٢١.
خربوت: ١١١.
خليج عدن: ١١٥.
الخليج العربي (خليج البصرة): ١١، ١٨، ٢٥، ٨٢، ٩٠، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٧، ١١٥، ١٢٥-١٢٦، ١٢٩-١٣٠، ١٣٦، ١٦٥-١٦٦، ١٩١،

٢٠٢، ٢٢١، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٧٩-٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨-٢٩٣، ٢٩٩، ٣٠١.

خليج عمان: ١٢٩.

خوي: ١١٠، ١١٣.

خيبر: ٢٢٧.

(د)

الدار البيضاء: ١٧٠، ١٧٥، ٢٨١.

الدانمارك: ١٨٦.

الدانوب: ٦٤.

دجلة: ٢٨٠.

الدردنيل: ٣٢٣.

الدرعية: ٢٨٣.

الدشيشة: ٢٣٣.

الدلتا: ١٢٢.

دمشـــق: ١٢، ٥٤، ٧٩، ٨٢، ٨٥، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٨-١٠٠، ١١٤، ١١٩-١٢٠، ١٣٦، ١٤٠-١٤١، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٩-١٨٣، ١٨٩، ١٩٦-١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١٣-٢١٤، ٢١٦، ٢٢٠-٢٢١، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥٨، ٢٦٧-٢٨٨، ٣٠٨، ٣٢٠، ٣٢٢.

الدهناء: ١٦٤.

دوبرفنيك: ٨٠.

الدوحة: ٢٩٢.

ديار بكر: ٧٩، ٨٢، ١٠٤، ١٠٧، ١١٠-١١٢، ١٢٦، ١٩٤، ١٩٧، ٢٤٦، ٣٠٧-٣٠٨.

(ذ)

(ر)

رأس الرجاء الصالح: ١٠٨، ١١٥.

راشيا: ٢٠٢.

الربع الخالي: ١٦٤.

رزن: ١١٠.

الرقة: ١١٣، ١٨٣، ٢٢١.

الرملة: ١١٣، ١٦٦.

الرها: (انظر: اورفة).

رودس (جزيرة): ٦٦.

روسيا: ٤٦، ٩٠، ٢٤٦، ٣٣١.

الروضة النبوية: ٢٤٧.

روما: ١٥٢، ٣١٧.

روميليا (روميللـــي): ٦٣، ٧٢، ٧٧، ٧٩، ١٤٧، ١٥٠، ٢٥٠.

الرياض: ٢٩٧-٢٩٨.

الريدانية: ١١٤، ١٢١-١٢٢، ٢٣٣.

الريف (المغربي): ٢٢٢.

(ز)

زاكروس (جبال): ١٢٧، ١٦٤.

زالجان: ١٢٧.

الزبارة القطرية: ٢٨٣.

زبيد: ٧٩، ١٣٢، ٢٢١.

زغـــوان: ٣٣، ٤٩، ٥٢، ١٤٠، ١٧٥، ٢١٣، ٢٩٧، ٣٠٥.

زنجبار: ٩٠، ١٦٣، ١٦٥-١٦٦، ٢٢١، ٢٨١، ٢٨٨، ٣٠٨.

(س)

ساسون: ١١٠.

سلانيك (سالونيكا): ٦٤، ٩٠، ٢٥٢.

السراط(جبال): ٢٢٧.

سراي بوسنة (سراييفو): ٧٩.

سعرت: ١١٠.

السعودية(المملكـــة العربيـــة): ٤٢، ٢٠٥-٢٠٦، ٢٥١، ٢٨٣، ٢٩١، ٣٠٥.

السلط: ٥٤.

سلطانية:١٢٧.

السلمية:٢٢١.

السليمانية:١٩٢.

سمرقند:٦٢، ٩٠.

سنجار:١١٠، ١١٢-١١٣.

سواكن:٧٩، ٣١٢.

الســـــودان:٣٦، ١٦٣، ١٧٢، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١١، ٢٢٢، ٢٨٨، ٣٠٥، ٣٠٨.

السودان الجنوبي:١٦٤، ١٩٩.

السودان الشرقي:٢٤.

السودان الغربي:٢٤، ١٩٩.

ســــوريا:١١، ٣٦، ٤٢، ٤٤، ٥٠، ٦٥، ٦٧، ١٠٦، ١١٦، ١١٨، ١٢٠-١٢١، ١٦٣، ١٨٢، ١٨٧، ١٩٨، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٢، ٣٠٨-٣٠٩، ٣٢٠.

سوسة:١٨٥.

سوقطرة (جزيرة): ١١٥.

السويس (قناة /ميناء): ١٣١، ١٨١، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٩٠، ٣٢٥.

سيلان:١٦٤.

سيناء (شبه جزيرة): ١٢١.

سيواس:٧٩، ١١١، ١١٤.

(ش)

الشام:(بلاد/باديـــة):١١-١٢، ٢٤-٢٥، ٣٤، ٦٠، ٦٦، ٨١، ٨٧، ٩٩، ١٠٧-١١٠، ١١٣، ١١٥-١١٧، ١١٩-١٢١، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠-١٣١، ١٣٥-١٣٦، ١٤٠ -١٤١، ١٧٢، ١٨١، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦-١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٢-٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤٣-٢٤٦، ٢٤٨،٢٤٩، ٢٥٧-٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٧، ٣٢٨، ٣٣٣.

شبام:٢٢١.

الشرق الادنى:١٥١، ٣٣١.

الشرق الاوسط:٩٢، ٩٨، ١٠٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٦٩، ١٨١، ٢٧٥، ٣١٥.

الشرق العربي: ٢٢٠، (انظر ايضا: المشرق العربي).

شروان (مقاطعة):١٠٤.

شط العرب:٢٨٣.

شــــهرزور:٧٩، ١٣٦، ١٦٣، ٢٠٢، ٢٧٨، ٢٨٨، ٣٠٨.

الشوف:١١٧، ٢٢١.

الشويفات:١١٧، ٢٢١.

(ص)

الصبية:٢٨٤.

الصحراء الكبرى :١٦٣-١٦٤، ٢٧١.

الصحراء المغربية:١٦٤، ١٩٩.

صربيا:٦٤-٦٥، ١٥١.

صفد:١٩٦.

صقلية (سيسلي):١٣٤.

الصليف:١٣٢.

الصمان:٢٧٦.

صنعاء:٧٩، ١٣٢-١٣٣، ٢٢١-٢٢٢.

صوفيا:٦١، ٧٩.

الصومال:١٦٤.

صيدا:١١٩، ١٩٦، ٣٠٩، ٣١٧.

(ض)

(ط)

الطائف:٢٢٧، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٥٩.

طرابزون:٦٥، ٧٩، ١٠٥.
طرابلس الشام:٧٩، ١٠٠، ١١٩، ١٣٦، ١٩٦، ٢٢١، ٣٠٩.
طرابلس الغرب:١٢، ١٤، ٢٥، ٥٥، ٧٩-٨٠، ٩٢، ١٣٥-١٣٦، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٥-١٨٦، ١٨٨، ١٩٩، ٢٠٤، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٤٤، ٢٨٧-٢٨٨، ٣٠٨، ٣١٠-٣١١، ٣١٣-٣١٤، ٣٢٢، ٣٢٥.
طوروس/ انظر طوروس (جبال): ٥٩، ١٦٤.

(ظ)

(ع)
العالم الاسلامي:١٠٦، ١٢٣، ١٢٦، ١٣١، ١٥٥، ١٥٧-١٥٨، ٢٢٨، ٢٣١.
العالم الاوروبي:١٥٧-١٥٨.
العالم القديم:١٢٦، ١٣٠، ٢٧٥، ٢٩٢.
عاله:١١٣.
عدن:٧٩، ١٣١-١٣٢، ١٣٧، ٢٨١، ٢١٠، ٢٨١.
عجلون(جبل):٢٢١.
العراق:١١-١٤، ١٨، ٢٤-٢٥، ٣٤، ٤٢، ٤٤، ٥٤، ٨١، ٨٧، ١٠٣-١١٠، ١١٣-١١٤، ١١٧، ١٢٤-١٣٠، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٣، ١٦٧، ١٧٢، ١٨٢، ١٩٠-١٩٢، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٧-٢١٨، ٢٢١-٢٢٢، ٢٢٨، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٣-٢٧٧، ٢٨١-٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٨-٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣٢٨.
عربستان:١٠٤، ٢٢١، ٢٨٠.
العريش:١٩٧.
عسير:١٦٤، ٢٢٧، ٢٥٣-٢٥٤، ٢٨٣.
العقبة:٢٥٩.
العقير:٢٥٨.
عكا:٨٢، ١٨٩، ١٩٦-١٩٧، ٢٠٧.
عكار:٢٢١.
العمادية:٢٠٢.
العمارة:٢٠١.
عُمان:٢٥، ٣٤، ٤٢، ٥٤، ١٦٤-١٦٥، ١٧٥، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٦٨، ٢٧٦، ٣٠٨.
عمّان:١٨، ٢٤، ٣٤، ٣٨، ٢٥٩.
العويرض: ٢٢٧.
عين جالوت (معركة): ١٢٢.
العيينه:٢٢١، ٢٤٥.

(غ)
غاليبولي:٧٩.
غرداية:٢٠١.
غزة:١١٤، ١٢١، ١٩٧، ٢٢١.

(ف)
فارنا:٦٤.
فاس:٥٤، ٦٧.
الفاو:٢٨٤.
الفرات(نهر):١١٣، ١٢٦، ٢٨٠، ٣٠٠.
فرنسا:١٨٦، ١٩٥، ٣٠٥، ٣١١، ٣١٤-٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٤-٣٢٥، ٣٣١.
فلسطين:١٧٢، ١٩٤، ٢٠٤، ٢٢٠-٢٢٣، ٢٨٨، ٣٢٩، ٣٣١.
فيينا:١٥١، ١٥٦، ١٦٧، ١٧١-١٧٢، ٢٤١، ٢٧٥، ٢٩٠، ٣٠٠.

فيلكا (جزيرة): ٢٨٦.
فينيسيا: ٦٤، ١٠٧.

(ق)

قارص: ٧٩.
القاهرة: ٤٦، ٦٣-٦٧، ٧٩، ٨٢، ٨٥، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٩-١٠٠، ١١٤، ١٢٠-١٢٣، ١٣٠-١٣١، ١٣٦، ١٣٩-١٤٠، ١٤٢، ١٥٥، ١٧٠، ١٧٤-١٧٥، ١٨٩-١٩٠، ٢١٢-٢١٨، ٢٢٠-٢٢٢، ٢٣٣، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٨٨، ٢٩٧، ٢٩٩-٣٠١، ٣٠٨، ٣٣١.
قبرص: ٦٧، ٢٥٩.
قبة الصخرة: ١٢١، ٢٥٩.
القدس: ٨٥، ٩٨، ١١٤، ١٢١، ٢٤٤، ٣٣١.
قدم-شريف (محطة): ٢٦٧.
قراجة حصار: ٦٠.
قرطاج: ٤٤.
القرم: ٨٠.
قرمان: ٧٩، ١١١، ١١٢.
قزة غين دده: ١١، ١١٢، ١١٥، ١١٧.
القرين (الكويت): ٢٨٣.
القسطنطينية: ١٠، ٢٣، ٦٣-٦٥، ١٥٨، ١٦٣، ١٩٦، ٢٣١، ٢٦٢، ٣١٤.
قسنطينة: ٥٥، ٩٠، ٣١١.
القصبة (قلعة): ١٨٥.
قصر باردو: ١٨٤.
قطر: ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣٠٢.
القطيف: ٧٩، ١٢٩-١٣٠، ٢٧١، ٢٧٥-٢٧٧، ٢٨٥.
قلعة تربه: ٢٣٩.
قنفذه: ١٧٤.

قوقاسيا: ١٩٠.
قوقاسيا(ترانس): ١٠٤.
قونيه: ٦٢، ٦٦، ٧٩.

(ك)

كافا: ٧٩.
كرباغ: ١١٤.
كردستان: ١١٢-١١٣، ١١٥، ١٢٨، ١٥١، ١٩٩، ٢٢١.
الكرك: ١١٩.
كركوك: ١٠٩-١١٠، ١١٣-١١٤، ١٢٨.
كسروان: ١١٧، ٢٢١.
الكعبة: ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٤٠.
كفة: ٧٩.
كندا: ٣٠٥، ٣٢١، ٣٢٨.
كوتاهيه: ٧٩.
كوزوفو: ٦١.
كوليطا (حلق الواد): ١٣٣.
الكويت: ٢٢١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٤-٢٨٦، ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩١-٢٩٢، ٢٩٩-٣٠٠، ٣٠٢.
كيلان (امارة/اقليم): ٨٠، ١٠٤.
كيماخ: ١١٤-١١٥.

(ل)

لاہور: ١٣٨.
لاهيجان: ١٠٤.
لبنان+(جبل لبنان): ١٤، ١٥، ٤٤، ٨٢، ١٣٧، ١٥١، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٢، ١٩٧-١٩٩، ٢٠١-٢٠٣، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٨، ٢٢٠-

٢٢٣، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٠٥، ٣٠٨-٣٠٩،
٣١٥-٣١٦، ٣١٩.
اللجون: ٢٢١.
لندن: ٩٧، ٩٩، ٢٩٥.
لورستان: ١٠٤.
ليبيا: ٤٢، ٢٠٥-٢٠٦، ٢١٥، ٣٠٥، ٣١٠.
(م)
ماردين: ١١٠-١١٣.
مجرستان: ٢٥٠ (انظر ايضا هنغاريا).
المحيط الهندي: ١٦٤، ١٦٨، ٢٣٤، ٢٧٣، ٢٩٢.
مخا: ١٣٢.
المخراق: ٢٨٤.
المدّية: ٣١١.
المدينة (المنورة): ١٣، ٨٥، ١٠٠، ١٢٣، ٢٢٧،
٢٣٠-٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥٧،
٢٥٩، ٢٨٧، ٣٢٨.
المرج: ٢٠٢، ٢٢١.
مرج دابق (معركة): ١١، ١١٤، ١١٨، ٢٣٣.
المرسى الكبير: ٢٨١.
مرعش: ٧٩.
مسقط: ٥٥، ٨٢، ١٣٠، ١٣٦، ١٦٣، ١٦٥-
١٦٦، ٢٢١، ٢٨١، ٢٨٨، ٢٩١.
المشرق العربي: ٣٣، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨، ١٣١،
١٣٦، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٧٩، ١٨١،
١٨٣، ١٩٤-١٩٥، ١٩٨، ٢٠٠-٢٠١،
٢١٠، ٢٢٠، ٢٧٥-٢٧٦، ٢٧٩، ٣٣٠،
٣٣٣.
مصر: ١١-١٢، ١٤-١٥، ١٧، ٢٤-٢٥، ٣٦،
٤٢-٤٤، ٥٠، ٦٧، ٧٩-٨٠، ٨٢، ٨٧،
١٠٨-١١٠، ١١٣-١١٥، ١١٩-١٢٣،
١٢٥، ١٢٨-١٣١، ١٣٤-١٣٧، ١٤٠-
١٤١، ١٤٦، ١٥١، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٣،
١٧٢، ١٧٤، ١٨١-١٨٢، ١٨٧-١٩٢،
١٩٦-١٩٧، ٢٠٤-٢٠٧، ٢١٠-٢١١،
٢١٦-٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٠-
٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧-٢٤١، ٢٤٣-٢٤٤،
٢٤٦، ٢٤٨-٢٥٣، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٧١،
٢٧٤، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٨٩-٢٩٠، ٢٩٣،
٣٠١، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٤-
٣٢٦، ٣٣٢-٣٣٣.
مصّوع: ١٧٤، ٣١٢.
المصياف: ٢٢١.
المغرب (المغرب الاقصى): ٣٤، ٤٢، ٤٤، ٥٤، ١٣٥-
١٣٦، ١٦٣، ١٦٥-١٦٦، ١٧٢، ٢٠٣-
٢٠٦، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٨٧-٢٨٨، ٣٠٨.
المغرب الادنى: ١٥٣.
المغرب الاوسط: ١٥٣.
المغرب العربي: ٣٣، ٤٢، ٨١، ٨٧، ١٢٢،
١٣٣-١٣٦، ١٥٥، ١٨٧، ١٩٤-١٩٥،
٢٠٠-٢٠١، ٢١١، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٧،
٣١٤، ٣٣٠.
مقدونية: ٦٤.
المقطم (جبل): ١٢١.
مكة (المكرمة): ١٢-١٣، ٥٥، ٨٠، ٨٥، ٩٠،
١٠٠، ١٢٣، ١٤١، ١٥١، ١٦٦، ١٧٤،
١٨٩، ١٩٩، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٣٠-٢٣٢،
٢٣٦، ٢٣٨-٢٤١، ٢٤٣-٢٤٤، ٢٤٦-
٢٥٧، ٢٥٩-٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٨٧،
٣٢٨.
ملاطية: ١١٧.
مناستير: ٧٩.
المنتفك: ٢٧٨، ٢٨٠.

المهدية: ٣٠٦.

المورة: ٦٥.

موريتانيا: ١٦٤.

الموصل: ١٢، ١٤، ٥٤، ٧٩، ٨٢، ٨٥، ٨٩-٩٠، ٩٢، ٩٨، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩-١١٠، ١١٢-١١٤، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٨-١٤٠، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٩-١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٣-٢١٤، ٢١٧، ٢٢١، ٢٤٤، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٨، ٢٩٧، ٣٠٧-٣٠٩، ٣٢٢.

مولدافيا: ٨٠.

ميافارقين: ١١٠، ١١٣.

ميدلي(جزيرة): ١٣٣.

(ن)

نابلس: ٩٨، ١٩٦، ٢٢١.

نجد: ٣٤، ١٦٤، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١١، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٥٨-٢٥٩، ٢٧٢-٢٧٣، ٢٨٠، ٢٨٢-٢٨٣، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠١.

النجف: ٢١٣-٢١٤.

نصيبين: ١١٣.

نيقوسيا: ٧٩.

النيل (نهر): ١٢٢.

نينوى: ٢١٧.

(هـ)

الهرسك: ٦١.

هرمز(مضيق): ١١٥، ١٣٠، ٢٧٤.

الهلال الخصيب: ٢٠٢.

الهفوف: ١٢٩، ١٦٤، ٢٧٦.

همدان: ١٢٧، ٢٠٧.

الهند: ٨١، ١٠٧، ١١٥، ١٣٢، ١٦٤، ٢٨٦.

هنغاريا: ٦٤، ١٥١، ١٥٥.

هولندا: ٣٠٥.

هيت: ١١٣.

(و)

وادي التيم: ١١٧، ٢٢١.

وادي الرافدين: ٦٠، ٣٢١.

وادي مهنا: ٢٤٤.

وان: ٧٩.

الوجه البحري: ٢٢٢.

الوطن العربي: ٦٦، ٩٥، ١١٤، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٦-١٣٧، ١٤٠، ١٤٦-١٤٧، ١٥٠، ١٦٠، ١٦٣-١٦٤، ١٨٧، ١٩٧، ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٧-٢٠٨، ٢٢٢، ٢٦٥، ٢٨٦-٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٥-٢٩٦، ٣٣٢.

ولاجيا: ٦٤، ٨٠.

الولايات المتحدة: ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٢٢-٣٢٣.

وهران: ٩٠، ١٩٩، ٣١١.

(ي)

اليابان: ٤٦.

يافا: ١٩٦-١٩٧.

يدي قلة(قلعة): ١٥٤.

يكي شهر (قلعة): ٦٠.

اليمامة: ٢٢٨.

اليمن: ١١، ٢٥، ٥٠، ٥٤، ٧٩، ١٢٣، ١٣٠-١٣٣، ١٣٦-١٣٧، ١٤٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٥، ٢٠١، ٢٠٤-٢٠٦، ٢١١، ٢٢١-٢٢٢، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٣٠، ٢٤٠-٢٤٣، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٨، ٢٩٣، ٣٠٧-٣٠٨.

ينبع: ٢٣٩.

اليونان: ٦٤، ٣٢٣، ٣٢٥.

ثانياً : فهرس الاعلام

(أ)

اباظة، فاروق: ٥٠، ١٤٢.

إبراهيم (ع) :٢٢٧.

إبراهيم باشا (ابن محمد علي باشا) : ٢٥٢، ٢٩٠، ٣١٦.

إبراهيم باشا (الوزير الاعظم) : ١٢٦-١٢٧.

إبراهيم، سعد الدين : ٢٢٢، ٢٢٣.

ادائير، فكرت : ١٩.

ادونيس : ٤٦.

الاردبيلي، صدر الدين موسى بن صفي الدين : ١٠٣.

الارسلاني، الامير جمال الدين : ١٧.

الارناؤوط، محمد م : ٩٥.

الارناؤوط، سليمان باشا : ١٣١-١٣٢.

الاشرف قانصوه الغوري (السلطان) : ١١٦-١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٧٤.

الاشرف قايتباي (السلطان) : ٦٥-٦٦، ١١٦.

ابن أبو الضياف، احمد : ١٧٣.

ابن ابي المسعود، صلاح الدين : ٢٣٣.

ابن اياس (المؤرخ) : ١٤٠-١٤١، ١٦٢، ١٧٤، ٢١٦، ٢٦٣.

ابن الجوزي : ٧٧.

ابن جيب : ٢٢٢.

ابن حزم : ٧٧.

ابن الخوجه، محمد : ٢١٥.

ابن رضوان، الامير احمد : ٢٢١.

ابن سحنون الراشدي : ٢١٩.

ابن سعود، عبد العزيز بن محمد : ٢٥١-٢٥٢، ٢٧٢.

ابن زنبل : ١٤٠-١٤١، ١٦٢، ١٧٤، ٢١٦.

ابن زيني دحلان : ٢٦٣-٢٦٤.

ابن الصيرفي : ٧٧.

ابن عاشور، محمد العزيز : ٣٢٢.

ابن عباد (الكاتب الوزير) : ٧٧.

ابن عبد الحكم (الفقيه) : ٧٧.

ابن عثمان : ٢٣٣.

ابن العميد : ٧٧.

ابن فروخ : ٢٢١.

ابن المفتي : ٢١٩.

ابن ميمون الجزائري : ٢١٩.

ابو الحاج، رفعت : ٥١.

ابو حاكمه، احمد : ٥٠، ٢٨٢، ٢٩٧، ٣٠٠.

ابو حسين، عبد الرحيم : ٢٣، ٢٢٣، ٣٠٩.

أبو حسين، علي : ٣٠٠.

ابو الذهب، محمد : ١٨٩.

ابو السعود افندي (شيخ الاسلام) : ٧٥، ٧٧، ١٦٠، ١٧٣.

ابو الشعر، هند : ٥٤.

ابو طالب (الشريف) : ٢٣٤-٢٣٥.

ابو عزيز قتادة : ٢٢٨، ٢٣٠.

أبو عليه، عبد الفتاح : ٥٠، ٢٩٦، ٢٩٧-٣٠٢.

ابو الفتوح، تاج المعالي الشريف محمد شكر . ٢٢٨.

ابو نمي (الشريف) : ٢٣٤-٢٣٥.

أبو لمرا، جوزيف : ٣١٥.

ابو يوسف (الفقيه) : ٧٧، ٩٦.

الاثري، محمد بهجة : ٢٩٩.

الاحسائي الانصاري : ٢٧٦، ٢٩٨.

احمد الأول (السلطان) : ٢٣٥.
احمد باشا بن حسن باشا (والي بغداد) : ١٩٠-١٩١، ٢٠٧، ٢١٧.
احمد بن ابي نمي (الشريف) : ٢٣٤.
احمد بن زيد (الشريف) : ٢٤٠-٢٤١.
احمد بن سعيد (الشريف) : ٢٤٦.
احمد بن عبد المطلب (الشريف) : ٢٣٦-٢٣٧.
احمد بن غالب (الشريف) : ٢٤١، ٢٤٦.
احمد بن يوسف بن مصطفى : ١٨٦.
احمد الثالث (السلطان) : ٢٤٤.
احمد المعني (الامير) : ٢٠٣.
آدامون، الكسندر : ٢٩٨.
ادريس (الشريف) : ٢٣٥-٢٣٧.
ارطغرل (أبو عثمان) : ٦٠.
اركون، محمد : ٢٦، ٣٢.
الارمنازي، محمد نجيب : ٢١٧.
ارنولي، فرانسوا : ٣١٤.
اسماعيل بن اخيضر : ٢٢٨.
اسماعيل (الخديوي) : ٢٩٠، ٣٢٤.
اسماعيل الصفوي (الشاه) : ٦٥، ٦٧، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨-١١٠، ١١٣، ١١٦-١١٧، ١٢٥-١٢٦، ١٢٨.
اسماعيل، طارق : ٣٣٨.
اغراقجة، احمد : ٣٠١.
افرسياب، حسين : ٣٠٠.
افشار بك، احمد : ١١٢.
آل السعود، عبد العزيز (الملك) : ٢٥٨-٢٥٩، ٢٩١.
اظهر، احمد : ١٣٨.
الافغاني، جمال الدين : ٣٥.
آل زلفة، محمد عبد الله : ٣١٢.
الالوسي، محمود شكري : ٢٩٨-٢٩٩.
الامام، رشاد : ٢١٥.
اميري، علي : ٢٦٥.
امين، سمير : ٢٦، ٣٢.
امين، محمد : ٦٥.
الدرسون، بيري : ١٤٨، ١٥٨.
الدريا دوريا : ١٣٤.
الانصاري، احمد النائب : ٢١٥.
انيس، محمد : ٢٢٠، ٢٢٣.
اورخان : ٦١-٦٢، ٦٧، ٧٠.
اوزبران، صالح : ١٢٩، ٢٧٧، ٣٠٧.
اوزن جارجلي : ١٧٠، ٢٤٩، ٢٦١-٢٦٢، ٢٦٤-٢٦٦.
اوزن حسن الطويل (السلطان) : ٦٥، ١٠٣.
اولسن، روبرت : ٩٩، ١٧٢.
اولياء جلبي، محمد ظلي بن درويش : ٢٦٢، ٢٦٤.
اياس باشا (بايلر باي بغداد) : ١٢٩، ٢٧٧.
ايفانوف، نيقولاي : ١٤٠.
اينال (سلطان مصر) : ٢٣١.
ايناجيك، خليل : ١٩، ٢٣، ٥٥، ٧٥، ٨٨، ٩٦، ١٠٧، ١٤٨، ١٩٧، ٢١٩، ٣٣٣.

(ب)

باربروسا، خير الدين (خسروريس) : ١١، ١٣٣-١٣٥، ١٥١، ١٩٤.
باربير، كارل : ٩٩، ١٧٢، ٢١٣-٢١٤.
بارتييه، آني : ٣١١.
بايزيد الأول يلدرم (السلطان) : ٦١-٦٣، ٦٧، ١٥٨، ٢٣٠، ٢٣٢.
بايزيد الثاني (السلطان) : ٦٥-٦٧، ١٠٤-١٠٥، ١٠٩، ١١٦، ٢٣١.

الباقوري، احمد حسن : ٣٦.
البدليسي، (الشيخ) ادريس : ١٠٩، ١١١-١١٢، ١٥١.
البدليسي، شرف الدين خان : ١٣٩.
البديري الحلاق، احمد : ٣٨، ٨٩، ٩٩، ١٨٢، ٢١٣-٢١٤.
البخيت، محمد عدنان : ١٩، ٣٢، ٥٠، ٥٤، ٩٩، ١٧٢، ٢١٣، ٢٢١-٢٢٢.
براون، كارل : ١٧٢.
برقان، عمر لطفي : ١٧٢، ٣٣٢.
بركات الأول بن محمد (الشريف) : ٢٣٣.
بركات بن إبراهيم بن بركات بن ابي نُمّي (الشريف) : ٢٤٠.
بركات، حليم : ٤٦، ٢٢٢-٢٢٣، ٢٩٩.
البرهالبوري، محمد بيك النقشبندي : ١٣٨.
بروديل، فرنالد : ٢٧، ١٧٩، ٢٠٩، ٣٢٢.
بريغمان : ٢٥.
البزاز، عبد الرحمن : ٤٥.
بشروش، توفيق : ٢٢٢.
البصري، عثمان بن سند : ٢١٨، ٢٨٢، ٣٠٠-٣٠١.
بطاطو، حنا : ٢١٨، ٣٣٢.
بكر، عبد الوهاب : ١٤١، ٢١٦، ٢٢٠، ٣١٠، ٣٣٢.
بليك، ج : ١٤٦.
بن ابي فاتك، (الشريف) محمد : ٢٢٨.
بن ابي الضياف، احمد : ٢١٥.
بنت الشاطيء : ٣٦.
بن خليل غلبون، أبو عبدالله محمد : ٢١٥.
بن زيني دحلان، السيد احمد : ٢٦١.
بن ظهيرة، محمد جارالله بن امين : ٢٦٢.
بن يخشي، الامير شهاب الدين احمد : ١١٩.
البهي، محمد : ٣٦.
بورجشتال ، فون هامر : ١٣٩، ٢٦٢، ٢٩٩.
بوري، ج : ١٧٥.
البوريني : ٢٢١.
بوعبدلي، الشيخ المهدي : ٢١٩.
بوحديبه، عبد الوهاب : ٢٢٢.
بو ملحم، احمد : ٣٣٣.
بونابرت، نابليون : ١٥، ٣٣، ١٤١، ١٨٨-١٨٩، ١٩٧، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٦، ٢٥١، ٣٢٤.
بيداويد، روفائيل : ٢١٣.
بيتجر، دونالد : ٢٨، ١٣٩، ١٤٦، ٣٠٨، ٣٣٢.
بيرتون، جون : ١٩.
البيرقدار، محمد باشا اينجة : ٢٠٧.
بيري محمد باشا : ١١٤.
بيغللي، محمد باشا : ١١١-١١٢.
بيري ريس : ١٣٢-٢٣٤.
بيري، ف.س : ١٧٤.

(ت)

التازي، عبد الهادي : ١٧٥.
تافرنيه، جون : ٢٧٩، ٢٩٩.
التنوخي القيسي، الامير البحتري : ١١٧-١١٨.
التكريتي، هاشم صالح : ٢٩٨.
التميمي، عبد الجليل : ١٩، ٣٢، ٤٩-٥٠، ٥٢، ٩٩، ١٤٠، ٢١٣، ٢١٩، ٢٦٢، ٢٩٧، ٣٠٥-٣٠٦، ٣٣٢.
توبراك، ظفر : ٣٢٧.
التولسي، خير الدين : ٣٤، ٢١١، ٣٢٢.
توينبي، ارنولد : ٦٠، ١٠٦، ١٤٨، ١٥٨.

تيمورلنك : ٦١، ٦٣، ١٥٨.

(ث)

الثاني، وكيل بيك : ٣٢٣.
ثريا، محمد : ٢١٧.
ثيفنو، م.د : ٢٩٩.

(ج)

جابر باشا بن عبد المطلب (الشريف) : ٢٥٥.
الجابري، محمد عابد : ٣٢، ٤١، ٤٣، ٤٦.
جاكسون، ديفيد : ١٩، ٢٣.
جانبولاد، علي باشا : ٢٢١.
جانيك، ايجين : ٢٣٠.
الجبرتي، عبد الرحمن : ١٨٩، ٢١٦-٢١٧، ٢٢٠، ٢٦٥.
الجتة جي، عبد الله باشا : ١٩٧، ٢٤٥.
جدعان، فهمي : ٢٠٩، ٢٢٣.
الجزار، احمد باشا : ١٩٦-١٩٧، ٢٠٤، ٢٠٧-٢٠٨، ٢٢٠.
الجزيري، الحنبلي، الشيخ عبد القادر : ٢٩٨.
جعفر بن سعيد (الشريف) : ٢٤٥.
جغلول، عبد القادر : ٢٢٢.
جلال زادة، مصطفى : ١١١.
جلال زادة، نبشانجي : ٧٥، ٩٦.
الجلبي، داود : ٢١٤.
الجليلي : اسماعيل باشا : ١٨٠.
الجليلي، الحاج حسين : ١٨٢-١٨٣، ٢٠٧.
جم، الامير (ابن السلطان محمد الفاتح) : ٦٦، ١١٦.
جمشيد بيك : ١١١.
جمعه، بديع : ١٣٨.
الجميل، سيار : (صفحات عدة).
جنيد (الشيخ) : ١٠٣-١٠٤.
الجهشياري : ٩٦.
جواد، مصطفى : ٢١٧.
الجواهري، عماد : ٢٢٢-٢٢٣.
جودت، احمد : ٢٢٠، ٢٦٥، ٣٠١.
جويدا، البرتين : ٣٢١.
جومسكي : ٢٨.

(ح)

الحارثي بن طرباس (الامير) : ٢٢١.
حامد باشا، خليل : ٧٦.
حتي، فيليب : ٧٣، ٩٦، ١٧٢، ٢٢٠، ٢٦٢.
الحسن (الأمام) : ٢٢٨.
حسن (الشريف) : ٢٣٥.
حسن باشا (الوزير والي بغداد) : ١٩٠، ٢٠٧، ٢١٧.
حسن باشا (والي جدة) : ٢٤٠.
حسن بن ابي نمي (الشريف) : ٢٣٤.
حسن، حسن إبراهيم : ٩٩.
الحسن بن علي (رض) : ٢٢٨.
حسن، زكي محمد : ٢٦١.
الحسن المثنى بن الأمام الحسن السبط : ٢٢٨.
حسنين افندي : ٢٢١.
حسيب، خير الدين : ١٩.
حسين بن زيد (الشريف) : ٢٤١.
حسين بيك : ١١١.
الحسين بن علي (الأمام) : ٢٢٨.
حسين بن علي بن تركي (اغا الجند) : ١٨٤.
الحسين بن علي (الشريف / الملك) : ١٣، ٢٥٥-٢٥٩.
حسين بن فخر الدين (الامير) : ٢٠٢.
حسين بن محمد عون (الشريف) : ٢٥٤-٢٥٥.
حسين باشا (الداي) : ٢٠٧.

الحصري، ساطع : ٤٥، ٢٢٠، ٢٩٨.
الحصني، محمد اديب ال تقي الدين : ٢١٤.
حطب، زهير : ٢٢٣.
الحفناوي (الشيخ) : ١٨٩.
الحلواني، امين : ٣٠١.
حماد، خيري : ١٩٦.
الحمداني، طارق : ٢٩٩.
حمود بن عبدالله (الشريف) : ٢٣٩.
حمودة باشا (الباي) : ١٨٥-١٨٦، ٢٠٦، ٢١٥.
الحمود، نوفان رجا : ٥٤، ٢٢١.
حوراني، السبرت : ١٩، ٢٣، ٢٦، ٣٢، ٣٥، ٢١٩، ٢٢٢، ٣٣٠، ٣٣٣.
الحيدري البغدادي، إبراهيم فصيح : ٢٨٦، ٣٠١.
حيدر بن الامير موسى شهاب (الامير) : ٢٠٢.
حيدر (الشيخ) : ١٠٤.

(خ)
الخالدي الصفدي : ٢٢١، ٢٢٣.
خاير بيك : ١١٦-١١٨، ١٥١، ١٨٧.
الختريش، فتوح : ٣٠٢.
خدوري، مجيد : ٣٢، ٣٨.
خديجة بيكوم : ١٠٣-١٠٤.
خسرو باشا : ١١١.
خلوصي، صفاء : ٢١٧.
خليفة، عصام : ٥٠، ٢٢٣، ٣٠٩.
خليفة اليسوعي، (الاب اغناطيوس عبده) : ٢٢٠.
خليل باشا (والي مصر) : ٢٣٨.
خوجه، حمدان بن عثمان : ٢١٩.
خوجه، سعد الدين : ١١٢، ١٣٩، ٢٦٢.
خوجه، الشيخ علي : ١٠٣.
خوري، دينا : ٩٩، ٣٠٨، ٣٢٢، ٣٣٢.

الخولي، احمد : ١٣٨.
خياط، جعفر : ٣٠٠.
الداقوقي، إبراهيم : ٥٢.
الداماد إبراهيم باشا (الوزير الاعظم) : ٢٤٤.
داود باشا (والي العراق) : ١٤، ١٩١-١٩٢، ٢٠٧، ٢١١، ٢٥٣، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢.
الدجاني، احمد صدقي : ٢١٥.
دحلان، ابن زيني : ٢٦٥-٢٦٦.
درزديل، أ : ١٤٦.
الدمشقي، ميخائيل : ١٩٧.
دوبي، جاك : ٣١٥.
الدوري، عبد العزيز : ١٩، ٢٦، ٣٢، ٩٦، ١٧٢، ٢١٢، ٢٢٢-٢٢٣.
دوفال : ٢٩٩.
الدويهي : ٢٢١.
ديديه (المؤرخ الفرنسي) : ٢٦٥.
دي غوري، جيرالد : ٢٦٢.
ديكسون، (الكولونيل) : ٢٧٣، ٢٩٢، ٣٠٠.
ديكولهام، رالدي : ٣٢٠.
الديوه جي، سعيد : ٢١٣، ٢١٤.

(ذ)
ذو الفقار (احمد الولاة الصفويين) : ١٢٦.

(ر)
راتب باشا، احمد (الوالي) : ٢٥٥، ٢٦٦.
الرازي، فخر الدين : ٧٧.
راشد بن مغامس (الشيخ) : ١٢٩، ٢٧٥، ٢٧٧.
الرافعي، عبد الرحمن : ٣٠١.
رافق، احمد : ٢٦٤.
رافق، عبد الكريم : ٥٠، ٩٩، ١٤١، ٢٠٧، ٢١٣-٢١٤، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٣.
راقد، محمد عبد المنعم : ١٤٠.

راغب باشا : ٧٦.
رستم، اسد : ٣٧، ٢٢٣.
رسمي، احمد : ٧٦.
الرشيد، عبد العزيز : ٢٨٥، ٣٠٠-٣٠١.
رشيد باشا، مصطفى : ٧٦.
رضائي (الشاعر) : ٢٧٣.
رقية، مراد : ٣٠٦.
رمضان، عبد العظيم : ٢٢٢.
رمضان ، محمد رفعت: ٢١٦.
روحي: ٧٣.
روستو : ٢٦.
رودنسون، مكسيم :٤٣،٢٦ .
رووف ،عماد عبدالسلام :٩٩، ٢١٣-٢١٤.
رياض باشا : ٣٢٥ .
ريشيليو (المؤرخ) : ٢٦٥ .
ريب، ر.س. : ١٦٠،١٧٢-١٧٣.
ريمون ،الدريه : ٩٩

(ز)

زامباور: ٢٦١.
الزاوي: الطاهر: ٢١٥.
الزبيري، محمد العربي: ٢١٩.
زريق قسطنطين: ٢٦.
زكريا، فؤاد:٤٦.
زلّوم، عبد القديم: ٣٦.
الزهراوي: عبد الحميد: ٢١١.
زيادة، خالد: ٥٠، ٩٧،٥٢، ٢٢٣.
زيد بن محسن (الشريف): ١٣،٢٣٧-٢٣٩.
زيد بن الحسين (الشريف): ٢٥٦.
زيدان، جرجي: ٣٤.
زين، زين نور الدين: ٢٢٣.
الزيتوني، الحاج محمد: ٢٣١.

(س)

ساحلي اوغلو، خليل: ١٩، ٣٠٩.
السباعي، بشير: ٢١٨.
السروجي: محمد محمود: ٣٢٤.
سرور بن مساعد (الشريف): ١٣، ٢٤٥-٢٤٨.
سعاوي، علي: ٣٢٤-٣٢٦.
سعد بن زيد (الشريف): ٢٣٩- ٢٤٠، ٢٤٢.
سعد الله، أبو القاسم: ٥٠.
سعود بن فيصل (الامير): ٢٩١.
سعيد، أمين: ٢٦٧.
سعيد بن بركات (الشريف): ٢٤٠.
سعيد بن سعد (الشريف): ٢٤١-٢٤٢.
سعيدوني، ناصر الدين: ٥٠، ٢١٩، ٣١١.
السفاح، جمال باشا: ٢٥٨.
سلحدار: فندقلي محمد اغا: ٢٦٤.
سلطان بن محمد بن عون (الشريف): ٢٥٤.
سليم الأول (السلطان): ١١، ٦٦-٦٧، ١٠٥-١٢٤، ١٢٦، ١٢٩-١٣١، ١٣٣-١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٥، ١٥٠-١٥٢، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٢، ١٧٤، ١٨٧، ٢٣٢-٢٣٣، ٢٧٤، ٢٧٧.
سليم الثالث (السلطان): ١٥٦، ١٨٦، ٢٠٨، ٢٤٧، ٣١٨، ٣٢٤.
سليم الثاني (السلطان): ١٥٥، ١٥٨، ١٦٠.
سليمان باشا أبو ليلة: ١٩١.
سليمان باشا الصغير: ١٩١.
سليمان باشا الكبير: ١٩١، ٢١٧.
سليمان القانوني (السلطان): ٣٩، ٦٦، ٧١، ٧٥، ٧٧-٧٨، ١٠٦، ١٢٥-١٢٩، ١٣١، ١٣٤-١٣٦، ١٤٢، ١٤٥، ١٥١-١٥٥، ١٥٨، ١٦٠-١٦٢، ١٧١-١٧٣، ٢٣٢-٢٣٤،

٢٥٠، ٢٧١، ٢٧٣-٢٧٥، ٢٧٧، ٣٠٧، ٣٠٩.

سنان باشا: (الوزير الاعظم): ١٢٢، ١٣٢، ٣٢٢.

السنوسي، محمد بن علي: ٢١١.

السوري، صلاح الدين: ٣١٠.

سوفاجييه: ١٧٢.

السويدي، عبد الرحمن: ٢١٧-٢١٨.

السيار، عائشة: ١٧٥.

السيد، رضوان: ٣٢، ٩٧.

سيفا، يوسف باشا: ٢٢١.

سيكار، نورمان: ١٧٥.

سي يوسف، محمد: ٣١١.

(ش)

شادي باشا: ١١١.

الشبل، عبدالله بن يوسف: ٢٩٨.

شبلي اللبناني، الاب انطونيوس: ٢٢٠.

شتراوس: ٢٦.

الشدياق: ٢٢١.

شرابي، هشام: ٣٢، ٤٦.

شرف الدين، احمد حسين: ١٤٢.

شرف الدين الزيدي (الأمام): ١٣١-١٣٢.

الشرقاوي، محمود: ٢١٧.

الشريف الزهار: ٢١٩.

شكر، محمد: ٣١٢.

شكيب افندي: ٢١١، ٣١٦.

شليشر، ليندا: ٩٩.

شمسي (الشاعر): ٧٣.

الشناوي، عبد العزيز: ٣٦.

شهاب، اسعد: ٣١٦.

الشهابي: بشير حسين (الامير): ٢٠٢-٢٠٣.

الشهابي: حيدر احمد (الامير): ٢٢٠، ٢٢٣.

الشهابي: منصور (الامير): ١١٧.

شو، ستانفورد: ١٧٢-١٧٣، ٢١٦، ٢٢٠.

الشوكاني: ٢١١.

شوكت، سامي: ٤٥.

شوقي، احمد: ٣٣٠.

الشيبي، كامل مصطفى: ١٣٨.

شيخ العربان (من بين جذام عبد الدايم بن بقر): ١٢٢.

الشيخ، رأفت غنيمي: ٣١٣.

شيفاليه، دومنيك: ٢١٥، ٢٢٣، ٣٣٣.

(ص)

الصابي الحراني: ٧٧.

صاري حسين باشا (والي الشام): ٢٤٠.

صائغ، سليمان: ٢١٣.

صالح، زكي: ٢١٨.

صالحية، محمد عيسى: ٥٠، ١٤٢.

صباح الأول (الشيخ): ٢٨٦.

الصباح، عبدالله السالم (الشيخ): ٢٩١-٢٩٢، ٣٠٠.

الصباح، ميمونة خليفة: ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٩٩-٣٠١.

الصباغ، ليلى: ٩٩، ١٤٠.

الصديقي، محمد بن ابي السرور البكري: ٢١٦.

صفدي، مطاع: ٤٦.

صلاح الدين الايوبي (السلطان): ٧٧.

الصلبي، كمال سليمان: ٢٢٣.

الصوفي، احمد: ٢١٧.

صولاق زادة، محمد جلبي: ١٣٩.

صيقلي، سمير: ٢٢٣.

(ض)

ضاهر، مسعود: ١٩، ٣١، ٥٠، ٢٢٢-٢٢٣.

ضياء باشا: ٣٢٤.

(ط)

الطاهري، عامر بن داود: ١٣٢.

الطباخ: ٢١٤.

الطبري: ٩٦.

طرابيشي، جورج: ٤٦.

طريف، جورج: ٥٤.

الطهطاوي: ٣٤.

الطوسي، نصير الدين: ٧٧.

طوسون بيك: ٢٥٢.

طومان باي: ١٢١-١٢٣.

(ظ)

ظاهر العمر: ١٩٦، ١٨٩، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٨٨.

الظاهري، خليل بن شاهين: ٢٦١.

(ع)

العابد، صالح: ٢٩٩.

عازوري، نجيب: ٣٤، ٣٣٠-٣٣١، ٣٣٣.

عاشق باشا زادة: ١٣٨.

عالي افندي (موثق): ٧٥.

عبده، محمد (الشيخ): ٣٣٠.

عبد الاله باشا بن محمد بن عون (الشريف): ٢٥٤-٢٥٥.

عبدالله باشا بن محمد بن عون (الشريف): ٢٥٢، ٢٥٤.

عبدالله بن سرور (الشريف): ٢٤٧.

عبدالله بن حسن بن ابي نمي (الشريف): ٢٣٨، ٢٥٣.

عبدالله بن الحسين (الشريف/ الملك): ٢٥٦-٢٥٩، ٢٦٦-٢٦٧.

عبدالله بن حسين بن يحيى بركات (الشريف): ٢٤٦.

عبدالله بن سعيد (الشريف): ٢٤٤.

عبدالله بن محمد بن عون (الشريف): ٢٥٤.

عبد الحميد الثاني (السلطان): ٢٤، ٣٤، ٣٩، ٤١، ١٢٤، ١٥٦، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٧، ٢٩١، ٣٢٦.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن: ٥٠، ٢١٦.

عبد الشكور المكي، عبدالله بن محمد: ٢٦٥.

عبد العزيز (السلطان): ١٥٦، ٢٦٥.

عبد العزيز بن ادريس (الشريف): ٢٣٨-٢٣٩.

عبد الغني، احمد شلبي: ٢١٦.

عبد الغني، عارف: ٢٦٨.

عبد الكريم، احمد عزت: ١٤٠، ١٩٨، ٢١٣-٢١٤، ٢٢١، ٢٢٣.

عبد الكريم بن محمد (الشريف): ٢٤٢.

عبد اللطيف، ليلى: ٢١٦.

عبد المجيد الأول (السلطان): ٣٩، ١٥٦، ١٧٣، ٣٢١.

عبد المحسن بن احمد بن زيد (الشريف): ٢٤٢.

عبد المطلب بن غالب (الشريف): ٢٣٤، ٢٥٣-٢٥٥، ٢٦٦.

عبد المعين (الشريف): ٢٤٧، ٢٥١.

عبد الملك، انور: ٣٢.

عثمان باشا: ٢٦٦.

عثمان باشا الصادق: ١٩٦.

عثمان بن ارطغرل (مؤسس الدولة العثمانية): ٥٦-٦٠، ٧٨، ١٥٣، ١٥٥.

العرشي، القاضي حسين بن احمد: ١٤٢، ١٧٥.

العرضي: ٢٢١.

عروج رئيس: ١٣٣، ١٩٤.

العروي، عبدالله: ٢٦،٣٢، ١٤٨، ١٦٧، ١٧٠-١٧١، ١٧٥، ٢٢٢.

عز الدين، يوسف: ٢١٨.

العزاوي: عبّاس: ٢١٧-٢١٨.

عزقول، كريم: ١٧٥.

عساف التركماني (الامير): ١١٧.

عطاالله، يوسف: ١٤٠.

العظم، اسعد باشا: ٢٤٥.

العظم، اسماعيل باشا: ١٨٠.

العظم، رفيق: ٢١١.

العظم، سعدالله باشا: ٢٠٧.

العقاد، عباس محمود: ٣٦.

علي باشا: ١٩١.

علي بن أبي طالب (رضي) الأمام: ٢٢٨.

علي بن الحسين (ملك الحجاز) (الشريف): ٢٥٦، ٢٥٩.

علي باشا بن عبدالله باشا (الشريف): ٢٥٥.

علي بن محمد بن عون (الشريف): ٢٥٤.

علي بيك الكبير (قابض الغمـــام): ١٨٨-١٨٩، ١٩٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٦.

علي بن سعيد (الشريف): ٢٤٢.

علي حيدر باشا (الشريف): ٢٥٥، ٢٥٨.

علي، علي شاكر: ٢١٧.

علي المرتضي (الأمام): ٢٢٨.

عمارة، محمد: ٣٦.

عمر باشا (والي بغداد): ١٩١.

عمر بن الخطاب (رضي): ١٥٨.

عمر، عمر عبد العزيز: ٢٢٠.

العمري، محمد امين الخطيب: ٢١٤.

العمري، ياسين الخطيـــب: ٣٨، ٧٧، ٨٩، ٩٧، ٩٩، ١٤١، ١٦٢، ١٨٢، ٢١٣-٢١٤، ٢١٨، ٤٦٤، ٢٩٩.

عهدي: ٧٣.

عون الرفيق باشا بن محمد بن عـــون (الشريـــف): ٢٥٤-٢٥٥.

عوني، محمد علي: ١٣٩.

عيتاني، محمد: ٤٣.

العيدروس، محمد حسن: ٣٠٢.

عيساوي، شارل: ٢٦، ٣٢، ٩٢.

عينتابلي، احمد عاصم: ٢٦٦.

(غ)

غارتز: ١٧٩، ٣٢٢.

غالب باشا (القائد): ٢٥٧.

غالب بن مساعد (الشريف): ١٣، ٢٤٥، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥١-٢٥٣، ٢٦٦.

غرايبة، عبد الكـــريم: ٣٧، ٢١٧-٢١٨، ٢٢٣، ٢٨٣، ٣٠٠.

غربال، محمد شفيق: ٤٦، ١٩٧، ٢١٥، ٢٢٠.

غران، بيتر: ٩٩.

الغزالي، جان بردي: ١١٧-١١٩، ١٨٧

الغزالي: محمد: ٣٦.

الغزّي: ٣٨، ٢٢١.

غليون، برهان: ٤٦.

غوانمة، هنادي: ٢٦٨.

غودينهو: ٢٨٠.

(ف)

الفاخري، محمد بن عمر: ٢٩٨.

فاطمة الزهراء (ابنة الرسول (ص)): ٢٢٨.

فائق، سليمان: ٢١٧-٢١٨.

فرانسوا الأول (ملك فرنسا): ١٣٤.

فريدون بيك (المؤرخ): ٧٦، ٢٦٢-٢٦٣.
فضلي (الشاعر): ٧٣.
فهيد (الشريف): ٢٣٥.
فوزي، طه: ٢١٥.
فوكو، ميشال: ٢٦، ٢٨، ١٤٧.
فون غرينباوم: ٩٦.
فون كولتز (الجنرال): ٣٢٣.
فيصل بن الحسين (الشريف/ الملك فيصل الأول): ٢٥٦-٢٥٨.
فيلبي، عبدالله: ٢٧٣، ٢٩٦.

(ق)

قاسم بيك: ١١١.
قاسم باشا (كوزلجه): ١١٩.
قاسم بيك (قائد القوات المصرية): ٢٣٨.
قاسم، احمد: ٣١٠.
قاسم، جمال زكريا: ٣٠٠.
القاسمي، الشيخ محمد سعيد: ٢١٤.
القادري، محمد: ١٧٥.
القازوقجي، حسين باشا (الوزير): ١٨٣.
قراجا باشا: ١١٩.
قانصوه باشا (امير الحاج): ٢٣٦.
القاضي الفاضل: ٧٧.
قتادة بن ادريس بن مطاعن (الشريف): ٢٢٨.
قدري، احمد: ٢٦٧.
قره خان، عبد القادر: ٣٢٤-٣٢٥.
قرم، جورج: ٢٦.
قرقوط، ذوقان: ٢١٧.
قره خان، اوستاجلو: ١١٠-١١٢.
قره مصطفى باشا: ١٥٦.
القرضاوي، يوسف: ٣٦.
القسنطيني، كراي: ٣٣٠.
قطب، سيد: ٣٦.
قطب، محمد: ٣٦.
القفطي (الوزير الكاتب): ٧٧.
قندرلي خليل باشا (الوزير الاعظم): ٦٤.
قوجي بيك: ٧٦.

(ك)

كاتب جلبي (حاجي خليفة): ٧٦-٧٧، ٩٧، ٢٦٢، ٢٦٤.
الكاتب (عبد الحميد): ٧٧.
الكاتب، محمد: ٢١٩.
كاربات، كمال: ١٤٨.
كالفن: ١٥٢، ٢٠٨.
كاليسو: ٢٨.
كافن، بيرون: ٣٢٢.
كاهن، كلود: ٩٧.
الكركوكلي، رسول حاوي: ٢١٧-٢١٨.
الكرملي، انستاس ماري: ١٤٢.
كريسيليوس، دانيال: ١٢٥، ١٤١، ١٧٢، ٢١٦، ٣٣٢.
كريموف، قاسم بن محمد: ٣١٨.
كشك، محمد جلال: ٣٦.
الكعبي، الشيخ فتح الله: ٣٠٠.
كمالي، سليمان شفيق بن علي (سويله مز اوغلو): ٢٦٧.
الكواكبي، عبد الرحمن: ٣٤-٣٥.
كولراني، وجيه: ٣٢، ٥٠، ٥٢، ٩٤، ٢٢٢-٢٢٣، ٣١٩، ٣٣٣.
كورتبيتر، كارل ماكس: ٣٢٣.
الكورسيكي، مراد باي: ١٨٤.
كوسنيه: ٢٠٩.
كولولنا، فانا: ٢٢٢.

كيالي، حسن: ٣٢٧.
كيلي، ج.ب: ٣٠٢.
كيمب، برسي: ٩٩، ١٧٢،٢١٣.
(ل)
لازار: ٦١.
لبكي، بطرس: ٢٢٣، ٣١٦.
لنـزا، دوميكو: ٢١٣.
لوثر، مارتن: ١٥٢، ٢٠٨.
لوري، هيث: ١٧٢.
لوريمر، ج.ج: ٢٧٦، ٢٩٦، ٢٩٨.
لونكريك، س.هـ: ١٧٢، ٢١٧، ٢٧٨، ٢٩٣.
لويس، برنارد: ٩٦، ٢٢٢.
لويس الرابع عشر (ملك فرنسا): ٢٦٥.
ليفين، ز.أ: ٢١٨.
(م)
ماتوك، جون: ١٩.
ماركيز، وليم: ٢٦.
ماندفيل (المؤرخ): ٢٩٨.
مانع بن راشد (الشيخ): ١٢٩، ٢٧٥، ٢٧٧.
الماوردي أبو الحسن: ٧٧، ٩٦، ٩٩.
مبارك (الشريف): ٢٤٤.
المتوكل العباسي (الخليفة): ١١٧، ١٢٣-١٢٤، ١٥٤-١٥٥، ١٨٧.
متولي، محمد فؤاد: ١٤٠.
محافظة، علي: ١٩.
المحبي، محمد امين بن فضل الله: ٣٨، ١٤١، ١٦٢، ١٧٤، ٢١٤، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٦٣-٢٦٤، ٢٦٦.
محسن بن حسين (الشريف): ٢٣٥-٢٣٧، ٢٤١.
محمد (صلى الله عليه وسلم): ٢٢٧، ٢٤١، ٢٥٠.
محمد الأول (السلطان): ٦٣.
محمد بن ابي نمي (الشريف): ٢٣٣.
محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله (الشريف أبو هاشم): ٢٢٨.
محمد بن عون (الشريف): ١٣، ٢٥٣-٢٥٤،٢٥٦، ٢٦٦.
محمد بن عبدالله (الشريف): ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤٥.
محمد بن عبدالله بن سعيد (الشريف) : ٢٤٤.
محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن (الشريف): ٢٥٣.
محمد بن عبد الوهاب (الشيخ): ٢١١، ٢٤٥، ٢٥١.
محمد بن مساعد (الشريف) : ٢٤٧.
محمد بن مسعود (الشريف): ٢٣٨.
محمد الثاني بن بركات (الشريف): ١٥١.
محمد الرابع (السلطان): ١٦٧، ٢٤١
محمد علي باشا (والي مصر): ١٣، ٢٤، ١٨٢، ١٨٨-١٨٩، ٢٠٥-٢٠٧، ٢١٠-٢١١، ٢٢٢، ٢٤٨، ٢٥٢-٢٥٤، ٢٦٦، ٢٩٠، ٣٠١، ٣٢٣.
محمد الفاتح (السلطان): ٣٩، ٦٤-٦٦، ٧١، ٧٨، ١٤٥، ١٥٨، ٢٣١-٢٣٢.
محمود الأول (السلطان): ١٨٣.
محمود الثاني (السلطان): ٣٩، ١٥٦، ١٨٦، ١٩٢، ٢٤٩، ٢٥٢، ٣١٨، ٣٢٠-٣٢١.
مدحت باشا (والي بغداد): ١٤، ٧٦، ٢٧١، ٢٨٩-٢٩٣، ٣٢١.
المدني، احمد توفيق: ٢١٨-٢١٩.
المدني، امين بن حسن: ٢١٨.
مراد (الباي): ١٨٤.
مراد الأول (السلطان): ٦١-٦٢، ٧٠.

مراد الثـــاني (الســـلطان): ٦٣-٦٤، ٧٠، ٢٣٠، ٢٣٢.

مراد، خليل علي: ١٤٠، ٢٦١.

مراد الرابع (السلطان): ١٣٣، ١٦٧، ٢٣٦

مراد، علي: ٣٢٤.

المرادي، محمد خليل: ٣٨،١٦٢، ١٧٤، ٢١٣-٢١٤.

مساعد بن سعيد (الشريف): ١٣، ٢٤٥-٢٤٦.

مسعود بن ادريس (الشريف): ٢٣٦-٢٣٧.

مسعود بن حسن (الشريف): ٢٣٤.

مسعود بن سعيد (الشريف): ٢٤٤-٢٤٥.

مصطفى، احمد عبد الرحيم: ٥٠،٩٥،١٤٨،١٧٠.

مصطفى الثالث (السلطان): ٢٤٥.

مصطفى الثاني (السلطان): ٢٤١، ٢٨٤، ٣٠١.

مصطفى، محمد: ١٤٠، ١٧٤، ٢١٦، ٢٦٣.

مصلح الدين (الامير): ٢٣٢.

المطهر (الامام): ١٣٢-١٣٣.

مظهر، كمال: ٢٢٢.

معاوية بن أبي خليفة (الخليفة): ١٥٨.

المعلوف، الاب لويس: ٢٢٣.

المعني، احمد (الامير): ٢٠٢.

المعني، فخر الدين الأول (الامير): ١١٧، ١٥١.

المعني، فخر الدين الثاني (الامير): ٢٢١، ٢٢٣.

المقريزي: ٩٦.

مكثر بن عيسى (الامير): ٢٢٨.

منتران، روبرت: ٢٦، ١٧٥، ٢٧٨، ٢٩٧.

المنجد، صلاح الدين: ٢١٤.

المنصور، عبد العزيز: ٣٠٢.

المنصور القاسم بن محمد (الأمام): ١٣٣.

المهدي، محمد: ٢١١.

الموزعي، عبد الصمد: ١٤٢.

موسى، سليمان: ٢٦٨.

مولاي رشيد: ٢٠٦.

مولدر: ٢٨.

ميكال، الدريه: ٢٨، ١٥٢.

ميكاكي، رودلفو: ١٧٢، ٢١٥.

(ن)

نادر شاه: ١٣٩، ١٨٢-١٨٣، ٢٠٧-٢١٤.

نامي (نمي) بن عبد المطلـــب (الشريـــف): ٢٣٨-٢٣٩.

النبهاني، تقي الدين: ٣٦.

النبهاني، الشيخ محمد: ٣٠٠.

نجيب باشا: ١٨٦.

الندوي، أبو الحسن علي الحسني: ٣٦.

نظمي زاده، مرتضي افندي: ٢٩٩.

نظمي، وميض: ٢٢٢.

النقيب، خلدون: ٣٢، ١٠٠، ١٤٨، ١٧٠.

النهروالي، الشيخ قطـــب الديـــن: ١٤١، ١٦٢، ١٧٤، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٦٢-٢٦٤.

نوّار، عبد العزيـــز: ٢٠٦، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٩٩، ٣٠١.

نورس، علاء: ٢١٧-٢١٨، ٢٩٩.

نورس، موسى كاظم: ٢١٧.

(هـ)

هاشم (جد الرسول ص): ٢٢٨.

هاني اوغلو، م.س: ٣٢٦.

هريدي، صلاح: ٣١٠.

هولاكو: ١٥٣.

هولت، ب.م: ١٧٢، ٢١٦.

هودكسن، مارشال: ٩٢.

(و)

واتر بوري، جون: ١٧٢.

واصف، احمد: ٢٦٥.

وحيدة، صبحي، ٢١٧.

الورتلاني: ٢١٩.

الوردي، علي: ٢٢٢.

وهيم، طالب محمد: ٢٦٨.

وولف، جون: ١٧٢، ٢١٩.

ويستنفلد، فرناند: ١٤١، ١٧٤، ٢٦٢.

(ي)

اليازجي، كمال: ٢٢٠.

ياسين، رشيدة: ٣١٣.

اليافعي: ٣٨.

يحيى بن بركات (الشريف): ١٣، ٢٤٢-٢٤٤.

يحيى بن سرور (الشريف): ٢٥٢-٢٥٣، ٢٦٦.

ثالثاً: فهرس القبائل والدول والشعوب والملل والارساليات والحركات

(أ)

الاباضية (الاباضيون): ٢٢٢، ٢٨١.

الاتحاديون: ٤١، ١٤٥، ٢٥٧، ٣٢٧-٣٢٨.

الاتراك: ١٣٠، ١٤٨، ١٥١، ٣٢٦، ٣٣٠.

الاحباش: ٧٣.

أخيضر (اولاد): ٢٢٨.

الارثوذكسية الشرقية (الكنيسة): ٦٥.

الارساليات البروتستانتية: ٣١٧.

الارساليات الكاثوليكية: ٣١٧.

الارسلانيون: ٢٢١.

الارمن: ٧٣، ٨٣، ٣١٥.

اسبارطة (نظام)/ الارسبارطيون: ٦١، ٧٢.

الاسبان: ١٣٣، ١٣٥، ٣١٠.

الاسماعيلية: ٢٢١.

الاشراف (إشراف/ شرفاء مكة): ١٨، ٧٣، ١٣٧، ١٦٤-١٦٦، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٠-٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٥-٢٣٧، ٢٣٩، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٨١، ٣٠٨.

افراسياب (آل): ٢٢١، ٢٧٩-٢٨٠، ٢٨٢-٢٨٣، ٢٩٩-٣٠٠.

الاق قوينلو (بلاط/ دولة): ١٠٣-١٠٤، ١٠٩.

الاكراد: ٧٣، ١١٠، ١٨١.

الالبانيون (الارناؤوط): ٦٥، ٧٣.

البوسعيد (الالبوسعيديون): ٤٢، ١٦٥، ٢٠٤، ٢٢١.

آل البيت (آل محمد (ص)): ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٤١.

الالمان: ٤٠.

الامازيغ: ٢٢٢.

الامويون (بنو امية): ٣٧-٣٨، ٤٤، ٧٧، ٨٢، ١٥٨، ٢٠٢، ٢٨٧.

الانكليز: ١٩١-١٩٢، ٢٥٨، ٢٨٠، ٢٩١، ٣١٥.

الاوراسيون: ١٤٨.

الاوغوز: ٥٩-٦٠.

الايرانيون: ١٢٨، ١٣٠.

الايطاليون: ٣١٥.

الايلخانيون: ٦٧.

الايوبيون (الدولة الايوبية): ٧٧، ٢٢٨.

(ب)

البلغار: ٦١، ٦٨، ٧٣.

البابانيون (آل بابان): ٢٠٢، ٢٢١، ٢٧٨، ٢٨٨، ٣٠٨.

البربر: ٧٣

البرتغاليون: ١٠٧، ١١٥، ١٢٦، ١٢٩-١٣٢، ١٦٦، ٢٣٤، ٢٧٤-٢٧٥، ٢٨٠.

البرقاوية: ٢٢٢.

آل بركــات (الاشــراف): ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٦٠.

البريطانيون: ٢٩١.

البهدينان (البهدينانيون): ٢٠٢، ٢٢١.

البوشناق: ٦١، ٧٣.

البيزنطيون (بيزنطة): ٥٩-٦١، ٦٤، ٦٨، ٧٨، ١٥٧.

(ت)

التتار: ١٥٥.

التتار الكرميان: ٧٣.

التركمان/ التركمانيون: ٦٤، ٦٩، ٧٣، ٧٧، ١٠٦.

الترك/ الاتراك: ٦٨،٧٣،٧٧.

التنوخيون (بنو تنوخ): ١١٨،٢٢١.

توات (قبيلة): ٣٠٨.

التونسيون: ٤٤.

التيموريون: ٦٥.

(ث)

(ج)

الجراكسة: ٧٣.

الجلاليون: ١٦٢، ١٩٢.

الجلاهمة: ٢٨٣.

الجلفية: ٨٢.

الجليليون (الاسرة الجليليـــة/ آل الجليلـــي): ٨٩، ١٤٠، ١٧٩-١٨٢، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٤٤، ٢٧٨، ٢٨٨، ٣٠٨.

آل جميل زادة: ٢٢١

الجنبلاطية (الجنبلاطيـــون)/ آل جـــانبولاد: ١١٩، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٢١، ٣١٦.

آل الجيار: ٢٢١.

(ح)

حرب (بنو): ٢٤٦.

الحرفوش (بنو): ٢٠٢، ٢٢١.

الحسينيون (الاوائل): ٢٦٠.

الحسينيون (الاسرة الحسينية): ٤٢، ١٧٩، ١٨٣-١٨٥، ١٨٧، ٢٠٤، ٢٢٢، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٠٨، ٣٢٢.

الحفصيون: ١٨٤، ٣١٠.

آل حمادة: ٢٢١.

آل حميد (من بني خالد): ٢٧٦.

آل حميد الدين: ٢٢٢.

(خ)

بنو خالد (الخوالد): ٢٢١، ٢٧٦، ٢٧٨-٢٨٠، ٢٨٣-٢٨٥، ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٦.

آل خليفة: ٢٨٣.

الخليفيات (عشائر): ٢٨٤.

الخوجكانية (طريقة): ٩٠.

(د)

الدايات: ١٩٤، ٢٠٤، ٢٠٧.

الـــدروز: ١٩٦، ٢٠٢، ٢٢١، ٣٠٩، ٣١٦-٣١٧.

الدلاتية: ١٨١.

(ذ)

(ر)

الروم: ٧٩.

الروم الارثوذكس: ٣١٧.

الروم الكاثوليك: ٣١٧.

الرومان/ الامبراطورية الرومانية: ٧٢-٧٣.

آل الرشيد: ٢٠٢، ٢٢١، ٢٧٢، ٢٨٣، ٢٨٨.

(ز)

الزايد (اسرة): ٢٨٣.

زوارة: ٢٢٢.

بنو زياد: ٢٢١.

الزيادنة: ٢٢١.

الزيديون (الائمة): ١٣٠، ١٣١٢، ١٦٥، ٢٠٤، ٢٨١.

الزيديون (ذوو زيد من الاشراف): ٢٢٢، ٢٣٨-٢٣٩، ٢٤١-٢٤٦، ٢٤٨،٢٥٣-٢٥٥، ٢٦٠.

(س)

السادة: ٢٣٠.

آل السعدون: ٢٠٢، ٢٢١، ٢٩٠.

السعديون: ١٣٥، ١٦٦، ٢٠٣، ٢٢٢.

آل السعود (السعوديون): ٢٢١، ٢٢٨، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٩-٢٦٠، ٢٧٢، ٢٨٣، ٢٩٠.

السعودية (الدولة الأولى) : ٣٤.

السكبان: ٢٩٨.

السلاف: ٧٣.

السلاجقة (الدولة السلجوقية): ٦٠، ٦٢، ٦٥، ٦٧-٦٩، ٧٨، ١٥٧.

سلاجقة الروم: ٦٠، ٧٣.

السليمانيون: ٢٦٠.

السوران: ٢٢١.

السوريون: ٤٤، ٣١٥.

السنوسيون (بنو/ الزوايا السنوسية: ٤١، ٩٠.

سيفا (بنو) : ٢٢١.

(ش)

آل الشاوي: ٢٠٢، ٢٢١.

الشاوية: ٢٢٢.

آل شبيب: ٢٢١.

شمر (قبائل): ٢٢١، ٢٩١.

الشهابيون: ١٩٧، ٢٠٢-٢٠٤، ٢٠٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٠٨.

الشيبانية (طريقة): ٩٠.

الشيعة الاثنى عشرية: ٣١٧.

(ص)

آل الصباح: ٢٨٣، ٢٨٨

الصربيون العرب: ٦١، ٦٨

الصفويون (الاسرة الدولة الصفوية): ١١، ١٠٣-١٠٤، ١٠٦-١٠٧، ١١١، ١١٤، ١٢٥-١٢٧، ١٣٨.

الصليبيون: ٦٤.

الصليحيون: ٢٢١.

الصوفية (ربط): ٨٥.

(ض)

(ط)

الطالبيون (آل ابي طالب): ٢٣٠.

الطاهرية (الاسرة): ١٣١.

طرباي (اسرة): ٢٢١.

الطائفة السنية (لبنان):٣١٧.

الطليان: ٧٣.

الطوائف اللاتينية: ٣١٧.

(ظ)

(ع)

العبادلة (الشرفاء): ٢٣٨-٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٠.

العباسيون بنو العباس (الخلافة/ الدولة): ٣٧-٣٨، ٤٤، ٦٥، ٦٨، ٧٧، ٨٢، ٨٧، ١٢٣، ١٢٥-

١٢٦، ١٣٦، ١٤٧، ١٥١، ١٥٨، ١٦٢،
١٨٧، ٢٠٢، ٢٣٠، ٢٨٧.
العبدليون: ٢٢٢.
العتوب: ١٤، ٢٠٢، ٢٢١، ٢٨١-٢٨٥، ٢٨٩، ٣٠٠.
العثمانيون (آل عثمان): (وردوا في اغلب الصفحات).
العراقيون: ٤٤.
عربان البحيرة: ٢٢٢.
عساف (بنو): ٢٢١.
آل العظم: ٨٩، ١٧٩-١٨٢، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٠٨.
العلويون (السلاطين) ٤٢، ١٣٥، ١٦٦، ٢٠٣-٢٠٤، ٢٢٢، ٢٣٠.
آل علي: ٢٠٢، ٢٢١.
العمريون: ١٨٠.
العولقيون: ٢٢٢.
ذوو آل عون: ٢٥٤-٢٥٥.

(غ)

الغزنويون: ١٤٧.

(ف)

الفاطميون: ٤٤، ٢٣٠.
الفرس: ٧٤، ١٥١.
فرسان القديس يوحنا: ٦٦، ١٣٤-١٣٥.
الفرنسيون: ١٠، ٤٠، ١٩١، ٣١١، ٣١٥.
الفقاريون: ١٨٨، ٢٠٧.
الفونج: ٢٠٢، ٢٢٢، ٢٨٨، ٣٠٨.
الفيلاليون (سلاطين المغرب): ١٦٦.
الفينيسيون: ٦٦.
الفينيقيون: ٤٤.

(ق)

قابي (عشيرة): ٦٠.
القاجارية: ٩٤.
القادريون (امارة ذوو القدر/ القادرية): ٦٧، ٧٩، ١٠٨، ١١٥.
القازدغلية: ٨٢.
القاسميون (القاسمية) (مصر): ١٨٨، ٢٠٧.
القبجاق: ٧٣.
القبائل الصغرى: ٢٢٢.
القبائل الكبرى: ٢٢٢.
القبيلة الذهبية: ٩٠.
القتاديون (آل قتادة الاشراف): ٢٢٨، ٢٦٠.
القرمانليون (الاسرة): ١٧٩، ١٨٦، ٢٠٤، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٠٨.
القرماليون: ٦٢-٦٤.
القرمطية (الاخويات): ٨٥.
القريشيون: ١٨.
قريش: ٢٢٧.
القزلباش (التركمان): ٦٧، ١٠٤، ١٠٦.
القواسم (الخليج العربي): ٢٢١.
القوزاق: ٨٠.
القيسية: ١٩٨، ٢٠٣، ٣١٦.

(ك)

الكراغلة: ٨١.
الكرج: ٧٣.
الكشايرية: ٨١.
آل كوبرلو (اسرة): ١٦١.
الكيلانية (طريقة/ اسرة): ١٠٣، ٢٢١.
الكثيريون: ٢٢١، ٢٨٨.

(ل)

اللبنانيون: ٤٤، ٣١٥.

(م)
المتاولة: ٢٠٢، ٢٢١.
محسن (بنو) (شرفاء): ٢٣٧.
المراديون (التوالسة): ١٨٠، ١٨٣–١٨٤، ٢٢٢.
آل مرة: ٢٠٢، ٢٢١.
المسابلة: ٨٢، ٩٠.
آل مسلط باشا الملحم (رواسي الجبور)، (الجزيرة الفراتية): ٢٢١.
المسيحيون: ٦٩، ٨٤، ٣١٣، ٣١٥–٣١٦، ٣١٩.
المشعشعيون: ٢٢١.
المشيخات الخليجية (الاتحادية والقبلية): ١٦٤–١٦٦، ١٩١، ٣٠٨.
المصريون: ٤٤.
المطلبيون (بنو عبد المطلب/ شرفاء): ٢٣٧.
المعنيون (آل معن): ١١٩، ١٣٧، ٢٠٢–٢٠٣، ٢٢١.
المغول التتار: ٥٩–٦٠، ١٢٢–١٢٣، ١٨٧
المماليك (العبيد): ١١، ٦٥، ٧٧، ١٠٧–١٠٨، ١١٤، ١١٦، ١٢٢، ١٢٤–١٢٥ ١٤٩، ١٨٧–١٩٠، ٣٠٧.
المماليك (الدولة المملوكية في مصر) ١٠٣، ١٠٨، ١١٠، ١١٥–١١٦، ٢٢٨.
المماليك (البحرية): ١٢٢، ١٨٧.
المماليك (البرجية): ١٢٢، ١٨٧.
المماليك (الكشاف): ١٨٨.
مماليك (القاهرة): ١٥٥،٢٠٤.
المماليك (الجراكسة): ١٢١–١٢٢، ١٣٥–١٣٧.
المماليك (السلاطين): ٦٥.
المماليك الكولة منذ في بغداد): ٨٢،١٩٠–١٩١، ٢١٧–٢١٨، ٢٤٤.
المماليك (الكيرليميون في بغداد): ١٩٢، ٢٠٤.
المماليك (الباشوات في بغداد): ١٩٠.
المنتفك (قبائل): ٢٩٠.
المهدية: ٤١.
الموارلة: ٣١٦–٣١٧.
الموسويون (الاشراف): ٢٢٨، ٢٦٠.
الموريسكيون: ١٣٣، ١٣٦.
(ن)
بنو نجاح: ٢٢١.
النجديون: ٢٩٤.
النصارى المسيحيون: ٨٣.
النصارى السوريون: ٧٣.
النصيرية: ٢٢١.
النقشبندية (طريقة): ٩٠.
(هـ)
الهابسبورك: ١٣٤، ١٥٦، ١٦٧.
الهاشميون/ الهواشم (الاشراف/ الملوك): ٤٢، ٨٥، ١٦٦، ٢٢٧–٢٢٨، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٧.
بنو هلال: ٢٠٢، ٢٢٢.
الهنغار: ٧٣.
الهوارة (شيوخ): ٢٢٢.
الهولنديون: ١٦٦، ٢٧٩–٢٨٠.
الهولة (عشائر): ٢٨٤.
(و)
الوهابيون: ١٣، ٤١، ٢٥١، ٢٦٦، ٢٩٠.
(ي)
اليافعيون: ٢٢١.

اليزبكية:٢٠٣، ٣١٦.

اليزيدية: ٢٢١.

اليعاربة (الائمة): ١٦٥-١٦٦، ١٧٥، ٢٢١.

بنو يعفر: ٢٢١.

اليمانية (القبائل): ١٣٢، ١٩٨، ٢٠٣، ٣١٦.

اليونان (اليونانيون): ٧٣، ٣١٥.

اليهود: ١٤، ٦٩، ٧٣، ٨٣، ٨٤، ٣١٣-٣١٥، ٣١٧، ٣٣١.

رابعاً: فهرس المصطلحات والالقاب والحركات

(أ)

الاتحاديون (الاتراك): ٢١١-٢١٢.

الاحتساب (الحسبة): ٨٧-٨٨، ٩٩.

الاختام: ٢٤٩.

الآخية: ٨٥.

الادارات النيابية (النيابات): ٢٥٠.

الاديرة المسيحية: ٩١.

الاسطول العثماني: ١٢٣، ١٣١.

الاشتراكية: ٤٥.

الارشيف العثماني: ٣٠٧، ٣٢٦.

الاطراف العربية: ٢٤-٢٥.

اغا بيت المال: ٣١١.

اغا القفطان: ٢٤٩.

اغا الانكشارية: ٢٤٦.

الاعيان (نظام): ١٦١.

الاغوات (اغوات الجيش): ٧١-٧٢، ٨١، ١٥٠.

اغوات الداخل: ١٥٠.

ارضروم الأولى (معاهدة): ١٩١.

الافندية: ٧١.

اقتصاد البازار: ١٢، ١٧٩-١٨٠، ٣٢٢.

اقتصاد العالم: ٣٢٢.

الاقجة العثمانية: ٧٦.

الاقطاع (العسكري/ العسكرية): ١٥٥، ١٥٩.

الاقطاعيون (الزعماء): ٧١.

الاكليروس: ٣١٦.

الآي (السرية): ٧٠.

الالتزام (نظام): ١٤، ١٥٤، ١٥٩، ١٦١، ١٧٢، ٣٠٧.

الاندرون: ٢٤٩.

الانكشارية (الجيش الانكشاري، يكي جرى): ٦١-٦٢، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٩٢، ١٠٥، ١٢٣، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٢، ١٨١، ١٨٥، ١٩٠، ١٩٧-١٩٨، ٣١١، ٣٢٠.

الامتيازات: ١٥٩.

الامصار: ١٥٣، ٣٠٧.

امير الحاج: ٢٣٤.

امير الحاج (المصري): ٢٤٥.

امير اليمن: ١٣٠.

اهل الخبرة (الحرفة): ٨٦.

الاوجاقات (الاوجاق) ٢٤، ٧١، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ٢٨٨، ٣٠٨.

الاورطات: ٨١، ١٨١.

الاوليغاريات العسكرية: ١٨.

اياله (ولاية) بايلربيك): ٧٨، ١٢٩، ٢٧٨.

الائتلافيون (الاتراك): ٢١٢.

(ب)

الباب العالي: ١٣٢، ١٦١-١٦٢، ١٨٦، ٢٦٦، ٢٨٤، ٣١١، ٣٢٢.

الباشوية (الوزارة)/ الباشوات: ٧٢، ٢٤١، ٢٤٣.

البازار الايراني: ٩٠.

البازار الشرقي: ١٠٧-١٠٨، ٢٧٩.

بازار العالم: ١٨١.

بايلر باي/ بايلر بايلك: ٢٧٧.
بايلكات: ٣١١.
الباي (لقب): ٦٧.
البايات (نظام): ١٨٤، ٣٢٢.
البلاط العثماني: ١٠٥، ٢٣١، ٢٣٣-٢٣٤، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٦، ٣٠٨، ٣٢٢.
البلديات: ٣٢٠.
البلوكات: ٨١، ١٩٨.
البكتاشية: ٣٢٠.
بكري وبوشناق (مؤسسة): ٣١٣.
بكلربكي (امير اللواء): ٢٥٦.
البيارق: ١٩٨.
بيكلر بيكات (بيك البيكات): ٧٠، ٧٢، ٧٨، ١٥٠.
البكوات: ٧٠، ١٥٠.
البورصات: ٩١.
البورصة التجارية (سالونيك): ٩٠.
بورصة التمور (البصرة): ٩٠.
بيت المال: ٣١١.
البيداستانات: ٩٠.
البيرقراطية العثمانية: ١٤٧، ١٥٢.
البيكات: ٧١-٧٢، ٨٠.

(ت)

التاريخانية (منهج): ٢٧، ٣١.
التتريك: ١٥٧.
التخوم: ١٥٧.
تركيا الفتاة (جمعية): ٣٢٦-٣٢٨.
التشريع القنصلي: ٣١٤.
التكية الكيلانية: ١٢١.
التنظيمات العثمانية: ١٥، ٢٤، ٣٣، ٩٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٦، ١٦١، ٢١١، ٣١٨-٣٢٠، ٣٢٦.
التيمارات / التيمار: ٦٢، ٨٠، ١٥٤، ٢٧٨.

(ث)

الثغور: ١٥٢، ١٥٧.
الثورة العربية الكبرى: ٢١٠، ٢٥٥، ٢٥٨.
الثورة الفرنسية: ١٨٦، ٢٠٨، ٢١١، ٣٢٧.

(ج)

الجامعة الإسلامية: ٣٦، ٣٩.
جبهة قتال السلطان: ٦٠.
الجلبية: ٨١.
الجيش العربي: ٢٥٨.

(ح)

حامي الحرمين الشريفين (خادم الحرمين الشريفين): ١٢١، ١٢٤، ١٦٢.
الحروب الصليبية: ١٩٥.
الحروب الفارسية: ٦٣.
الحريم (مؤسسة): ٧٢، ١٥٩.
حزب الحرية والائتلاف: ٢١٢.
الحكومة العربية في دمشق: ٢١٠.
الحملة الفرنسية على مصر: ٢١٠.

(خ)

الخانقات: ٩١.
الخزنجية: ٧١.
الخديوي: ٣٢٥.
الخطبة: ٢٥٠.
خطي شريف كولخانه : ٢١١، ٣١٧، ٣٢١.
خطي شريف همايون: ٣١٧، ٣٢٦.
الخلافة الإسلامية: ٣٧، ١٢٤.
الخواص: ١٥٤.

الخيالة (المسلمون/ الاسلام): ٧٠.

(د)

دار الاسلام: ٣٧، ٤٠، ١٥١، ١٥٧.

دار الحرب: ٤٠، ٧٨، ١٥١، ١٥٧، ١٥٨.

دار السلطان: ٣١١.

دار السلطنة: ٢٥٢.

الداي (الدايات): ٤٢، ١٩٥، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٠٨، ٣١١.

الدرقة (فترة): ١٥٨.

الدستور العثماني: ٣١٨.

الدفاتر العثمانية: ٣٠٨.

الدفاترة (دفتر دار / دفتردارات): ٧١-٧٢، ٨٠، ١٥٠.

دفتر الاملاك: ٣٠٦.

الدفشرمة (الدوشرمة): ٦١، ٧٠، ٩٥.

الدواخل العربية: ٢٤-٢٥، ٢٧.

الدوكا (الاسبانية): ٣١١.

الدينار (الناصري الحفصي): ٣١١.

الديوان (المجلس الهمايوني السلطاني): ٦٩، ٧٥، ١٤٩، ١٥٢، ١٧٠.

الديواني (الخط): ٢٤٩.

(ذ)

(ر)

الرأسمالية الصناعية- الاوروبية: ٩١.

الرسائل السلطانية: ١٥٢.

الركب (الشامي) للحج: ٢٤٩، ٢٦٧.

الركب (المصري) للحج: ٢٤٩.

ريّاس البحر (طائفة): ١٣٧، ١٥٩.

(ز)

الزعامات: ١٥٤، ١٩٤، ٢٨٨، ٣٠٨.

الزعامات (المحلية)/ القوى: ٨٢.

(س)

السالنامات: ١٤٥.

الساليانة: ٨٠، ٢٧٨.

الصانع: ٨٦.

السباهية (الفرسان): ٦٢، ٧٠-٧١، ٨٠، ١٤٩، ١٥٩، ١٩٧.

السراي: ٢٤٥.

السكبان باشي: ٢٤٦.

سكة حديد الحجاز: ٢٥٧.

السلطان (لقب): ٦٧.

سلطان الروم: ٦٢.

سنجق باشي: ٢٧٨.

سنجق بيك: ٢٧٨.

سنجق (لواء/ نظام): ٧٠، ٨٠.

(ش)

الشرافة: ١٥٩.

شريف مكة: ١٨٩، ٢٣١.

الشنلك (الكرنفال): ٨٦.

الشيخ (للصنعة): ٨٥.

شيخ الاسلام (مفتي الدولة): ٣٧، ٧٢، ١٥٩، ١٦٢.

شيخ الاصناف (شيخ المشايخ): ٨٦.

شيخ البلد (مصر): ١٨٨.

الشوفينية: ٤٥.

(ص)

الصرّة: ١٣، ٢٤٤.

صرة استانبول: ٢٤٠.

الصرة العثمانية: ٢٦٧.

الصهيونية(حركة): ٣٢٩.

الصيرفة: ٣١٣.

(ض)

(ط)

الطابو دفتري: ٣٠٩.

الطرائق الصوفية: ٨٤.

الطغراء: ١٥٢، ٢٤٩.

(ع)

العتر الشريفة: ١٣.

العثمنة: ٣٢٧.

عسكر الحنفية: ٨١.

عسكر الروميللي: ٢٤٦.

عزيز مصر: ١٨٩.

العلوفات: ١٩٨.

عهد الامان: ٣٢٢.

(غ)

الغازي: ٦٧.

(ف)

فاتح بغداد: ١٦٧.

الفاشية: ٤٥.

الفتوة (آداب): ٨٥.

الفرامين (الفرمانات): ٧٥، ١٥٢، ٣٠٧.

(ق)

قاضي عسكر الاناضول: ٢٤٦.

قاضي عسكر العرب: ١١٢، ٢١٢.

القانون الاساسي: ٣٢٢.

قانون الطاطو: ٣٢١.

القالونامة/ القالونامات/ قوانين نامة لر: ١٢، ١٤، ٤٨، ٦٦، ٧١، ٧٨، ١٤٧، ١٥١-١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩-١٦٠، ١٦٣، ٢٧١، ٢٧٧، ٣٠٧، ٣٣٢.

قالونامة البصرة: ٢٧٨.

قالونامة مصر: ١٢٥.

قائمقامية: ٢٩٢.

قبودان باشي: ١٣٤.

القرصنة: ١٩٣، ١٩٥، ٢١٩.

قراصنة البحر: ٢٣٤، ٢٩٣.

القرصنة الاسبانية: ١٣٣.

قضاة العسكر: ٧٢.

القضية الفلسطينية: ١٥، ٣٢٨-٣٢٩.

القوانين العثمانية: ٢٥١.

القومية التركية: ١٥.

القومية العربية: ١٥، ٣٣٣.

القومية المثالية: ٤٥.

القوناغات: ١٩٧.

القوى الفاعلة: ٨٨، ٩١-٩٢.

القوى المحلية: ٨١، ٨٩- ٩٠، ٩٩.

(ك)

الكادستراي: ٣٠٧.

الكمالية: ٤٥.

الكاغتجي باشي (رئيس الوراقين): ٢٤٩.

الكتخدا: ٨٥-٨٦.

الكميرودارات: ٩١.

(ل)

اللامركزيـــة: ١٤، ١٤٨-١٥٠، ١٥٥-١٥٧، ١٦٠، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٦-١٨٩، ١٩١، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٨-٢٠٩، ٢١١-٢١٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٦٤، ٢٧٢، ٢٧٦-٢٧٧، ٢٨٦، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٢، ٣٢٦.

حزب اللامركزية الإدارية العثماني: ١٤٥-١٤٦، ٢١١-٢١٢، ٢٢٣.

اللواحق العراقية: ١٢٨.
الليبرالية الوطنية: ٣٣.
الليـــنيـــنـــية: ٤٥.
(م)
الماركسية: ٤٧.
الماركنتالية الاوروبية: ١٤٨.
الماركنتالية الدولية: ١٢٩.
الماركنتالية الشرقية: ١٤٨.
الماوية: ٤٥، ٤٧.
المتصرف/ المتصرفون: ٧١، ٢٥٢، ٢٩٢.
المجالس (في لبنان): ٣١٦.
مجلس شورى الدولة: ٢٥٤، ٢٥٦.
مجلس الصحبة: ١٢٣.
مجلس والاي: ٢٥٦.
مجلس الوزراء (الوكلاء): ٢٥٤.
المحاسبون: ٧١.
محمل الحج المصري: ٢٨٣.
المخازنية (جيش): ١٨٦.
المخزن (اراضي): ٣١١.
المركزيـــــة: ١٤، ١٤٨-١٥٠، ١٥٤-١٥٦، ١٦٠-١٦١، ١٦٣، ١٦٧، ١٨٥-١٨٧، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢٤٨،-٢٤٩، ٢٨٠-٢٨٨، ٣٠٧، ٣١٢.
المزاوقية (جيش): ١٨٦.
مشايخ الأزهر: ١٨٩.
المشروطية الثانية: ٢٥٥.
المعلمون (شيوخ/ الصنف): ٨٦.
المقاطعجية: ٨٢، ٢٠٣، ٣١٦.
الملّة (الملل) العثمانية: ٧٣، ٨٢.
الملتزمون: ٧١، ٣١٩.
المناطق العازلة: ٧٨.
منشور الامارة: ٢٤٩.
المنشور والخلعة: ٢٥٠.
المنهج الرؤيوي: ٢٦.
المنهج المقارن: ٣١.
مؤتمر باريس: ٢١١.
الميري (اراضي): ١٥، ٣١٩، ٣٢١.
الميليشيات القبلية: ٩٠.
(ن)
النازية: ٤٥.
نائب القلعة: ١٢٠.
نظام الامصار: ١٥١.
نظام الحج: ١٨٢، ٢٦٥.
نظام الشرق: ١٥٣.
النظام العباسي العربي: ٨٢.
نظام النيابات: ١٥٤.
نظامنامة مصر: ٢٢٠.
نقابات الاشراف (نقابـــة/ نقيـــب): ٨٥، ٢٢٨، ٢٤٦.
نقابة الانساب: ٢٣٠.
النيابات: ١٥٠.
نيابة مصر: ١٢٣.
النيشـــانجي: النيشانجيــــة: ١٠، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ١٥٠، ٢٤٦.
(هـ)
(و)
وثيقة البراءة : ٢٤٩.
الوحدة العربية : ٣٣٣.
ورق (سلطاني):٢٤٩.

الوزير الاعظم /الصدر الاعظم (الاوديـــن بـــاشي):٦٩.
وسام الافتخار:٢٥٦.
الوقف (ادارة) :٣٢٠.
الوقف العام :٣٢٠.
الوقفيات :٦٢.
الوكلاء :٣٢٣.
الولاة :٧١.

(ي)

اليايا (المشاة):٧٠.
يكيت باشي (المعلم الاكبر):٨٦.

المؤرخ العراقي
الدكتور سيّار الجميل

- ولد في اسرة علمية بالموصل / العراق ١٩٥٢.
- اكمل دراساته في الجامعات البريطانية ونال الدكتوراه في جامعة سانت اندروس الاسكتلندية ١٩٨٣.
- عمل والقى محاضراته في جامعات عدة منها : وهران بالجزائر / تونس الأولى / كيل في المانيا الغربية / الموصل بالعراق / اليرموك وآل البيت في الأردن.
- حاصل على جائزة شومان الدولية للعلوم الإنسانية منفرداً عام ١٩٩١م وعلى براءة تقدير عام ١٩٩٢... وحاصل على قلادة الابداع للعلماء المتميّزين العراقيين ١٩٩٥ ورشح احد اعماله مؤخراً لنيل جائزة دولية.
- له حضوره في المؤتمرات الدولية واسهاماته في تطوير البحث العلمي العربي، ومشاركاته في موسوعات علمية عالمية ... فضلاً عن كونه عضواً مشاركاً ومؤازراً في هيئات وجمعيات علمية عربية ودولية.
- اشرف على عدد كبير من اطروحات الماجستير والدكتوراه في التاريخ العثماني وتاريخ العرب الحديث والمعاصر .

من مؤلفات
الاستاذ الدكتور سيّار الجميل

* العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر، بيروت، ١٩٨٩.
* حصار الموصل : الصراع الاقليمي ... الموصل، ١٩٩١
* تكوين العرب الحديث، ط، عمّان، ١٩٩٧.
* الدليل التاريخي، بغداد، ١٩٩٣.
* التحولات العربية : اشكاليات الوعي وتحليل التناقضات وخطاب المستقبل، عمّان / بيروت، ١٩٩٧.
* النسر الاحمر : صلاح الدين الايوبي ...، عمّان / بيروت، ١٩٩٧.
* الانبعاث والتحديث : العرب والاتراك من العثمنة إلى العلمنة (قيد النشر في مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت).
* المجايلة التاريخية في تكوين الثقافة العربية - الإسلامية : نظرية وتطبيق في الاجيال / المجال / الآجال (قيد النشر في الاهلية عمان / بيروت).
* له عشرات الابحاث والدراسات المنشورة - في مجلات وحوليات محكمة بالعربية والإنجليزية فضلاً عن اعماله في مؤلفات مشتركة عدة.



Remains and Roots

Emergence of Modern Arabs

by

Sayyar K. Al - Jamil

Professor of Modern History
Mosul University,. Iraq
Al - al - Bayt University - Jordan

1997



بقايا وجذور
التكوين العربي الحديث

بقايا وجذور
التكوين العربي الحديث

كتاب يواصل مؤلفه به مشروعه المهم عن «تكوين العرب الحديث»، وهو يستجيب لنداءات العرب المعاصرين حول كتابة وفهم تاريخهم ومراحله، والوعي بخفاياها والادراك المتبادل لطواياها.. يتضمن مشروع المؤرخ سيّار الجميل: نظريته وافكاره في كتابه الأول (العثمانيون وتكوين العرب الحديث)؛ ثم منهجه وتطبيقاته في كتابه الثاني (تكوين العرب الحديث ١٥١٦ ـ ١٩١٦)... وها هو ذا كتابه الثالث (بقايا وجذور: التكوين العربي الحديث) يتدارس بقايا العثمانيين وجذور العروبيين في التاريخ الحديث. وسننتظر كتابه الرابع (تكوين العرب المعاصر ١٩١٧ ـ ١٩٦٧) كي يحلل لنا حياتنا العربية المعاصرة، ويحكي قصتنا في القرن العشرين... ولم يزل الكتاب طور الاعداد.

بقايا وجذور: كتاب يثير المزيد من الاشكاليات التاريخية، ويتحرى عن الجذور، ويتعمق في البنى والتراكيب، ويستكشف البقايا والقوى الاجتماعية الفاعلة. ويحلل الترسبات، ويقارن بين العوارض والشخوص والمعلومات... ويتوصل الى قدر كبير من الاستنتاجات المهمة.

بقايا وجذور: عملية رصد رؤيوية ذكية للماضي من اجل بناء المستقبل، كتبت بمنهجية مقتدرة، واسلوب رائع، وتفكير جديد.. وهذا كله ما يميز الاستاذ الدكتور سيّار الجميل في مؤلفاته التاريخية وكتاباته الفكرية.

الناشر

